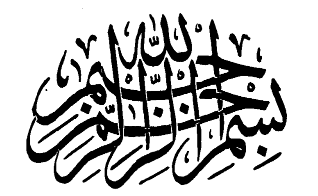


للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

أشرف على تحقيقه وقدم له
مصطفى بن العدوي

حققه وخرج أحاديثه
أبو عبد الرحمن محمد العلاوي

دار ابن رجب



صيد الخاطر

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : رقم الإيداع : ٥٢١٤ / ٢٠٠٣

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٣٨٣٠٣٥٦
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨



تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

وبعد

فقد قمت بمراجعة تحقيق أخي في الله محمد العلاوي لكتاب ((**صيد الخاطر**)) لأبي الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - فألفيت أحكامه على الأحاديث والآثار موفقة في غالب الأحوال فجزاه الله خيراً على عمله وإتقانه ، وأسأل الله أن يثيبه وأن يوفقه لطلب العلم ، هذا والله أسأل أن ينفع بالكتاب .

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوى

مقدمة المحقق

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

وبعد

فإن كتاب ((**صيد الخاطر**)) للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتاب بديع حيث قيد المصنف – رحمه الله – خواطر عديدة أتت إليه بديعة في تقيدها نفيسة في معانيها يحسن لكل امرئ أن يقرأها ، نظمها وعرضها عرضاً طيباً في ترتيبه حيث ذكر خواطر النفس نحو الدنيا والعلائق المرتبطة بها لكي يحدو بالنفس إلى طريق النجاة والعيش مع الأتقياء وملازمة طريقتهم من غير إفراط ولا تفريط ، ويقوم بتزكية القلوب وإحيائها والحث على العلم والبعد عن الجهل . كل ذلك في قالب محبب إلى النفس ، تهوى النفس إلى قراءته والاطلاع عليه فرحم الله ابن الجوزي وجزاه الله خيراً على ما قدم للإسلام والمسلمين .

هذا . وقد وقفت على ثلاث نسخ مطبوعة من صيد الخاطر الأولى : ط دار الحديث تحقيق د/ السيد محمد سيد و أ/ سيد إبراهيم ، والثانية : ط المكتبة التوفيقية تحقيق عماد ذكي البارودي ، والثالثة : ط دار الكتاب العربي تحقيق محمد عبد الرحمن عوض ، وقمت بتحقيق الأحاديث فما كان في الصحيحين أو أحدهما لم أتجاوزهما ، وما كان خارج الصحيحين بذلت جهدي في تحقيقه والحكم عليه . مع ذكر ترجمة موجزة للمصنف وذكر بعض المفردات الغريبة واعتمدت في هذا غالباً على نسخه التوفيقية واستفدت كثيراً من هذه النسخ في تحقيق النص وضبطه .

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

أبو عبد الرحمن / **محمد على العلاوي**

منية سمنود – دقهلية – مصر

ترجمة المؤلف

اسمه ولقبه وكنيته :

هو الإمام العلامة جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن علي ابن عبيد الله بن عبد الله حمادي بن أحمد بن جعفر الجوزي ، الذي ينتهي نسبه إلى الخليفة الراشد أبي بكر الصديق . والجوزي نسبة إلى محلة بالبصـــرة تسمى « محلة الجوز » وقيل غير ذلك . فإن الذهبي يذكر في التذكرة أنه عرف بالجوزي لجده حيث جوزة كانت في داره بواسط لم يكن بواسط جوزة سواها .

ولادته ونشأته :

ولد تقريباً سنة عشر وخمسمائة أو نحوها ، وتوفي أبوه ، وله من العمر ثلاث سنين ، فرعته أمه وعمته ، وكان أهله تجاراً بالنحاس ، وهذا ما يفسر ما يوجد في بعض سماعاته القديمة من لقب « ابن الجوزي الصفار » نسبة إلى النحاس .

وما إن شب وترعرع حتى حملته عمته إلى خاله الحافظ اللغوي أبي الفضل محمد بن ناصر البغدادي ، فاعتنى به وأسمعه الكثير ، ولا سيما مسند أحمد بن حنبل ، وجامع الترمذي ، وصحيحي البخاري ومسلم كما حفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والأدب ومُرن على الوعظ فحصل له من الحظوة على الوعظ ما لم يحصل لأحد قط ، فحضر مجالسه ملوك ووزراء وخلفاء من وراء الستر .

شيوخه :

سمع أبا القاسم بن الحصين ، وعلى بن عبد الواحد الدينوري ، وأبا عبد الله الحسين بن محمد البارع ، وأبا السعادات أحمد بن أحمد المتوكلي ، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذن ، والفقيه أبا الحسن بن الزغواني ، وهبة الله بن الطبر ، وأبا غالب بن البناء ، وأبا بكر محمد بن الحسين المزرفي ، وغيرهم حتى بلغ عدد أساتذته وشيوخه سبعة وثمانين نفساً .

صفاته ومناقبه :

كان الإمام واعظاً بارعاً وشاعراً كبيراً فلم يكن وعظه للعوام ، وإنما طال الولاة والحكام ، فألب عليه كثير من العصاة والحساد فأوشوا إلى الخليفة في أمره فختم على كتبه وداره ، وشتت عياله وأودع سجناً في دار بواسط وبقي بها

خمس سنين وكان وراء ذلك ابن القصاب الشيعي غير أنه أُطلق سراحه بعد ذلك ومات بعدها بعامين ، وما ظنك برجل كان دعائه : إلهي لا تعذب لساناً يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك ، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك ، ولا يداً تكتب حديث رسولك ﷺ ، فبعزتك لا تدخلني النار ، فقد علم أهلها أني كنت أذب عن دينك))أ.هـ

قال الموفق عبد اللطيف : كان ابن الجوزي لطيف الصورة ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات والنغمات ، لذيذ المفاكهة ، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون ، لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، وله في كل علم مشاركة ، ولكنه كان في التفسير من الأعيان ، وفي الحديث من الحفاظ ، وفي التاريخ من المتوسعين ، ولديه فقه كافٍ ، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية .

وله في الطب كتاب ((**اللقط**)) مجلدان وكان يراعي حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، ومما يفيد عقله قوة وذهنه حدة ، جل غذائه الفراريج والمزاوير ويعتاض عن الفاكهة بالأشربة والمعجونات ، ولباسه أفضل لباس ، الأبيض الناعم الطيب ، وله ذهن وقاد ، وجواب حاضر ، ومجون ومداعبات حلوة .

مصنفاته :

١- **في التفسير وتعلقاته والقراءات** : المغني في التفسير ، زاد المسير في علم التفسير ، تيسير البيان في تفسير القرآن ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، غريب الغريب ، نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر ، الإشارة إلى القراءة المختارة ، فنون الأفنان في عيون علوم القرآن ، عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ .

٢- **في أصول الدين** : منهاج الوصول إلى علم الأصول ، دفع شبه التشبيه ، منهاج أهل الإصابة ، السر المصون ، مسلك العقل ، الرد على المغتصب العنيد ، بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد .

٣- **في الحديث وتعلقاته** : جامع المسانيد بألخص الأسانيد ، الحـدائق ، المجتبي ، عيون الحكـايات ، إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحـين ،

الموضوعات من الأحاديث المرفوعات ، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، الضعفاء والمتروكين ، أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقـــدار المنسوخ من الحديث ، مناقب أصحاب الحديث .

٤- في الفقه وتعلقاته : الإنصاف في مسائل الخلاف ، جنة النظر وجنة النظر وهي التعليقة الوسطى ، عمدة الدلائل في مشتهر المسائل وهي التعليقة الصغرى ، معتصر المختصر في مسائل النظر ، المذهب في المذهب ، مسبوك الذهب ، العبادات الخمس .

٥- في التاريخ والتراجم : تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، شذور العقود في تاريخ العهود ، طرائف الظرائف في تاريخ السوالف ، مناقب بغداد ، الوفا بفضائل المصطفى ﷺ ، مناقب أبي بكر ، فضائل عمر بن الخطاب ، مناقب علي ، فضائل عمر بن عبد العزيز ، فضائل سعيد بن المسيب ، فضائل الحسن البصري ، مناقب الفضيل بن عياض ، مناقب بشر الحاضي ، مناقب إبراهيم بن أدهم ، مناقب سفيان الثوري ، مناقب الإمام الشافعي ، مناقب أحمد بن حنبل ، مناقب معروف الكرخي ، مناقب رابعة العدوية ، المختار من أخبار الأخيار .

٦- في الوعظ ، وفنون مختلفة : منهاج القاصدين ، ذم الهوى ، صيد الخاطر ، الأذكياء ، الحمقى ، تلبيس إبليس ، الثياب عند الممات ، العزلة ، الرياضة ، منهاج الإصابة في محبة الصحابة ، الظرفاء والمتحابين ، المعشوق في الوعظ ، الفصول الوعظية على حروف المعجم ، الوعظ المقبري ، قيام الليل ، المحادثة ، المناجاة ، المرتقى لمن اتقى ، زين القصص ، نسيم الرياض الأنس والمحبة .

وفاته :

توفي ابن الجوزي ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر رمضان بين العشاءين سنة ٥٩٧هـ بعد أن مرض خمسة أيام ، ودفن من الغد في باب حرب ، وحضر جنازته جم غفير ، وغلقت الأسواق ، وأفطر بعضهم من شدة الزحام والحر[١].

---

(١) انظر ترجمته في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٣١/١٣) . تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي (١٣٤٢/٤) . سير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١) وما بعدها . وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٠/٣) .

ما يؤخذ على ابن الجوزي في عقيدته :

قال ابن تيمية في درء التعارض (٢٧٠/١) وكان الأشعري أقرب إلى مذهب أحمد بن حنبل وأهل السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة كابن عقيل وصدقه بن الحسين وابن الجوزي وأمثالهم . وقال : (٢٦٣/٧) وفي هذا الباب . باب المضافات إلى الله تعالى ، ضلت طائفتان طائفة جعلت جميع المضافات إلى الله إضافة خلق وملك كإضافة البيت والناقة إليه وهذا قول نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم ، حتى ابن عقيل وابن الجوزي وأمثالهما إذا مالوا إلى قول المعتزلة سلكوا هذا المسلك ، وقالوا هذه أيات الإضافات لا آيات الصفات كما ذكر ذلك ابن عقيل في كتابه المسمى « نفي التشبيه وإثبات التنزيه وذكره أبو الفرج ابن الجوزي في منهاج الوصول » وغيره وهذا قول ابن حزم وأمثاله الذين وافقوا الجهمية على نفي الصفات وإن كانوا منتسبين إلى الحديث والسنة .

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن : وقد كان شيخنا المصنف - رحمه الله - لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم والذي لا غنى لهم عن معرفته ، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي كالمنعش ، والمرعش ، والتبصرة ، لما في ذلك من الأعراض عما هو أوجب وأنفع ، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده ، والمعصوم من عصمه الله [٢] فإن ابن الجوزي كان إماماً من أئمة الوعظ والتذكير ومع أنه منسوباً إلى الحنابلة إلا أنه كان أشعري المعتقد وقد عاتبه الأئمة على كلامه هذا في السنة وانكروا عليه . قال موفق الدين المقدسي رحمه الله : لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها ... وذكر كلاماً طويلاً . انظر سير أعلام النبلاء (٣٨٣/٢) وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٠٥/٤) والفتاوى (١٦٥/٤ - ١٧٠ ، ٤٠٠/٥) وما بعدها ، وانظر دفاع عن السلفية ص (٢٢٢) وما بعدها لأبي عبد الرحمن عمرو عبد المنعم .

---

(٢) فتح المجيد تحت باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات بتحقيقي .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي
رحمه الله تعالى ونفعنا به الحمد لله حمداً يبلغ رضاه وصلى الله على أشرف
من اجتباه وعلى من صاحبه ووالاه وسلم تسليماً لا يدرك منتهاه
لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها ثم تعرض عنها فتذهب
كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى وقد قال عليه الصلاة
والسلام قيدوا العلم بالكتاب وكم قد خطر لي شيء فأتشاغل عن إثباته
فيذهب فأتأسف عليه ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر
سنح له من عجائب الغيب ما لم يكن في حساب فأنثال عليه من كثيب
التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه فجعلت هذا الكتاب قيداً لصيد
الخاطر والله ولي النفع إنه قريب مجيب فصل قد يعرض عند
سماع المواعظ للسامع يقظة فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت
القساوة والغفلة فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ثم رأيت الناس
يتفاوتون في ذلك فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة
عند سماع الموعظة وبعدها لسببين أحدهما أن المواعظ كالسياط
والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها والثاني
أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة قد تخلى بجسمه
وفكره عن أسباب الدنيا وأنصت بحضور قلبه فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته
بآفاتها وكيف يصح أن يكون كما كان وهذه حالة تعم الخلق إلا أن أرباب
اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير
التفات فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه
نافق حنظلة ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً ويدعوهم
ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحياناً فهم كالسنبلة تميلها الرياح وأقوام
لا يؤثر فيهم إلا بقدر سماعه كماء دحرجته على صفوان ... جواذب
الطبع إلى الدنيا كثيرة ثم هي من داخل وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع

من خارج

الورقة الأولى من المخطوط

والى جانب كل راحة تعبا وآخر كل لذة نغصا يزيد عليها وما رفع شيء
من الدنيا الا وضع أحب الرسول صلى الله عليه وسلم عايشة رضي الله عنها
فجاء حديث الافك ومال الى زينب فجاء فلما قضى زيد منها وطرا ثم يكفي انه اذا
حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فينتغص عند وجوده كما قال الشاعر

اشد الحزن عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فيعلم العاقل ان مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا فيبقى اخذ البلغة
ضرورة وترك الشواغل فيجمع الهم في خدمة الحق ومن عدل عن ذلك ندم يوم
الفوات فصـــــل العاقل يدبر بعقله عيشه في الدنيا فان كان فقيرا
اجتهد في كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق وقلل العلائق واستعمل
القناعة فعاش سليما من منن الناس عزيزا بينهم وان كان غنيا فينبغي
له ان يدبر في نفقته خوف ان يفتقر فيحتاج الى الذل للخلق ومن البلية
ان يبذر في النفقة او يباهي بها ليكيد الاعداء كانه يتعرض بذلك ان كثر
لاصابته بالعين وينبغي التوسط في الاحوال وكتمان ما يصلح كتمانه
ولقد وجد بعض الغسالين مالا فاكثر النفقة فعلم به فاخذ منه المال وعاد
الى الفقر وانما التدبير حفظ المال والتوسط في الانفاق وكتمان ما لا يصلح
اظهاره ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال فانه ان كان قليلا هان
عندها الزوج وان كان كثيرا طلبت زيادة الكسوة والحلي قال الله تعالى ولا
تؤتوا السفهاء اموالكم وكذلك الولد وكذلك الاسرار ينبغي ان تحفظ منها من
الصديق فربما انقلب فقد قيل

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك الف مره
فلربما انقلب الصديـ ... ـق فكان ادرى بالمضره

وهذا اخر كتاب صيد الخاطر والحمد لله وحده وكان الفراغ من
تحرير هذه النسخة المباركة ظهرية نهار الثلاثا
ثاني عشر شهر رجب الفرد من شهور سنة
الف وثلاثمائة واثني عشر من
هجرة سيد البشر صلى الله
عليه وسلم وشرف
ومجد وعظم
وكرم امين

الورقة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الانتفاع بالمواعظ

قال الشيخ الإمام العالم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن عليٍ بن محمد بن الجوزي - رحمه الله تعالى عليه - ونفعنا به : الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وصلى الله على أشرف من اجتباه ، وعلى من صاحبه ووالاه ، وسلم تسليماً لا يدرك منتهاه : لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها ، ثم تعرض عنها فتذهب ! كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى . وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : ((**قيدوا العلم بالكتابة**))[1].

---

(١) **أسانيده ضعيفة** : رواه لوين محمد بن سليمان في جزئه (٥٤) ومن طريقه ابن شاهين في الناسخ والمنسوخ (٦٢٤) والخطيب في تاريخ (٤٦/١٠) وفي الجامع لأخلاق الراوه والسامع (٤٤٠) وتقيد العلم (ص٦٩-٧٠) والرامهرمزي في المحدث الفاضل (٣٢٧) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٣٩٥) ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤) ويوسف بن عبد الهادي في هداية الإنسان (ق٢/٣١) كما في الصحيحة (٢٠٢٦) وغيرهم . عن عبد الحميد بن سليمان عن عبد الله بن المثنى عن عمه ثمامة بن أنس عن أنس بن مالك فذكره مرفوعاً . وقال لوين : هذا لم يكن يرفعه أحد غير هذا الرجل . قلت يعني عبد الحميد بن سليمان وهو ضعيف . وقال ابن عبد الهادي تفرد برفعه عبد الحميد بن سليمان أخو فليح ، وقد ضعف والمحفوظ عن عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس من قوله . وقال ابن الجوزي : هذا حديث لا يصح . تفرد بروايته مرفوعاً عبد الحميد قال : يحيى بن معين وأبو داود : ليس بثقة وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . قال ووهم ابن المثنى في رفعه . قال والصواب عن ثمامة أن أنس كان يقول ذلك بنفسه ولا يرفعه ، قال الحاكم (١٠٦/١) وكذلك الرواية عن أنس بن مالك صحيح من قوله وقد ورد من وجه غير معتمد . وللحديث طريق آخر عن عبد الله بن عمر وكما عند الحاكم (١٠٦/١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٤١٣/٤١٢) والطبراني في الأوسط (٨٥٢) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٥، ٦٩، ٩٧) والخطيب في الجامع (٤٣٩) وابن عساكر (٢/٣٤٣/١٢) كما في الصحيحة (٢٠٢٦) وفي الأسانيد إليه ضعف في أحدهما عبد الله بن المؤمل وهو ضعيف ، وقد اختلف عليه في إسناده والثاني فيه إسماعيل بن يحيى وهو متروك والثالث فيه عمران بن موسى وهو مجهول ومكحول عن ابن عمرو ولم يسمع منه وضعف هذه الطرق ابن الجوزي في العلل المتناهية . وللحديث طريق ثالث عن ابن عباس . رواه ابن عدي في الكامل (٣٨٤/٢) من طريق حفص بن عمر بن أبي العطاف عن أبي الزناد عن الأعرج عن ابن عباس فذكره مرفوعاً . وحفص بن عمر منكر الحديث ، وكل هذه الطرق ضعيفة لا تخلو من مقال وقد صح عنه ﷺ الأمر بالكتابة في قوله : ((اكتبوا لأبي شاه)) وإذنه لعبد الله بن عمرو بن العاص بالكتابة .

وكم قد خطر لي شيء ، فأتشاغل عن إثباته فيذهب ، فأتأسف عليه . ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر ، سنح له من عجائب الغيب ، ما لم يكن في حساب فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه ، فجعلت هذا الكتاب قيداً – لصيد الخاطر – والله ولي النفع أنه قريب مجيب .

١ـ فصل : قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القساوة والغفلة . فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك ، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة من اليقظة عند سماع الموعظة بعدها لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسياط ، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها وإيلامها وقت وقوعها .

والثاني : أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة ، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا ، وأنصت بحضور قلبه ، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاقها ، وكيف يصح أن يكون كما كان .

وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر ، فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير التفات ، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه : نافق حنظلة [1] ، ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً ، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحياناً فهم كالسنبلة تميلها الرياح ، وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه ، كماء دحرجته على صفوان [2].

٢ـ فصل : جواذب الطبع [١/ب] إلى الدنيا كثيرة ، ثم هي من داخل ذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع ، ثم هي من خارج ، وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى ، لما يسمع من الوعيد في القرآن ، وليس كذلك لأن مثل الطبع في ميله إلى الدنيا ، كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط ، وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى الكلف ، ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب يقوى جند

---

(١) حديث نافق حنظلة رواه مسلم في صحيحه (٢٧٥٠) .

(٢) **الصفوان** : الحجر الأملس الخالي من الشوائب .

العقل ، فأما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب أن يَغْلِب ، إنما العجب أن يُغلب .

٣ـ فصل : من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها نال خيرها ونجا من شرها ، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحس ، فعاد عليه بالألم ، ما طلب منه السلامة ، وبالنصب ما رجا منه الراحة ، وبيان هذا في المستقبل ، يتبين بذكر الماضي وهو أنك لا تخلو أن تكون عصيت الله في عمرك أو أطعته ، فأين لذة معصيتك ؟ وأين تعب طاعتك ! هيهات رحل كل بما فيها ! فليت الذنوب إذا تخلت خلت !.

وأزيدك في هذا بياناً مثل ساعة الموت ، وانظر إلى مرارة الحسرات على التفريط ، ولا أقول كيف تغلب حلاوة اللذات ، لأن حلاوة اللذات استحالت حنظلاً ، فبقيت مرارة الأسى بلا مقاوم . أتُراك ما علمت أن الأمر بعواقبه . فراقب العواقب تسلم ، ولا تمل مع هوى الحس تندم .

٤ـ فصل : من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر ، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه ! وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، تغلبك نفسك على ما تظن ، ولا تغلبها على ما تستيقن . أعجب العجائب سرورك بغرورك ، وسهوك في لهوك ، عما قد خبيء لك . تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم ، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم ، لقد أراك مصرع غيرك مصرعك ، وأبدى مضجع سواك قبل الممات مضجعك ، وقد شغلك نيل لذاتك ، عن ذكر خراب ذاتك :

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ... ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم ... محاها مجال الريح بعدك والقـــبر

كم رأيت صاحب منْزل ما نزل لحده[1] ، حتى نزل ! وكم شاهدت والي قصر ، وليه عدوه لما عزل ! فيا من كل لحظة إلى هذا يسرى ، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري : [٢/أ]

---

(١) **اللحد** : القبر .

وكيف تنـــام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين[١] تنْزل ؟!

٥ـ فصل : من قارب الفتنة ، بعدت عنه السلامة ، ومن ادعى الصبر وكل إلى نفسه ، ورب نظرة لم تناظر ! وأحق الأشياء بالضبط والقهر اللسان والعين ، فإياك إياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى ، مع مقاربة الفتنة ؛ فإن الهوى مكايد ، وكم من شجاع في صف الحرب اغتيل ؛ فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه ! واذكر حمزة مع وحشي[٢] .

فتبصـــــر ولا تشم كـــل بـــرق رب برق فيه صـــواعق حـــين
واغضض الطرف تسترح من غرام تكتسى فيـــه ثوب ذلك وشين
فبـــلاء الفـــتى موافقـــة النفـــس وبدء الهـــوى طموح العـــين

٦ـ فصل : أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة ، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب ، ومن هذه حاله لا يفوز بطاعة .

وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين ، فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها ، ومعظمها من قبل طلبهم للرياسة ، فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه ، والواعظ متصنع بوعظه ، والمتزهد منافق أو مرائي . فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق ؛ شغلاً بالخلق ، ومن خفيٍّ عقوباتهم سلبُ حلاوة المناجاة ولذة التعبد ، إلا رجالاً مؤمنين ، ونساء مؤمنات ؛ يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم ؛ بل أجلى[٣] وسرائرهم كعلانيتهم ، بل أحلى ، وهممهم عند الثريا[٤] بل أعلى . إن عرفوا تنكروا ، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا .

فالناس في غفلاتهم ، وهم في قطع فلاتهم ، تحبهم بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك[٥] السماء ، نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم ، وأن يجعلنا من أتباعهم .

٧ـ فصل : من علامة كمال العقل علو الهمة ، والراضي بالدون دنى :

---

(١) **المحلين** : يقصد بها : الجنة والنار .
(٢) قصة حمزة مع وحشي أخرجها البخاري (٤٠٧٢) .
(٣) **أجلى** : أوضح .
(٤) **الثريا** : نجم معروف عند العرب بعلوه .
(٥) **أملاك** : جمع ملك ، وهم الملائكة .

و لم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

٨ ـ فصل : سبحان من سبقت محبته لأحبابه ، فمدحهم على ما وجب لهم : واشترى منهم ما أعطاهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم لموضع إيثارهم [٢/ب] ، فباهي بهم في صومهم ، وأحب خلوف أفواههم ، يا لها من حالة مصونة لا يقدر عليها كل طالب ! ولا يبلغ كنه وصفها كل خاطب !

٩ـ فصل : الواجب على العاقل أخذه العدة لرحيله ، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى ، وإني رأيت خلقاً كثيراً غرّهم الشباب ، ونسوا فقد الأقران[1] ، وألهاهم طول الأمل . وربما قال العالم المحض لنفسه : اشتغل بالعلم ثم أعمل به ، فيتساهل في الزلل بحجة الراحة ، ويؤخر الرجا لتحقيق التوبة ، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها ، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع ، وينسى أن الموت قد يبغت ، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه ، فإن بغته الموت رؤى مستعداً ، فإن نال الأمل ازداد خيراً .

١٠ـ فصل : خطرت لي فكرة ، فيما يجرى على كثير من العالم من المصائب الشديدة ، والبلايا العظيمة ، التي تتناهي إلى نهاية الصعوبة فقلت : سبحان الله ! إن الله أكرم الأكرمين ، والكرم يوجب المسامحة فما وجه هذه المعاقبة ؟ فتفكرت ، فرأيت كثيراً من الناس في وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوحدانية ، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه ، بل يجرون على عاداتهم كالبهائم ، فإن وافق المشروع مرادهم ، وإلا فمعولهم على أغراضهم ، وبعد حصول الدينار ، لا يبالون أمن حلال كان أم حرام ، وإن سهلت عليهم الصلاة فعلوها ، وإن لم تسهل تركوها . وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة مع نوع معرفة الناهي ، وربما قويت معرفة عالم منهم ، وتفاقمت ذنوبه ؛ فعلمت أن العقوبات – وإن عظمت – دون إجرامهم ، فإذا وقعت عقوبة لتمحص ذنباً ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأي ذنب ؟ وينسى ما قد كان ، مما تتزلزل الأرض لبعضه ، وقد يهان الشيخ في كبره ، حتى ترحمه القلوب ، ولا يدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه ، فمتى رأيت معاقباً ، فاعلم أنه لذنوب .

---

(١) **الأقران** : جمع قرين ، وهو الند .

تصفية الأحوال في تصفية الأعمال

١١ـ فصل : تأملت التحاسد بين العلماء ، فرأيت منشأة من حب الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون ، كما قال - عز وجل -: ﴿ **وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** ﴾ [الحشر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴾ [الحشر : ١٠][٣/أ] ، وقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه . وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعي : أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر(١) .

والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ، ينظرون في الرياسة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء ؛ وعلماء الآخرة ، بمعزل من إيثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه ، ويرحمون من بلى به ، وكان النخعي لا يستند إلى سارية ، وقال علقمة : أكره أن يوطأ عقبى ويقال علقمة(٢) ، وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام عنهم ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، ويحبون الخمول .

ومثل القوم كمثل راكب البحر ، وقد خب ، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة ، وإنما كان بعضهم يدعو لبعض ويستفيد منه ؛ لأنهم ركب تصاحبوا فتوادّوا ، فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة .

١٢ـ فصل : من أحب تصفية الأحوال ، فليجتهد من تصفية الأعمال . قال عز وجل : ﴿ **وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن : ١٦] . ر ب ي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « **لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد** »(٣)

---

(١) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٢٧/١١) .

(٢) أورد الأثر الذهبي في السير (٥٩/٤) .

(٣) **إسناده ضعيف** : رواه أحمد (٣٥٩/٢) والطيالسي في مسنده (٥٨٦) والحاكم في مستدركه (٢٥٦/٤) والبزار (٦٦٤ كشف) ، وعبد بن حميد (١٤٢٤) من طريق صدقه بن موسى السلمي حدثنا محمد بن واسع عن سمير بن نهار عن أبي هريرة به مرفوعاً وصدقه بن موسى ضعيف وسمير أو شقير ابن نهار جهله الدارقطني .

وقال ﷺ : « **البر لا يبلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام ، وكما تدين تدان** »[١]. وقال أبو سليمان الداراني : من صفّى صُفّي له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليله .

وكان شيخ يدور المجالس ، ويقول : من سره أن تدوم له العافية فليتق الله عز وجل . وكان الفضيل بن عياض يقول : إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي[٢] .

واعلم – وفقك الله – أنه لا يحس بضربه مبنج[٣] ، وإنما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ؛ ومتى رأيت تكديراً في حال ، فاذكر نعمة ما شُكرت ، أو زلة قد فُعلت ، واحذر من نفار النعم ، ومفاجأة النقم ، ولا تغتر بسعة بساط الحلم ، فربما عجل انقباضه . وقد قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] . وكان أبو علي الروذباري ، يقول : من الاغترار أن تسيء ، فيحسن إليك [٣/ب] ، فتترك التوبة ، توهماً أنك تسامح في الهفوات[٤] .

١٣ـ فصل : تفكرت يوماً في التكليف ، فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب ؛ فأما السهل فهو أعمال الجوارح ، إلا أن منه ما هو أصعب من بعض ؛ فالوضوء والصلاة أسهل من الصوم ، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة ؛ وأما الصعب فيتفاوت ، فبعضها أصعب من بعض ، فمن المستصعب النظر والاستدلال

---

(١) **إسناده ضعيف جداً** : رواه ابن عدي في الكامل (١٥٨/٦) والديلمي في مسنده (٢٠٢٤/٤٩/٢) من طريق محمد بن عبد الملك المدني عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ فذكره ومحمد بن عبد الملك المدني متروك . ويروى عن نافع الموضوعات ورواه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٩-١٧٨/١١) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة مرسلاً عن النبي ﷺ . ورواه البيهقي من طريقه في الأسماء والصفات (١٣٢) وفي الزهد الكبير (٧١٠) ورواية معمر عن البصرين فيها ضعف ، وأيوب بصري ورواه أحمد في الزهد ص ١٧٦ عن عبد الرزاق به عن معمر عن أيوب أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفاً . ورواه ص ١٦٨ عن وكيع وأبي معاوية قالا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة قال : قال أبو الدرداء

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠٩/٨) من طريق صالح الخزاز قال سمعت الفضل فذكره وصالح الخزاز صدوق كثير الخطأ .

(٣) **مبنج** : فاقد الحس .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٥٧/١٠) .

الموصلان إلى معرفة الخالق ، فهذا صعب عند من غلب عليه أمور الحس ، سهل عند أهل العقل ؛ ومن المستصعب غلبة الهوى ، وقهر النفوس ، وكف أكف الطباع عن التصرف فيما يؤثره ؛ وكل هذا يسهل على العاقل النظر في ثوابه ، ورجاء عاقبته ، وإن شق عاجلاً .

ولنا أصعب التكاليف وأعجبها ، إنه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل ، ثم تراه يفقر المتشاغل بالعلم المقبل على العبادة ، حتى يعضه الفقر بناجذيه[١]، فيذل الجاهل في طلب القوت ؛ ويغني الفاسق مع الجهل حتى تفيض الدنيا عليه ، ثم تراه ينشيء الأجسام ويحكمها ، ثم ينقض بناء الشباب في مبدأ أمره ، وعند استكمال بنائه ؛ فإذا به قد عاد هشيماً . ثم تراه يؤلم الأطفال ، حتى يرحمهم كل طبع ، ثم يقال له : إياك أن تشك في أنه أرحم الراحمين ، ثم يسمع بإرسال موسى إلى فرعون ، ويقال له : اعتقد أن الله تعالى أضل فرعون ، واعلم أنه ما كان لآدم بدّ من أكل الشجرة ، وقد وبخ بقوله : ﴿ **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ** ﴾ وفي مثل هذه الأشياء تحير خلق ، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب ، ولو فتشوا على سر هذه الأشياء ، لعلموا أن تسليم هذه الأشياء ، تكليف العقل ليذعن ، وهذا أصلٌ إذا فُهِمَ حصل السلامة والتسليم . نسأل الله - عز وجل - أن يكشف لنا من الغوامض التي حيرت من ضل . أنه قريب مجيب .

١٤ـ فصل : ينبغي للإنسان أن يعرف شرف وقته ، وقدر زمانه ، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة ، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمة ، من غير فتور بما يعجز عنه البدن [٤/أ] من العمل ، كما جاء في الحديث : ((**نية المؤمن خير من عمله**))[٢].

---

(١) **النواجذ** : الأضراس .

(٢) **ضعيف** : رواه البيهقي في الشعب (٦٨٥٩) والشهاب في مسنده (١٤٧) وأبو الشيخ في الأمثال (٥٢) من طريق يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ إشارة إلى حديث ((تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً)) رواه البخاري (٦٧٨٩) واللفظ له ، ومسلم (١٦٨٤) .
ورواه الطبراني في الكبير مطولاً (٥٩٤٢) ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٣/٢٥٥) من طريق حاتم بن عباد دينار الحرشي ثنا يحيى بن قيس الكندي ثنا أبو حازم عن سهل بن سعد به مرفوعاً . وحاتم بن عباد قال الهيثمي لم أر من ذكر له ترجمة . انظر المجمع (١/٦١ ، ١٠٩) ، ويحيى بن قيس الكندي له ترجمة =

وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات ؛ فنقل عن عامر بن عبد قيس : أن رجلاً قال له كلمني ، فقال له : أمسك الشمس .

وقال ابن ثابت البناني : ذهبت ألقن أبي ، فقال : يا بني دعني ، فإني في وردي السادس . ودخلوا على بعض السلف عند موته – وهو يصلى – فقيل له ؛ فقال : الآن تطوي صحيفتي .

فإذا علم الإنسان – وإن بالغ في الجد – بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته ، فإن كان له شيء من الدنيا ، وقف وقفاً ، وغرس غرساً ، وكرى نهراً ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له ، أو أن يصنف كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولدهُ المخلد ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالماً فيه ، فينتقل من فعله ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يمت .

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

١٥ـ فصل : رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره ، أن يخبط أرباب الأموال بالآمال ، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها ، فإذا أهلكهم بالمال تحريضاً على جمعه ، وحثاً على تحصيله ، أمرهم بحراسته بخلاً به ، فذلك من متين حيله ، وقوى مكره . ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية ، أن خوف من جمعه المؤمنين ، فنفر طالب الآخرة منه ، وبادر التائب يخرج ما في يده . ولا يزال الشيطان يحرضه على الزهد ، ويأمره بالترك ، ويخوفه من طرقات الكسب ؛ إظهاراً لنصحه وحفظ دينه .

وفي خفايا ذلك عجائب من مكره ، وربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدي بهم التائب ، فيقول له : اخرج من مالك وادخل في زمرة

= عند البخاري في التاريخ وعند ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً ، ورواه الخطيب (٩/٢٣٧) من طريق سليمان النخعي عن أبي حازم به وسليمان بن عمرو النخعي كذاب .

ورواه الشهاب في مسنده من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً وفي إسناده عثمان بن عبد الله الشامي ، وهو متهم وبقيه بن الوليد مدلس وقد عنعن ، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٨٨ ، ٥٩٨٩) والضعيفة (٢٧٨٩) .

الزهاد ، ومتى كان لك غداء أو عشاء فلست من أهل الزهد ، ولا تنال مراتب العزم ، وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة ، والواردة على سبب ولمعنى ، فإذا أخرج ما في يده ، وتعطل عن مكاسبه ، عاد يعلق طمعه بصلة الإخوان . أو يحسن عنده صحبة السلطان ، لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أياماً . ثم يعود الطبع فيقاضي مطلوباته ، فيقع في أقبح ما فرمنه ، ويبذل أول السلع [٤/ب] في التحصيل دينه وعرضه ، ويصير متمندلاً به ، ويقف في مقام اليد السلفى .

ولو أنه نظر في سير الرجال ونبلائهم وتأمل الأحاديث الصحيحة عن رؤسائهم ، لعلم أن الخليل ﷺ كان كثير المال ، حتى ضاقت بلدته بمواشيه ، وكذلك لوط ﷺ ، وكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والجم الغفير من الصحابة . وإنما صبروا عند العدم ، ولم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم ، ولا من تناول المباح عند الوجود .

وكان أبو بكر ﷺ يخرج للتجارة والرسول ﷺ حي ، وكان أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال ، ويسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان ، وقد كان ابن عمر لا يرد شيئاً ولا يسأل .

وإني تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال ، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم ، فلما احتاجوا إلى نفوسهم ذلوا ، وهم أحق بالعز ، وقد كانوا قديماً يكفيهم من بيت المال فضلات الإخوان ، فلما عدمت في هذا الأوان ، لم يقدر متدين على شيء إلا ببذل شيء من دينه ، وليته قدر ، فربما تلف الدين ولم يحصل له شيء .

فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه ، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم ، أو مداهنة جاهل ، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة ، الذين يدعون في الفقر ما يدعون .

فما الفقر إلا مرض العجزة ، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض . اللهم إلا أن يكون جباناً عن التصرف ، مقتنعاً بالكفاف ، فليس ذلك من مراتب الأبطال ، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد ، وأما المكاسب ليكون المعطي لا المعطى ، والمتصدق لا المتصدق عليه ، فهي مراتب الشجعان الفضلاء ،

ومن تأمل هذا علم شرف الغني ومخاطرة الفقر .

١٦ـ فصل : تأملت أحوال الفضلاء ، فوجدتهم في الأغلب قد بخسوا من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيا – غالباً – في أيدي أهل النقائص ، فنظرت في الفضلاء ، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولو النقص ، وربما تقطع بعضهم أسفاً على ذلك ؛ فخاطبت بعض المتأسفين فقلت له : ويحك تدبر أمرك ، فأنت غالط من وجوه :

أحدهما : أنه إن كانت لك همة في طلب الدنيا ، فاجتهد في طلبها تربح التأسف [٥/أ] على فوتها ، فإن قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك ، مع قصور اجتهادك غاية العجز .

والثاني : إن الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتعمر ، وهذا هو الذي يدلك عليه عملك ، ويبلغه فهمك ، وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم ، فإذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقد ما فقد أصلح لك ، كان تأسفك عقوبة لتأسفك على ما تعلم المصلحة في بعده ، فاقنع بذلك عذاباً عاجلاً إن سلمت من العذاب الآجل .

الثالث : إنك قد علمت بخس حظ الآدمي في الجملة ، من مطاعم الدنيا ولذاتها بالإضافة إلى الحيوان البهيم ، لأنه لا ينال ذلك أكثر مقداراً مع أمن ، وأنت تناله مع خوف وقلة مقدار . فإذا ضوعف حظك من ذلك لجنسك ، كان لاحقاً بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل فضائل ، وتخفيف المؤمن يحث صاحبه على نيل مراتب ، فإذا آثرت مع قلة الفضول الفضول ، وعدت على ما علمت بالأرزاء[1] فشتت علمك ، ودللت على اختلاط رأيك .

١٧ـ فصل : تأملت إقدام العلماء بالعقاب على شهوات النفس المنهي عنها ، فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر لولا تلوح معنى : وهو أن الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون : فمنهم جاهل بالمحظور أنه محظور ، فهذا نوع عذر ، ومنهم من يظن المحظور مكروها لا محرماً ، فهذا قريب من الأول ، وربما دخل في هذا

---

(١) الأرزاء : جمع رزء ، وهو النقص والمصيبة .

القسم آدم ﷺ ، ومنهم من يتأول فيغلط ، كما يقال أن آدم – عليه الصلاة والسلام – نهى عن شجرة بعينها ، فأكل من جنسها لا من عينها ، ومنهم من يعلم التحريم ، غير أن غلبات الشهوات أنسته تذكر ذاك ، فشغله ما رأى عما يعلم ، ولهذا لا يذكر السارق القطع ، بل يغيب بكليته في نيل الحظ ، ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد ؛ لأن ما يرى يذهله عما يعلم . ومنهم من يعلم الخطر ويذكره ، غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعاقل ، كيف وقد علم أن هذا الملك الحكيم قطع اليد في ربع دينار[1] ، وهدم بناء الجسم المحكم بالرجم بالحجارة لالتذاذ ساعة ، وخسف ، ومسخ ، وأغرق .

١٨ـ فصل : من تأمل أفعال الباري سبحانه ، رآها على قانون العدل ، وشاهد الجزاء مراصد للمجازاة ، ولو بعد حين . فلا ينبغي أن يغتر مسامح ، فالجزاء قد يتأخر .

ومن أقبح الذنوب التي قد أعد لها [٥/ب] الجزاء العظيم الإصرار على الذنب ، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد ، وعنده أن المصانعة تنفع ، وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يكرهه الله ، وطلب منه ما يحبه هو ، كما روى في الحديث : « **العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** »[2] .

ومما ينبغي للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء ، فإن ابن سرين قال : عيرت رجلاً فقلت : يا مفلس ، فأفلست بعد أربعين سنة .

وقال ابن الجلاد : رآني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمرد ، فقال : ما هذا ؟ لتجدن غبها ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

---

(١) إشارة إلى حديث « تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً » رواه البخاري (٦٧٨٩) واللفظ له ، مسلم (١٦٨٤).

(٢) **ضعيف واه** : رواه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤) والحاكم (٥٧/١ ، ٢٥١/٤) والقضاعي (١٨٥) والطيالسي (٢/٨ط هجر) والبيهقي في السنن (٣٦٩/٣) وفي الشعب (١٠٥٤٦) والبغوي في شرح السنة (٤١١٦ ، ٤١١٧) وغيرهم من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن حمزة بن حبيب عن شداد بن أوس مرفوعاً وأبو بكر بن أبي مريم ضعيف واه .
ورواه الطبراني في الكبير (٧١٤١) وفي الصغير (٣٦/٢) من طريق آخر وفي إسناده عمرو بن بكر السكسكي متروك .

وبالضد من هذا كل من عمل خيراً أو صحح نية ، فلينتظر جزاءها الحسن ، وإن امتدت المدة . قال الله عز وجل : ﴿ **إنه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٠]وقال ﷺ: ((**من غض بصره عن محاسن امرأة أثابه الله إيماناً ، يجد حلاوته في قلبه**))[1] وليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يحابي .

أحوال المتصوفة والزهاد

١٩ـ فصل : تأملت أحوال الصوفية والزهاد ، فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة ، بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأي ، يستدلون بالآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديث لها أسباب ، وجمهورها لا يثبت . فمن ذلك ، أنهم سمعوا في القرآن العزيز : ﴿ ... **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ﴿ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ [محمد : ٣٦] ثم سمعوا في الحديث : ((**للدنيا أهون على الله من شاة ميتة على أهلها**))[2] ، فبالغوا في هجرها من غير بحث عن حقيقتها ، وذلك أنه ما لم يعرف حقيقة الشيء فلا يجوز أن يمدح ولا أن يذم .

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرض البسيطة التي جعلت قراراً للخلق ، يخرج منها أقواتهم ، ويدفن فيها أمواتهم ، ومثل هذا لا يذم لموضع المصلحة فيه . ورأينا ما عليها من ماء وزرع وحيوان كله لمصالح الآدمي ، وفيه حفظ لسبب بقائه ، ورأينا بقاء الآدمي سبباً لمعرفة ربه ، وطاعته إياه وخدمته ، وما كان سبباً لبقاء العارف العابد يمدح ولا يذم ، فبان لنا أن الذم إنما هو لأفعال الجاهل ،

---

(١) **ضعيف جداً** : رواه أحمد (٥/٢٦٤) والبيهقي في الشعب (٥٢٣١) والطبراني في الكبير (٧٨٤٢) من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة فذكره مرفوعاً وعلى بي يزيد الألهاني ضعيف جداً ، ورواية يزيد عن القاسم عن أبي أمامة تكلم فيه ابن حبان بكلام شديد .

(٢) **صحيح لغيره** : رواه أحمد (١/٣٢٩) وأبو يعلى (٢٥٩٣) والبزار (٣٦٩ كشف) وأبو نعيم في الحلية (٢/١٨٩) من طريق محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس مرفوعاً ومحمد بن مصعب مختلف في توثيقه وتضعيفه لكن للحديث شواهد منها حديث جابر عند مسلم (٢٩٥٧) وحديث سهل بن سعد وأبي الدرداء وأنس وأبي هريرة والمسور بن شداد وعبد الله بن ربيعه انظر أحمد (٢/٣٣٨ ، ٤/٢٤٩ ، ٢٣٦) وابن ماجه (٤١١٠) والبزار (٣٦٩٠) .

أو العاصي في الدنيا ، فإنه إذا اقتنى المال المباح ، وأدى زكاته لم يلم ، فقد علم ما خلف الزبير وابن عوف وغيرهما ، وبلغت صدقة علي ﷺ أربعين ألفاً ، وخلف ابن مسعود تسعين ألفاً ، وكان الليث بن سعد يستغل كل سنة عشرين ألفاً ، وكان سفيان يتجر بمال ، وكان [٦/أ] ابن مهدي يستغل كل سنة ألفي دينار .

وإن أكثر من النكاح والسراري كان ممدوحاً لا ملوماً ، فقد كان للنبي ﷺ زوجات ، وسراري . وجمهور الصحابة ، كانوا على الإكثار من ذلك . وكان لعلي بن أبي طالب ﷺ أربع حرائر ، وسبع عشرة أمه ، وتزوج ولده الحسن نحواً من أربعمائة . فإن طلب التزوج للأولاد ، فهو الغاية في التعبد ، وإن أراد التلذذ فمباح ، يندرج فيه من التعبد ما لا يحصى ، من إعفاف نفسه والمرأة ، إلى غير ذلك .

وقد أنفق موسى – عليه السلام – من عمره الشريف عشر سنين في مهر بنت شعيب ، فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء ، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه ، وقد قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : خيار هذه الأمة أكثرها نساء[1] ، وكان يطأ جارية له وينْزل في أخرى . وقالت سرية الربيع بن خثيم : كان الربيع يعزل . وأما المطعم فالمراد منه تقوية البدن لخدمة الله عز وجل ، وحق على ذي الناقة أن يكرمها لتحمله ، وقد كان النبي ﷺ يأكل ما وجد ، فإن وجد اللحم أكله ، ويأكل لحم الدجاج ، وأحب الأشياء إليه الحلوى والعسل[2] ، وما نقل عنه أنه امتنع من مباح

وجيء علي ﷺ بفالوذج[3] فأكل منه ، وقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم النوروز ، فقال : نوروزنا كل يوم[4] ، وإنما يكره الأكل فوق الشبع ، واللبس على وجه الاختيال والبطر . وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك ، لأن الحلال الصافي لا يكاد يمكن فيه تحصيل المراد ، وإلا فقد لبس النبي ﷺ حلة اشتريت له بسبع وعشرين

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٥٠٦٩) بلفظ « **فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء** » .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٥٢٦٨) ، ومسلم (طرف حديث ١٤٧٤) من حديث عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يحب العسل والحلوى .

(٣) **الفالوذج** : نوع من الحلوى

(٤) عزاه صاحب الكنْز (١٨٠/١٤) إلى ابن الأنباري في المصاحف ورواه عن ابن سيرين به .

بعيراً [١].

وكان لتميم الداري حلة اشتريت بألف درهم يصلي فيها بالليل[٢].

فجاء أقوام ، فأظهروا التزهد ، وابتعوا طريقة زينها لهم الهوى ، ثم تطلبوا لها الدليل ، وإنما ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل ، لا أن يتبع طريقاً ويتطلب دليلها ، ثم انقسموا ، فمنهم متصنع في الظاهر ، ليث الشرى في الباطن ، يتناول في خلواته الشهوات ، وينعكف على اللذات ، ويرى الناس بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القميص ، وإذ نظر إلى أحواله فعنده كبر فرعون .

ومنهم سليم الباطن ، إلا أنه بالشرع جاهل .

ومنهم من تصدر وصنف فاقتدى به الجاهلون في هذه الطريقة ، وكانوا كعمي اتبعوا أعمى ، ولو أنهم [٦/ب] تلمحوا الأمر الأول ، الذي كان عليه الرسول ﷺ والصحابة ﷺ لما زلوا .

ولقد كان جماعة من المحققين لا يبالون بمعظّم في النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يوسعونه لوماً .

فنقل عن أحمد أنه قال له المروزي : ما تقول في النكاح ؟ فقال : سنة النبي ﷺ فقال : فقد قال إبراهيم . قال : فصاح بي وقال : جئتنا ببنيات الطريق ! وقيل له : إن سرياً السقطى قال : لما خلق الله تعالى الحروف وقف الألف وسجدت الباء ، فقال : نفروا الناس عنه .

واعلم أن المحقق **لا يهوله اسم معظم** ، كما قال رجل لعلي بن أبي طالب ﷺ : أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على الباطل ؟ فقال له : إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله .

ولعمري أنه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام ، فإذا نقل عنهم شيء فسمعه جاهل بالشرع قبله لتعظيمهم في نفسه .

---

(١) **لم أقف عليه** .

(٢) **رجاله ثقات** : رواه الطبراني (١٢٤٨) من طريق محمد بن سيرين عن تميم الداري . قال الهيثمي في المجمع (٥/١٣٥) رجاله رجال الصحيح .أ.هـ

كما ينقل عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال : تراعنت على نفسي فحلفت لا أشرب الماء سنة ، وهذا إذا صح عنه ، كان خطأ قبيحاً ، وزلة فاحشة ، لأن الماء ينفذ الأغذية إلى البدن ، ولا يقوم مقامه شيء ، فإذا لم يشرب فقد سعى في أذى بدنه ، وقد كان يستعذب الماء لرسول الله ﷺ ، أفترى هذا فعل من يعلم أن نفسه ليست له ، وأنه لا يجوز التصرف فيها إلا عن إذن مالكها ، وكذا ينقلون عن بعض الصوفية ، أنه قال : سرت إلى مكة على طريق التوكل حافياً ، فكانت الشوكة تدخل في رجلي فأحكها بالأرض ولا أرفعها ، وكان عليَّ مسح ، فكانت عيني إذا آلمتني أدلكها بالمسح : فذهبت إحدى عينيَّ .

وأمثال هذا كثير وربما حملها القصاص على الكرامات ، وعظموها عند العوام ، فتخايل لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعي ، وأحمد .

ولعمري أن هذا من أعظم الذنوب ، وأقبح العيوب ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٩] وقال النبي ﷺ : « **إن لنفسك عليك حقاً** »[1] ، وقد طلب أبو بكر رضي الله عنه في طريق الهجرة للنبي ﷺ ظلاً حتى رأى صخرة ففرش له في ظلها .

وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط ، وكان سببه عن وجهين **أحدهما** : الجهل بالعلم ، **والثاني** : قرب العهد بالرهبانية . [٧ / أ]

وقد كان الحسن يعيب فرقداً السبخي ، ومالك بن دينار في زهدهما ، فرئي عنده طعام فيه لحم ، فقال : لا رغيفي مالك ، ولا صحني فرقد . ورأى على فرقد كساء ، فقال : يا فرقد إن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية . وكم قد زوق قاص مجلسه بذكر أقوام ، قد خرجوا إلى السياحة بلا زاد ولا ماء ، وهو لا يعلم أن هذا من أقبح الأفعال ! وأن الله تعالى لا يجرب عليه ، فربما سمعه جاهل من التائبين ، فخرج فمات في الطريق ، فصار للقائل نصيب من إثمه .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٩٧٥) ، ومسلم (١١٥٩) ، من حديث عبد الله بن عمرو ، رواه أبو داود (١٣٦٩) ، وأحمد (٦/٢٦٨) وغيرهما من طريق محمد بن إسحاق قال : حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به مرفوعاً ، وصح عند البخاري (١٩٦٨) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء وذكر الحديث فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً .. الحديث وفيه فقال النبي ﷺ « صدق سلمان » .

وكم يروون عن ذي النون : أنه لقي امرأة في السياحة فكلمها وكلمته ، وينسون الأحاديث الصحاح : لا يحل لامرأة أن تسافر يوماً وليلة إلا بمحرم[1] ! وكم ينقلون : أن أقواماً مشوا على الماء ، وقد قال إبراهيم الحربي . لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط ! فإذا سمعوا هذا قالوا : أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين ؟ فنقول : لسنا من المنكرين لها ، بل نتبع ما صح ؛ والصالحون هم الذين يتبعون الشرع ، ولا يتعبدون بآرائهم ، وفي الحديث : أن بني إسرائيل شددوا ، فشدد الله عليهم[2] .

وكم يحثون على الفقر حتى حملوا خلقاً على إخراج أموالهم ، ثم آل بهم الأمر إما إلى التسخط عند الحاجة ، وإما إلى التعرض بسؤال الناس .

وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل ! وقد قال النبي ﷺ : ((**ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس**))[3] ، فما قنعوا حتى أمروا بالمبالغة في التقلل ، فحكى أبو طالب المكي في قوت القلوب : أن فيهم من كان يزن قوته بكرمة رطبة ، ففي كل ليلة يذهب من رطوبتها قليل ، وكنت أنا ممن اقتدى بقوله في الصبا ، فضاق المعي ، وأوجب ذلك مرض سنين ؛ أفترى هذا شيء تقتضيه

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٠٨٨) ، ومسلم (١٣٣٩) ، من حديث أبي هريرة .

(٢) **أسانيده ضعيفة** : رواه مختصراً ابن أبي حاتم في التفسير (٧٢٢) وابن مردويه كما في كشف الخفا (٩/٢) وفي إسناد ابن أبي حاتم عباد بن منصور والحسن وكلاهما مدلس وقد عنعنا . وروى مرسلاً من طريق ابن جريج عن النبي ﷺ وقتادة عن النبي ﷺ كما عند الطبراني (١٢٤٦ ، ١٢٤٨) وجابر موقوفاً عن ابن عباس وعبيدة السلماني كما عند الطبري (١٢٣٩ ، ١٢٤٢) وانظر تفسير ابن كثير (١١٠/١) .

(٣) **رجاله ثقات** : رواه الترمذي (٢٣٨٠) والنسائي في الكبرى (٦٧٦٩) والبغوى (٤٠٤٨) وأحمد (١٣٢/٤) وغيرهم من طريق يحيى بن جابر عن المقدام بن معد كرب به مرفوعاً . ووقع تصريح يحيى ابن جابر عن المقدام عند أحمد . وقد تكلموا في سماع يحيى بن جابر عن المقدام قال ابن أبي حاتم روى عن المقدام معدى بكرب مرسل كما في الجرح والتعديل (١٣٣/٩) وتبعه على ذلك المزي في تهذيب الكمال وللحافظ في تهذيب التهذيب فإن صح السماع فالحديث متصل وإلا منقطع . ورواه ابن حبان (٥٢٣٦) . والنسائي في الكبرى (٦٧٦٨) من طريق صالح بن يحيى عن أبيه عن جده المقدام به وصالح وأبوه كلاهما مجهول وليس عند النسائي (عن أبيه) ، ورواه ابن ماجة (٣٣٤٩) عن طريق محمد بن حرب قال : حدثتني أمي عن أمها أنها سمعت المقدام ، وأم محمد وأمها لا تعرفان ، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (١٩٨٣) ، وانظر تحقيق مسند أحمد للشيخ شعيب الأرنؤوط رقم (١٧١٨٦).

الحكمة ، أو ندب إليه الشرع ؟ وإنما مطية الآدمي قواه ، فإذا سعي في تقليلها ضعف عن العبادة .

فإنا لو دخلنا ديار الروم ، فوجدنا أثمان الخمور وأجرة الفجور ، كان لنا حلالاً بوصف الغنيمة . أفتريد حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مذ خرجت من المعدن على وجه لا يجوز ! فهذا شيء لم ينظر فيه رسول الله ﷺ أو ليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرام ؟ فلما تصدق على بريرة بلحم فأهدته[(1)] ، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف .

وقد قال أحمد بن حنبل : [٧ / ب] أكره التقلل من الطعام ، فإن أقواماً فعلوه فعجزوا عن الفرائض ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفائهم ، وعن بذل القومي في الكسب لهم ، وهذا صحيح ؛ فإن المتقلل لا يزال يتقلل إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض ، وعن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث التي تحث على الجوع ، فإن المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما النهي عن مقاومة الشبع ، فأما تنقيص المطعم على الدوام ، فمؤثر في القوى ، فلا يجوز .

ثم في هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم ، والنبي ﷺ كان يودَ أن يأكله كل يوم ، واسمع مني بلا محاباة ، لا تحتجنَّ عليّ بأسماء الرجال ، فتقول قد قال بشر ، وقال إبراهيم بن أدهم ، فإن من احتج بالرسول ﷺ ، وأصحابه رضوان الله عليهم أقوى حجة ، على أن أفعال أولئك وجوه نحملها عليهم بحسب الظن .

وقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروي عن جماعة من السادات ، أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ما وجه هذا ؟ فقال : أحسن ما نقول أن نسكت ، يشير إلى أن هذا جهل من فاعله ، وتأولت أنا لهم ؛ فقلت : لعل ما دفنوا من كتبهم فيها شيء من الرأي ، فما رأوا أن يعمل الناس به .

ولقد روينا في الحديث عن أحمد بن أبي الحواري : أنه أخذ كتبه فرماها في البحر وقال : نعم الدليل كنت ، ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول[(2)] .

---

(١) يشير إلى حديث أنس قال : أهدت بريرة إلى النبي ﷺ لحماً تصدق به عليها فقال : هو صدقة ولنا هدية رواه البخاري (١٤٩٥) ، ومسلم (١٠٧٤) .

(٢) ذكر كلامه القاضي ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/٧٨) وانظر سير أعلام النبلاء (١٢/٨٨) .

وهذا إذا أحسنا به الظن قلنا : كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه ، و إذا كانت علوماً صحيحة ، كان هذا من أفحش الإضاعة ، وأنا وإن تأولت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم ، لأنا قد روينا عن سفيان الثوري : أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم ، وقال : حملني سهوة الحديث - وهذه لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين - فكأنه لما عسر عليه التمييز ، أوصى بدفن الكل .

وكذلك من كان له رأي من كلامه ثم رجع عنه ، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك ، فهذا وجه التأويل للعلماء . فأما المتزهدون ، الذين رأوا صورة فعل العلماء ، ودفنوا كتباً صالحة لئلا تشغلهم عن التعبد [٨ / أ] ، فإنه جهل منهم ، لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم ، مع الإقدام على تضييع مال لا يحل .

ومن جملة من عمل بواقعة دفن كتب العلم، يوسف بن أسباط ثم لم يصبر عن التحديث فخلط فعد في الضعفاء[1] أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك ، قال : أخبرنا محمد بن المظفر الشامي قال : أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي ، قال : حدثنا يوسف بن أحمد ، قال : حدثنا محمد بن عمرو العقيلي ، قال : حدثنا محمد بن عيسى ، قال : أخبرنا أحمد بن خالد الخلال ، قال : سمعت شعيب بن حرب يقول : قلت : ليوسف بن أسباط : كيف صنعت بكتبك ؟ قال : جئت إلى الجزيرة ، فلما نضب الماء دفنتها حتى جاء الماء عليها ، فذهبت . قلت : ما حملك على ذلك ؟ قال : أردت أن يكون الهم همًّا واحداً . قال العقلي : وحدثني آدم ، قال : سمعت البخاري قال : قال صدقة : دفن يوسف بن أسباط كتبه ، وكان بعد يغلب عليه ، فلا يجيء كما ينبغي ، وقال المؤلف قلت : الظاهر أن هذه كتب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوجبت هذا التفريط ، الذي قصد به الخير ، وهو شر . فلو كانت كتبه من جنس كتب الثوري ، فإن فيها عن ضعفاء ، ولم يصح له التمييز قرب الحال . إنما تعليله بجمع الهم ، هو الدليل على أنها ليست كذلك ، فانظر إلى قلة العلم ، ماذا تؤثر مع أهل الخير .

(١) انظر ترجمته في الميزان (٩٨٥٦) وقد قال البخاري كان قد دفن كتبه .

ولقد بلغنا في الحديث عن بعض من نعظمه ونزوره ، أنه كان على شاطيء دجله ، فبال ثم تيمم ، فقيل له الماء قريب منك ، فقال : خفت أن لا أبلغه ، وهذا وإن كان يدل على قصر الأمل ، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا مثل هذا الحديث تلاعبوا به ، من جهة أن التيمم إنما يصح عند عدم الماء ، فإذا كان الماء موجوداً كان تحريك اليدين بالتيمم عبثاً ، وليس من ضرورة وجود الماء أن يكون إلى جانب المحدث ، بل لو كان على أذرع كثيرة كان موجوداً ، فلا فعل للتيمم ، ولا أثر حينئذ .

ومن تأمل هذه الأشياء ، علم أن فقيهاً واحداً – وإن قل أتباعه ، وخَفَت إذا مات أشياعه – أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تبركاً ، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى ؛ وهل الناس إلا صاحب أثر نتبعه ، أو فقيه يفهم مراد الشرع ويفتي به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الأسلاف [٨ / ب] تقليداً لهم بغير دليل ! فإن من ورد المشرب الأول رأى سائر المشارب كدرة ، والمحنة العظمى مدائح العوام ، فكم غرت ؛ كما قال علي ﷺ : ما أبقى خفق النعال وراء الحمقى من عقولهم شيئاً .

ولقد رأينا وسمعنا من العوام ، أنهم يمدحون الشخص ؛ فيقولون : لا ينام الليل ، ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زوجة ، ولا يذوق من شهوات الدنيا شيئاً وقد نحل جسمه ، ودق عظمه ، حتى أنه يصلي قاعداً ، فهو خير من العلماء الذين يأكلون ويتمتعون ذلك مبلغهم من العلم ، ولو علموا أن الدنيا كلها لو اجتمعت في لقمة فتناولها عالم يفتي عن الله ، ويخبر بشريعته ، كانت فتوى واحدة منه يرشد بها إلى الله تعالى خيراً وأفضل من عبادة ذلك العابد باقي عمره . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد(١).

ومن سمع هذا الكلام فلا يظن أنني أمدح من لا يعمل بعلمه ، وإنما أمدح العاملين بالعلم ، وهم أعلم بمصالح أنفسهم ، فقد كان فيهم من يصلح على

---

(١) **ضعيف واه** : رواه الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) من طريق روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس فذكره مرفوعاً وروح بن جناح ضعيف متهم وقال الشيخ الألباني – رحمه الله – في ضعيف الجامع (٣٩٩١) : موضوع .

خشن العيش كأحمد بن حنبل ، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش ، كسفيان الثوري مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعي مع قوة فقهه ، ولا ينبغي أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو عنه ، فإن الإنسان أعرف بصلاح نفسه .

وقد قالت رابعة: إن كان صلاح قلبك في الفالوذج فكله ، ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور الزهد ؛ فرب متنعم لا يريد التنعم ، وإنما قصد المصلحة ، وليس كل بدن يقوى على الخشونة خصوصاً من قد لاقى الكد وأجهده الفكر ، أو مضه الفقر ، فإنه إن لم يرفق بنفسه ترك واجباً عليه من الرفق .

فهذه جملة لو شرحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت ، غير أني سطرتها على عجل حين جالت في خاطري ، والله ولي النفع برحمته .

أحوال النفس .. وحقيقة العبودية

٢٠ ـ فصل: قد أشكل على الناس أمر النفس وماهيتها ، مع إجماعهم على وجودها ، ولا يضر الجهل بذاتها مع إثباتها ، ثم أشكل عليهم مصيرها بعد الموت ، ومذهب أهل الحق أن لها وجوداً بعد موتها ، وأنها تنعم وتعذب ، قال أحمد بن حنبل : أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكفار في النار .

وقد جاء في أحاديث الشهداء : إنها في حواصل طير خضر تعلق(١) من شجر الجنة(٢) [٩ / أ]، وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم ، فقالوا : إن الموتى يأكلون في القبور ، وينكحون . والصواب من ذلك ، أن النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب ، وإنها تجد ذلك إلى يوم القيامة ، فإذا كانت القيامة أعيدت إلى الجسد ليتكامل لها التنعم بالوسائط .

---

(١) **تعلق** : تأكل .

(٢) **صحيح** : رواه مسلم (١٨٨٧) في صحيحه عن مسروق قال سألنا عبد الله وهو (عبد الله بن مسعود) عن هذه الآية : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ قال : وأما إن قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر . وانظر حديث رقم (١٤٧) .

وقوله - في حواصل طير خضر - دليل على أن النفوس لا تنال لذة إلا بواسطة ، إلا أن تلك اللذة لذة مطعم أو مشرب ، فأما لذات المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائط . والمقصود من هنا المذكور ؛ أني رأيت بعض الانزعاج من الموت ، وملاحظة النفس بعين العدم عنده ، فقلت لها : إن كنت مصدقة للشريعة فقد أخبرت بما تعرفين ، ولا وجه للإنكار ، وإن كان هناك ريب في أخبار الشريعة الكلام في بيان صحة الشريعة ، فقالت : لا ريب عندي ، قلت : فاجتهدي في تصحيح الإيمان وتحقيق التقوى ، وأبشري حينئذ بالراحة من ساعة الموت ، فإني لا أخاف عليك إلا من التقصير في العمل ، واعلمي أن تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل فارتفعي بأجنحة الجد إلى أعلى أبراجها ، واحذري من قانص هوى ، أو شرك غرة ، والله الموفق .

٢١ـ فصل : قلت يوماً في مجلسي : لو أن الجبال حملت ما حملت لعجزت ، فلما عدت إلى منْزلي ، قالت لي النفس : كيف قلت هذا ؟ وربما أوهم الناس أن بك بلاء وأنت في عافية في نفسك وأهلك ! وهل الذي حملت إلا التكليف الذي يحمله الخلق كلهم ؟ فما وجه هذه الشكوى ؟ فأجبتها : إني لما عجزت عما حملت ، قلت هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى ، ولكن للاستروح ، وقد قال كثير من الصحابة والتابعين قبلي : ليتنا لم نخلق ! وما ذاك إلا لأثقال عجزوا عنها ، ثم من ظن أن التكاليف سهلة فما عرفها . أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الأعضاء برطل من الماء ، أو الوقوف في محراب لأداء ركعتين ؟ هيهات ! هذا اسهل التكليف ، وإن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال ، ومن جملته ، أنني إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل ، ألزمت العقل الإذعان للمقدر ، فكان من أصعب التكليف ، وخصوصاً فيما لا يعلم العقل معناه كإيلام الأطفال ، وذبح الحيوان ، مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك والآمر به أرحم الراحمين ، فهذا مما يتحير العقل فيه ، فيكون تكليف التسليم ، [٩/ب] وترك الاعتراض .

فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل ! ولو شرحت هذا لطال غير أني أعتذر عما قلته ، فأقول عن نفسي - وما يلزمني حال غيري - أنني رجل حبب إلى العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إليّ فن واحد منه ، بل

فنونه ، ثم لا تقتصر همتي في فن على بعضه ، بل تروم استقصاءه ، والزمان لا يسع ، والعمر أضيق ، والشوق يقوى ، والعجز يقصد فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات .

ثم إن العلم دلني على معرفة المعبود ، وحثني على خدمته ، ثم صاحت بي الأدلة عليه ، فوقفت بين يديه ، فرأيته في نعته وعرفته بصفاته ، وعاينت بصيرتي من ألطافه ما دعاني إلى الهيمان في محبته ، وحركني إلى التخلي لخدمته ، وصار يملكني أمر كالوجد كلما ذكرته ، فعادت خلوتي في خدمتي له أحلى عندي من كل حلاوة ، فكلما ملت إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخلوة . صاح بي العلم أين تمضي ؟ أتعرض عني وأنا سبب معرفتك ؟ فأقول له : إنما كنت دليلاً ، وبعد الوصول يستغنى عن الدليل ، قال : هيهات ! كلما زدت زادت معرفتك بمحبوبك ، وفهمت كيف القرب منه ، ودليل هذا ؛ أنك تعلم غداً أنك اليوم في نقصان ، أو ما سمعته يقول لنبيه ﷺ : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ ثم ألست تبغي القرب منه فاشتغل بدلالة عباده عليه ، فهي حالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد ، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم ؟ أما قال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ : « **لأَنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمْ ؟** »[1] .

فلما فهمت صدق هذه المقالة تهوست على تلك الحالة ، وكلما تشاغلت بجمع الناس تفرق همي ، وإذا وجدت مرادي من نفعهم ضعت أنا ، فأبقى في حيز التحير متردداً ، لا أدري على أي القدمين أعتمد ، فإن وقفت متحيراً صاح العلم : قم لكسب العيال ، وادأب في تحصيل ولد يذكر الله ، فإذا شرعت في ذلك قلص ضرع الدنيا وقت الحلب ، وأريت باب المعاش مسدوداً في وجهي ، لأن صناعة العلم شغلتني عن تعلم صناعة ، فإذا التفت إلى أبناء الدنيا ، رأيتهم لا يبيعون شيئاً من سلعها إلا بدين المشتري و ليت من نافقهم أو رايأهم نال من دنياهم [١٠/أ] ؛ بل ربما ذهب دينه و لم يحصل مراده ، فإن قال الضجر : اهرب . قال الشرع : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » وإن

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

قال العزم : انفرد . قال : فكيف بمن تعول ؟ فغاية الأمر أنني أشرع في التقلل من الدنيا ، وقد ربيت في نعيمها ، وغذيت بلبانها ، ولطف مزاجي فوق لطف وضعه بالعادة : فإذا غيرت لباسي وخشنت مطعمي ، لأن القوت لا يحتمل الانبساط نفر الطبع لفراق العادة ، فحل المرض فقطع عن واجبات ، وأوقع في آفات . ومعلوم أن لين اللقمة بعيد التحصيل من الوجوه المستطابة وتخشينها لمن لم يألف سعي في تلف النفس ؛ فأقول : كيف أصنع وما الذي أفعل ؟ وأخلو بنفسي في خلواتي وأتزيد من البكاء على نقص حالاتي ، وأقول : أصف حال العلماء وجسمي يضعف عن إعادة العلم ، وحال الزهاد وبدني لا يقوى على الزهد .

وحال المحبين ، ومخالطة الخلق تشتت همي ، وتنقش صور المحبوبات من الهوى في نفسي ؛ فتصدأ مرآة قلبي ، وشجرة المحبة تحتاج إلى تربية في تربة طيبة ، تسقى ماء الخلوات من دولاب الفكرة ، وإن آثرت التكسب لم أطق ، وإن تعرضت لأبناء الدنيا مع أن طبعي الآنفة من الذل ، وتديني يمنعني ، فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر . ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الأنفاس ، ولا تحقيق التوبة أقدر عليه ، ولا نيل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يصح لي . فإذا رأيتني كما قال القائل :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيــاك إياك أن تبتل بالمـــاء

تحيرت في أمريء وبكيت على عمري ، وأنادي في فلوات خلواتي بما سمعته من بعض العوام وكأنه وصف حالي :

واحسرتي كم أداري فيك تعثـــيري مثل الأسير بلا حـــل ولا سيرى
ما حيلتي في الهوى قد ضاع تدبيري لما شكلت جناحي قلت لي طيري

٢٢ـ فصل : تأملت أمر الدنيا والآخرة فوجدت حوادث الدنيا حسية طبعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية ، والحسيات أقوى حدثاً لمن لم يقو علمه ويقينه ، والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها ، فمخالطة الناس ، ورؤية المستحسنات ، والتعرض بالملذوذات ، يقوى حوادث الحس .

والعزلة والفكر [١٠/ ب] ، والنظر في العلم يقوي حوادث الآخرة ، ويبين هذا بأن الإنسان إذا خرج يمشي في الأسواق ويبصر زينة الدنيا ثم دخل إلى

المقابر فتفكر ورق قلبه فإنه يحس بين الحالتين فرقاً بيناً ، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث .

فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم ، فإن العزلة حمية ، والفكر والعلم أدوية . والدواء مع التخليط لا ينفع ، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق ، والتخليط في الأفعال ؛ فليس لك دواء إلا ما وصفت لك ، فأما إذا خالطت الخلق وتعرضت للشهوات ، ثم رمت صلاح القلب رمت الممتنع .

٢٣ـ فصل : تأملت حرص النفس على ما منعت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع ، ورأيت في السرب الأول أن آدم – عليه السلام – لما نهي عن الشجرة حرص عليه مع كثرة الأشجار المغنية عنها وفي الأمثال : المرء حريص على ما منع ، وتواق إلى ما لم ينل .

ويقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه ، وقالوا : ما نهينا عنه إلا لشيء . وقد قيل : أحب شيء إلى الإنسان ما منعاه .

فلما بحثت عن سبب ذلك وجدت سببين :

أحدهما : أن النفس لا تصبر على الحصر ، فإنه يكفي حصرها في البدن صورة ، فإذا[1] حصرت في المعنى بمنع ؛ زاد طيشها ؛ ولهذا لو قعد الإنسان في بيته شهراً لم يصعب عليه ، ولو قيل له : لا تخرج من بيتك يوماً طال عليه .

والثاني : أنها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ، ولا تكاد تستطيب المباح . ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى وتؤثر ، لا على ما يؤثر .

٢٤ـ فصل : ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ وتوبة التائبين ورؤية الزاهدين إلى الزهد والانقطاع عن الخلق والانفراد بالآخرة ، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان ؛ فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو إلى مجلس من خلق لا يحصون ، يبكون ويندبون على ذنوبهم ، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا ، وربما اتفق خمسون ومائة .

---

(١) في المخطوط : ما .

ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة ، وعمومهم صبيان قد نشأوا على اللعب والانهماك في المعاصي ؛ فكان الشيطان لبعد غوره في الشر رآني اجتذب [١١ / أ] إليّ من اجتذب منه ، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن أجتذبه من يده ، ولقد حسّن إليّ الانقطاع عن المجالس ، وقال : لا يخلو من تصنع للخلق . فقلت : أما زخرفة الألفاظ وتزويقها ، وإخراج المعنى من مستحسن العبارة ففضيلة لا رذيلة ، وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله .

ثم رأيته يريني في التزهد قطع أسباب ؛ ظاهرها الإباحة من الاكتساب . فقلت له : فإن طاب لي الزهد ، وتمكنت من العزلة ، فنفد ما بيدي أو احتاج عند عائلتي ، ألست أعود القهقري ؟ فدعني أجمع ما يسد خلتي ويصونني عن مسألة الناس ، فإن مد عمري كان نعم السبب ؛ وإلا كان للعائلة ، ولا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب ، فلما ندم وقت الفوات لم ينتفع بالندم ، وإنما الصواب توطئه المضجع قبل النوم ، وجمع المال الساد للخلة قبل الكبر ، أخذاً بالحزم وقد قال الرسول ﷺ : ((**لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**))[1]. وقال : ((**نعم المال الصالح للرجل الصالح**))[2].

وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال .

... الطالبين وهداية المريدين فإنه عبادة العالم . وإن من تغفيل بعض العلماء إيثاره للتنفل بالصلاة والصوم ، عن تصنيف كتاب ، أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه ، ويمتد زمان نفعه .

... إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين : أحدهما : حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل . والثاني : لحب المدحة ، فإنها إذا توسمت

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٢٩٥) ، ومسلم (١٦٢٨) .

(٢) **إسناده حسن** : رواه أحمد (١٩٧/٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٥٦ ، ٦٠٥٧) ، وابن حبان (٣٢١٠ ، ٣٢١١) ، والحاكم (٢٣٦/٢) ، وغيرهم من طريق موسى بن عُليّ عن أبيه سمعت عمرو بن العاص فذكره مرفوعاً .

بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر ، فعليك بالنظر في السرب الأول ، فكن مع السرب المقدم ؛ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة من الانقطاع عن العلم ؟ والانفراد عن الخلق ، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق ، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر ؟ إلا أن ينقطع من ليس بعالم بقصد الكف عن الشر ، فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط ؛ فأما الطبيب العالم بما يتناول فإنه ينتفع بما يناله .

٢٥ـ فصل : تأملت [١١ / ب] المراد من الخلق فإذا هو الذل واعتقاد التقصير والعجز ، ومثلت العلماء والزهاد العاملين صنفين ، فأقمت في صف العلماء مالكاً وسفيان وأبا حنيفة والشافعي وأحمد ، وفي صف العباد مالك بن دينار ورابعة ومعروفاً الكرخي وبشر بن الحارث ؛ فكلما جد العباد في العبادة وصاح بهم لسان الحال : عباداتكم لا يتعداكم نفعها وإنما يتعدى نفع العلماء وهم ورثة الأنبياء ، وخلفاء الله في الأرض وهم الذين عليهم المعول ، ولهم الفضل ، إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صدق تلك الحال .

وجاء مالك بن دينار إلى الحسن يتعلم منه ويقول : الحسن أستاذنا ، وإذا رأى العلماء لهم بالعلم فضلاً صاح لسان الحال بالعلماء : وهل المراد من العلم إلا العمل ؟.

وقال أحمد بن حنبل : وهل يراد بالعلم إلا لما وصل إليه معروف ؟ وصح عن سفيان الثوري قال : وددت أن يدي قطعت و لم أكتب الحديث .

وقالت أم الدرداء لرجل : هل عملت بما علمت ؟ قال : لا . قالت : فلم تستكثر من حجة الله عليك ؟ وقال أبو الدرداء : ويل لمن لم يعلم و لم يعمل مرة ، وويل لمن علم و لم يعمل سبعين مرة . وقال الفضيل : يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد ؛ فما يبلغ من الكل قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى** ﴾ [الرعد : ١٩].

وجاء سفيان إلى رابعة : فجلس بين يديها ينتفع بكلامها ، فدل العلماء العلم على أن المقصود منه العمل به ، وأنه آلة فانكسروا واعترفوا بالتقصير ؛ فحصل الكل على الاعتراف والذل ، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم ؛ فذلك هو المقصود من التكليف .

٢٦ـ فصل :تأملت قوله تعالى : ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [الرعد : ٥٤]

فإذا النفس تأبى إثبات محبة للخالق توجب قلقاً ، وقالت محبته طاعته فتدبرت ذلك فإذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس ، وبيان هذا : أن محبة الحس لا تتعدى الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور المعنوية فتحبها ؛ فإنا نرى خلقاً يحبون أبا بكر ﷺ ، وخلقاً يحبون على بن أبي طالب ﷺ ، وقوماً يتعصبون لأحمد بن حنبل ، وقوماً للأشعري ، فيقتتلون ويبذلون النفوس في ذلك وليسوا ممن رأى صور [١٢ / أ] القوم ، ولا صور القوم توجب المحبة ؛ ولكن لما تصورت لهم المعاني فدلتهم على كمال القوم في العلوم ، وقع الحب لتلك الصور التي شوهدت بأعين البصائر ، فكيف بمن ضيَّع تلك الصور المعنوية وأبدلها .

وكيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي ، وعرفني ملذوذات علمي ، فإن التذاذي بالعلم وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية ، فهو الذي علمني ، وخلق لي إدراكاً وهداني إلى ما أدركته ، ثم إنه يتجلى لي في كل لحظة في مخلوق جديد أراه فيه بإتقان ذلك المصنوع وحسن ذلك المصنوع . فكل محبوباتي منه وعنه وبه ، الحسية والمعنوية ، وتسهيل سبل الإدراك به ، والمدركات منه ، وألذ من كل لذة عرفاني له ، فلولا تعليمه ما عرفته ، وكيف لا أحب من أنا به ، وبقائي منه ، وتدبيري بيده ، ورجوعي إليه ، وكل مستحسن محبوب هو صَنَعَهُ وحَسَّنه وزيّنه ، وعطف النفوس إليه ، فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور ، والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع ، ومعنى الإدراك أحلى عرفاناً من المدرك ، ولو أننا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم النقاش وتهويل شأنه ، وظريف حكمته عن حب المنقوش ، وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية إذا خرق نظرها الحسيات ونفذ إلى ما ورائها ؛ فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة .

وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له . فإن قوى أوجب قلقاً وشوقاً ، وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجبت خوفاً ، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاء قوياً ، و ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ** ﴾ .

٢٧ـ فصل : تأملت حالاً عجيبة ، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ، ولطيف حكمته ؛ ثم عاد فنقضها فتحيرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سر

ذلك الفعل . فأعلمت أنها ستعاد للمعاد وإن هذه البنية لم تخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة ، وتتجر في موسم المعاملة ، فسكنت العقول لذلك .

ثم رأيت أشياء من هذا الجنس أظرف منه ، مثل اخترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه ، وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبوين يتململان[1] ، ولا يظهر سر سلبه والله الغني عن أخذه ، وهما أشد الخلق فقراً إلى بقائه . وأظرف منه إبقاء هرم لا يدري معنى [١٢ / ب] البقاء ، وليس له فيه إلا مجرد أذى . ومن هذا الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم ، وتوسعته على الكافر الأحمق . في نظائر لهذه المذكورات يتحير العقل في تعليلها ، فيبقى مبهوتاً .

فلم أزل أتلمح جملة التكاليف ، فإذا عجزت قوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل ، علمت قصورها عن درك جمع المطلوب فأذعنت مقرة بالعجز . وبذلك يؤدي مفروض تكليفها ، فلو قيل للعقل : قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى أفيجوز أن ينقدح في حكمته أنه نقض ؛ لقال : لأني عرفت بالبرهان أنه حكيم ، وأنا أعجز عن إدراك العلل ، فأسلم على رغمي مقراً بعجزي .

حكمة النكاح .. والصبر عن المعاصي

٢٨ـ فصل : تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه . فرأيت أن الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل ، لأن هذا الحيوان لا يزال يتحلل ثم يخلف[2] المتحلل الغذاء ، ثم يتحلل من الأجزاء الأصلية ما لا يخلفه شيء . فإذا لم يكن بدّ من فنائه ، وكان المراد امتداد زمان الدنيا جعل النسل خلفاً عن الأصل ، ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف العورة وملاقاة ما لا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تحث ليحصل المقصود ؛ ثم رأيت هذا المقصود الأصلي يتبعه شيء آخر ، وهو استفراغ هذا الماء الذي

---

(١) **يتململان** : يتألمان من ألم الفراق ولا يستقران على فراش من الوجع .

(٢) في المخطوط : يختلف .

يؤذي دوام احتقانه[1] ، فإن المني ينفصل من الهضم الرابع فهو من أصفى جواهر الغذاء ، وأجوده ، ثم يجتمع فهو أحد الذخائر للنفس ؛ فإنها تدّخر لبقائها وقوتها الدم ، ثم المني ، ثم تدّخر التفل الذي هو من أعمدة البدن كأنه لخوف عدم غيره .

فإذا زاد اجتماع المني أقلق على نحو إقلاق البول للحاقن ، إلا أن إقلاقه من حيث المعنى أكثر من إقلاق البول من حيث الصورة ، فتوجب كثرة اجتماعه وطول احتباسه أمراضاً صعبة ؛ لأنه يترقى من بخاره إلى الدماغ فيؤذي – وربما أحدث سُمِّيَّة – ومتى كان المزاج سليماً فالطبع يطلب بروز المني إذا اجتمع كما يطلب بروز البول ، وقد ينحرف بعض الأمزجة فيقل اجتماعه عنده فيندر طلبه لإخراجه ، وإنما يتكلم عن المزاج الصحيح .

فأقول : قد بينت أنه إذا وقع به احتباسه أوجب أمراضاً وجدد أفكاراً رديئة ، وجلب العشق والوسوسة إلى غير ذلك من الآفات ، وقد يجد صحيح المزاج يخرج ذلك إذا اجتمع وهو بعد متقلقل ، فكأنه الآكل الذي لا يشبع [١٣ / أ] فبحثت عن ذلك فرأيته وقوع الخلل في المنكوح إما لدمامته ، وقبح منظره ، أو لآفة فيه ، أو لأنه غير مطلوب للنفس فحينئذ يخرج منه ويبقى بعضه ، فإذا أردت معرفة ما يدلك على ذلك فقس مقدار خروج المني في المحل المشتهي ، وفي المحل الذي هو دونه ، كالوطء بين الفخذين بالإضافة إلى الوطء في محل النكاح ، وكوطء البكر بالإضافة إلى وطء الثيب ، فعلم حينئذ أن تخير المنكوح يستقصى فضول المنيّ ، فيحصل للنفس كمال اللذة ، لموضع كمال بروز الفضول .

ثم قد يؤثر هذا في الولد أيضاً فإنه إذا كان من شابين قد حبسا أنفسهما عن النكاح مديدة كان الولد أقوى منه من غيرهما ، أو من المدمن على النكاح في الأغلب ، ولهذا كره نكاح الأقارب لأنه مما يقبض النفس عن انبساطها ، يتخيل الإنسان أنه ينكح بعضه ، ومدح نكاح الغرائب لهذا المعنى ، ومن هذا الفن يحصل كثير من المقصود من دفع هذه الفضول المؤذية بمنكوح مستجد ، وإن كان مستقبح الصورة ما لا يحصل به في العادة .

ومثال هذا أن الطـــاعم إذا امتلأ خبزاً ولحماً حيث لم يبق فيه فضل لتناول

(١) الاحتقان : الاحتباس .

لقمة ، قدمت إليه الحلوى فيتناول ، فلو قدم أعجب منها لتناول ، لآن الجدة لها معنى عجيب ، وذلك أن النفس تميل إلى ما ألفت ، وتطلب غير ما عرفت ، ويتخايل لها في الجديد نوع مراد ؛ فإذا لم تجد مرادها صدفت إلى جديد آخر ، فكأنها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر ، وهي تتخايله فيما تراه .

وفي هذا المعنى دليل مدفون على البعث ؛ لأن خلق همته متعلقة بلا متعلق نوع عبث فافهم هذا ، فإذا رأت النفس عيوب ما خالطت في الدنيا عادت تطلب جديداً ، ولذلك قال الحكماء : العشق العمى عن عيوب المحبوب ؛ فمن تأمل عيوبه سلا ؛ ولذلك يستحب للمرأة أن لا تبعد عن زوجها بعداً تنسيه إياها ، ولا تقرب منه قرباً يملها ، أو تظهر لديه مكنونات عيوبها ، وينبغي له أن لا يطلع منها على عورة ، وتجتهد في أن لا يشم منها إلا طيب ريح ، إلى غير ذلك من الخصال التي تستعملها النساء الحكيمات ؛ فإنهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج ، فأما الجاهلات فإنهن لا ينظرن في هذا فيتعجل التفات الأزواج عنهن .

فمن أراد نجابة الولد وقضاء الوطر فليتخير المنكوح إن كان زوجة فلينظر إليها [١٣ / ب] فإذا وقعت في نفسه فليتزوجها ، ولينظر في كيفيه وقوعها في نفسه . فإن علامة تعلق حبها بالقلب أنه لا يكاد يصرف الطرف عنه ، فإذا انصرف الطرف قلق القلب بتقاضى النظرة ؛ فهذا الغاية ، ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ الأغراض .

وإن كان جارية تشتري فلينظر إليها أبلغ من ذلك النظر ، ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه ، ثم ليرى ذلك منها فإن الحسن في الفم والعينين .

وقد نص أحمد : على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التي يريد نكاحها ما هو عورة يشير إلى ما يزيد على الوجه ، ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو شراء الجارية لينظر كيف توقان قلبه فإنه لا يخفى على العاقل توقان النفس لأجل المستجد ، وتوقانها لأجل الحب ، فإذا رأى قلق الحب أقدم ، فإنه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال : أخبرنا حمد بن أحمد قال : أخبرنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا عبد الجبار بن أبي عامر قال : حدثني أبي

قال : حدثني خالد بن سلام قال : حدثنا عطاء الخراساني قال : مكتوب في التوارة كل تزويج على غير هوى حسرة وندامة إلى يوم القيامة .

ثم ينبغي للمتخير أن يتفرس الأخلاق فإنها من الخفي فإن الصورة إذا خلت من المعنى كانت كخضراء الدمن ، فإن نجابه الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام بود محبوس أصل عظيم ، يوجب إقبال القلب على المهمات ؛ ومن فرغ من المهمات العارضة أقبل على المهمات الأصلية ؛ ولهذا جاء في الحديث : ((**لاَ يَقْضِي القَاضِي بيْنَ اثْنَيْن وَهُوَ غَضْبَانٌ**))[1] ، ((**وإِذَا وُضِعَ العَشَاءُ وَحَضَرَتِ العِشَاءُ فَابْدَءُوا بِالعَشَاء**))[2].

فمن قدر على امرأة صالحة في الصورة والمعنى فليغمض عن عوراتها ، ولتجتهد هي في مراضيه من غير قرب يمل ، ولا بعد ينسى ، ولتدم على التصنع له يحصل الغرضان منها الولد وقضاء الوطر - مع الاحتراز الذي أوصيت به - تدوم الصحبة ويحصل الغناء بها عن غيرها .

فإن قدر على الاستكثار فأضاف إليها سواها عالماً أنه يبلغ الغرض الذي يفرغ قلبه زيادة تفريغ كان أفضل لحاله ، فإن خاف من وجود الغيرة ما يشغل القلب الذي قد اهتممنا بجمع همه ، أو خاف وجود مستحسنة تشغل قلبه عن ذكر الآخرة ، أو يطلب منه ما يوجب خروجه عن الورع ، ويدخل فيما أوصيت به أنه يبعد في المستحسنات [١٤ / أ] العفاف ، فليبالغ الواجد لهن في حفظهن وسترهن ، فإن وجد ما لا يرضيه عجل الاستبدال ، فإنه سبب السلو[3] ، فإن قدر على الاقتصار فإن الاقتصار على الواحدة أولى ، فإن كانت على الغرض قنع ، وإن لم تكن استبدل ، ونكاح المرأة المحبوبة يستفرغ الماء المجتمع ، فيوجب نجابة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكماله .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧)

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٥٤٦٣) ، ومسلم (٥٥٧) ولفظه عند البخاري ((**إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء**)) .

(٣) **السلو** : الصبر .

ومن خاف وجود الغيرة فعليه بالسراري[1] فإنهن أقل غيرة ، والاستظراف لهن أمكن من استظراف الزوجات ، وقد كان جماعة يمكنهم الجمع وكان النساء يصبرن فكان لداود – عليه الصلاة السلام – مائة امرأة ، ولسليمان – عليه الصلاة والسلام – ألف امرأة ، وقد علم حال نبينا ﷺ وأصحابه ، وقد كان لأمير المؤمنين علي ﷺ أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية ، وتزوج ابنه الحسن ﷺ بنحو من أربع مائة إلى غير هذا مما يطول ذكره ، فأفهم ما أشرت إليه تفز به إن شاء الله تعالى .

٢٩ـ فصل : كل شيء خلقه الله تعالى في الدنيا فهو أنموذج في الآخرة ، وكل شيء يجري فيها أنموذج ما جري في الآخرة ؛ فأما المخلوق منها فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء[2] وهذا لأن الله تعالى شوَّق بنعيم إلى نعيم ، وخوَّف بعذاب من عذاب ، فأما ما يجرى في الدنيا فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل وكل مذنب ذنباً ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لَا عقوبة ، وغفلته عما عوقب به عقوبة ، وقد قال الحكماء : المعطية بعد المعصية عقاب المعصية ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة ، وربما كان العقاب العاجل معنوياً كما قال بعض أحبار بني إسرائيل : يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني ، فقيل له : كم أعاقبك وأنت لا تدري ، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي !

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد ، حتى قال وهب بن الورد : وقد سئل أيجد لذة الطاعة من يعصي ؟ فقال : ولا من هَمّ ؛ فرب شخص أطلق بصره فَحُرِمَ اعتبار بصيرته ، أو لسانه فَحُرِمَ صفاء قلبه ، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره ، وحُرِمَ قيام الليل وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك ، وهذا أمر يعرفه

---

(١) **السراري** : جمع سرية ، وهي الجارية العبدة .

(٢) رواه الطبري في التفسير (٥٣٤ ، ٥٣٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٦٠) وهناد في الزهد (٢) ومسرد كما في المطالب (٥٢٠٢) من طريق سفيان ، ووكيع ومحمد بن عبيد ، وأبو معاوية عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس فذكره . **ورجاله ثقات** .

أهل محاسبة النفوس .

وعلى ضده يجد من يتقي الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلاً ، كما [١٤ / ب] في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ يقول الله تعالى : ((**النظرة إلي المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان ، من تركه ابتغاء مرضاتي آتيته إيمانا يجد حلاوته في قلبه**))[١] فهذه نبذة من هذا الجنس تنبه علي مغفلها ، فأما المقابلة الصريحة في الظاهرة فقل أن تحتبس ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : ((**الصبحة**[٢] **تمنع الرزق ، فإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**))[٣] .

وقد روى المفسرون : أن كل شخص من الأسباط جاء بإثني عشر ولداً وجاء يوسف بأحد عشر بالهمّة . ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة رأى الجزاء وفهم ؛ كما قال الفضيل : إني لأعصى الله – عز وجل – فأعرف ذلك في خلق جاريتي ودابتي .

---

(١) **إسناده ضعيف جداً** : رواه الحاكم (٣١٤/٤) والقضاعي (٢٩٢) من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن الحارث بن دينار عن حلة عن حذيفة به مرفوعاً وعبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف جداً ، ورواه القضاعي (٢٩٣) من نفس طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب عن ابن عمر مرفوعاً ، ورواه الطبراني (١٠٣٦٢) من طريق عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود به مرفوعاً . وهذا إضراب من هذا الواسطي . وللحديث شواهد من حديث ابن عمر ، رواه أبو نعيم في الحلية (١٠١/٦) وفي الإسناد أبو مهدي واسمه سعيد بن سنان الحنفي وهو متروك وشاهد أخر من حديث عائشة ، رواه أبو نعيم في الحلية (١٨٧/٢) ، وابن عدي في الكامل (٣٧٢/٥) وفي إسناده عصمة بن محمد بن فضالة بن عبيد الأنصاري وكان كذاباً يضع الحديث ، وشاهد ثالث من حديث أبي أمامة وهو ضعيف جداً وسبق الكلام عليه وشواهد أخر من حديث على وأنس وأسانيدهما واهية . انظر كتاب ذم الهوى لابن الجوزي ص ١٣٩ .

(٢) **الصبحة** : نوم الغداة .

(٣) **إسناده ضعيف جداً** : رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٧٣/١) والقضاعي (٦٥)، وابن عدي في الكامل (٣٢٧/١) ، وابن الجوزي في الموضوعات (٦٨/٣) من طريق إسماعيل بن عباس عن ابن أبي فروة عن محمد بن يوسف عن عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه ، وابن أبي فروة متروك ، وإسماعيل ضعيف في روايته عن غير الشامين وهذا منها . ورواه أبو نعيم (٢٥١/٩) من طريق سليمان بن أرقم عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عثمان ، وسليمان بن أرقم متروك ، والفقرة الأخيرة من الحديث لها شواهد . انظر أحمد (٢٧٧/٥) ، وانظر الصحيحة (١٥٤) وتحقيق مسند أحمد (٢٢٣٨٦) .

وعن عثمان النيسابورى : أنه انقطع شسع نعله في مضيّه إلى الجمعة فتعوق لإصلاحه ساعة ، ثم قال : إنما انقطع لأني ما اغتسلت غسل الجمعة .

ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ امتدت أكفهم بين يديه بالطلب ، يقولون : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ولمّا صبر هو يوم الهمّة ملك المرأة حلالاً ، ولما بغت عليه بدعواها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أنطقها الحق بقولها : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ ﴾

ولو أن شخصاً ترك معصية لأجل الله تعالى لرأى ثمرة ذلك ، وكذلك إذا فعل طاعة . وفي الحديث : « **إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة** »[1] أي عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة ، ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع ، طلباً للراحة العاجلة ، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل ، وعكست عليه المقاصد .

حكى بعض المشايخ : أنه اشترى في زمن شبابه جارية قال فلما ملكتها تاقت نفسي إليها فما زلت أسأل الفقهاء لعل مخلوقاً يرخص لي ، فكلهم قال : لا يجوز النظر إليها بشهوة ، ولا لمسها ، ولا جماعها إلا بعد حيضها . قال : فسألتها فأخبرتني أنها اشتريت وهي حائض . فقلت : قرب الأمر . فسألت الفقهاء فقالوا : لا يعتد بهذه الحيضة حتى تحيض في ملكه ، قال : فقلت لنفسي – وهي شديدة التوقان لقوة الشهوة ، وتمكن القدرة ، وقرب المصاقبة –: ما تقولين ؟ فقالت : الإيمان بالصبر على الجمر شئت أو أبيت [١٥/أ] فصبرت إلى أن حان ذلك فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر نيل ما هو أعلى منها وأرفع .

الغفلة .. واليقظة

٣٠ـ فصل : نظرت في الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل ، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله عز وجل ، فيظهره الله سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق الألسنة به وإن لم يشاهده الناس ، وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق فيكون جواباً لكل ما أخفى من

---

(١) لم أقف عليه .

الذنوب ، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازى على الزلل ، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار ، ولا يضاع لديه عمل .

وكذلك يخفي الإنسان الطاعة فتظهر عليه ويتحدث الناس بها وبأكثر منها ، حتى أنهم لا يعرفون له ذنباً ولا يذكرونه إلا بالمحاسن ، ليعلم أن هنالك ربًّا لا يضيع عمل عامل ، وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه ، أو تأباه ، وتذمه ، أو تمدحه ، وربما لم يتحقق ما بينه وبين الله تعالى فإنه يكفيه كل هم ، ويدفع عنه كل شرٍّ . وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق ، إلا انعكس مقصوده ، وعاد حامده ذاماً .

٣١ـ فصل : تأملت الأرض ومن عليها بعين فكري ، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها ، ثم نظرت في المعمور منها ، فوجدت الكفار مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الإسلام في الأرض قليلاً بالإضافة إلى الكفار ، ثم تأملت المسلمين فرأيت الأكساب قد شغلت جمهورهم عن الرازق ، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه .

فالسلطان مشغول بالأمر والنهي واللذات المعارضة له ، ومياه أغراضه جارية لا شكر لها ، ولا يتلقاه أحد بموعظة بل بالمدحة التي تقوي هوى النفس ، وإنما ينبغي أن يقاوم الأمراض بأضدادها ؛ كما قال عمر بن المهاجر : قال لي عمر ابن عبد العزيز : إذا رأيتني قد حدت عن الحق فخذ بثيابي وهزني ، قل : مالك يا عمر ؟[١]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ : رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا[٢].

فأحوج الخلق إلى النصائح والمواعظ السلطان . وأما جنوده فجمهورهم في سكر الهوى ، وزينة الدنيا ، وقد انضاف إلى ذلك الجهل ، وعدم العلم ، فلا يؤلمهم ذنب ، ولا ينْزعجون من لبس حرير ، أو شرب خمر ، حتى ربما [١٥/ب] قال بعضهم : إيش يعمل الجندي ، أيلبس القطن ؟ ثم أخذهم للأشياء من غـــير

---

(١) **لم أقف عليه** .

(٢) رواه الدارمي في سننه رقم (٦٥٢) ذكر بإسناده عن عباد بن عباد الخواص الشامي أبو عتبه رسالة عباد وفيها ، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ : رحم الله من أهدى إلى عيوبي . وعباد بن عباد من التاسعة فبينه وبين عمر ﷺ مفاوز تنقطع فيها اعناق المطي .

وجهها ، فالظلم معهم كالطبع .

وأرباب البوادي قد غمرهم الجهل ، وأهل القرى ؛ فكذلك تقلبهم في الأنجاس ، والتهوين لأهل الصلاة ، ربما صلت المرأة منهن قاعدة .

ثم نظرت في التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص ، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت ؛ وصار الربا في معاملاتهم فاشياً فلا يبالي أحدهم من أين حصلت له الدنيا ، وهم في باب الزكاة مفرطون ، ولا يستوحشون من تركها إلا من عصم الله .

ثم نظرت في أرباب المعايش ، فوجدت الغش في معاملاتهم عاماً ، والتطفيف والبخس ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل .

ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الأشغال طلباً للكسب قبل أن يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به .

ثم نظرت في النساء ، فرأيتهن قليلات الدين ، عظيمات الجهل ، ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله .

فقلت : واعجباً فمن بقى لخدمة الله - عز وجل - ومعرفته ؟ فنظرت فإذا العلماء ، والمتعلمون والعباد المتزهدون .

فتأملت العباد والمتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويأنس إلى تعظيمه ، وتقبيل يده وكثر أتباعه ، حتى أن أحدهم لو اضطر أن يشتري حاجة من السوق لم يفعل ، لئلا ينكسر جاهه ، ثم تترقي به رتبة الناموس إلى أن لا يعودوا مريضاً ، ولا يشهدوا جنازة ، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم ، ولا يتزاورون ، بل ربما ظن بعضهم على بعض ، فقد صارت النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون ، وفيهم من يقدم على الفتوى بجهل لئلا يخل ناموس التصدر ، ثم يعيبوا العلماء بحرصهم على الدنيا ، ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه ، لا تناول المباحات .

ثم تأملت العلماء والمتعلمين ؛ فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أمارة النجابة ، لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به ، وجمهورهم يطلب ما يصيره شبكة للكسب ؛ إما ليأخذ قضاء مكان ، أو ليصير قاضي بلد ، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفي .

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى ويستخدمه ، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه ، ويقبل على ما ينهاه ، ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه ، وإنما همته أن يقول : ألا إن الله [١٦/أ] لا يخلى الأرض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل ، عارف بحقوق الله تعالى ، خائف منه ، فذلك قطب الدنيا ، فمتى مات أخلف الله عوضه ، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبة ، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه ، فهو في مقام النبي في الأمة ، وهذا الذي أصفه يكون قائماً بالأصول ، حافظاً للحدود ، وربما قلّ علمه أو قلت معاملته ؛ فأما الكاملون في جميع الأدوات فيندر وجودهم ، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد .

ولقد سبرت السلف كلهم فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين ، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم أر أكثر من ثلاثة : أولهم : الحسن البصري ، وثانيهم : سفيان الثوري ، وثالثهم : أحمد ابن حنبل ، وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتاباً ، وما أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب ، وإن كان في السلف سادات ، إلا أن أكثرهم غلب عليه فن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غلب عليه العلم ، ومنهم من غلب عليه العمل ، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم ، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة ، ولا يؤيس من وجود من يحذو حذوهم ، وإن كان الفضل بالسبق لهم . فقد أطلع الله عز وجل الخضر على ما خفي من موسى - عليهما السلام - فخزائن الله مملوءة وعطاؤه لا يقف على شخص .

ولقد حكى لي عن ابن عقيل أنه كان يقول عن نفسه : أنا عملت في قارب ثم كسر ، وهذا غلط فمن أين له ؟ فكم معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك ، وكم من متأخر سبق متقدماً وقد قيل :

إن الليالي والأيام حاملة   وليس يعلم غير الله ما تلد

٣٢ـ فصل : رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائداً في المقدار حتى أنها إذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا كاد ينتفع بشيء من البدن ، فصحت بها يوماً وقد مالت بكليتها إلى شهوة ويحك قفي معي لحظة أكلمك كلمات ثم افعلي ما بدا لك . قالت : قل أسمع . قلت : قد تقرر قلة ميلك إلى

المباحات من الشهوات ، وأما جل ميلك إلى المحرمات . فأنا أكشف لك عن الأمرين ، فربما رأيت الحلوين مرين .

أما المباحات من الشهوات : فمطلقة لك ولكن طريقها صعب ، لأن المال قـد يعجز عنها ، والكسب قد لا يحصـل معظمها ، والوقت الشريف يذهب [١٦ / ب] بذلك . ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفي حالة الحصول يحذر الفوات . ثم ينغصها من النقص ما لا يخفى على مميز ؛ إن كان مطعماً فالشبع يحدث آفات ، وإن كان شخصاً فللملل أو الفراق ، أو سوء الخلق . ثم ألذ النكاح أكثره إيهاناً للبدن ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

وأما المحرمات : فيشتمل على ما أشرنا إليه من المباحـات ، ويزيد بإيهان [أنها آفة] العرض وخوف عقاب الدنيا وفضيحتها ، ووعيد الآخرة ، ثم الجزع كلما ذكرها التائب .

وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة ، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً ، لأنه قُهر ؛ بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قويَّ القلب . عزيزاً لأنه قهر . فالحذر الحذر من رؤية المشتهي بعين الحسن ، كما يرى اللص لذة أخذ المال من الحرز ، ولا يرى بعين فكره القطع . وليفتح عين البصيرة لتأمل العواقب واستحالة اللذة نغصة ، وانقلابها عن كونها لذة إما لملل أو لغيره من الآفات ، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب ؛ فتكون المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع ، فما ردت كلب الجوع ، بل شهت الطعام . وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوى مع تأمل فوائد الصبر عنه ، فمن وفق لذلك كانت سلامته قريبة منه .

٣٣ـ فصل : خطر لي [خاطر] والمجلس قد طاب ، والقلوب قد حضرت ، والعيون جارية ، والرءوس مطرقة ، والنفوس قد ندمت على تفريطها ، والعزائم قد نهضت لإصلاح شئونها ، وألسنة اللوم تعمل في الباطن على تضييع الحزم وترك الحذر ؛ فقلت لنفسي : ما بال هذه اليقظة لا تدوم ، فإني أرى النفس واليقظة في المجلس متصافيان متصادقان ، فإذا قمنا عن هذه التربة ، وقعت الغربة ، فتأملت ذلك فرأيت أن النفس ما تزال متيقظة ، والقلب ما يزال عارفاً ، غير أن القواطع كثيرة ، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة الله سبحانه وتعالى قد

كلٍّ ، مما يستعمل في اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس في ذلك ، والبدن أسير مستخدم ؛ بينما الفكر يجول في اجتلاب الطعام والشراب والكسوة ، وينظر في مدد ذلك ، وما يدّخره لغده وسنته ، اهتم بخروج الحدث [١٧ / أ] وتشاغل بالطهارة ، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذية - ومنها المني - فاحتاج إلى النكاح ، فعلم أنه لا يصح إلا باكتساب كسب الدنيا .

فتفكر في ذلك وعمل بمقتضاه ، ثم جاء الولد فاهتم به وله ، وإذا الفكر عامل في أصول الدنيا وفروعها ، فإذا حضر الإنسان المجلس فإنه لا يحضر جائعاً ، ولا حاقناً ، بل يحضر جامعاً لهمته ، ناسياً ما كان من الدنيا على ذكره . فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف ، ويجذبه بما عرف ، فينهض عمال القلب في زوارق عرفانه ؛ فيحضرون النفس إلى باب المطالبة بالتفريط ، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب ، فتجرى عيون الندم ، وتنعقد عزائم الاستدراك .

ولو أن هذه النفس خلت عن المعهودات التي وصفتها ، لتشاغلت بخدمة باريها ، ولو وقعت في سورة حبه ، لاستوحشت عن الكل شغلاً بقربه ؛ ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع المعوقات ، وعلى قدر مجاهدتهم في ذلك نالوا من الخدمة مرادهم ، كما أن الحصاد على مقدار البذر ؛ غير أني تلمحت في هذه الحالة - دقيقة - وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها ؛ وهو العجب بحالها ، والاحتقار بجنسها ، وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها ، إلى دعوى لي ، وعندي ، وأستحق ، فتركها في حومة ذنوبها تتخبط ، فإذا وقفت على الشاطيء قامت تجر ذيل العبودية أولى لها .

هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك شغلوا عن هذا المقام ؛ فمن بذر فصلح له ، فلابد له من هفوة يراقبها عين الخوف من عقابها [رفقاً بها] ، تصح له عبوديته ، وتسلم له عبادته ، إلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : « **لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** »(١).

٣٤- فصل : تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين ، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلاً من إخراج ما في اليد ليس المشروع ؛ فإن النبي ﷺ قال لكعب

(١) **صحيح** : رواه مسلم (٢٧٤٩) .

ابن مالك : ((**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ**))[١] أو كما قال له : وقال لسعد : ((**لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**))[٢]. فإن اعترض جاهل [١٧ / ب] فقال : فقد جاء أبو بكر ﷺ بكل ماله !.

فالجواب : أن أبا بكر صاحب جأش وتجارة ، فإذا أخرج الكل أمكنه أن يستدين عليه ، فيتمعيش ؛ فمن كان على هذه الصفة لا أذم إخراجه لماله وإنما الذم متطرق إلى من يخرج ماله وليس من أرباب المعائش أو يكون من أولئك إلا أنه ينقطع عن المعاش فيبقى كلا[٣] على الناس ، يستعطيهم ويعتقد أنه على الفتوح ، وقلبه متعلق بالخلق ، وطعمه ناشب فيهم ، ومتى حرك بابه نهض قلبه ، وقال : رزق قد جاء ، وهذا أمر قبيح بمن يقدر به على المعاش ، وإن لم يقدر كان إخراج ما يملك أقبح ، لأنه يتعلق قلبه بما في أيدي الناس ، وربما ذل لبعضهم ، أو تزين له بالزهد ، وأقل أحواله أن يزاحم الفقراء والمكافيف والزمنى في الزكاة .

فعليك بالشرب الأول[٤]، فانظر هل فيهم من فعل ما يفعله جهلة المتزهدين ، وقد شرت في أول هذا إلى أنهم كسبوا و خلفوا الأموال ، فرد إلى الشرب الأول الذي لم يطرق فإنه الصافي ، واحذر من المشارع المطروقة بالآراء الفاسدة الخارجة في المعنى كالكمين على الشريعة ، مذعنة بلسان حالها أن الشرع ناقص يحتاج إلى ما تمت به بما تمت به .

واعلم وفقك الله تعالى أن البدن كالمطية ، ولابد من علف المطية ، والاهتمام به ؛ فإذا أهملت ذلك كان سبباً لوقوفك عن السير .

وقد رؤى سلمان ﷺ : يحمل طعاماً على عاتقه ، فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ فقال : إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت .

وقال سفيان الثوري : إذا حصَّلت قوت شهر فتعبد ، وقد جاء أقوام ليس

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

(٢) **صحيح** : وسبق .

(٣) **كلاً** : أي : عبئاً .

(٤) أي : الرعيل الأول .

عندهم سوى الدعاوى فقالوا : هذا شك في الرازق والثقة ابن أولى ؛ فإياك وإياهم . وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه ، ولا يهولنك خلافهم . فقد قال أبو بكر المروزي : سمعت أحمد بن حنبل يرغب في النكاح ؛ فقلت له : قال ابن أدهم . فما تركني [أتمم] حتى صاح على ، وقال : أذكر لك حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، وتأتيني ببنيات الطريق .

واعلم ا ـــك الله : أنه لو رفض الأسباب شخص يدعى التزهد ، وقال : لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشمس في الحر ، ولا أستدفيء من البرد ، كان عاصياً بالإجماع ، وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ، ورزقهم على الله تعالى ، فأصابهم أذى كان آثماً ؛ كما قال ﷺ : « **كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ** »[1].

واعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع الهمَّ ، ويفرغ القلب ، ويقطع الطمع في الخلق ، فإن الطبع له حق يتقاضاه . وقد بين الشرع ذلك فقال : « **إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً ؛ وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً** ».

ومثال الطبع مع المريد السالك ، كمثل كلب لا يعرف الطارق ، فكل من رآه يمشي نبح عليه . فإن ألقى إليه كسرة سكت عنه ؛ فالمراد من الاهتمام بذلك جمع الهم لا غير ؛ فافهم هذه الأصول فإن فهمها مهم .

---

(١) **حسن** : ورواه البغوي (٣٤٢/٩) والطيالسي (٢٢٨١) ، والبيهقي (٤٦٧/٧) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٥٠٠/٤-٥٠١) وعبد الرزاق (٣٨٤/١) بقصة أطول من هذا ، ورواه مختصراً النسائي في الكبرى (٩١٧٦/٥- ٩١٧٧) ، وأبو داود (١٦٩٢) ، وأحمد (١٦٠/٢- ١٩٣) ، والحميدي (٥٩٩) ، وأبو نعيم (١٣٥/٧) ، والحاكم في المستدك (٤١٥/١) ، وابن حبان إحسان (٤٢٤٠) وأبو الشيخ في الأمثال (٨٠) . وفي إسناده وهب بن جابر الخيواني ، وثقه ابن معين والعجلي وذكره ابن حبان في ثقاته ، وقال الحاكم من كبار تابعي الكوفة ، وقال البخاري في التاريخ الكبير (١٦٣/٢/٤) سمع من عبد الله بن عمرو « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » وقال ابن المديني والنسائي : مجهول وله شاهد عند الطبراني في في الكبير (٣٨٢/١٢) ولكن من طريق إسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ، وإسماعيل في روايته عن غير الشاميين ضعف وهذا منها لأن موسى بن عقبة مدني ويشهد له حديث ابن عمرو عند مسلم (٩٩٦) بلفظ « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته ».

شهوات الدنيا مصائد هلاك

٣٥ـ فصل : تأملت في شهوات الدنيا فرأيتها مصائد هلاك ، وفخوخ تلف ، فمن قوى عقله على طبعه وحكم عليه يسلم ، ومن غلب طبعه فيا سرعة هلكته ؛ ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتتوق في التسري ، ثم يستعمل الحرارات المهيجة للباه ، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلف .

ولم أر في شهوات النفس أسرع هلاكاً من هذه الشهوة ، فإنه كلما مال الإنسان إلى شخص مستحسن أوجب ذلك حركة الباه زائداً عن العادة ، وإذا رأى أحسن منه زادت الحركة وكثر خروج المني زائداً عن الأول ، فيفنى جوهر الحياة أسرع شيء ، وبالضد من هذا أن تكون المرأة مستقبحة فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغي ، فيقع التأذي بالاحتباس وقوة التوق إلى منكوح . وكذلك المفرط في الأكل فإنه يجني على نفسه كثيراً من الجنايات ، والمقصر في مقدار القوت كذلك .

فعلمت أن أفضل الأمور أوسطها ، والدنيا مفازة فينبغي أن يكون السابق فيها العقل ، فمن سلم زمام راحلته إلى طبعه وهواه ، فيا عجلة تلفه – هذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا – فقس عليه أمر الآخرة فافهم .

٣٦ـ فصل : بلغني عن بعض زهاد زماننا أنه قـدم [١٨ / ب] إليه طعام فقال : لا آكل . فقيل له : لم ؟ قال : لأن نفسي تشتهيه ، وأنا منذ سنين ما بلغت نفسي ما تشتهي فقلت : لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين ، وسبب خفائها عدم العلم .

أما الوجه الأول : فإن النبي ﷺ لم يكن على هذا ولا أصحابه ، وقد كان ﷺ يأكل لحم الدجاج ، ويحب الحلوى والعسل ، ودخل فرقد السبخي على الحسن وهو يأكل الفالوذج . فقال : يا فرقد ما تقول في هذا ؟ فقال : لا آكله ولا أحب من أكله . فقال الحسن : لعاب النحل بلباب البر[١] مع سمن البقر ، هل يعيبه مسلم ؟.

---

(١) البر : القمح .

وكان رجل إلى الحسن فقال: إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج . فقال : ولم ؟ قال يقول : لا أؤدي شكره ، فقال : إن جارك جاهل وهل يؤدي شكر الماء البارد ؟

وكان سفيان الثوري : يحمل في سفره الفالوذج ، والحمل المشوي ، ويقول : إن الدابة إذا أحسن إليها عملت ، وما حدث في الزهاد بعدهم أمور من هذا الفن مسروقة من الرهبانية وأنا خائف من قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا** ﴾ [المائدة : ٨٧].

ولا يحفظ عن أحد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شيء إلا أن يكون ذلك لعارض ، وسبب ما يروى عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه اشتهى شيئاً فآثر به فقيراً ، وأعتق جاريته رميثة ، قال : إنها أحب الخلق إلي[١] ، فهذا وأمثاله حسن ، لأنه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره ، وأكثر لها من سواه ، فإذا وقع في بعض الأوقات ، كسرت بذلك الفعل سورة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد ، فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق ، فإنه يعمى قلبها ، ويبلد خواطرها ، ويشتت عزائمها ، فيؤذيها أكثر مما ينفعها .

وقد قال إبراهيم بن أدهم : إن القلب إذا أكره عمى ، وتحت مقالته سر لطيف ، وهو أن الله عز وجل قد وضع طبيعة الآدمي على معنى عجيب ؛ وهو أنها تختار الشيء من الشهوات ما يصلحها ، فتعلم باختيارها له صلاحه لها ، وصلاحها به ، وقد قال حكماء الطب : ينبغي أن يفسح للنفس فيما [١٩ / أ] تشتهي من المطاعم – وإن كان فيه نوع ضرر – لأنها إنما تختار ما يلائمها ، فإذا قمعها الزاهد في مثل هذا عاد على بدنه بالضرر ، ولولا جواذب في الباطن من الطبيعة ما بقي البدن . فإن الشهوة للطعام تبور ، فإذا وقعت الغنيمة[٢] بما يتناول كفت الشهوة ، فالشهوة مريد ورائد ، ونعم الباعث على مصلحة البدن ، غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى ، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق مع الأمن[٣]

(١) انظر صفة الصفوة (٥٦٨/١) .
(٢) في المخطوط : الغيبة .
(٣) في المخطوط : الأمر ، والمثبت أصح للمعنى .

من فساد العاقبة عاد ذلك بفساد أحوال النفس ، ووهن الجسم ، واختلاف السقم ؛ الذي تتداعى به جملة ، مثل أن يمنعها الماء عند اشتداد العطش ، والغذاء عند الجوع ، والجماع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى إن المغتم إذا لم يتروح بالشكوى قتله الكمد ، فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد علم أنه قد خالف طريق الرسول ﷺ وأصحابه ؛ من حيث النقل ، وخالف الموضوع في الحكمة ، ولا يلزم على هذا قول القائل : فمن أين يصفو المطعم ؟ لأنه إذا لم يَصْفُ كان الترك ورعاً ، وإنما الكلام في المطعم الذي ليس فيه ما يؤذي في باب الورع ، وكان ما شرحته جواباً للقائل : ما أبلغ نفسي شهوة على الإطلاق .

والوجه الثاني : أني أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك فصار يشتهي أن لا يتناول . وللنفس في هذا مكر خفي ، ورياء دقيق ، فإن سلمت من الرياء للخلق ، كانت الآفة من جهة تعلقها بمثل هذا الفعل ، وإدلالها في الباطن به ، فهذه مخاطرة وغلط .

وربما قال بعض الجهال : هذا صد عن الخير والزهد ، وليس كذلك ؛ فإن الحديث قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « **كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنا فَهُوَ رَدّ** »[1]. ولا ينبغي أن يغتر بعبادة جريج ، ولا بتقوى ذي الخويصرة ، ولقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول ﷺ ولا أصحابه . من إظهار التخشع الزائد في الحد ، والتنوق[2] في تخشين الملبس ، وأشياء صار العوام يستحسنونها ، وصارت لأقوام كالمعاش يجتنون من أرباحها ، كتقبيل اليد ، وتوفير التوفير ، وحراسة الناموس ، وأكثرهم في خلوته على غير حالته في جلوته[3] .

وقد كان [١٩ / ب] ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية .

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً فهو الأصل ، فمتى حصل أوجب معرفة المعبود

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) بلفظ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) أو لفظ (من عمل عملاً ..... الحديث) .

(٢) **التنوق** : المبالغة في الشيء .

(٣) أي : ظهوره من الجلاء ، وهو الظهور .

عز وجل ، وحرك إلى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه ، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص ، وأصل الأصول : العلم ، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه** ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

٣٧ـ فصل : تأملتَ جهاد النفس فَرأيته أعظمَ الجهاد ، ورأيت خلفاً من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق ، **وذلك غلط من وجهين** :

أحدهما : أنه رب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها ، مثل أن يمنعها مباحاً فيشتهر بمنعه إياها ذلك فيرضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح ، وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فضل عن سواه ممن لم يمنعها ذلك ، وهذه دفائن تحتاج إلى منقاش فهم يخلصها .

والوجه الثاني : أننا قد كلفنا حفظها ، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها ، فلابد من إعطائها ما يقيمها ، وأكثر ذلك أو كله ما تشتهيه ، ونحن كالوكلاء في حفظها ؛ لأنها ليست لنا بل هي وديعة عندنا ، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر ، ثم رب شد أوجب استرخاء ورب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجوا به العافيه ، ويذوب في المرارة قليل من الحلاوة ، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب ، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعاً ، ومن لقمة ربما حرمت لقمات ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقودها ، بل يرخي لها في وقت والطول[1] بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف ، فإن ونت[2] وأبت ، وإلا فبالعنت ، ويحبسها في مقام المداراة كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة ، فهي تدارى عند نشوزها[3] بالوعظ ، فإن لم تصلح فبالهجر ، فإن لم تستقم فبالضرب .

---

(١) **الطول** : الحبل الذي تقاد به الدابه .
(٢) **ونت** : فترت وتعبت .
(٣) **النشوز** : العصيان .

وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم ، هذه [٢٠ / ١] مجاهدة من حيث العمل فأما من حيث وعظها وتأنيبها ، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق ، وتتعرض بالدناءة من الأخلاق أن يعرفها تعظيم خالقها لها فيقول : ألست التي قال فيك : خلقتك بيدي ، وأسجدت لك ملائكتي ، وارتضاك للخلافة في أرضه ، وراسلك ، واقترض منك واشترى ؟ فإن رآها تتكبر ، قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين ، تقتلك شرقة ، وتؤلمك بقة . وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالي على العبيد ، وإن ونت في العمل حدثها بجزيل الأجر ، وإن مالت إلى الهوى ، خوفها من عظيم الوزر . ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية ، كقوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ** ﴾ [الأنعام : ٤٦]. والمعنوية كقوله تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] . فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل .

العلم بسنن الله تعالى يجلو البصيرة ويهدي إلى الصواب

٣٨ـ فصل : رأيت من البلاء العجاب ؛ أن المؤمن يدعو فلا يجاب ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثراً للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب ، ولقد عرض لي من هذا الجنس ؛ فإنه نزلت بي نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم أر الإجابة ، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده ، فتارة يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟ فقلت له : اخسأ يا لعين ، فما أحتاج إلى متقاضي ، ولا أرضاك وكيلاً ، ثم عدت إلى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو لكفى في الحكمة . قالت : فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة . **فقلت** : قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك ، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه .

والثاني : أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب ، من أشياء تؤذي

في الظاهر يقصد بها المصلحة ، فلعل هذا من ذاك .

والثالث : أنه قد يكون التأخير مصلحة ، والاستعجال مضرة ، وقد قال النبي ﷺ : ((**لا يزال العبد بخير** [٢٠ / ب] **ما لم يستعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي**))(١).

والرابع : أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك فربما يكون في مأكولك شبهة ، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة ، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه ، فابحثي عن بعض هذه الأسباب لعلك تقعي بالمقصود .

كما روى عن أبي يزيد ﷺ أنه نزل بعض الأعاجم في داره ، فجاء فرآه ، فوقف بباب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدخل ، فقلع طيناً جديداً قد طينه ، فقام الأعجمي وخرج ، فسئل أبو يزيد عن ذلك فقال : هذا الطين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة زال صاحبها .

وعن إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى : أنه خرج لإنكار منكر ، فنبحه كلب له فمنعه أن يمضي ، فعاد ودخل المسجد ، وصلى ثم خرج ، فبصبص له الكلب(٢) فمضى ، وأنكر فزال المنكر ، فسئل عن تلك الحال فقال : كان عندي منكر . فمنعني الكلب ، فلما عدت تبت من ذلك ، فكان ما رأيتم .

الخامس : أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب ، فربما كان في حصوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصلح ، وقد روى عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أسرت ، وإن أسرت تنصرت .

السادس : أنه ربما كان فَقْـدُ ما فقدتيه سبباً للوقوف على الباب واللُّجا ،

---

(١) **صحيح لغيره** : رواه أحمد (٣/١٩٣ ، ٢١٠) وأبو يعلى (٢٨٦٥) والطبراني في الأوسط (٨/٢٥ ، ٨/٥٩) وغيرهم من طريق أبي هلال الراسبي (محمد بن سليم) حدثنا قتادة عن أنس به مرفوعاً . وأبو هلال الراسبي . فيه ضعف . ورواه البزار (٣/٣٧ كشف) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٠٩) من طريق الحسن ويزيد الرقاشي عن أنس به ، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعاً يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي كما عند البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) ، وأحمد (٢/٤٨٧) .

(٢) بصبص الكلب : أي حرك ذنبه .

وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسئول ، وهذا الظاهر بدليل أنه لولا هذه النازلة [1] ما رأيناك على باب اللجا ، فالحق - عز وجل - علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه ، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه ، يستعينون به ، فهذا من النعم في طي البلاء ، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديه ، فبه جمالك .

وقد حكى عن يحيى البكاء : أنه رأى ربه - عز وجل - في المنام ، فقال : يا رب كم أدعوك ولا تجيبني ؟ فقال : يا يحيى إني أحب أن أسمع صوتك .

وإذا تدبرت هذه الأشياء تشاغلت بما هو أنفع لك ، من حصول ما فاتك من وقع [٢١ / أ] خلل ، أو اعتذار من زلل ، أو وقـــوف على الباب أو تسليم إلى رب الأرباب .

٣٩ ـ فصل : من نزلت به بلية ، فأراد تمحيقها ، فليتصورها أكثر مما هي فهي ، وليتخايل ثوابها وليتوهم نزول أعظم منها ، يرى الربح في الاقتصاد عليها وليتلمح سرعة زوالها ، فإنه لولا كرب الشدة ، ما روجيت ساعات الراحة ، وليعلم أن مدة مقامها عنده كمدة الضيف فليتفقد حوائجه من كل لحظة ، فيا سرعة انقضاء مقامه ، ويا لذة مدايحه وشره في المحافل ، ووصف المضيف بالكرم .

فكذلك الشدة ، ينبغي أن تراعى الساعات ، ويتفقد فيها أحوال النفس ، ويتلمح الجوارح ، مخافة أن يبدو من اللسان كلمة ، أو من القلب تسخط ، فكأن قد لاح فجر الأجر ، فانجاب ليل البلاء ، ومدح الساري بقطع الدجى ، فما طلعت شمس الجزاء ، إلا وقد وصل منْزلة السلامة .

٤٠ ـ فصل : لما رأيت رأي نفسي في العلم حسناً ، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول : أقوى دليل على فضله في النوافل أني رأيت كثيراً ممن شغلهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم ، عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول ، فرأيتها في هذا على الجادة السهلة ، والرأي الصحيح ، إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم ، فصحت بها : فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخـــوف ، أين القلق ، أين

(١) في المخطوط : المنازلة ، والمثبت أصح للمعنى .

الحذر ؟ أو ما سمعت بأخبار أخيار الأخبار في تعبدهم واجتهادهم ؟

أما كان رسول الله ﷺ سيد الكل ، ثم أنه قام حتى ورمت قدماه ، أما كان أبو بكر ﷺ شجي النشيج ، كثير البكاء . أما كان في خد عمر ﷺ خطين من آثار الدموع . أما كان عثمان ﷺ يختم القرآن في ركعة . أما كان علي ﷺ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ، ويقول : يا دنيا غري غيري .

أما كان الحسن البصري على قوة القلق . أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة . أما صام [٢١ / ب] الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟

أما قالت بنت الربيع بن خثيم له : ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف البيات . أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطاً في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر ؟ أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة ، وكان يقول : والهفاه سبقني العابدون ، وقطع بي ؟ أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف ؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف ؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم و- دهم ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد . فاحذري من الإخلاد إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكسالى الزمني .

وخـــذ لك منك على مهلة ومقبل عيشك لــم يدبــر
وخف هجمة لا تقبل العثار وتطوى الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعيــل يضمك فـــي حـــلبة المحشر

٤١ ـ **فصل** : مما يزيد العلم عندي فضلاً ، أن قوماً تشاغلوا بالتعبد عن العلم ، فوقفوا عن الوصول إلى حقائق الطلب ، فروى عن بعض القدماء أنه قال لرجل : يا أبا الوليد ، إن كنت أبا الوليد ، يتورع أن يكنيه ولا ولد له ، ولو أوغل هذا في العلم اعلم أن النبي ﷺ كنى صهيباً أبا يحيى ، وكنى طفـــلاً فقال : ((**يَا أَبَا عُمَيْرٍ ، مَا فَعَلَ النُّغَيْر ؟**))[1] وقال بعض المتزهدين : قيل لي يوماً : كُلْ من هذا اللبنَ . فقلت : هذا يضرني ، ثم وقفت بعد مدة عند الكعبة فقلت : اللهم

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) .

إنك تعلم أني ما أشركت بك طرفة عين ، فهتف بي هاتف ولا يوم اللبن ؟! وهذا لو صح جاز أن يكون تأديباً له ، لئلا يقف مع الأسباب ناسياً للمسبب ، وإلا فالرسول ﷺ قد قال : « **مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَر تَعَاوَدني حَتَّى الآن قَطَعَتْ أَبْهَرِي** »[1] . وقال : « **مَا نَفَعَني مَالٌ كَمَال أبي بَكْر** »[2].

من المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع الأسباب كلها ، وهذا جهل بالعلم . فإن النبي ﷺ دخل الغار ، وشاور الطبيب ، ولبس الدرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكة في جوار المطعم [٢٢ / أ] بن عدي وكان كافراً ، وقال لسعد : « **لأن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس** »[3] ، فالوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبب غلط ، والعمل على الأسباب مع تعلق القلب بالمسبب هو المشروع ، وكل هذه الظلمات إنما تقطع بمصباح العلم ، ولقد ضل من مشي في ظلمة الجهل أو في زقاق الهوى .

٤٢ ـ فصل : ما أزل أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء والأولياء ، فإن كان التفضيل بالصور ، فصورة الآدمي أعجب من ذوي أجنحة ، وإن تركت صورة الآدمي لأجل أوساخها المنوطة بها فالصورة ليست الآدمي إنما هي قالب . ثم قد استحسن منها ما يستقبح في العبادة ، مثل خلوف فم الصائم ، ودم الشهداء ، والنوم في الصلاة ، فبقيت صورة معمورة ، وصار الحكم للمعنى . أن لهم مرتبة : يحبهم ، أو فضيلة : يباهي بهم ، وكيف دار الأمر فقد سجدوا لنا وهو صريح في تفضيلنا عليهم ، فإن كان الفضيلة بالعلم فقد علمت القصة يوم ﴿ **سُبْحَانَكَ لاَ علْمَ لَنَا** ﴾ ﴿ **يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ . وإن فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهم فجوهرية أرواحنا من ذلك الجنس ، وعلينا

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٤٢٨) .

(٢) **إسناده صحيح** : رواه ابن ماجه (٩٤) والنسائي في الكبرى (٨١١٠) ، وأحمد (٢/٢٥٣) ، وابن حبان (٦٨٥٨) ، وابن أبي شيبة (١٢/٧٠٦) ، وغيرهم من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ « ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر » مرفوعاً . ووقع عند النسائي في المطبوع أبو عوانة والصواب أبو معاوية ويراجع لذلك تحفة الأشراف (٩/٣٨١) .

(٣) **صحيح** : سبق تخريجه .

أثقال أعباء الجسم ، تالله لولا احتياج الراكب إلى الناقة فهو يتوقف لطلب علفها ، ويرفق في السير بها ، لطرق أرض منى قبل العشر .

واعجباً أتفضل الملائكة بكثرة التعبد ، فما ثم صعاد[1] ، أو يتعجب من الماء إذا جرى ، أو من منحدر يسرع ، إنما العجب من مصاعد ؟ بلى قد يتصور منهم الخلاف ، ودعوى الإلهية لقدرتهم على دك الصخور وشق الأرض ، ولذلك توعدوا : ﴿ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٩] لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذروه .

فأما بعدنا عن المعرفة الحقيقية وضعف يقيننا بالناهي ، وغلبة شهوتنا مع الغفلة فتحتاج إلى جهاد أعظم من جهادهم ، تالله لو ابتلى أحد المقربين بما ابتلينا به لم يقدر على التماسك ، يصبح أحدنا وخطاب الشرع يقول له : اكسب لعائلتك ، واحذر في كسبك ، وقد تمكن منه ما ليس من فعله ، كحب الأهل ، وعلوق الولد بنياط القلب ، واحتياج بدنه إلى ما لابد منه ، فتارة يقال للخليل عليه السلام اذبح ولدك بيدك واقطع ثمرة فؤادك بكفك [٢٢ / ب] ، ثم قم إلى المنجنيق لترمى في النار[2] ، وتارة يقال لموسى عليه السلام صم شهراً ليلاً ونهاراً[3] ، ثم يقال للغضبان : اكظم ، وللبصير اغضض ، ولذي المقول اصمت ، ولمستلذ النوم تهجد ، ولمن مات حبيبه اصبر ، ولمن أصيب في بدنه اشكر ، وللواقف في الجهاد بين اثنين لا يحل أن تفر ، ثم اعلم أن الموت يأتي بأصعب المرارات فينزع الروح عن البدن ، فإذا نزل فاثبت ، واعلم أنك ممزق في القبر فلا تتسخط ، لأنه ما يجرى به القدر ، وإن وقع بك مرض فلا تشك إلى الخلق ، فهل للملائكة من هذه الأشياء شيء ؟ وهل ثم إلا عبادة ساذجة ليس فيها مقاومة طبع ، ولا رد هوى ، وهل هي إلا عبادة صورية بين ركوع وسجود وتسبيح فأين عبادتهم المعنوية من عبادتنا ؟ ثم أكثرهم في خدمتنا بين كتبة علينا ، ودافعين عنا ، ومسخرين لإرسال الريح والمطر ، وأكبر وظائفهم الاستغفار لنا ،

(١) في المخطوط : صاد . صعاد : صعود .

(٢) **لم أقف عليه** ، ولعله من الإسرائيليات .

(٣) **لم أقف عليه** ، ولعله من الإسرائيليات .

فكيف يفضلون علينا بلا علة ظاهرة ؟ وإذا ما حُكَّت على محك التجارب منهم كهاروت وماروت ، خرجوا أقبح من هرج .

ولا تظنن أني أعتقد في تعبد الملائكة نوع تقصير ، لأنهم شديدو الإشفاق والخوف ، لعلمهم بعظمة الخالق لكن طمأنينة من لم يخطيء تقوى نفسه ، وانزعاج الغايص في الزلل ترقى روحه إلى التراقي ، فأعرفوا إخواني شرف أقداركم ، وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم الذنوب فأنتم بعرض الفضل على الملائكة ، فاحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض البهائم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٤٣ ـ **فصل** : رأيت كثيراً من الخلق وعالماً من العلماء ، لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بعلم جهلها ، من غير بحث عن حقائقها كالروح مثلاً ، فإن الله تعالى سترها بقوله : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ فلم يقنعوا . وأخذوا يبحثون عن ماهيتها ولا يقعون بشيء . ولا يثبت لأحد منهم برهان على ما يدعيه .

وكذلك العقل ؛ فإنه موجود بلا شك ، كما أن الروح موجودة بلا شك ، وكلاهما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته ، فإن قال قائل : فما السر في كتم هذه الأشياء ؟ قلت : لأن النفس ما تزال تترقى من حالة إلى حالة [٢٣ / أ] ، فلو أطلعت على هذه الأشياء لترقت إلى خالقها ؛ فكان ستر ما دونه زيادة في تعظيمه ، لأنه إذا كان بعض مخلوقاته يعلم جملة فهو أجل وأعلى . ولو قال قائل : ما الصواعق ، وما البرق ، وما الزلازل ؟ قلنا : شيء مزعج ويكفي ، والسر في ستر هذا ؛ أنه لو كشفت حقائقه خف مقدار تعظيمه ومن تلمح هذا الفصل علم أنه فصل عزيز فإذا ثبت هذا في المخلوقات فالخالق أجل وأعلى فينبغي أن يوقف في إثباته على دليل وجوده .

ثم يستدل على جواز بعثه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولا يزاد على ذلك ، ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم فعاد وبال ذلك عليهم ، وإذا قلنا : أنه موجود وعلمنا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حي ، قادر ؛ كفانا هذا في صفاته ، ولا نخوض في شيء آخر .

وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه ، ولا نتكلف ما فوق ذلك . و لم يقل السلف تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا قالوا : استوى على العرش بذاته ، ولا قالوا : ينْزل بذاته ، بل اطلقوا ما ورد من غير زيادة ، ونقول : لما ثبت بالدليل ما لا يجوز عليه ، وهذه كلمات كالمثال فقس عليها جميع الصفات ، تفز سليماً من تعطيل ، متخلصاً من تشبيه .

٤٤ ـ فصل : رأيت أكثر الخلق في وجودهم كالمعدومين فمنهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يثبته على مقتضى حسه ، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف . فترى المترسمين بالزهد يدأبون في القيام والقعود ، ويتركون الشهوات ، وينسون ما قد أنسوا به من شهوة الشهرة ، وتقبيل الأيادي . ولو كلم أحدهم قال : ألمثلى يقال هذا ؟ ومن فلان الفاسق ، فهؤلاء لا يفهمون المقصود .

وكذلك كثير من العلماء في احتقارهم غيرهم ، والتكبر في نفوسهم ، فتعجبت كيف يصلح هؤلاء لمجاورة الحق ، وسكنى الجنة ؟ فرأيت أن الفائدة في وجودهم في الدنيا تجانس الفائدة في دخولهم الجنة ، فإنهم في الدنيا بين معتبر به ، يعرف عارف الله سبحانه نعمة الله عليه بما كشف له مما غطى عن ذاك ، ويتم النظام بالاقتداء . تصور أولئك ، فإن العارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف مع الصورة ، فالزاهد كراعي البهم . والعالم كمؤدب الصبيان ، والعارف ملقن الحكمة ، ولولا نعاظ الملك وحارسه ، ووقاد أتونه[1] ، ما تم عيشه .

فمن تمام عيش العارف استعمال أولئك بحسبهم ، فإذا وصلوا إليه حرر مانعهم ، وفيهم من لا يصل إليه ، فيكون وجود أولئك كزيادة – لا – في الكلام وهي حشو ، وهي مؤكدة ، فإن قال قائل : فهب هذا يصح في الدنيا ، فكيف في الجنة ؟ والجواب : أن الأنس بالجيران مطلوب ، ورؤية القاصر من تمام لذة الكامل[2] ولكل شرب . ومن تأمل ما أشرت إليه كفاه رمز لفظي عن تطويل الشرح .

---

(١) وقاد أتونه : نار موقدة ، الأتون : التنور ، وهو شيء كالموقد .
(٢) في المخطوط : الكلام . والمثبت أصح .

فتنة العلماء .. وقصور المعرفة

٤٥ـ فصل : لما تلمحت تدبير الصانع في سوق رزقي ، بتسخير السحاب ، وإنزال المطر برفق ، والبذر تحت الأرض كالموتى ، قد عفن ينتظر نفخه من صور الحياة ، فإذا به اهتز خضراً ، وانقطع عنه الماء ، مدّ يد الطلب يستعطى ، وأمال رأسه خاضعاً ، ولبس حلل التغير ، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس ، وبرودة الماء ، ولطف النسيم ، وتربية الأرض .

فسبحان من أراني فيما يربيني به ، كيف تربيتي في الأصل ، فيا أيتها النفس التي قد اطلعت على بعض حكمه ، قبيح بك والله الإقبال على غيره ، ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك ، ينادي لسان حاله بي مثل ما بك ، يا حمام ! فارجعي إلى الأصل الأول ، واطلبي من المسبب ، ويا طوبى لك أن عرفتيه ، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ـ فصل : كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد ، بإدامة الصوم والصلاة ، وحبب إليّ الخلوة ، فكنت أجد قلباً طيباً ، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة ، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات ، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة ، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي ، فأمالني إليه فمال الطبع ، ففقدت تلك الحلاوة ، ثم استمالني آخر ، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات ، وكانت حالتي قريبة ، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح ، فعدم ما كنت أجد . وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله ، فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتوبون ويصلحون ، وأخرج مفلساً [٢٤/أ] فيما بيني وبين حالي .

فكثر ضجيجي من مرضى ، وعجزت عن طب نفسي ، فلجأت إلى قبور الصالحين ، وتوسلت في صلاحي ، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني ، ورد قلبي على بعد نفوره عني ، وأراني عيب ما كنت أؤثره ، فأفقت من مرض غفلتي ! وقلت في مناجاة خلوتي : سيدي كيف أقدر على شكرك ؟ وبأي لسان أنطق بمدحك ؟ إذ لم تؤاخذني على غفلتي ، ونبهتني من رقدتي ، وأصلحت حالي على كره من طبعي ، فما أربحني فيما سلب مني إذ

كانت ثمرته اللجأ إليك ، وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالك[١] على الخلوة بك ، وما أغناني إذ أفقرتني إليك ، وما آنسني إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك ، آه على زمانٍ ضاع في غير خدمتك ! أسفاً لوقت مضى في غير طاعتك .

قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طول الليل ، وإذا انسلخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم ، وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض .

فالآن قد هبت نسائم العافية ، فأحسست بالألم فاستدللت على الصحة ؛ فيا عظيم الإنعام تمم لي العافية ، آه من سكر لم يعلم قدر عربدته إلا في وقت الإفاقة ! لقد فتق[٢] ما يصعب رتقه[٣] ، فوا أسفا على بضاعة ضاعت ، وعلى ملاح تعب في موج الشمال مصاعداً مدة ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول .

يا من هو تحديري من التخليط ، فإني وإن كنت خنت نفسي بالفعل نصيح لإخواني بالقول ، احذروا إخواني من الترخص فيما لا يؤمن فساده ؛ فإن الشيطان يزين المباح في أول مرتبة ، ثم يجر إلى الجناح ، فتلمحوا المآل ، وافهموا الحال ، وربما أراكم الغاية الصالحة ، وكان في الطريق إليها نوع مخالفة ، فيكفي الاعتبار في تلك الحال بأبيكم : ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى** ﴾ ؟ [طه : ١٢٠] . إنما تأمل آدم الغاية وهي الخلد ، ولكنه غلطَ في الطريق .

وهذه أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء ، يتأولون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرر المفاسد ؛ مثاله أن يقول للعالم ادخل على هذا الظالم فاشفع في مظلوم ، فيستعجل الداخل رؤية المنكرات ، ويتزلزل دينه ، وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم ، فمن لم يثق بدينه فليحذر من المصائد ، فإنها خفية ، وأسلم ما للجبان [٢٤ / ب] العزلة ، خصوصاً في زمان قد مات فيه المعروف ، وعاش المنكر ، ولم يبق لأهل العلم وقع عند الولاة ؛ فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز ، ولم يقدر على جذبهم مما هم فيه .

ثم من تأمل العلماء الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين من نفع

---

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب إقبالي .

(٢) **الفتق** : القطع .

(٣) **الرتق** : الإصلاح .

العلم قد صاروا كالشرط ؛ فليس إلا العزلة عن الخلق ، والإعراض عن كل تأويل فاسد في المخالطة ؛ ولأن أنفع نفسي وحدي خير لي من أن أنفع غيري وأتضرر .

فالحذر الحذر من خوادع التأويلات ، وفواسد الفتاوى ، والصبر الصبر على ما توجبه العزلة ؛ فإنه إن انفردت بمولاك فتح لك باب معرفته ، فهان كل صعب ، وطاب كل مر ، وتيسر كل عسر ، وحصلت على المطلوب ، والله الموفق بفضله ، ولا حول ولا قوة إلا به .

٤٧ ـ فصل : تأملت على نفسي تأويلاً في مباح أنال به شيئاً من الدنيا ، إلا أنه في باب الورع كدر ؛ فرأيته أولاً قد احتلب در الدين فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى ، ثم عاد فقلص ضرع حلبي له فوقع الفقد للحالين ، فقلت لنفسي : ما مثلك إلا كمثل وال ظالم جمع من غير حله فصودر ، فأخذ منه الذي جمع واجتر ما لم يجمع . فالحذر الحذر من فساد التأويل ، فإن الله تعالى لا يخادع ، ولا ينال ما عنده بمعصيته .

٤٨ ـ فصل : رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو اتعظت بدارج ، أو زارت قبور الصالحين ، تتحرك همتها في طلب العزلة ، والإقبال على معاملة الله تعالى . فقلت لها يوماً : وقد كلمتني في ذلك ؛ حدثيني ما مقصودك ؟ وما نهاية مطلوبك ؟ أتراك تريدين مني أن أسكن قفراً لا أنيس به ، فتفوتني صلاة الجماعة ، ويضيع مني ما قد علمته لفقد من أعلمه ، وأن آكل الخشب الذي لم أتعوده ، فيقع نضوى طلحا[1] في يومين ، وأن ألبس الخشن الذي لا أطيقه ، فلا أدري من كرب محمولي أين أنا ؟ وأن أتشاغل عن طلب ذرية تتعبد بعدي مع بقاء القدرة على الطلب ، بالله ! ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك ، وأنا أعرف غلط ما وقع لك بالعلم .

اعلمي أن البدن مطية ، والمطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المنْزل ، وليس مرادي بالرفق الإكثار من الشهوات ، وإنما أعني أخذ البلغة الصالحة للبدن ، فحينئذ [٢٥ / أ] يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى الذهن ، ألا ترى إلى

---

(١) **الطلح** : الشجر العظام .

تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله ﷺ : ((**لاَ يَقْضِي القَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ**))[١] ، وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجرى مجراه من كونه حاقناً[٢] ، أو حاقباً[٣] ، وهل الطبع إلا ككلب يشغله الأكل ، فإذا رمى له ما يتشاغل به طاب له الأكل .

فأما الانفراد والعزلة فعن الشر لا عن الخير ، ولو كان فيها لك وقع خير لنقل عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ﷺ .

هيهات لقد عرفت أن أقواماً دام بهم التقلل واليبس إلى أن تغير فكرهم ، وقوى الخلط السوداوي عليهم ، فاستوحشوا من الناس ، ومنهم من اجتمعت له من المآكل الردية أخلاط مجه . فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو يظن ذلك من إمداد اللطف ، وإذا به من سوء الهضم .

وفيهم من ترقى به الخلط إلى رؤية الأشباح فيظنها الملائكة ، فالله الله في العلم ، والله الله في العقل ، فإن نور العقل لا ينبغي أن يتعرض بإطفائه ، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه ، فإذا حُفظا حَفظا وظائف الزمان ، ودفعا ما يؤذي ، وجلبا ما يصلح ، وصارت القوانين مستقيمة في المطعم والمشرب والمخالطة .

فقالت لي النفس : فوظف لي وظيفة وأحسبني مريضاً قد كتبت له شربة . فقلت لها : قد دللتك على العلم وهو طبيب ملازم ؛ يصف كل لحظة لكل داء يعرض دواء يلائم . وفي الجملة ينبغي لك ملازمة تقوى الله - عز وجل - في المنطق والنظر ، وجميع الجوارح ، وتحقيق الحلال في المطعم ، وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من الخير ، ومناهبة الزمان في الأفضل ، ومجانبة ما يؤدي إلى ما يؤذي من نقص ربح أو وقوع خسران . ولا تعملي عملاً إلا بعد تقديم النية ، وتأهبي لمزعج الموت فكأن قد ، وما عندك من محبة في أي وقت يكون ، ولا تتعرضي لمصالح البدن ، بل وفريها عليه وناوليه إياها على قانون الصواب ، لا على مقتضى الهوى ، فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين .

---

(١) **متفق عليه** : رواه البخاري (٧١٥٨) ومسلم (١٧١٧) .
(٢) **الحاقن** : الحابس لبوله .
(٣) **الحاقب** : المحبوس غائطه .

ودعي الرعونة التي يدل عليها الجهل لا العلم ؛ من قول النفس فلان يأكل الخل والبقل ، وفلان لا ينام الليل ، فاحملي ما تطيقين . وما قد علمت قوة البدن عليه ؛ فإن البهيمة إذا أقبلت إلى نهر أو ساقية فضربت لتقفز ؛ لم تفعل [٢٥ / ب] حتى تزن نفسها ، فإن علمت فيها قوة الطفر[1] طفرت ، وإن علمت أنها لا تطيق لم تفعل ، ولو قتلت .

وليس كل الأبدان تتساوى في الإطاقة ، ولقد حمل أقوام من المجاهدات في بداياتهم أشياء أوجبت أمراضاً قطعتهم عن خير ، وتسخطت قلوبهم بوقوعها . فعليك بالعلم ؛ فإنه شفاء من كل داء ، والله الموفق .

٤٩ـ فصل : عجبت من أقوام يدعون العلم ، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمروها كما جاءت سلموا ، لأن من أمر ما جاء ومر من غير اعتراض ولا تعرض ، فما قال شيئاً لا له ولا عليه ، ولكن أقواماً قصرت علومهم ، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا ؛ وما هم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء[2] فقالت :

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى داءها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة شفاها

فلما أتمت القصيدة . قال لكاتبه : اقطع لسانها ؛ فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى . فقالت له : ويلك إنما قال أجزل لها العطاء ، ثم ذهبت إلى الحجاج فقالت : كاد والله يقطع مقولي . فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم ، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لم أَلُمْهُ . وهذه طريقة السلف .

فأما من قال : الحديث يقتضي كذا ، ويحمل على كذا ، مثل أن يقول : استوى على العرش بذاته ، وينْزل إلى السماء الدنيا بذاته ؛ فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا من النقل ، ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له ابن عبد البر ؛ صنف كتاب « التمهيد » فذكر فيه حديث النُزول إلى السماء الدنيا فقال :

---

(١) الطفر : القفز .

(٢) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمى فانظر ترجمتها في وفيات الأعيان (١٤) .

هذا يدل على أن الله تعالى على العرش ؛ لأنه لولا ذلك لما كان لقوله « ينْزل » معنى(١) .

وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل ؛ لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الأجسام ، فقاس صفة الحق عليه . فأين هؤلاء وأتباع الأثر ، ولقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأولون ، ثم عابوا المتكلمين .

واعلم أيها الطالب للرشاد ، أنه قد سبق إلينا من العقل والنقل أصلان راسخان . عليهما مر الأحاديث كلها ، أما النقل فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١].

ومن فهم هذا لم يحمل وصفاً له على ما يوجبه [٢٦ / أ] الحس ؛ وأما العقل فإنه قد [علم] مباينة الصانع للمصنوعات ، واستدل على حدثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع .

واعجب كل العجب من راد لم يفهم . أليس في الحديث الصحيح : « **أن الموت يذبح بين الجنة والنار** »(٢) ، أو ليس العقل إذا استغنى في هذا صرف الأمر عن حقيقته لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت فقال : الموت عرض يوجب بطلان الحياة ؛ فكيف يمات الموت ؟ فإذا قيل له فما تصنع بالحديث ؟ قال : هذا ضرب مثل بإقامة صورة ليعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى . قلنا له : فقد روى في الصحيح : « **تَأْتِي البَقَرَةُ وَآل عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَان** »(٣). فقال : الكلام لا يكون غمامة ، ولا يتشبه بها ، قلنا له : أفتعطل النقل ، قال : لا ، ولكن يأتي ثوابهما ، قلنا : فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق ؟ فقال : علمي بأن الكلام لا يتشبه بالأجسام ، والموت لا يذبح ذبح الأنعام ، ولقد علمتم سعة لغة العرب . ما ضاقت أعطانكم من سماع مثل هذا ! فقال العلماء : صدقت .

---

(١) **ينظر كلام الإمام ابن عبد البر في « التمهيد ٧/١٤٤ » وتناقض ابن الجوزي في إثبات الصفات تارة ونفيها تارة** . الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/١٦٥ – ١٧٠ ، ٥/٤٠٠ وما بعدها) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .

(٣) **صحيح** : رواه مسلم (٨٠٤) .

هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة ، وفي ذبح الموت ، فقال : واعجباً لكم صرفتم عن الموت الكلام ما لا يليق بهما ، حفظاً لما علمتم من حقائقهما فكيف لم تصرفوا عن الإله القديم ما يوجب التشبيه له بخلقه ، بما قد دل الدليل على تنْزيهه عنه ، فما زال يجادل الخصوم بهذه الأدلة . ويقول : لا أقطع حتى أقطع ، فما قطع حتى قطع .

٥٠ ـ فصل : تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظاً . مع ثبوت حكمها إجماعاً[1] ، فوجدت لذلك معنيين :

أحدهما : لطف الله تعالى بعباده في أنه لا يواجههم بأعظم المشاق ؛ بل ذكر الجلد ، وستر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء : إن الله تعالى قال في المكروهات ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾ [البقرة : ١٨٣]. على لفظ لم يسم فاعله . وإن كان قد علم أنه هو الكاتب ، فلما جاء إلى ما يوجب الراحة قال : ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام : ٥٤].

والوجه الثاني : أنه يبين بذلك فضل الأمة في بذلها النفوس قنوعاً ببعض الأدلة فإن الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلاً ؛ إلا أنه ليس كالدليل المتفق لأجله ، ومن هذا الجنس شروع الخليل – عليه الصلاة والسلام – في ذبح ولده بمنام ، وإن كان الوحي في اليقظة آكد .

٥١ ـ فصل : عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي إلى الله تعالى وحده ، عالماً بأنه لا يقدر على جلب نفعي ودفع ضري سواه ، ثم قمت أتعرض بالأسباب ؛ فأنكر عليّ يقيني ، وقال : هذا قدح في التوكل ، فقلت : ليس كذلك . فإن الله تعالى وضع من الحكم ، وكان معنى حالي أن ما وضعت لا يفيد ، وأن وجوده كالعدم . وما زالت الأسباب في الشرع كقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٢]. وقال تعالى : ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ [يوسف : ٤٧].

وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين ، وشاور طبيبين ، ولما خرج إلى الطائف لم

---

(١) الرجم ثابت في الكتاب ثم نسخ لفظه وبقي حكمه ، انظر البخاري (٦٨٣٠) ، ومسلم (١٦٩١) ، وأحمد (١٨٣/٥) .

يقدر على دخول مكة ؛ حتى بعث إلى المطعم بن عدي فقال أدخل في جوارك ، وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلاً بلا سبب .

فإذا جعل الشرع الأمور منوطة بالأسباب ؛ كان إعراضي عن الأسباب دفعاً للحكمة ، ولهذا أرى أن التداوي مندوب إليه ، وقد ذهب صاحب مذهبي إلى أن ترك التداوى أفضل ، ومنعني الدليل من اتباعه في هذا فإن الحديث [الصحيح] أن النبي ﷺ قال : ((**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلاَّ وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا**))[1] ومرتبة هذه اللفظة الأمر ، والأمر إما أن يكون واجباً ، أو ندباً ، ولم يسبقه حظر ؛ فيقال : هو أمر إباحة .

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : تعلمت الطب من كثرة أمراض رسول الله ﷺ ، وما ينعت له[2] . وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : ((**كل من هذا فإنه أوفق لك من هذا**))[3] ، ومن ذهب إلى أن تركه أفضل احتج بقوله ﷺ : ((**يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفاً بلاَ حِسَاب**)) ثم وصفهم فقال : ((**لاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**))[4] وهذا لا ينافي التداوي. لأنه قد كان أقوام يكتوون لئلا يمرضوا ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة ، وقد كوى ﷺ أسعد بن زرارة ، ورخص في الرقية في الحديث الصحيح[5] . فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه .

وإذا عرفت الحاجة إلى إسهال الطبع ، رأيت أن أكل البلوط مما يمنع عنه علمي

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة نحوه ، ومسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر .

(٢) رواه الحاكم (١٩٧/٤) نحوه **بإسناد صحيح** من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، وانظر الطب النبوي لأبي نعيم ص ١٦ .

(٣) **إسناده ضعيف** : رواه أبو داود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٤٢) ، والطبراني في الكبير (١٤٩/٢٥ مختصراً) ، والحاكم (٢٠٤/٤) مختصراً من طريق فليح بن سليمان عن أيوب بن عبد الرحمن عن يعقوب بن أبي يعقوب مرة عن أم المنذر العدوية ومرة أخرى عن أم مبشر وفليح بن سليمان ضعيف ، وهذا اضطراب من فليح .

(٤) **صحيح** : رواه البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢١٨) .

(٥) حديث الترخيص في الرقية من حديث عائشة عند البخاري (٥٧٤١) ، ومن حديث أنس عند مسلم (٢١٩٦) ، وانظر مسلم (٢٢٠٠) .

وشرب ماء التمر هندي أوفق ، وهذا طب . فإذا لم أشرب ما يوافقني ، ثم قلت اللهم عافني ، قالت [٢٧ / أ] لي الحكمة : [أما سمعت] « **اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ** »[١] اشرب وقل عافني ، ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كَف من تراب ، تكاسل أن يرفعه بيده ، ثم قام يصلي صلاة الاستسقاء . وما هذه الحالة إلا كحال من سافر على التجربة وإنما سافر على التجربة لأنه يجرب ربه - عز وجل - هل يرزقه أو لا ، وقد تقدم الأمر إليه : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا** ﴾ فقال : لا أتزود . فهذا هالك قبل أن يهلكه .

ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماء ليمَ على تفريطه ، وقيل له : هلا استصحبت الماء قبل المفازة ، فالحذر الحذرَ من أفعال أقوام دققوا فمرقوا عن الأوضاع الدينية ، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للأوضاع ، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه ؛ لما قدرت [على شرح] هذا ولا عرفته ، فافهم ما أشرت إليه ، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها ، ولكن مع أهل المعاني لا مع أهل الحشو .

العناية بالبدن والصبر والرضا

٥٢ـ فصل : تلمحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الأكل ، ومنهم من لا ينقي يديه في غسلها من الزهم[٢] ،

---

(١) **حسن لغيره** : رواه الترمذي (٢٥١٧) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٩٠) ، وابن أبي الدنيا في التوكل (١٢) من طريق المغيرة بن أبي قرة السدوسي قال : سمعت أنس فذكره . وفي الإسناد المغيرة بن أبي قرة وهو مستور . ونقل الترمذي قول يحيى بن سعيد القطان وهذا عندي حديث منكر . وقال أبو عيسى (الترمذي) وهذا غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد روى عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا وله شاهد من حديث عمرو بن أمية . رواه ابن حبان (٧٣١) كما في الإحسان ، والحاكم (٣/٦٢٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٦٣٣) من طريق حاتم بن إسماعيل عن يعقوب بن عمرو بن عبد الله بن أمية الضمري عن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عمرو بن أمية فذكره مرفوعاً نحوه ، ويعقوب بن عمرو بن عبد الله ذكره ابن حبان في الثقات (٧/٦٤٠) وروى عنه اثنان فهو مجهول والحديث يحسن بالطريقين والله أعلم ، والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٨) .

(٢) الراهم : هو رائحة الدسم .

ومنهم من لا يكاد يستاك ، وفيهم من لا يكتحل ، وفيهم من لا يراعي الإبط إلى غير ذلك ؛ فيعود هذا الإهمال بالخلل من الدين والدنيا ، أما الدين : فإنه قد أمر المؤمن بالتنظيف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس ، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم ، وأمر الشرع بتنقية البراجم[1] ، وقص الأظفار ، والسواك ، والاستحداد[2] وغير ذلك من الآداب ، فإذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع ، وربما تعدى بعض ذلك إلى فساد العبادة ، مثل أن يهمل أظفاره فيجمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل .

وأما الدنيا : فإني رأيت جماعة من المهملين أنفسهم يتقدمون إلى السرار ؛ والغفلة التي أوجبت إهمالهم أنفسهم ؛ أوجبها جهلهم بالأذى الحادث عنهم ؛ فإذا أخذوا في مناجاة السر ؛ لم يمكن أن أصدف عنهم ، لأنهم يقصدون السر ؛ فألقى الشدائد من ريح أفواههم ، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمر أصبعه على أسنانه ، ثم يوجب مثل هذا نفور المرأة وقد لا تستحسن ذكر ذلك للرجل فيثمر ذلك التفاتها عنه ، وقد كان ابن عباس ﷺ يقول : إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي .

وفي الناس من يقول : هذا تصنع [٢٧ / ب] وليس بشيء ؛ فإن الله تعالى زيننا لما خلقنا ؛ لأن للعين حظا في النظر ، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين ، وحسن ترتيب الخلقة ، علم أن الله تعالى زين الآدمي ، وقد كان النبي ﷺ [أنظف الناس وأطيب الناس ، وفي الحديث عنه] ﷺ يرفع يديه ؛ حتى تبين عفرة إبطيه ، وكان ساقه ربما انكشف فكأنها جمارة[3] وكان لا يفارقه السواك ، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة .

وفي حديث أنس الصحيح : « **مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاء** »[4] وقد قال الحكماء :

---

(١) **البراجم** : جمع برجم ، وهي مفاصل الأصابع .

(٢) **الاستحداد** : حلق شعر العانة بالموس .

(٣) **الجمار** : قلب النخلة .

(٤) **صحيح** : رواه مسلم (طرف حديث ٢٣٤١) من حديث أنس أنه سئل عن شيب النبي ﷺ فقال : « ما شانه ببيضاء » .

من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله ، وقال ﷺ لأصحابه : ((**ما لكم تدخلون عليّ قلحا**[1]. **استاكوا**))[2] وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع منها عندها ، وقد قال الحكماء : من طال ظفره قصرت يده ، ثم إنه يقرب من قلوب الخلق ، وتحبه النفوس لنظافته وطيبه ، وقد كان النبي ﷺ يحب الطيب[3] .

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فإن النساء شقائق الرجال ، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهي لا تصبر ، وقد رأيت جماعة يزعمون أنهم زهاد ، وهم من أقذر الناس ، وذلك أنهم ما قوّمهم العلم .

وأما ما يحكى عن داود الطائي : أنه قيل له لو سرحت لحيتك ، فقال : إني عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة ، والأخبار عن غيبته عن نفسه بشدة خوفه من الآخرة ، ولو كان مفيقاً لذلك لم يتركه ، فلا يحتج بحال المغلوبين ، ومن تأمل خصائص الرسول ﷺ رأى كاملاً في العلم والعمل فبه يكون الاقتداء وهو الحجة على الخلق .

٥٣ ـ فصل : تأملت مبالغة أرباب الدنيا في اتقاء الحر والبرد ؛ فرأيتها تعكس المقصود في باب الحكمة ، وإنما تحصل مجرد لذة ولا خير في لذة تعقب ألماً . فأما الحر فإنهم يشربون الماء المثلوج ، وذلك على غاية في الضرر ، وأهل

---

(١) القلح : الفار الذي يصيب الأسنان .

(٢) **إسناده ضعيف** : رواه أحمد (٢١٤/١) والطبراني (١٣٠١) عن طريق سفيان الثوري عن أبي على الزراد (الصيقل) عن جعفر بن تمام بن عباس به مرفوعاً ، وفي الإسناد الصيقل وهو مجهول . قال الحافظ في لسان الميزان (٩٢/٨ ط الفاروق) ورواية الثوري عنه في مسند الإمام أحمد ، وكأن منصور أسقط من السند ، فإن الحديث مشهور عن منصور كما رواه عنه فضيل بن عياض وبحر وعبد الحميد وزائدة وسنان بن عبد الرحمن وقيس بن الربيع وهؤلاء الثلاثة من أقران سفيان . قلت : وأخرجه الطبراني (١٣٠٢ ، ١٣٠٣) ، والبزار (٤٩٨ كشف) ، والحاكم (١٤٦/١ مختصراً) من طريق منصور عن أبي على الصيقل به . زاد في البزار والحاكم عن العباس وتفرد بذلك عمرو بن عبد الرحمن الأبار .

(٣) صح عند البخاري (٢٥٨٢) من حديث أنس : أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب ، وروى معلقاً عند البيهقي في السنن (٦٢/٥) بلفظ : كان رسول الله ﷺ يحب الطيب ولا يحب ريح الحناء .

الطب يقولون : إنه يحدث أمراضاً صعبة يظهر أثرها في وقت الشيخوخة ، ويصنعون الخيوش المضاعفة ، وفي البرد يصنعون اللبود المانعة للبرد ، وهذا من حيث الحكمة مضاد ما وضعه الله تعالى ؛ فإنه جعل الحر لتحلل الأخلاط ، والبرد لجمودها ، فيجعلون هم جميع السنة ربيعاً ، فتنعكس الحكمة التي وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الأذى على [٢٨ / أ] الأبدان .

ولا يظنن سامع هذا أني آمره بملاقاة الحر والبرد وإنما أقول له : لا يفرط في التوقي ، ويعرض في الحر لما يحلل بعض الأخلاط إلى حد لا يؤثر في القوة . وفي البرد بأن يصيبك منه الأمر القريب لا المؤذي ، فإن الحر والبرد لمصالح البدن . وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد أصلاً فزاد جوفه فمات عاجلاً ، وقد ذكرت قصته في كتاب « لقط المنافع في علم الطب » .

٥٤ ـ فصل : ليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ؛ ولا فيه أفضل من الرضا به ، فأما الصبر : فهو فرض ، وأما الرضا فهو فضل ، وإنما صعب الصبر لأن القدر يجري في الأغلب بمكروه النفس ، وليس مكروه النفس يقف على المرض والأذى في البدن ، بل هو يتنوع حتى يتحير العقل في جريان القدر . فمن ذلك : أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتها حتى لا يدري ما يصنع بالمال ، فهو يصوغه أواني يستعملها . ومعلوم أن البلور والعقيق والشبه ، قد يكون أحسن منها صورة ، غير أن قلة مبالاته بالشريعة جعلت عنده وجود النهي كعدمه ، ويلبس الحرير ، ويظلم الناس ، والدنيا منصبة عليه ، ثم يرى خلقاً من أهل الدين ، وطلاب العلم مغمورين بالفقر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية تلك الظالم ، فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسواس ، ويبتدئ بالقدح في حكمة القدر ؛ فيحتاج المؤمن إلى صبر على ما يلقى من الضر في الدنيا ، وعلى جدال إبليس في ذلك ، وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين ، والفساق على أهل الدين ، وأبلغ من هذا إيلام الحيوان ، وتعذيب الأطفال ، ففي مثل هذه المواطن يتحمض الإيمان . ومما يقوى الصبر على الحالتين النقل والعقل . أما النقل فالقرآن والسنة . **وأما القرآن فمنقسم إلى قسمين** :

أحدهما : بيان سبب إعطاء الكافر والعاصي ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ﴿ **وَلَوْلاَ أَنْ**

يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٣٣] ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦] ، وفي القرآن من هذا كثير .

والقسم الثاني : ابتلاء المؤمن بما يلقى ؛ كقوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٤٢]. ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا** ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤]. ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ** ﴾ [التوبة : ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير .

وأما السنة فمنقسمة إلى قول وحال . أما الحال : فإنه ﷺ كان يتقلب على رمال حصير تؤثر في جنبه ، فبكى عمر ﷺ وقال : كسرى وقيصر في الحرير والديباج ، فقال له ﷺ : ((**أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا عُمَرُ ؟ أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا ؟**))(١) وأما القول فكقوله ﷺ : ((**لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تُسَاوِي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**))(٢) .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) .

(٢) **حسن لشواهده** : رواه الترمذي (٢٤٢٢) والعقيلي في الضعفاء (٤٦/٣) وابن عدي في الكامل (٥/ ٣١٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣) من طريق عبد الحميد بن سليمان أخو فليح . عن أبي حازم عن سهل بن سعد مرفوعاً . وعبد الحميد ضعيف . تابعه زكريا بن منظور وهو ضعيف . عند ابن ماجه (٤١١٠) والحاكم (٣٠٦/٤) والطبراني في الكبير (٥٨٤٠) والبغوي (٤٠٢٧) وابن أبي حاتم في العلل (١٠٩/٢) مختصراً . قال أبو حاتم وهذا خطأ رواه يعقوب الاسكندراني عن أبي حازم عن عبيد الله بن بولا عن رجل من المهاجرين عن النبي ﷺ وهذا أشبه وزكريا لزم الطريق : قلت : ما حال زكريا هذا ؟ قال ليس بقوى . وتابعهما زمعة بن صالح ، وهو ضعيف ، عند الطبراني (٥٩٢١) ولهذا الحديث شواهد .

١- حديث أبي هريرة : رواه البزار عن (٣٦٩٣ كشف) والقضاعي (١٤٤٠) وابن عدي في الكامل (٢٣٠/٦) من طريق محمد بن عمار عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة به مرفوعاً . وصالح مولى التوأمة ضعيف مختلط . وذكر ابن عدي هذا الحديث وغيره ترجمه محمد بن عمار ثم قال : وهذه الأحاديث يرويها ، محمد بن عمار المؤذن من صالح مولى التوأمة إلى إن قال وهذه الأحاديث تعرف بمحمد بن عمار هذا .

٢- حديث ابن عمر : رواه القضاعي (١٤٣٩) والخطيب (٩٢/٤) من طريق أبي جعفر محمد بن أبي عـــون ثنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن ابن عمر وهذا إسناد صحيح ولكن قال عنه =

وأما العقل : فإنه يقوى عساكر الصبر بجنود منها أن يقول : قد ثبتت عندي الأدلة القاطعة [على] حكمة المقدر ، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خللاً .

ومنها أن يقول : ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصي [هي] قبض في المعنى ، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسط في المعنى ، لأن ذلك البسط يوجب عقاباً طويلاً ، وهذا القبض يؤثر انبساطاً في الأجر جزيلاً ، فزمان الرجلين ينقضي عن قريب ، والمراحل تطوى ، والركبان في الحثيث .

ومنها أن يقول : قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير ، وأن زمن التكليف كبياض نهار ، ولا ينبغي للمستعمل في الطين أن يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل ، فإذا فرغ تنظف ولبس أجود ثيابه . فمن ترفه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجر . وعوقب على التواني فيما كلف ، فهذه النبذة تقوى أزر الصبر ، وأزيدها بسطاً فأقول : أترى إذا أريد اتخاذ شهداء ، فكيف لا يُخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين ، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة ؟ وبعليّ إلا مثل ابن ملجم ؟ أفيصلح أن يقتل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر ، ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا[1] ؛ لرأيت المسبب لا الأسباب ، والمقدر لا الأقدار ، فصبرت على بلائه ، إيثاراً لما يريد ، ومن ها هنا ينشأ

= الخطيب . هذا غريب جداً . من حديث مالك لا أعلم رواه غير أبي جعفر بن أبي عون عن أبي مصعب وعنه على بن عيسى الماليني وهو ثقة .

٣- رجال من أصحاب النبي ﷺ : رواه البغوي (٤٠٢٦) وابن المبارك في الزهد (٥٠٩) من طريق إسماعيل بن عياش قال : حدثني عثمان بن عبيد بن رافع أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ فذكروه مرفوعاً . وهذا إسناد ضعيف فيه إسماعيل بن عياش وروايته عن غير الشاميين فيها ضعف وعثمان ابن عبيد مدني ، ثم إن عثمان فيه جهالة فقد ذكره ابن أبي حاتم (١٥٦/٦) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .

٤- **عن الحسن مرسلاً** : رواه ابن المبارك في الزهد (٦٢٠) عن حديث ابن السائب حدثنا الحسن فذكره مرسلاً وحديث بن السائب قال الحافظ : صدوق الخطيء .

٥- **عمرو بن مرة مرسلاً** : رواه هناد في الزهد (٨٠٠) من طريق أبي سنان عن عمرو بن مرة . وصححه الشيخ الألباني لشواهده كما في الصحيحة (٩٤٣) .

(١) **العشا** : مرض يصيب العين فلا يجعلها ترى بالليل .

الرضا ، كما قيل لبعض أهل البلاء : ادع الله بالعافية ، فقال : أحبه إليَّ أحبُّه إلى الله ﷻ .

إن كان رضاكم في سهري فسلام الله علــى وسني[1]

٥٥ ـ فصل : لما أنهيت[2] كتابة الفصل المتقدم هتف بي هاتف من باطني : دعني [٢٩ / أ] من شرح الصبر على الأقدار ، فإني قد اكتفيت بأنموذج ما شرحت ، وصف حال الرضا ؛ فإني أجد نسيماً من ذكره فيه روح للروح ، فقلت : أيها الهاتف اسمع الجواب ، وافهم الصواب .

إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفته رضيت بقضائه ، وقد يجري في ضمن القضاء مرارات ؛ يجد بعض طعمها الراضي ، أما العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة ، فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة ، صارت مرارة الأقدار حلاوة كما قال القائل :

عــذابه فيك عــذب وبعــدك فيه قــرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحــب
حسبي من الحب أنــي لمــا تحــب أحــب

وقال بعض المحبين في هذا المعنى :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعلــه فيحسن منك ذاكــا

فصاح بي الهاتف ؛ حدثني بماذا أرضى ؟ قدر أني أرضى في أقداره بالمرض والفقر ، أفأرضى بالكسل عن خدمته ، والبعد عن أهل محبته ؟ فبين لي ما الذي يدخل تحت الرضا مما لا يدخل ؟ فقلت له : نعم ما سألت ؛ فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيد ، ارض بما منه . فأما الكسل والتخلف فذاك منسوب إليك ، فلا ترض به من فعلك ، وكن مستوفياً حقه عليك ، مناقشاً نفسك فيما يقربك منه ، غير راض منها بالتواني في المجاهدة ، فأما ما يصدر من أقضيته المجردة التي لا كسب لك فيها . فكن راضياً بها ؛ كما قالت رابعة رحمها الله تعالى وقد ذكر عندها رجل من العباد يلتقط من مزبلة فيأكل ، فقيل : هلاّ

(١) **الوسن** : مقدم النوم .

(٢) في المخطوط : انتهيت ، والمثبت أصح .

سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا ؟ فقالت : إن الراضي لا يتخير ، ومن ذاق طعم المعرفة وجد فيه طعم المحبة ، فوقع الرضا عنده ضرورة ، فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة ، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة ، لعل ذلك يورث المحبة ، فقد قال سبحانه وتعالى : « **لاَ يَزَالُ الْعَبْد يَتَقَرَّبُ إلَيّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِه** »(١) فذلك الغنى الأكبر ، ووافقراه .

٥٦ ـ فصل : رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمن الصبا [٢٩/ب] عن المعاش ، فيحتاجون إلى ما لابد منه ، فلا يصلهم من بيت المال شيء ، ولا من صلات الإخوان ما يكفي ، فيحتاجون إلى التعرض بالإذلال ، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين :

أحدهما : قمع إعجابهم بهذا الإذلال .

والثاني : نفع أولئك بثوابهم ، ثم أمعنت الفكر فتلمحت نكتة لطيفة ، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك ، لم تساكنها بالقلب ، ونبت عنها بالعزم ، ورأت أقرب الأشياء شبهاً بها مزيلة عليها الكلاب ، أو غائطاً يؤتى لضرورة ، فإذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار ، لم يكن للقلب بها متعلق يتمكن فتهون حينئذ .

الانبساط في المخالفات والمباحات

٥٧ ـ فصل : ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطو إلى مباحات ، والذي يحملهم على هذا الجهل ، فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم ؛ وهذا لأن الطباع لا تتساوى ، فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك ، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو .

غير أن لنا ضابطاً هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة ؛ فلا ينبغي أن يلام من حصر نفسه في ذلك الضابط ، ورب رخصة كانت أفضل من عزائم ، لتأثير

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٦٥٠٢) .

نفعها ، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى ؛ فتنبت القلوب من خوفه ، وتنحل الأجسام للحذر منه فوجب التلطف بالأجسام حفظاً لقوت الراحلة . ولأن آلة العلم والحفظ القلب والفكر ، فإذا رفهت الآلة جاد العمل ، وهذا أمر لا يعلم إلا بالعلم ، فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا ، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان ، وإنضاء الرواحل(١) ، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج إلى راحة مقاومة ، كما قال القائل : روحوا القلوب تعي الذكر .

٥٨ ـ فصل : ليس في الوجـــود شيء أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل ؛ فإذا عدم وقع الضلال .

وإن من خفيّ مكائد الشيطان أن يزين في نفس الإنسان التعبد ؛ ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم ، حتى أنه زين لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر ، وهذا قد ورد عن جماعة ، وأحسن ظني بهم أن أقول : كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشاره ، وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه ؛ كان رميها إضاعة للمال لا يحل ، وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة [٣٠/أ] حتى منعوا من حمل المحابر تلامذتهم ، حتى قال جعفر الخلدي : لو تركني الصوفية جئتكم بإسناد الدنيا ، كتبت مجلساً عن أبي العباس الدوري فلقيني بعض الصوفية فقال : دع علم الورق ، وعليك بعلم الخرق(٢). ورؤيت محبرة مع بعض الصوفية فقال له صوفي : استر عورتك ، وقد أنشدوا للشبلي :

إذا طالبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق

وهذا من خفي حبل إبليس ، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين : **أحدهما** : أنه أرادهم يمشون في الظلمة ، والثاني : أن تصفح العلم كل يوم يزيد في العالم ، ويكشف له ما كان خفي عنه ، ويقوى إيمانه ومعرفته ، ويريه عيب كثير من مسالكه إذا تصفح منهاج الرسول ﷺ ،

---

(١) أي تهزيلها وإضعافها .

(٢) هذا الخبر أورده الذهبي في السير (١٥/٥٥٩) وقال الذهبي متعقباً . ما هذا إلا صوفي جاهل يمزق الأحاديث النبوية ويحض على أمر مجهول فما أحوجه إلى العلم .

والصحابة ، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة ، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه ، وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل ، فاحذر من هذه الخديعة الخفية ، فإن العلم هو الأصل الأعظم ، والنور الأكبر .

وربما كان تقليب الأوراق أفضل من الصوم والصلاة ، والحج والغزو ، وكم من معرض عن العلم يخوض في عذاب من الهوى في تعبده ، ويضيع كثيراً من الفرض بالنفل ، ويشتغل بما يزعمه الأفضل عن الواجب ، ولو كانت عنده شعلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى .

٥٩ـ فصل : مرَّ بي حمَّالان تحت جذع ثقيل وهما يتجاوبان بإنشاد التنغم ، وكلمات الاستراحة ، فأحدهما يصغي إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر همته مثل ذلك ؛ فرأيت أنهما لو لم يفعلا ذلك زادت المشقة عليهما ، وثقل الأمر ، وكلما فعلا هذا هان الأمر ، فتأملت السبب في ذلك ؛ فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطربه به ، وإجالة فكره في الجواب بمثل ذلك ؛ فينقطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول ، فأخذت من هذا إشارة عجيبة ، ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أموراً صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب ، وعلى ما تكره ، فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس ، كما قال الشاعر :

فإن تشكّت فعللها المجرة من ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

ومن هذا ما يُحكى عن بشر الحافي – رحمه الله تعالى – : سار ومعه رجل في طريق ؛ فعطش صاحبه . فقال له : أنشرب من هذا البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الأخرى ، فلما وصلا إليها قال له : البئر الأخرى ؛ فما زال يعلله . ثم التفت إليه فقال له : هكذا تنقطع الدنيا ؛ ومن فهم هذا الأصل علل النفس ، وتلطف بها ، ووعدها الجميل ؛ لتصبر على ما قد حملت .

كما كان بعض السلف يقول لنفسه : والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك .

وقال أبو يزيد – رحمه الله تعالى – : ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي ؛ حتى سقتها وهي تضحك .

واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق فهذا رمز

إلى الإشارة ، وشرحه يطول .

٦٠ ـ فصل : تأملت أشياء تجرى في مجالس الوعظ ، يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهي منكر وبعد ، وذاك أن المقرىء يطرب ويخرج الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى فيصعق هذا ، ويخرق ثوبه هذا ؛ ويعتقد أن ذلك قربة ، ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى ، يوجب الطرب للنفوس ، فالتعرض بما يوجب الفساد غلط عظيم ، وينبغي الاحتساب على الوعاظ في هذا ، وكذلك المقابريون منهم ؛ فإنهم يهيجون الأحزان ليكثر بكاء النساء ؛ فيعطون على ذلك الأجرة ، ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهذه أضداد للشرع . قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المقرىء : ﴿ **يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٨٤] ، فقلت له : هذه نياحة بالقرآن .

وفي الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقي الذي لا يعرف فرائض الصلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله تعالى ، والصافي حالاً منهم وهو أصلحهم ، يتخايل بوهمه شخصاً هو الخالق ، فيبكيه شوقه إليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايلونه المعبود ، لأن المعبود لا يقع في خيال ، وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بمر الحق ؛ إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم ؛ بل يجذبهم إلى ما يصلح [٣١ / أ] بألطف وجه ، وهذا يحتاج إلى صناعة ، فإن من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر ، وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغي أن ينظر في اللازم والواجب ، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ ؛ قدر الملح في الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم الطريق الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل ؛ فسمع كلام الحارث المحاسبي فبكى ، ثم قال : لا يعجبني الحضور ، وإنما بكى لأن الحال أوجبت البكاء ، وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص ؛ فينهون عن الحضور عندهم .

وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم ، فرأوا حضور القصص صاداً لهم ، واليوم كثر الإعراض عن العلم ، فأنفع

ما للعامي مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ، ويحركه إلى توبة ، وإنما الخلل في القاص ؛ فليتق الله عز وجل .

٦١ ـ فصل : من أضر الأشياء على العوام كلام المتأولين ، والنفاة للصفات والإضافات ، فإن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بالغوا في الإثبات ليتقرر في أنفس العوام وجود الخالق ، فإن النفوس تأنس بالإثبات فإذا سمع العامي ما يوجب النفي طرد عن قلبه الإثبات ، فكان أعظم ضرر عليه ، وكأن هذا المنْزه من العلماء على زعمه ، مقاوماً لإثبات الأنبيــاء – عليهم الصلاة والسلام – بالمحو ، وشارعاً في إبطال ما يفتون به ، وبيان هذا أن الله تعالى أخبر باستوائه على العرش ، فأنست النفوس إلى إثبات الإله ووجوده .

قال تعالى : ﴿ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [الرحمن : ٢٧]. وقال تعالى : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة : ٦٤]. وقال : ﴿ **وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفتح : ٦]. وقال : ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ١١٩]. وأخبرَ أنه ينْزل إلى السماء الدنيا[١]. وقال : « **قُلُوبُ العبَاد بَيْن إصْبَعَيْنِ** »[٢]. وقال : « **كَتَبَ التَّوْارَةَ بِيَده**[٣] » « **وكَتَبَ كتَاباً فَهُوَ عَنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ** »[٤] ، إلى غير ذلك مما يطولَ ذَكره . فإذا امتلأ العامي والصبي من الإثبات ، وكاد يأنس من الأوصاف بما يفهمه الحس قيل له : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ فمحى من قلبه ما نقشه الخيال ، وتبقى ألفاظ الإثبات متمكنة ، ولهَذَا أقر الشرع على مثل هذا ، فسمع منشداً يقول : وفوق العرش رب العالمين ، فضحك وقال له آخر : أو يضحك ربنا ؟ فقال : نعم ، وقال : إنه على عرشه هكذا ، كل هذا ليقرر الإثبات في النفوس ، وأكثر الخلق [٣١ / ب] لا يعرفون الإثبات إلا على ما يعلمون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك إلى أن يفهموا التنْزيه ، ولهذا صحح إسلام من القتل بالسجود[٥].

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٢) **صحيح** : رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٣) **صحيح** : رواه البخاري (٦٦١٤) ، ومسلم (٢٦٥٢) بلفظ نحوه ، وابن ماجة (٨٠) واللفظ له . ولفظ الصحيحين (وخط لك بيده) ولفظ ابن ماجه (وخط لك التوراه بيده) .

(٤) **صحيح** : رواه البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٥) كذا الأصل .

فأما إذا ابتدئ بالعامي الفارغ من فهم الإثبات فقلنا : ليس في السماء ، ولا على العرش ، ولا يوصف بيد ، وكلامه صفة قائمة بذاته ، وليس عندنا منه شيء ، ولا يتصور نزوله ، انمحى من قلبه تعظيم المصحف ، ولم يترصع في سره إثبات إله ، وهذه جناية عظيمة على الأنبياء ؛ توجب نقض ما تعبوا في بيانه .

ولا يجوز لعالم أن يأتي إلى عقيدة عامي قد أنس بالإثبات فيهوشها[1] ، فإنه يفسده ويصعب صلاحه ، فأما العالم فإنا قد أمناه لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى ، وأنه لا يجوز أن يكون استوى كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محمولاً ، ولا أن يوصف بملاصقة ومس ، ولا أن ينتقل ، ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين ، الإعلام بالتحكم في القلوب ؛ فإن ما يدبره الإنسان بين أصبعين هو متحكم فيه إلى الغاية ، ولا يحتاج إلى تأويل من قال الإصبع : الأثر الحسن . فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، وهما الإقامة والإزاغة .

ولا إلى تأويل من قال : يداه نعمتاه ، لأنه إذا فهم أن المقصود الإثبات ، وقد حدثنا بما نعقل ، وضربت لنا الأمثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا بالأصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود بذكر ذلك .

وأصلح ما نقول للعوام : أمروا هذه الأشياء كما جاءت ، ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الإثبات ، وهذا الذي قصده السلف . وكان أحمد يمنع من أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، كل ذلك ليحمل على الاتباع ، وتبقى ألفاظ الإثبات على حالها ، وأجهل الناس من جاء إلى ما قصد النبي ﷺ تعظيمه ؛ فأضعف في النفوس قوي التعظيم .

قال النبي ﷺ : « **لا تُسَافِرُوا بِالقُرآنِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ** »[2] يشير إلى المصحف.

ومنع الشافعي أن يحمله المحدث بعلاقته تعظيماً له ، فإذا جاء متحذلق فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم ، فمعنى قوله هذا إنه ما ها هنا شيء يحترم ، فهذا قد ضاد بما أتى به مقصود الشرع ، وينبغي أن يفهم أوضاع الشرع ومقاصد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقد منعوا من كشف ما قد قنع الشرع ،

---

(١) أي : يجعلها عرضة للفتنة والاضطراب .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٢٩٩٠) ، ومسلم (١٨٦٩) .

فنهى [٣٢ / أ] رسول الله ﷺ عن الكلام في القدر[1] ، ونهى عن الاختلاف[2] لأن هذه الأشياء تخرج إلى ما يؤذي ، فإن الباحث عن القدر إذا بلغ فهمه إلى أن يقول : قضى وعاقب تزلزل إيمانه بالعدل ، وإن قال : لم يقدر ولم يقض ؛ تزلزل إيمانه بالقدرة والملك ، فكان الأولى ترك الخوض في هذه الأشياء ، ولعل قائلاً يقول : هذا منع لنا عن الاطلاع على الحقائق ، وأمر بالوقوف مع التقليد ، فأقول : لا إنما أعلمك أن المراد منك الإيمان بالجمل ، وما أمرت بالتنقير مع أن قوى فهمك تعجز عن إدراك الحقائق ؛ فإن الخليل عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ﴾ فأراه ميتاً أحيي ، ولم يره كيف أحياه ؛ لأن قواه تعجز عن إدراك ذلك . وقد كان النبي ﷺ بعث ليبين للناس ما نزل إليهم ، يقنع الناس بنفس الإقرار واعتقاد الجمل ، وكذلك كانت الصحابة ، فما نقل عنهم أنهم تكلموا في تلاوة ومتلو ، وقراءة ومقروء ، ولا أنهم قالوا استوى ، بمعنى استولى وينزل بمعنى يرحم ، بل قنعوا بإثبات الجمل التي تثبت التعظيم عند النفوس ، وكفوا كف الخيال بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١].

ثم هذا منكر ونكير إنما يسألان عن الأصول المجملة فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك[3] ؟ ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسمة ، وتعطيل المعطلة ، ووقف على جادة السلف الأول ، والله الموفق .

٦٢ - فصل : قرأت هذه الآية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : ٤٦]. فلاحت لي منها إشارة كدت أطيش منها ، وذلك أنه إن كان عني بالآية نفس السمع والبصر فإن السمع آلة لإدراك المسموع ، والبصر آلة لإدراك المبصرات ، فهما يعرضان ذلك على القلب ، فيتدبر ، ويعتبر . فإذا عرضت المخلوقات على

---

(١) **إسناده حسن** : رواه ابن ماجه (٨٥) ، وأحمد (٢/١٧٨) ، والسنة لابن أبي عاصم (٤٠٦) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣٤٧٦) .

(٣) إشارة إلى حديث البراء بن عازب نحوه ، وإسناده حسن رواه أبو داود (٤٧٥٣) ، وأحمد (٤/٢٨٧) وقد توسعت في تحقيقه في حادي الأرواح ص ٢٥ .

السمع والبصر ، فأوصلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذر من بطشه عند مخالفته .

وإن عني معنى السمع والبصر ، فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا شغلاً بالهوى ؛ فيعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ، ويسمع وكأنه ما سمع ، والقلب ذاهل عن ما يتأدى به ، فيبقى الإنسان خاطئاً على نفسه لا يدري ما يراد به ؛ لا يؤثر عنده أنه يبلى ، ولا تنفعه موعظة [٣٢ / ب] تجلى ، ولا يدري أين هو ، ولا المراد منه ، ولا إلى أين يحمل ، وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ولا يتفكر في خسران آجلته ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتعظ بصديقه ، ولا يتزود لطريقه كما قال الشاعر :

الناس في غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتى ينفد العمـــر
يشيعون أهاليهـــم بجمعهـــم ... وينظرون إلى ما فيـــه قد قبروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئاً ولا نظروا

وهذه حالة أكثر الناس فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات فإنها أقبح الحالات .

٦٣ ـ فصل : نظرت فيما تكلم به الحكماء في العشق وأسبابه وأدويته وصنفت في ذلك كتاباً سميته (ذم الهوى) وذكرت فيه عن الحكماء أنهم قالوا سبب العشق حركة نفس فارغة ، وأنهم اختلفوا ، فقال قوم منهم : لا يعرض العشق إلا لظراف الناس . وقال آخرون : بل لأهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق ، إلا أنه خطر لي بعد ذلك معنى عجيب أشرحه هاهنا : وهو أنه لا يتمكن العشق إلا مع واقف جامد ، فأما أرباب صعود الهمم فإنها كلما تخايلت ما توجبه المحبة فلاحت عيوبه لها إما بالفكر فيه أو بالمخالطة له تسلت وتعلقت بمطلوب آخر ؛ فلا يقف على درجة العشق الموجب للتمسك بتلك الصورة العامي عن عيوبها إلا جامد واقف .

وأما أرباب الأنفة من النقائض ، فإنهم أبداً في الترقى ، لا يصدّهم صاد فإذا علقت الطباع بمحبة شخص لم يبلغوا مرتبة العشق المستأسر ، بل ربما مالوا ميلاً شديداً ؛ أما في البداية لقلة التفكر ، أو لقلة المخالطة ، والاطلاع على العيوب ، وإما لتشتت بعض الخلال الممدوحة بالنفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشخصين ، كالظريف مع الظريف ، والفطن مع الفطن ، فيوجب ذلك المحبة ،

فأما العشق فلا فهم أبداً في اليسير فلا يوقف وابل الطبع تتبع حادي الفهم ، فإن للطبع متعلقاً لا يجده في الدنيا ، لأنه يروم ما لا يصح وجوده من الكمال في الأشخاص ، فإذا تلمح عيوبها نفر ، وأما متعلق القلوب من محبة الخالق البارئ ؛ فهو مانع لها من الوقوف مع سواه ، وإن كانت محبته لا تجانس محبة المخلوقين ، غير أن أرباب المعرفة [٣٣ / أ] ولهي ؛ قد شغلهم حبه عن حب غيره ، وصارت الطباع مستغرقة لقوة معرفة القلوب به ومحبتها كما قالت رابعة :

أحب حبيباً لا أُعاب بحبه وأحببتم من في هواه عيوب

لقد روى عن بعض فقراء الزهاد أنه مر بامرأة فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فزوجه ، وجاء به إلى المنْزل وألبسه غير خلقانه ، فلما جنَّ الليل صاح الفقير ثيابي . ثيابي ؛ فقدت ما كنت أجده ، فهذه عثرة في طريق هذا الفقير دلته على أنه منحرف عن الجادة ، وإنما تعترى هذه الحالات أرباب المعرفة بالله عز وجل وأهل الأنفة من الرذائل .

وقد قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مثالها ، ومثال هذه الحال أن العقل يغيب عند استحلاء تناول المشتهى من الطعام عن التفكر في تقلبه في الفم وبلعه ، ويذهل عند الجماع عن ملاقات القاذورات لقوة غلبة الشهوة ، وينسى عند بلع الرضاب[1] استحالته عند الغذاء ، وفي تغطية تلك الأحوال مصالح ، إلا أن أرباب اليقظة يعتريهم من غير طلب لها في غالب أحوالهم ، فينغص عليهم لذيذ العيش ، ويوجب الأنفة من رذالة الهوى ، وعلى قدر النظر في العواقب يخف العشق عن قلب العاشق ، وعلى قدر جمود الذهن يقوى القلق ، قال المتنبي :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الــذي يسبيه لم يسبه

ومجموع ما أردت شرحه أن طباع المتيقظين تترقى فلا تقف مع شخص مستحسن ، وسبب ترقيها الفكر في نقص ذلك الشخص وعيوبه ، أو في طلب ما هو أتم منه ، وقلوب العارفين تترقى إلى معروفها ، فيعبر في معبر الاعتبار ، فأما أهل الغفلة فجمودهم في الحالتين ، وغفلتهم عن المقــامين توجب أسرهم

(١) الرضاب : الريق .

وقسرهم وحيرتهم .

٦٤ ـ فصل : عرض لي أمر يحتاج إلى سؤال الله عز وجل ودعائه ، فدعوت وسألت ، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معي ، فرأيت نوعاً من أثر الإجابة ، فقالت لي نفسي هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك ، فقلت لها : أما أنا فإني أعرف من نفسي من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذي أجبت ، لأن هذا الداعي الصالح سليم مما أظنه من نفسي ، إذ معي انكسار [٣٣ / ب] تقصير ومعه الفرح بمعاملته ، وربما كان الاعتراف بالتقصير انجح في الحوائج ، على أنني أنا وهو نطلب من الفضل لا بأعمالنا ، فإذا وقفت أنا على قدم انكسار معترفاً بذنوبي ، وقلت أعطوني بفضلكم فما في سؤالي شيء أجبت به ، وربما تلمح ذاك حسن عمله وكان صاداً له ، فلا تكسريني أيتها النفس فيكفيني كسر علمي بي لي ، ومعي من العلم الموجب للأدب والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر إلى ما سألت ، ويقيني بفضل المطلوب منه ، ما ليس مع ذلك العابد ، فبارك الله في عبادته ، فربما كان اعترافي بتقصيري أوفى .

٦٥ ـ فصل : قرأت من غرائب العلم ، وعجائب الحكم على بعض من يدعي العلم ، فرأيته يتلوى من سماع ذلك ، ولا يطلع على غوره ، ولا يشرأب إلى ما يأتي ، فصرفت عن أستماعه شيئاً آخر ، وقلت : إنما يصلح مثل هذا لذي لب يتلقاه تلقى العطشان للماء ، ثم أخذت من هذه إشارة - جعلت - لو كان هذا يفهم ما جرى ، ومدحني لحسن ما صنعت لعظم قدره عندي ، ولأريته محاسن مجموعاتي وكلامي ، ولكني لما لم أره أهلاً صرفتها عنه ، وصدفت بنظري إليه وكانت الإشارة أن الله - عز وجل -: قد صنف هذه المخلوقات فأحسن التركيب ، وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الألباب ، فأي لب أوغل في النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوي على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم وحادثه في خلوة الفكر ، استجلب رضا المتكلم به وحظي الزلفى لديه ، ومن كان للذهن مستغرق الفهم بالحسيات ، صرف عن ذلك المقام ، قال الله - عز وجل -: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

التدين علم وعمل

٦٦ ـ فصل : دعوت يوماً فقلت : اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل ، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك ، فعارضني وسواس من إبليس ، فقال : ثم ماذا أليس الموت ، فما الذي ينفع طول الحياة ؟ فقلت له : يا أبله لو فهمت ما تحت سؤالي علمت أنه ليس بعبث ، أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي ، فتكثر ثمار غرسي فأشكر ، يعني يوم حصادي ؟ أفيسرني أني مت منذ عشرين سنة ، لا والله ؟ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية ، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة ، واطلعت على علوم زاد بها قدري ، وتجوهرت بها نفسي ، ثم زاد غرسي لآخرتي ، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين ، وقد قال لسيد المرسلين ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « **لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنُ عُمْرُهُ إلاَّ خَيْراً** »[١] .

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة** »[٢] فيا ليتني قدرت على عمر نوح ، فإن العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع .

٦٧ ـ فصل : قلوب العارفين يغار عليها من الأسباب وإن كانت لا تساكنها ؛ لأنها لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بتولي أمورها ، فإذا عرضت بالأسباب محي أثر الأسباب : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** ﴾ [التوبة : ٢٥].

---

(١) **صحيح** : رواه مسلم (٢٦٨٢) .

(٢) **إسناده ضعيف** : رواه أحمد (٣٣٢/٣) والحاكم (٢٤٠/٤) والبزار (٣٢٤٠ ، ٣٤٢٢) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩) ، وابن عدي في الكامل (٦٨/٦) ، وعبد بن حميد (١١٥٣) من طريق كثير ابن زيد يرويه مرة عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة ومرة عن الحارث بن أبي يزيد عن جابر ومرة عن سلمة بن أبي يزيد عن جابر ، وكثير فيه ضعف وقد اختلف عليه ، وقد قال الذهـــبي في ميزان الاعتدال (٤٠٤/١) بعد ذكر الاختلاف في سنده فهذا مع نكارته له علة كما رأيت وانظر ضعيف الجامع (٢٠٠٤) .

وتأمل في حال يعقوب وحذره على يوسف – عليه الصلاة السلام – حتى قال : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ . فقالوا : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ فلما جاء أوان الفرج ، خرج يهوذا بالقميص فسبقه الريح ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ وكذلك قول يوسف – عليه السلام – للساقي : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فعوقب بأن لبث سبع سنين ، وإن كان يوسف [عليه السلام] يعلم أنه لا خلاص إلا بإذن الله ، وأن التعرض بالأسباب مشروع ، غير أن الغيرة أثرت العقوبة ، ومن هذا قصة مريم – عليها السلام – ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ فغار المسبب من مساكنة الأسباب : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ ومن هذا القبيل ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب »[1] والأسباب طرق ، ولابد من سلوكها .

والعارف لا يساكنها غير أنه يجلى له أمرها ما لا يجلى لغيره من أنها لا تساكن ، وربما عرفت إن مال إليها وإن كان ميله لا يقلبه ، غير أنه أقل الهفوات يوجب الأدب ، [وتأمل عقبى سليمان عليه السلام لما قال] : « لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ ، تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ . فَمَا حَمَلَتْ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ »[2] .

ولقد طرقتني حالة أوجبت التشبث ببعض الأسباب ؛ إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة ، ومداراته بكلمة ، فبينا أنا أفكر في تلك الحال دخل عليّ قارئ فاستفتح ؛ فتفاءلت بما يقرأ فقرأ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [هود : ٣] [٣٤ / ب] . فبهت من إجابتي على خاطري ، وقلت لنفسي : اسمعي فإنني

---

(١) **ضعيف جداً** : رواه ابن الأعرابي في معجمه (١٠١٢) والقضاعي في مسند الشهاب (٥٨٥) والعقيلي مختصراً (٣/١٥٩) وغيرهم . وفي الإسناد عمر بن راشد وهو ضعيف جداً . وله إسناد آخر عند ابن الجوزي في الموضوعات (٢/١٥٢ – ١٥٣) ، وابن حبان في المجروحين (١/١٤٦) وفي إسناده أحمد ابن داود قال : فيه الدارقطني متروك كـذاب . وللحديث طرق أخرى ضعيفة واهيـة انظر الضعيفة (١٤٩٠) وكشف الخفا (١/٣٤ – ٣٥) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣٤٢٤) ومسلم (١٩٥٤) .

طلبت النصر في هذه المداراة فأعلمني القرآن أنني إذا ركنت إلى ظالم فاتني ما ركنت لأجله من النصر ، فيا طوبى لمن عرف المسبب وتعلق به ، فإنها الغاية القصوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ ـ فصل : المؤمن لا يبالغ في الذنوب وإنما يقوى الهوى ويتوقد نيران الشهوة فيتحدر ، وله مداد لا يعزم المؤمن على مواقعته ، ولا على العود بعد فراغة ، ولا يستقصي في الانتقام إن غضب ، وينوى التوبة قبل الزلل ، وتأمل إخوة يوسف – عليهم السلام – فإنهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا : ﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ ثم زاد ذلك تعظيماً فقالوا : ﴿ **أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا** ﴾ ثم عزموا على الإنابة فقالوا : ﴿ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** ﴾ [يوسف : ٩] فلما خرجوا به إلى الصحراء هموا بقتله بمقتضى ما في القلوب من الحسد ، فقال كبيرهم : ﴿ **لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ** ﴾ [يوسف : ١٠] .

ولم يرد أن يموت بل يلتقطه بعض السيارة ، فأجابوا إلى ذلك ، والسبب في هذه الأحوال أن الإيمان على حسب قوته فتارة يردها عند الهم ، وتارة يضعف فيردها عند العزم ، وتارة عن بعض الفعل ، فإذا غلبت الغفلة ، وواقع الذنب ، فتر الطبع ، فنهض الإيمان العدل ، فينقص بالندم أضعاف ما التذ .

٦٩ ـ فصل : أفضل الأشياء التزايد من العلم ، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافياً استبد برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه مانعاً له من الاستفادة ، والمذاكرة ليبين له أخطاؤه ، وربما كان معظماً في النفوس فلم يتجاسر على الرد عليه ، ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساويه فعاد عنها .

ولقد حكى ابن عقيل عن أبي المعالي الجويني أنه قال : إن الله تعالى يعلم جمل الأشياء ولا يعلم التفاصيل[1] ولا أدري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسكين حتى قال هذا ، وكذلك أبو حامد حين قال : النُزول التنقل ، والاستواء

(١) ذكر هذه العبارة السبكي في طبقات الشافعية (٥/١٨٨) ونفى هذه المقولة عن الإمام أبي المعالي وانظر ما قاله هناك .

مماسة[1] وكيف أصفِ هذا بالفقه والزهد وهو لا يدري ما يجوز على الله مما لا يجوز ، ولو أنه ترك تعظيم نفسه لرد صبيان الكتاب رأيه عليه ؛ فبان له صدقهم .

ومن هذا الفن أبو بكر بن مقسم : فإنه عمل كتاب الاحتجاج للقراء ، فأتى فيه بفوائد ، إلا أنه أفسد علمه بإجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تفاقم ذلك [٣٥ / أ] منه حتى أجاز ما يفسد المعنى ، مثل قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا** ﴾ [يوسف : ٨٠] . فقال : يصلح أن يقال هنا نجياً أي خلصوا كراماً براء من السرقة ، وهذا سوء فهم للقصة ، فإن الذي نسب إليه السرقة فظهرت معه ما خلص ، فما الذي ينفع خلاصهم ، وإنما سيقت القصة ليبين أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون إلى أبيهم وقد احتبس أخوهم ، فأي وجه للنجاة ها هنا ؟!

ومن تأمل كتابه رأي فيه من هذا الجنس ما يزيد على الإحصاء أكثر من هذا الفن القبيح ، ولو أنه أصغى إلى علماء وقته ، وترك تعظيم نفسه لبان له الصواب ، غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجه نوع رؤية للنفس حبس من إدراك الصواب ، نعوذ بالله من ذلك .

٧٠ ـ فصل : تأملت قوله عز وجل : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ** ﴾ [الحجرات : ١٧] . فرأيت فيه معنى عجيباً ، وهو أنهم لما وهبت لهم العقول فتدبروا بها عيب الأصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء . كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهم الذي به باينوا البهائم ، فإذا آمنوا بفعلهم الذي ندب إليه العقل الموهوب ، فقد جهلوا قدر الموهوب ، وغفلوا عن من وهب . وأي شيء لهم في الثمرة ، والشجرة ليست ملكاً لهم ، فعلى هذا كل متعبد ومجتهد في علم وعمل إنما رأى بنور اليقظة ، وقوة الفهم والعقل الصواب فوقع على المطلوب ، فينبغي أن يوجه الشكر إلى من بعث له في ظلام الطبع القبس .

---

(١) ذكر الذهبي في السير (١٩/٣٤٤) نقلاً عن عقيدة أبي حامد فانظره فذكر عقيدته إلا أنه قال : منزها عن المحاسبة والاستقرار والتمكن .

ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار [فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار] فقالوا : تعالوا نتوسل بصالح أعمالنا ، فقال كل منهم : فعلت كذا وكذا[1] ، وهؤلاء إن كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة [عن] الخطأ توسلوا بإنعامه عليهم الذي أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم فيه فتوسلوا إليه ، وإن كانوا لا حظوا أفعالهم فلمحوا جزاءها ظناً منهم أنهم هم الذين فعلوا ؛ فهم أهل غيبة لا حضور ، ويكون جواب مسألتهم لقطع مننهم الدائمة ، ومثل هذا رؤية المتقى تقواه حتى أنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق ، وربما احتقر أهل المعاصي وتشمخر عليهم ؛ وهذه غلفة من طريق السلوك ، وربما أخرجت [٣٥ / ب] .

ولا أقول لك خالط الفساق احتقاراً لنفسك ، بل اغضب عليهم [في الباطن] وأعرض عنهم في الظاهر ، وتلمح جريان الأقدار عليهم في الباطن فأكثرهم لا يعرف مَنْ عصى ، وجمهورهم لا يقصد العصيان ، بل يريد موافقة هواه ، وعزيز عليه أن يعصى ، وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم فاحتقر ما يأتى لقوة يقينه بالعفو ، وهذه كلها ليست باعتذار لهم ، ولكن تلمحه أنت يا صاحب التقوى ، واعلم أن الحجة عليك أوفى من الحجة عليهم ، لأنك تعرف من تعصى ، وتعلم ما تأتي ، بل انظر إلى تقليب القلوب بين أصبعين ؛ فربما دارت الدائرة فصرت المنقطع ، ووصل المقطوع ، فالعجب ممن يدل بخير علمه ، وينسى من أنعم ووفق .

٧١ـ فصل : اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول ، محروس القواعد ، لا خلل فيه ولا دخل ، وكذلك كل الشرائع ، إنما الآفة تدخل من المبتدعين في الدين أو الجهال ، مثل ما أثر عند النصارى حين رأوا إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام ، فتأملوا الفعل الخارق للعادة الذي لا يصلح للبشر ، فنسبوا الفاعل إلى الإلهية ، ولو تأملوا ذاته لعلموا أنها مركبة على النقائص والحاجات ، وهذا القدر يكفي في عدم صلاح إلهيته ، فيعلم حينئذ أن ما جرى على يديه فعل غيره ، وقد يؤثر ذلك في الفروع ؛ مثل ما روى أنه فرض على النصارى صوم شهر

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٢١٠) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

فزادوا عشرين يوماً ، ثم جعلوه في فصل من السنة بآرائهم ، ومن هذا الجنس تخبيط اليهود في الأصول والفروع ، وقد قارب الضلال في أمتنا هذه المسالك ، وإن كان عمومهم قد حفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر الشنيع ، لأنهم أعقل الأمم وأفهمها ، غير أن الشيطان قارب بهم ولم يطمع في إغراقهم ، وإن كان قد أغرق بعضهم في بحار الضلال فمن ذلك أن الرسول ﷺ جاء بكتاب عزيز من الله عز وجل قيل في صفته : ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨]. وبين ما عساه يشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته كما قيل له : ﴿ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤]. فقال بعد البيان ((**تَرَكْتُكُمْ عَلَى بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ**))[1] ، فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه ، ولم يرضوا بطريقة أصحابه ، فبحثوا ثم انقسموا ، فمنهم من تعرض لما تعب الشرع في إثباته في القلوب فمحاه منها [٣٦ / أ] ، فإن القرآن والحديث يثبتان الإله عز وجل بأوصاف تقرر وجوده في النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف : ٥٤]. وقوله تعالى : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة : ٦٤]. وقوله تعالى : ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** ﴾ [طه : ٣٩].

وقول النبي ﷺ : ((**يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**[2] **وَيَبْسُطُ يَدَهُ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**))[3] ، ((**ويضحك**))[4] ((**ويغضب**))[5].

وكل هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب تخايل التشبيه ؛ فالمراد منها إثبات موجود ، فلما علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهمات عند سماعها قطع ذلك بقوله : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ ثم أن هؤلاء القوم عادوا إلى القرآن الذي هو المعجز الأكبر ؛ وقد قصد الشرع تقرير وجوده فقال : ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ** ﴾ ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴾ ﴿ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ ﴿ **وَهَذَا**

---

(١) **صحيح بشواهده** : رواه ابن ماجه (٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وأحمد (٤/١٢٦) ، والدارمي (٩٥) ، وغيرهم من طريق عبد الرحمن السلمي أنه سمع العرباض بن سارية . وللحديث طرق وشواهد يصحح بها انظر تحقيقه في مسند أحمد حديث (١٧١٤٢) ط الرسالة ، والصحيحة (٩٣٧) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٣) **صحيح** : رواه مسلم (٢٧٥٩) .

(٤) **صحيح** : ثبت هذه الصفة في الحديث الذي رواه البخاري (٣٧٩٨) .

(٥) **صحيح** : ثبت هذه الصفة في الحديث الذي رواه البخاري (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ وأثبته في القلوب بقوله تعالى : ﴿ **فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ وفي المصاحف بقوله تعالى : ﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ وقول الرسول ﷺ : « **لاَ تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ** »[1] ؛ فقال قوم من هؤلاء : مخلوق فأسقطوا حرمته من النفوس ، وقالوا : لم ينْزل ولا يتصور نزوله ؛ وكيف تنفصل الصفة عن الموصوف ؟ وليس في المصحف إلا حبر وورق ؛ فعادوا إلى ما تعب الشارع في إثباته بالمحو ، كما قالوا : إن الله عز وجل ليس في السماء ، ولا يقال استوى على العرش ، ولا ينْزل إلى السماء الدنيا . بل ذاك رحمته ، فمحوا من القلوب ما أريد إثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع ، وجاء آخرون فلم يقفوا على ما حده الشرع ، بل عملوا فيه بآرائهم فقالوا : الله على العرش ، ولم يقنعوا بقوله : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ ودفن لهم أقوام من سلفهم دفائن ، ووضعت لهم الملاحدة أحاديث ، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فأثبتوا بها صفاته .

وجمهور الصحيح منها آت على توسع العرب ؛ فأخذوه هم على الظاهر ، فكانوا في ضرب المثل كجحا ، فإن أمه قالت له : احفظ الباب ، فقلعه ومشى به ، فأخذ ما في الدار ، فلامته أمه . فقال : إنما قلت احفظ الباب ، وما قلت احفظ الدار !! ولما تخايلوا صورة عظيمة على العرش ، أخذوا يتأولون ما ينافي وجودها على العرش ، مثل قوله : « **وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرْوَلَةً** »[2]. فقالوا : ليس المراد به دنو الباب ، وإنما المراد قرب المنْزل والحظ ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ** ﴾ [البقرة : ٢١٠][٣٦ / ب] . هو محمول على ظاهرها في مجيء الذات ، فهم يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ويسمون الإضافات إلى الله تعالى صفات ، فإنه قد أضاف إليه النفخ والروح ، وأثبتوا خلقه باليد ، فلو قالوا خلقه لم يمكن إنكار هذا ، بل قالوا هي صفة تولى بها خلق آدم دون غيره ، فأي مزية كانت تكون لآدم ؛ فشغلهم النظر في فضيلة آدم عن النظر إلى ما هو يليق بالحق مما لا يليق به ؛ فإنه لا يجوز عليه المس ، ولا العمل بالآلات ،

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

وإنما آدم إضافته إليه ؛ وقالوا : انطلق على الله تعالى اسم الصورة لقوله : ((**خلق آدم على صورته**)).

وفهموا هذا الحديث وهو قوله – عليه الصلاة السلام –: ((**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِب الوَجْهَ ، وَلاَ يَقُلْ قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَلاَ وَجْهاً أَشْبَه وَجْهَكَ . فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه**))(١) فلو كان المراد به الله – عز وجل – لكان وجه الله سبحانه يشبه وجه هذا المخاصم لأن الحديث كذا جاء – ولا وجهاً أشبه وجهك – ورووا حديث خولة بنت حكيم : ((**وإِنَّ آخرَ وَطْأَة وَطَئَهَا اللهُ بوج**(٢)))(٣) وما علموا النقل ولا السير وقول الرسول ﷺ : ((**اللَّهُمَ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَر**))(٤) ، وإن المراد به آخر وقعه قاتل فيها المسلمون بوج ، هي غزاة حنين ، فقالوا : نحمل الخبر على ظاهره ، وأن الله وطئ ذلك المكان ، ولا شك أن عندهم أن الله تعالى كان في الأرض ثم صعد إلى السماء ، وكذلك قالوا في قوله : ((**إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلّ حَتَّى تَمَلُّوا**))(٥) قالوا : يجوز أن الله يوصف بالملل فجهلوا اللغة ، وما علموا أنه لو كانت حتى هاهنا للغاية لم تكن بمدح ؛ لأنه إذا مل حين يمل فأى مدح وإنما هو كقول الشاعر :

جلبت مني هديل بحرق   لا تمل الشر حتى يملوا

---

(١) **صحيح** : رواه مسلم وطرف حديث (٢٦١٢) .

(٢) وج : موضع بين مكة والمدينة .

(٣) **ضعيف** : رواه أحمد (٤٠٩/٦) والحميدي (٣٣٤) ، والطبراني في الكبير (٢٣٩/٢٤ – ٢٤٠ ، ٢٤١) والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٦٤) والخطيب (٣٠٠/٥) من طريق سفيان بن عيينه عن إبراهيم بن ميسرة عن ابن أبي سويد عن عمر بن عبد العزيز عن خولة بنت حكيم مرفوعاً . وابن أبي سويد واسمه محمد الثقفي الطائف وهو لا يعرف انظر الذهبي في الميزان ، وعمر بن عبد العزيز لا يعرف له سماع من خولة . كما قال الترمذي عند حديث (١٩١٠) وهو حديثنا من غير ذكر محل الشاهد ورواه أحمد (١٧٢/٤) ، والحاكم (١٦٤/٣) مختصراً والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٦٥) والقضاعي (٢٥ ، ٢٦) ، والطبري (٢٧٥/٢٢) من طريق سعيد بن أبي راشد عن يعلى بن حرة فذكره . وسعيد بن أبي راشد مجهول .

(٤) **صحيح** : رواه البخاري (١٠٠٦) ، ومسلم (٦٧٥) .

(٥) **صحيح** : رواه البخاري (١١٥١) ، ومسلم (٧٨٥) .

والمعنى لا يمل وإن ملوا . وقالوا في قوله ﷺ : « **الرَّحِمُ شُجْنَةٌ**[1] **مِنَ الرَّحْمَنِ تَتَعَلَّقُ بحقوى الرحمن** »[2] فقالوا : الحقو صفة ذات ، وذكروا أحاديث لو رويت في نقض الوضوء ما قبلت ، وعمومها وضعته الملاحدة كما يروى عن عبد الله بن عمرو ، قال : خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر . فقالوا : نثبت هذا على ظاهره . ثم أرضوا العوام بقولهم ولا نثبت جوارح ؛ فكأنهم يقولون فلان قائم وما هو قائم ، واختلف قولهم هل يطلق على الله – عز وجل – أنه جالس أو قائم كقوله تعالى : ﴿ **قَائماً بِالْقِسْطِ** ﴾ وهؤلاء أخس فهماً من جحا ؛ لأن قوله : قائماً بالقسط ؛ لا يراد به [٣٧ / أ] القيام ، وإنما هو كما يقال : الأمير قائم بالعدل . وإنما ذكرت بعض أقوالهم لئلا يسكن إلى شيء منها ؛ فالحذر من هؤلاء عبادة ، وإنما الطريق طريق السلف .

على أنني أقول لك : قد قال أحمد بن حنبل – رحمة الله عليه –: من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال ؛ فلا ينبغي أن تسمع من مُعَظَّم في النفوس شيئاً في الأصول فتقلده فيه ، ولو سمعت عن أحد ما لا يوافق الأصول الصحيحة فقل هذا من الراوي ؛ لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه يقول بشيء من رأيه .

فلو قدرنا صحته عنه فإنه لا يقلد في الأصول ، ولا أبو بكر ولا عمر – رضي الله عنهما – فهذا أصل يجب البناء عليه ، فلا يهولنك ذكر معظم في النفوس ، وكان المقصود من شرح هذا أن ديننا سليم ، وإنما أدخل أقوام فيه ما تأذينا به ، ولقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر[3] الناس ، حتى أنهم يرون أفعالهم فيستبعدون الطريق ، وأكثر أدلة هذه الطريق القُصَّاص فإن العامي إذا دخل إلى مجلسهم ، وهو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيد ، وإشارات الشبلي ؛ فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية ، وترك الكسب للعائلة ومناجاة الحق في خلوة على زعمه ؛ مع كونه لا يعرف أركان الصلاة ولا أدبه العلم ، ولا قوّم أخلاقه مخالطة العلماء ، فلا يستفيد من خلوته إلا كما

---

(١) **الشجنة** : عروق الشجر المشتبكة .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٥٩٨٨) .

(٣) في المخطوط : يغفر ، والمثبت أصح .

يستفيد الحمار من الإصطبل . فإن امتد عليه الزمان في تقلله زاد يبسه فربما خايلت له الماليخوليا أشباحاً يظنهم الملائكة ثم يطأطئ رأسه ، ويمد يده للتقبيل.

فكم قد رأينا من أكّار ترك الزرع وقعد في زاوية فصار إلى هذه الحالة ؛ فاستراح من تعبه ، فلو قيل له : عد مريضاً . قال : مالي عادة ، فلعن الله عادة تخالف الشريعة ، فيرى العامي بما يورده القصاص طريق الشرع هذه ؛ لا التي عليها الفقهاء ، فيقعون في الضلال .

ومن المتزهدين من لا يبالي عمل بالشرع أم لا ؛ ثم تتفاوت جهالتهم ؛ فمنهم من سلك مذهب الإباحة ويقول : الشيخ لا يعارض ، وينهمك في المعاصي ، ومنهم من يحفظ ناموسه فيفتي بغير علم ، لئلا يقال : الشيخ لا يدري .

ولقد حدثني الشيخ أبو حكيم رحمة الله عليه : أن الشريف الدحالي وكان يقصد فيزار ، ويتبرك به ، حضر عنده يوماً فسئل أبو حكيم - هل تحل المطلقة ثلاثاً إذا ولدت ذكراً - قال : فقلت لا والله . فقال لي الشريف : [٣٧ / ب] اسكت فوالله لقد أفتيت الناس بأنها تحل من هاهنا إلى البصرة .

وحكى لي الشيخ أبو حكيم أن جد آذاد الحداد وكان يتوسم بالعلم جاءت إليه امرأة فزوجها من رجل ؛ ولم يسأل عن انقضاء العدة ، فاعترضها الحاكم وفرق بينها وبين الزوج ، وأنكر على المزوج . قال : فلقيته المرأة . فقالت : يا سيدي أنا امرأة لا أعلم فكيف زوجتني . فقال : دعي حديثهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة .

وحدثني بعض الفقهاء عن رجل من العبّاد أنه كان يسجد للسّهو سنين ، ويقول : والله ما سهوت ولكن أفعله احترازاً ، فقال له الفقيه : قد بطلت صلاتك كلها لأنك زدت سجوداً غير مشروع .

ثم من الدخل الذي دخل في ديننا طريق المتصوفة فإنهم سلكوا طرقاً أكثرها تنافي الشريعة ؛ وأهل التدين منهم يقللون ويخففون . وهذا ليس بشرع ؛ حتى أن رجلاً كان قريباً من زماني يقال له : كثير ؛ دخل إلى جامع المنصور ، وقال : إني عاهدت الله عهداً ونقضته ، فقد ألزمت نفسي أن لا تأكل أربعين يوماً ؛ فحدثني من رآه أنه بقي عشرة أيام ثم في العشر الرابع أشرف على الموت . قال :

فما انقضت حتى تقوع فصب في حلقه ماء فسمعنا له نشيشا[1] كنشيش المقلاة ؛ ثم مات بعد أيام . فانظروا إلى هذا المسكين وما فعله به جهله .

ومنهم من فسح لنفسه في كل ما يحب من التنعم واللذات ، واقتنع من التصوف بالقميص والفوطة والعمامة اللطيفة ، ولم ينظر من أين يأكل ولا من أين يشرب ، وخالط الأمراء من أرباب الدنيا ، ولباس الحرير ، وشراب الخمور ، حفظاً لماله وجاهه . ومنهم أقوام عملوا سنناً لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت .

ومنهم من أكب على سماع الغناء والرقص واللعب ، ثم انقسموا هؤلاء فمنهم من يدعي العشق فيه ، ومنهم من يقول بالحلول ، ومنهم من يسمع على وجه الهوى واللعب ؛ وكلا الطريقين يفسد العوام الفساد العام .

وهذا الشرح يطول ، وقد صنفت كتباً ترى فيها البسط الحسن إن شاء الله تعالى ، منها « تلبيس إبليس » .

والمقصود : أن تعلم أن الشرع تام كامل فإن رزقت فهماً له فأنت تتبع الرسول ﷺ وأصحابه ، وتترك بنيات الطريق ولا تقلد دينك الرجال ؛ فإن فعلت فإنك لا تحتاج إلى وصية أخرى [٣٨ / أ] ، واحذر جمود النقلة ، وانبساط المتكلمين ، وجوع المتزهدين ، وشره أهل الهوى ، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل ، وعمل المتعبدين بغير علم ، ومن أيده الله تعالى بلطفه ورزقه الفهم ، وأخرجه عن ربقه التقليد ، وجعله أمة وحده في زمانه ؛ لا يبالي من عبث ولا يلتفت إلى من لام ؛ قد سلم زمامه إلى دليل في واضح السبيل ، عصمنا الله وإياكم من تقليد المعظمين . وألهمنا أشياعه الرسول ﷺ ، فإنه درة الوجود ، ومقصود الكون ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعه ورزقنا اتباعه مع أتباعه .

البلاء وأسباب رفعه

٧٢ـ فصل : [اعلم] أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠]. فتارة فقر وتارة غنى ؛

(١) **النشيش** : صوت غليان القدر .

وتارة عز وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعادي .

فالسيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله ﷻ ؛ فإنه إن استغنى زانته ، وإن افتقر فتحت له باب الصبر ، وإن عوفي تمت النعمة عليه ، وإن ابتلى جمَّلته ، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه ؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير .

والتقوى أصل للسلامة حارس لا ينام ، يأخذ باليد عند العثرة ، ويوافق على الحدود ، والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى ؛ فإنها ستحول ، وتخليه خاسراً . ولازم التقوى في كل حال فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة ، وفي المرض إلا العافية ، هذا نقدها العاجل والآجل معلوم .

٧٣ ـ فصل : تأملت أمراً عجيباً ، وأصلاً ظريفاً ، وهو انهيال الابتلاء على المؤمن ، وعرض صور اللذات عليه مع قدرته على نيلها ؛ وخصوصاً ما كان في غير كلفة من تحصيله كمحبوب موافق في خلوة حصينة ، فقلت : سبحان الله هاهنا يبين أثر الإيمان لا في صلاة ركعتين ، والله ما صعد يوسف – عليه السلام – ولا سعد إلا في مثل ذلك المقام ، فبالله عليكم يا إخواني تأملوا حاله لو كان وافق هواه من كان يكون . وقيسوا بين تلك الحالة وحالة آدم – عليه السلام – ثم زنوا بميزان العقل عقبى تلك الخطيئة ، وثمرة هذا الصبر . واجعلوا فهم الحال عدة لكم عند كل مشتهى ، وإن اللذات لتعرض على المؤمن فمتى لقيها في صف حربه ، وقد تأخر عنه عسكر التدبر للعواقب هزم ، وكأني أرى الواقع في بعض أشراكها ، ولسان الحال يقول له قف مكانك ! أنت وما اخترت لنفسك ، فغاية أمره الندم والبكاء ؛ فإن أمن إخراجه من تلك الهوة لم يخرج إلا موهوناً بالخدوش ، وكم من شخص زلت قدمه فما ارتفعت بعدها .

ومن تأمل ذل إخوة يوسف – عليهم السلام – يوم : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ عرف شؤم الزلل ، ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيهم من الفروق – وإن كانت توبتهم قبلت – لأنه ليس من رقع وخاط كمن ثوبه صحيح ؛ ورب عظم هيض[1] لم ينجبر فعلى وهن .

---

(١) **هيض** : انكسر .

فتيقظوا إخواني لعرض المشتبهات على النفوس ، واستوثقوا من لجم الخيل ، وانتبهوا للغيم إذا تراكم بالصعود إلى قلعة ؛ فربما مدَّ الوادي فراح بالركب .

٧٤ ـ فصل : تأملت حالة عجيبة وهو أن المؤمن تنْزل به النازلة ؛ فيدعوا ويبالغ فلا يرى أثراً للإجابة ، فإذا قارب اليأس نظر حينئذ إلى قلبه ؛ فإن كان راضياً بالأقدار غير قنوط من فضل الله - عز وجل - ؛ فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ ؛ لأن هنالك يصلح الإيمان [ويندحر] الشيطان ، وهناك تبين مقادير الرجال ، وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه** ﴾ [البقرة : ٢١٤].

وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام فإنه لما فقد ولداً ، وطال الأمر عليه لم ييأس من الفرج ؛ فأخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه ﴿ **أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** ﴾ [يوسف : ٨٣].

وكذلك قال زكريا - عليه السلام -: ﴿ **وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ فإياك أن تستطيل مدة الإجابة ؛ وكن ناظراً إلى أنه المالك وإلى أنه الحكيم في التدبير والعالم بالمصالح ، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلو أسراركم ، وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك ، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك إلى غير ذلك ، وإلى أنه يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس ، وكل واحدة من هذه الأشياء تقوي الظن في فضله وتوجب الشكر له ؛ إذ أهلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله ، والفقر المضطر إلى اللجأ إليه غني كله .

٧٥ ـ فصل : لما كان بدن الآدمي لا يقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع المؤذي ، ركب فيه الهوى ليكون سبباً لجلب النافع ، والغضب [٣٩ / ا] ليكون سبباً لدفع المؤذي . ولولا الهوى في المطعم ما تناول الطعام ، فلم يقم بدنه ، فجعل له إليه ميل وتوق ؛ فإذا حصل له قدر ما يقيم بدنه زال التوق ، وكذلك في المشرب والملبس والمنكح .

وفائدة المنكح من وجهين ؛ أحدهما : إبقاء الجنس وهو معظم المقصودين ، **والثاني** : دفع الفضلة المحتقنة المؤذي احتقانها ، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه إلى النكاح ما طلبه أحد ، ومات النسل وآذى المحتقن .

فأما العارفون فإنهم فهموا المقصود ، وأما الجـــاهلون فإنهم مالوا مع الشهوة

والهوى ولم يفهموا مقصود وضعها فضاع زمانهم فيا لا طائل فيه ، وفاتهم ما خلقوا لأجله وأخرجهم هواهم إلى فساد المال وذهاب العرض والدين ، ثم أداهم إلى التلف .

وكم قد رأينا من متنعم يبالغ في شراء الجوارى ليحرك طبعه بالمستجد فما كان بأسرع من أن أوهنت قواه الأصلية فتعجل تلفه ، وكذلك رأينا من زاد غضبه فخرج عن الحد ففتك بنفسه وبمن يحبه .

فمن علم أن هذه الأشياء إنما خلقت إعانة للبدن على قطع مراحل الدنيا ، ولم تخلق لنفس الالتذاذ وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلة في إيصال النفع بها ، إذ لو كان المقصود التنعم بها لما جعلت الحيوانات البهيمية أوفى حظاً من الآدمي منها ، فطوبى لمن فهم حقائق الوضع ، ولم يمل به الهوى عن فهم حكم المخلوقات .

٧٦ ـ فصل : من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة ، ولقد تفكرت في أقوام أعرفهم يقرّون بالزنا وغيره ، فأرى من تعثرهم في الدنيا مع جلادتهم ، ما لا يقف عند حد ، وكأنهم قد ألبسوا ظلمه ، فالقلوب تنفر عنهم ؛ فإن اتسع لهم شيء فأكثره من مال الغير ، وإن ضاق بهم أمر أخذوا يتسخطون على القدر ، هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة .

ثم عكست فتفكرت في أقوام صابروا الهوى ، وتركوا ما لا يحل .

فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا من قوت مستلذ ، ومهاد مستطاب ، وعيش لذيذ ، وجاه عريض ، فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر ، وطيبه الرضا ، ففهمت بالحال معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٠] .

٧٧ ـ فصل : ينبغي للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال ، وأن يتعلق [٣٩ / ب] بذيل فضله إن عصى وإن أطاع ، وليكن له أنس في خلوته به ، فإن وقعت وحشه فليجتهد في رفع الموحش ، كما قال الشاعر :

أمستوحش أنت مما جنيت ... فأحسن إذا شئت واستأنس

فإن رأى نفسه مائلاً إلى الدنيا طلبها منه ، أو إلى الآخرة سأله التوفيق للعمل لها ، فإن خاف ضرر ما يرومه من الدنيا سأل الله إصلاح قلبه ، وطب مرضـــه ، فإنه إذا صلح لم يطلب ما يؤذيه ، ومن كان هكـــذا كان في العيش

[الرغد] ؛ غير أن من ضرورة هذه الحال ملازمة التقوى ، فإنه لا يصلح الإنس إلا بها ، وقد كان أرباب التقوى يتشاغلون عن كل شيء إلا عن اللجأ والسؤال .

وفي الحديث : إن قتيبة بن مسلم لما صاف الترك هاله أمرهم فقال : أين محمد بن واسع ؟ فقيل هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه[1] يومئ بإصبعه نحو السماء ، فقال قتيبة : تلك الأصبع الفاردة أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير ، وسنان طرير[2] ؛ فلما فتح عليهم . قال له : ما كنت تصنع ؟ قال : آخذ لك بمجامع الطرق .

٧٨ ـ فصل : ينبغي لمن تظاهرت نعم الله تعالى عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها ، ولا يكشف جملتها ، وهذا من أعظم لذّات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها ، فإن للعين حق .

وإني تفقدت النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس إلا أنها إن أظهرت لوديد[3] لم يؤمن تشعث باطنه بالغيظ ، وإن أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد ، إلا أنني رأيت بعد الحسود كاللازم ، فإنه في حال البلاء يتشفى ، وفي حال النعم يصيب بالعين ، ولعمري إن المنعم عليه يشتهي غيظ حسوده ، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمته ، فإن الغالب إصابة الحاسد لها بالعين ، فلا يساوي الالتذاذ بإظهار ما غيظ به ما أفسدت عينه بإصابتها ، وكتمان الأمور في كل حال فعل الحازم ، فإنه إن كشف مقدار سنة استهرموه إن كان كبيراً ، أو احتقروه إن كان صغيراً ، وإن كشف ما يعتقده ناصبه الأضداد بالعداوة ، وإن كشف قدر ماله استحقروه إن كان قليلاً ، وحسدوه إن كان كثيراً ، وفي هذه الثلاثة يقول الشاعر [٤٠ / أ] :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن ومال ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة ... بممـوه و ممخـرق ومكـذب

وقس على ما ذكرت ما لم أذكره ، ولا تكن من المذاييع النذر الذين لا

---

(١) **سية القوس** ما عطف من طرفيها .

(٢) **طرير** : محدد .

(٣) **الوديد** : المحب .

يحملون أسرارهم حتى يغشوها إلى من لا يصلح ، ورب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان .

٧٩ ـ فصل : رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى ما عثر به ، فينظر إليه طبعاً موضوعاً في الخلف ؛ إما ليحدر منه إن جاز عليه مرة أخرى من مثله ، أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا ، فأخذت من ذلك إشارة ، وقلت : يا من عثر مراراً هلاّ أبصرت ما الذي عثرك فاحترزت من مثله ، أو قبحت لنفسك مع حزمها تلك الواقعة ، فإن الغالب ممن يلتفت ؛ أن معنى التفاته كيف عثر مثلي مع احترازه بمثل ما رأى ، فالعجب لك كيف عثرت بمثل الذنب الفلاني والذنب الفلاني ؟ كيف غرك زخرف تعلم بعقلك باطنه ، وترى بعين فكرك مآله ؟ كيف آثرت فانياً على باق ؟ كيف بعت بوكس ، كيف اخترت لذة رقدة على انتباه معاملة . آه لك لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلها ظهر ، وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع ، ودموع حزن على قبح فعل ما لمددها انقطاع ، وأقبح الكل أن يقال لك بماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟ وهذا على ماذا ؟ يا من قلب الغرور عليه الصنجة ، ووزن له والميزان راكب .

٨٠ ـ فصل : تأملت قوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى** ﴾ **قال المفسرون** . هداي ؛ رسول الله ﷺ وكتابي ؛ فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسنة وعمل بما فيهما ، فقد سلم من الضلال بلا شك ، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك ، إذا مات على ذلك . وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً ، ويبين هذا قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** ﴾ [الطلاق ٢]. فإن رأيته في شدة فله من اليقين بالجزاء ما يصير الصاب[1] عنده عسلاً ، والأغلب طيب العيش في كل حال ، والغالب أنه لا ينزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقوى . فأما الملازم لطريق التقوى فلا آفة تطرقه ، ولا بلية تنزل به ، هذا هو الأغلب ؛ فإنه ندر من تطرقه البلايا مع التقوى ؛ فذاك في الأغلب [٤٠ / ب] لتقدم ذنب يجازى عليه ، فإن قدرنا عدم

---

(١) **الصاب** : الشجر الذي يستخرج منه الصمغ ، وهو مر الطعم .

الذنب ؛ فذاك لإدخال ذهب صبره كير البلاء حتى يخرج تبراً[١] أحمر فهو يرى عذوبة العذاب ؛ لأنه يشاهد المبتلى في البلاء الألم . قال الشبلي : أحبك الناس لنعمائك ، وأنا أحبك لبلائك .

٨١ ـ فصل : لا ينال لذة المعاصي إلا سكران الغفلة ، فأما المؤمن فإنه لا يلتذ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علم التحريم ، وحذر العقوبة ، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي فيتنغص عيشه في حال التذاذه ، فإن غلب سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات ، وإن كان الطبع في شهوته وما هي إلا لحظة ، ثم خذ من غريم ندم ملازم ، وبكاء متواصل ، وأسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى أنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب ، فأف[٢] للذنوب ما أقبح آثارها ، وما أسوأ أخبارها ، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة .

٨٢ ـ فصل : بكرت يوماً أطلب الخلوة إلى جامع الرصافة ؛ فجعلت أجول وحدي وأتفكر في ذلك المكان ، ومن كان به من العلماء والصالحين ، ورأيت أقواماً قد جاوروا فيه ، فسألت أحدهم : منذ كم أنت هاهنا فأومأ إلى قريب من أربعين سنة ، فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ وجعلت أتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة ، فأخذت النفس تحسن ذلك ، وتذم الدنيا والاغترار بها ، فأقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض الفهم لحقائق الأمور ، وموضوع الشرع يقوى ما قال العلم .

فينحل من ذلك أن قلت للنفس : اعلمي أن هؤلاء على ضربين : منهم من يجاهد نفسه في الصبر على هذه الحالة ؛ فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم والعمل وطلب الولد ، ونفع الخلق ، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم ، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش فتؤثر الانفراد لنفس الانفراد ، وربما حبس الطبع ، وساء الخلق ، وربما حدث من حبس مائة المحتقن سُمِّية أفسدت بدنه وعقله ، وربما أورثته الخلوة وسوسة ، وربما ظن أنه من الأولياء

---

(١) التبر : الذهب .

(٢) أف : كلمة تقال عند التضجر .

واستغنى بما يعرفه ، وربما خيل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كرامات ، وربما ظن أن الذي هو [٤١ / أ] فيه الغاية ولا يدري أنه إلى الكراهة أقرب ، فإن رسول الله ﷺ نهى أن يبيت الرجل وحده(١) ، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده ، ونهى عن التبتل(٢) وهذا تبتل ، ونهى عن الرهبانية(٣) وهذا من خفي خدع إبليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه .

والضرب الثاني : مشايخ قد فنوا فانقطعوا ضرورة ، إذ ليس لأحدهم مأوى ؛ فهم في مقام الزمني ، وإن كان الضرب الأول قد قطعوا حيل نفوسهم في العلم والعمل والكسب ، وتعلقت هممهم بفتوح يطرق عليهم الباب ، فرضوا بالعمى بعد البصر ، وبالزمن بعد الإطلاق .

فقالت لي النفس : لا أرضى لك هذا الذي تقوله ، فإنك إنما تميل إلى إيثار نكاح المستحسنات والمطاعم المشتهيات ، فإذا لم تكن من أهل التعبد فلا تطعن فيهم . فقلت لها : إن فهمت حدثتك وإن كنت تقلدين صور الأحوال فلا فهم لك ؛ أما المستحسنات ، فإن المقصود من النكاح أشياء منها طلب الولد ، ومنها شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤذية ، وكمال خروجها لا يكون إلا بوجود المستحسن . واعتبر هذا بالوطء دون الفرج ، فإنه يخرج من الفضلات ما [لا] يخرج بالوطء في الفرج وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها

---

(١) **شاذ بهذا اللفظ** : وهو عند أحمد (٢/٩١) والصواب الصحيح الوارد بلفظ : ولو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده ، وهذا اللفظ عند البخاري وغيره (٦/١٣٧ - ١٣٨ مع الفتح) رواه بهذا اللفظ قرابة تسع من الثقات من أصحاب عاصم بن محمد عن أبيه عن ابن عمر باللفظ السابق ، وخالفهم أبو عبيدة الحداد فرواه عن عاصم بن محمد بلفظ « نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده » ، وانظر توضيح ذلك في النظرات لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي وأبي لؤي خالد المؤذن رقم (٦٠) وتحقيق مسند أحمد (٥٦٥٠ ط الرسالة) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٥٠٧٤) ، ومسلم (١٤٠٢) من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا » ، وروى النهي عن التبتل عند الترمذي (١٠٨٢) ، والنسائي (٦/٥٩) وابن ماجه (١٨٤٩) من طريق قتادة عن الحسن عن سمرة بلفظ المصنف .

(٣) **إسناده صحيح** : رواه أحمد (٦/٢٢٦) وابن حبان (٩ إحسان و عبد الرزاق (١٠٣٧٥) وقد جاء بلفظ : يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا ... الحديث وعثمان هو عثمان بن مظعون .

فتدري أين هي ؛ كما نأمر القاضي بالأكل قبل الحكم ، وننهاه عن الحكم وهو غضبان أو حاقن ، وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد ؛ لتمام النطفة التي تخلق منها ، ثم للنفس حظ فهو يستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف في السفر ، وذلك يعين على سيرها ، وأما المطاعم فالجاهل من يطلبها لذاتها ، أو لنفس لذاتها .

وإنما المراد إصلاح عدم الناقة لجمع همها ، ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها ، وإذا تأملت حال السرب الأول رأيت من هذا عجباً .

فإن النبي ﷺ اختار لنفسه عائشة - رضي الله عنها - وكانت مستحسنة ، ورأى زينب فاستحسنها فتزوجها ، وكذلك اختار صفية ، وكان إذا وصف له امرأة بعث يخطبها ، وكان لعلي ﷺ أربع حرائر ، وسبع عشرة سرية مات عنهن ، وقبل هذه الأمة فقد [٤١ / ب] كان لداود - عليه السلام - مائة امرأة ، ولسليمان - عليه السلام - ألف امرأة .

فمن ادعى خللاً في هذه الطرق ، أو أن هؤلاء آثروا هواهم وانفقوا بضائع العمر في هذه الأغراض أفضل ، وغيرها أفضل ، فقد ادعى على الكاملين النقصان ، وإنما هو الناقص فهمه لا هُمْ !

وقد كان سفيان الثوري إذا سافر ففي سفرته حمل مشوية وفالوذج ، وكان حسن المطعم ، وكان يقول : إن الدابة إذا لم تحسن إليها لم تعمل ، وهذه الفنون التي أشرت إليها إن قصدت للحاجة إليها ، أو لقضاء وطر النفس منها ، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها ، فكله قصد صحيح لا يعكر عليه حاله .

ومن يقوم ويقعد في ركعات لا يفهم معناها ، وفي تسبيحات أكثر ألفاظها ردية ، كلا ليس إلا العلم الذي هو أفضل الصفات ، وأشرف العبادات ، وهو الآمر بالمصالح ، والناطق بالنصائح ، ثم منفعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه ، وقد قال ﷺ : « **لأَنْ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ** »[1].

ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، والجوارح

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٣٠٠٩) .

على التي لا تصيد ، والطين الذي يعمل منه ما ينتفع به على الطين في المقلع ، وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح ، وأكثر المتزهدين جهلة يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح ، فكم فوتت العزلة علماً يصلح به أصل الدين ، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين ، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب ، والله الموفق

٨٣ ـ فصل : ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي ؛ فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ولا له عز وجل ، وإنما هو قائم بالقسط حاكم بالعدل – وإن كان حلمه يسع الذنوب – إلا أنه إذا شاء عفا فعفا كل كثيف من الذنوب ، وإذا شاء وأخذ باليسير ، فالحذر الحذر .

ولقد رأيت أقواماً من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي باطنة وظاهرة ، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا ؛ فقلعت أصولهم ، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموها لذراريهم ، وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب | ٤٢ / أ | الحق عز وجل ، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجرى من شر ، فمالت سفينة ظنونهم . فدخلها من ماء الكيد فأغرقهم ، ورأيت أقواماً من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق سبحانه إليهم في الخلوات ؛ فمحا محاسن ذكرهم في الجلوات ؛ فكانوا موجودين كالمعدومين ، لا حلاوة لرؤيتهم ، ولا قلب يحنن إلى لقائهم ، فالله الله في مراقبة الحق عز وجل ، فإن ميزان عدلة تبين فيه الذرة ، وجزاؤه مراصد للمخطيء ولو بعد حين .

وربما ظن العفو وهو إمهال ، وللذنوب عواقب سيئة ، فالله الله في الخلوات ؛ البواطن البواطن ، النيات النيات ، فإن عليكم من الله عيناً ناظرة ، وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه ، فكم استدرج .

وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها ، وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا ، فلعله .

وهذا فصل إذا تأمله العامل لله تعالى نفعه . ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى : قدرت على لذة هي غاية وليست بكبيرة ؛ فنازعتني نفسي إليها اعتماداً على صغرها ، وعظم فضل الله تعالى وكرمه ، فقلت لنفسي : إن غلبت هذه فأنت أنت ، وإذا أتيت هذه فمن أنت ، وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مسامحه كيف انطوت أذكارهم ، وتمكنت عقوبة الإعراض عنهم

فيهم ؛ فارعوت ورجعت عما همت به والله الموفق .

٨٤ ـ فصل : كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة ، وهي تقدح في الأصول ، كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه ، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل[1] معه ، وتناول طعام لم يدع الإنسان إليه ، والتسامح بعرض العدو التذاذاً بذلك ، واستصغاراً لمثل هذا الذنب ، وإطلاق البصر في المحرم هواناً بتلك الخطيئة ، وفتوى من لا يعلم لئلا يقال هو جاهل ، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم ، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس ، ومن مقام رفعة القدر عند الحق ، وربما قيل له بلسان الحال : يا من اؤتمن على أمر يسير فخان ، وما بلية حظك فانو به .

قال بعض السلف : تسامحت بلقمة فتناولتها فأنا اليوم أربعين سنة [٤٢ / ب] إلى خلف ، فالله الله اسمعوا ممن قد جرب ، وكونوا على مراقبة ، وانظروا في العواقب ، واعرفوا عظمة الناهي ، واحذروا من نفخة تحتقر ، وشررة تستصغر فربما أحرقت بلداً .

وهذا الذي أشرت إليه يسير يدل على كثير ، وأنموذج يعرف باقي المحقرات من الذنوب ، والعمل والمراقبة يعرفانك ما أخللت بذكره ، ويعلمانك إن تلمحت بعين البصيرة أثر شؤم فعله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٨٥ ـ فصل : رأيت من نفسي عجباً تسأل الله عز وجل حاجاتها ، وتنسى جناياتها ، فقلت : يا نفس السوء أو مثلك ينطق ، فإن نطق فينبغي أن يكون لسؤال العفو فحسب ، فقالت : فممن أطلب مراداتي ؟ قلت : ما أمنعك من طلب المراد ، إنما أقول : حققي التوبة ، وانطقي . كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة لا يجوز له أن يأكل ، فإن قيل لنا أفيموت : قلنا لا بل يتوب ويأكل ! فالله الله من جراءة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس ، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك ، كما روى : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما

(١) في المخطوط : ليؤكل ، والمثبت أصح .

أعطي السائلين »[1].

وقد كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال ، ثم يسلبها ويقول : مثلي لا يسأل ؛ ما أبقيت الذنوب لي وجهاً ؛ وهذا يختص ببشر لقوة معرفته . كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحاً فاستحيي للزلل ، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بعد ، فافهم ما ذكرته . وتشاغل بالتوبة من الزلل .

ثم العجب من سؤالاتك فإنك لا تكاد تسأل مهماً من الدنيا ؛ بل فضول العيش ، ولا تسأل صلاح القلب والدين ، مثل ما تسأل صلاح الدنيا ؛ فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف ، وليكن حزنك على زلاتك شاغل لك عن مراداتك ، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف ؛ فلما قيل له في ذلك . قال : وما يؤمنني أن يكون اطلع على في بعض ذنوبي فقال : اذهب لا غفرت لك .

تقويم النفس أساس السعادة

٨٦ ـ فصل : أعجب العجب دعوى المعرفة مع البعد عن العرفان بالله ، ما عرفه إلا من خاف منه ، فأما المطمئن [٤٣ / أ] فليس من أهل المعرفة ، وفي المتزهدين أهل تغفيل يكاد أحدهم يوطن على أنه ولى محبوب ومقبول ، وربما توالت عليه ألطاف ظنها كرامات ، ونسى الاستدراج الذي لقلة مساكنته للألطاف ، وربما احتقر غـــيره وظن أن محلته محفوظة به ؛ تغره ركيعات ينتصب فيها ، أو

---

(١) **منكر** : رواه الترمذي (٢٩٢٦) والدارمي (٢/٤٤١) وعبد الله بن أحمد في السنة (١/١٤٩ ، ١٥٠) ، والعقيلي (١/٤٩) ، وابن حبان في المجروحين (٢/٢٧٧) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥٠٧ ، ٥٠٨) وفي الاعتقاد ص ١٠٦ من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهداني من عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ومحمد بن الحسن متهم ، وعطية العوفي ضعيف . وقد ذكر البيهقي أن محمد قد تابعه غيره . وقد نكره أبو حاتم كما في علل ولده (٢/٨٢) ، وقد جاء من حديث عمر بن الخطاب وحذيفة وجابر كما في خلق أفعال العباد رقم (٤٢٧) والتاريخ الكبير (١/٢/١١٥) ، والبيهقي في الشعب (٥٧٢) والطبراني في الدعاء (١٨٥٠) والتمهيد (٦/٤٦) ، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/١١٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٧/٣١٣) ، وأسانيد هذه الطرق ضعيفة . انظرها في الضعيفة (١٣٣٥) ، وحكم عليه بالوضع ابن الجوزي في الموضوعات (٣/١٦٦) .

عبادة ينصب بها ، وربما ظن أنه قطب الأرض وأنه لا ينال مقامه بعده أحد .

وكأنه ما علم أنه بينا موسى مكالم نبيء يوشع ، وبينما زكريا - [عليهم السلام] - مجاب الدعوة نشر بالمنشار ، وبينا يحيى - [عليه السلام] - يوصف بأنه سيد سلط عليه كافر احتز رأسه ، وبينا بلعام معه الاسم الأعظم صار مثله كمثل الكلب ، وبينا الشريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها ، وبينا البدن معموراً خرب وسلط البلاء عليه ، وبينا العالم يدأب حتى ينال مرتبة يعتقدها ، نشأ طفل في زمان ترقى إلى سبر[1] عيوبه وغلطه ، وكم من متكلم يقول : ما مثلي ؛ لو عاش فسمع ما حدث بعده من الفصاحة عد نفسه أخرساً .

هذا وعظ ابن السماك ، وابن عمار ، وابن سمعون ، لا يصلح لبعض تلامذتنا ولا يرضاه ، فكيف يعجب يتفق شيئاً وربما أتى بعدنا من لا يعدنا ، فالله الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مقام ، وليكن المتيقظ على انزعاج محتقر للكثير من طاعاته ، خائفاً على نفسه من تقلباته ، ونفوذ الأقدار فيه .

واعلم أن تلمح هذه الأشياء التي أشرت إليها يضرب عنق العجب ، ويذهب كبر الكبر .

٨٧ - فصل : من عاش مع الله تعالى طيب العيش في زمن السلامة ، خُفْت عليه في زمن البلاء ، فهناك المحك .

إن الملك عز وجل بينا يبني نقض ، وبينا يعطي سلب ، فطيب العيش والرضا هناك يبين ، فأما من تواصلت لديه النعم فإنه يكون طيب القلب لتواصلها ، فإذا مسته نفحة من البلاء فبعيد ثباته .

قال الحسن البصري : كانوا يتساوون في وقت النعم فإذا نزل البلاء تباينوا ، فالعاقل من أعد ذخراً ، وحصل زاداً ، وازداد من العدد للقاء حرب البلاء ، ولابد من لقاء البلاء ، ولو لم يكن إلا عند صرعة الموت ، فإنها إن نزلت والعياذ بالله فلم تجد معرفة توجب الرضا أو الصبر ، أخرجت إلى الكفر ، ولقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير ، وهو يقول في ليالي [٤٣ / ب] موته : ربي هو ذا يظلمني ، فلم أزل منْزعجاً مهتماً بتحصيل عدة ألقي بها ذلك القرن .

---

(١) في المخطوط : سيء وبهامشه (لعله سبر) والصحيح ما أثبتناه ، والله أعلم .

كيف وقد روى أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة : عليكم بهذا ، فإن فاتكم لم تقدروا عليه ، وأي قلب يثبت عند إمساك النفس ، والأخذ بالكظم ، ونزع النفس ، والعلم بمفارقة المحبوبات إلى ما لا يدري ما هو ، وليس في ظاهره إلا القبر والبلاء ، فنسأل الله تعالى يقينا يقيناً شر ذلك اليوم ، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضي به ونرغب إلى مالك الأمور في أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه ، حتى يكون لقاؤه أحب إلينا من بقائنا ، وتفويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اختيارنا ، ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا ، حتى إذا انعكس علينا أمر عدنا إلى القدر بالتسخط وهذا هو الجهل المحض ، والخذلان الصريح أعاذنا الله منه .

٨٨ ـ فصل : ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشاً من العارفين بالله عز وجل ، فإن العارف به مستأنس به في خلوته ، فإن عمت نعمه علم من أهداها ، وإن مَرَّ مُرٌّ حلا مذاقه في فيه ، لمعرفته بالمبتلي ، وإن سأل فتعوق مقصوده ، صار مراده ما جرى به القدر ، علماً منه بالمصلحة بعد يقينه بالحكمة ، وثقته بحسن التدبير .

وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه ، قائم بين يديه ، ناظر بعين اليقين إليه ، فقد سرى من بركة معرفته إلى الجوارح ما هذبها :

فإن نطقت فلم أنطق بغيركم وإن سكت فأنتم عقد إضماري

إذا تسلط على العارف أذى أعرض نظره عن السبب ، ولم ير سوى المسبب فهو في أطيب عيش معه ، إن سكت تفكر في إقامة حقه ، وإن نطق تكلم بما يرضيه ، لا يسكن قلبه إلى زوجة ولا إلى ولد ، ولا يتشبث بذيل محبة أحد ، وإنما يعاشر الخلق ، ببدنه وروحه عند مالك روحه .

فهذا الذي لا هم عليه في الدنيا ولا غم عنده وقت الرحيل عنها ، ولا وحشة له في القبر ، ولا خوف عليه يوم المحشر .

فأما من عدم المعرفة فإنه معثر لا يزال يضج من البلاء لأنه لا يعرف المبتلى ، ويستوحش لفقد غرضه لأنه لا يعرف المصلحة ، ويستأنس بجنسه لأنه لا معرفة بينه وبين ربه ، ويخاف [٤٤/أ] من الرحيل لأنه لا زاد له ولا معرفة بالطريق .

وكم من عالم وزاهد لم يرزقا من المعرفة إلا ما رزقه العامي البطال ، وربما زاد عليهما . وكم من عامي رزق منها ما لم يرزقاه مع اجتهادهما ، وإنما هي مواهب وأقسام . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٨٩ ـ فصل : بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى لاتبع عزها بذل المعاصي ، وصابر عطش الهوى في هجير المشتهى وإن أمض وأرمض[١] ، فإذا بلغت النهاية من الصبر فاحتكم وقل : فهو مقام من لو أقسم على الله لأبره .

تالله لولا صبر عمر ما انبسطت يده بضرب الأرض بالدرة ، ولولا جدّ أنس ابن النضر في ترك هواه – وقد سمعت من آثار عزمته : لئن أشهدني الله مشهداً ليرين الله ما أصنع ، فأقبل يوم أحد يقاتل حتى قتل فلم يعرف إلا ببنانه[٢] ؛ فلولا هذا العزم ما كان انبساط – يوم والله لا انكسر سن الربيع[٣] وجه .

بالله عليك تذوق حلاوة كف الكف عن المنهي ، فإنها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة ، ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الري الكامل ، وقل قد عيل صبر الطبع في سنينه العجاف فعجل لي العام الذي [فيه] أغاث وأعصر .

بالله عليك تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة ثم عرضت له فتنة في الأخير كيف نطح مركبه الجرف فغرق وقت الصعود ، أف والله للدنيا لا بل للجنة إن أوجب نيلها أعراض الحبيب ! إنما نسب العامي باسمه واسم أبيه ، فأما ذو الأقدار فالألقاب قبل الأنساب .

قل لي من أنت وما عملك وإلى أي مقام ارتفع قدرك ؟ يا من لا يصبر لحظة عما يشتهي . بالله عليك أتدري من الرجل ؟ الرجل والله من إذا خلا بما يحب من المحرم وقدر عليه وتقلقل عطشاً إليه نظر إلى نظر الحق إليه فاستحيى من إجالة همه فيما يكرهه ، فذهب العطش . كأنك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهي ، أو ما لا تصدق الشهوة فيه أو ما لا تقدر عليه ، كذا والله عادتك إذا تصدقت

---

(١) أرمض : أوجع وأحرق .

(٢) يشير إلى حديث البخاري (٢٨٠٥) ، ومسلم (١٦٧٥) .

(٣) يشير إلى حديث البخاري (٢٨٠٥) ، ومسلم (١٦٧٥) .

أعطيت كسرة لا تصلح لك ، أو في جماعة يمدحونك ، هيهات والله لا نلت ولايتنا حتى تكون معاملتك لنا خالصة .

تبذل أطايبك وتترك مشتهياتك ، وتصبر على مكروهاتك علماً منك إن كنت معاملاً بأنك أجير وما غربت الشمس ، فإن كنت محباً رأيت ذلك [٤٤ / ب] قليلاً في جنب رضا حبيبك عنك ، وما كلامنا مع الثالث .

٩٠ـ فصل : رأيت في العقل نوع منازعة للتطلع إلى جميع حكم الحق عز وجل في حكمه ، فربما لم يبن له بعضها مثل النقض بعد البناء فيقف متحيراً وربما انتهز الشيطان تلك الفرصة فوسوس إليه : أين الحكمة من هذا ؟ فقلت له احذر أن تخدع يا مسكين فإنه قد ثبت بالدليل القاطع لما رأيت من إتقان الصنايع عندك حكمة الصانع ، فإن خفي عليك بعض الحكم فلضعف إدراكك ثم ما زالت للملوك أسرار . فمن أنت حتى تطلع بضعفك على جميع حكمه ؟ يكفيك الجمل ، وإياك إياك أن تتعرض لما يخفى عليك فإنك بعض موضوعاته وذرة من مصنوعاته فكيف تحكم على من صدرت عنه ؟ ثم قد ثبتت عندك حكمته وحكمه وملكه ، فاعمل آلتك على قدر قوتك في مطالعة ما يمكن من الحكم ، فإنه سيورثك الدهش ، وغمض عما يخفى عليك ، فحقيق بذي البصر الضعيف ألا يقاوي نور الشمس .

٩١ ـ فصل : أعجب الأشياء مجاهدة النفس لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة فإن أقواماً أطلقوها فيما تحب فأوقعتهم فيما كرهوا ، وإن أقواماً بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها . وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم فمنهم من أساء غذاءها ، فأثر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها ، ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس ، وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض ، أو بر والدة .

وإنما الحازم من تعلم مع نفسه الجد وحفظ الأصول ، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه ، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده ، فإنه لا ينبسط إليه الغلام ، فإن انبسط ذكر هيبة المملكة ، فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها .

٩٢ـ فصل : رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً ، إن طال

الليل فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر ، وإن طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق ، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر .

ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبئة الزاد والتهيء للرحيل ، إلا أنهم يتفاوتون ، وسبب [٤٥ / أ] تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما ينفق في بلد الإقامة ، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الأخبار بالنافق هناك ، فيستكثرون منه فيزيد ربحهم ، والغافلون منهم يحملون ما اتفق وربما خرجوا لا مع خفير فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً .

فالله الله في مواسم العمر ، والبدار البدار قبل الفوات ، واستشهدوا العلم ، واستدلوا الحكمة ، ونافسوا الزمان ، وناقشوا النفوس ، واستظهروا بالزاد فكأن قد حدا الحادي فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم .

٩٣ـ فصل : أضر ما على المريض التخليط ، وما من أحد إلا وهو مريض بالهوى ، والحمية عنه رأس الدواء ، والتخليط يديم المرض ، وتخليط أرباب الآخرة على ضربين : أحدهما : تخليط العلماء ، وهو إما لمخالطة الأضداد كالسلاطين فإنهم يضعفون قوى يقينهم كل ما زادت المخالطة ، ويقدمون دليلهم عند المريدين ، فإني إذا رأيت طبيباً يخلط ويحميني شككت أو وقفت .

والثاني : تخليط الزهاد ، وقد يكون بمخالطة أرباب الدنيا ، وقد يكون بحفظ الناموس في إظهار التخشع ، لاجتلاب محبة العوام . فالله الله فإن ناقد الجزاء بصير ، والإخلاص في الباطن والصدق في القلب ونعم طريق السلامة ستر الحال .

٩٤ـ فصل : لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه ، وإن كان غيره أعلم منه ، لقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل ويأخذون على قراءة الحديث أجرة ، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ .

ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة ، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث ، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه فكنت - وأنا صغير السن حينئذٍ - يعمل

بكاؤه في قلبي ، ويبني قواعد ، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل .

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي ، فكان كثير الصمت ، شديد التحري فيما يقول ، متقناً محققاً ، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه [٤٥ / ب] فيتوقف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصوم والصمت فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما ، ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول .

ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات فانبساط ومزاح ، فراحوا عن القلوب ، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم فقل الانتفاع بهم في حياتهم ونسوا بعد مماتهم ، فلا يكــاد أحد يلتفت إلى مصنفاتهم ، فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصــل الأكبر ، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به ، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة ، فقدم مفلساً على قوة الحجة عليه .

٩٥ ـ فصل : سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه ، ومن أمن مكره قط ما عرفه . لقد تأملت أمراً عظيماً أنه عز وجل يمهل حتى كأنه يهمل فيرى أيدي العصاة مطلقة كأنه لا مانع ، فإذا زاد الانبساط ولم ترعو العقول أخذ أخذ جبار ، وإنما كان ذلك الإمهال ليبلو صبر الصابر ، وليملي في الإمهال للظالم ، فيثبت هذا على صبره ويجزى هذا بقبيح فعله ، مع أن هنالك من الحلم في طي ذلك ما لا نعلمه ، فإذا أخذ أخذ عقوبة رأيت على كل غلطة بقعة ، وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدامغ ، وربما خفي على الناس سبب العقوبة ، فقيل : فلان من أهل الخير فما وجه ما جرى له ؟ فيقول القدر : حدود لذنوب خفية صــار استيفاؤها ظاهراً ، فسبحان من ظهر حتى لا خفــاء به ، واستتر كأنه لا يعرف ، وأمهل حــتى طمع في مسامحته ، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته ، لا حول ولا قوة إلا به .

٩٦ ـ فصل : تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به ، فإذا هو يقوي القلب قوة يميل بها إلى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به ، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه ، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه ، فإذا تأملت إلى باب المعاملات قل الأمل ، ورق القلب ، وجاءت الدموع ، وطابت

المناجاة وغشيت السكينة وصرت كأني في مقام المراقبة إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة وأعلى رتبة وإن حدث منه ما شكوت منه ، والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان ، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن [٤٦ /أ] هداية غيره وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم .

فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرفقات تلذيعاً لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم ، فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور وأن أحضر المحتضرين ، لأن ذلك يؤثر في فكري ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلا مقام الفكر في الموت ولا أنتفع بنفسي مدة ، وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي أن يقاوم المرض بضده فمن كان قلبه قاسياً شديد القسوة ، وليس عنده من المراقبة ما يكفه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين ، فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به بل ينبغي له أن يتشاغل بما ينسيه ذلك لينتفع بعيشه ، وليفهم ما يفتي به وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة[1] ويتلطف بنفسه فمن سبر سيرته عليه الصلاة والسلام فهم من مضمونها ما قلته من التلطف بالنفس .

٩٧ ـ فصل : أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته فإنه ينتبه انتباهاً لا يوصف ، ويقلق قلقاً لا يحد ، ويتلهف على زمانه الماضي ويود لو ترك والتدارك ويصدق توبته على مقدار يقينه بالموت ، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف ، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصوده من العمل بالتقوى ، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك فإن لم يتهيأ تصوير ذلك على حقيقته تخايله على قدر يقظته فإن يكف كف الهوى ويبعث على الجد ، فأما من كانت تلك الساعة نصب عينيه كان كالأسير لها كما روى عن حبيب العجمي أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته : إن مت اليوم ففلان يغسلني وفلان يحملني .

---

(١) **إسناده صحيح** : رواه أبو داود (٢٥٧٨) ، وابن ماجة (١٩٧٩) ، وأحمد (٦/٣٩) من طريق هشام عن عروة عن عائشة قالت سابقني النبي ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا رهقني اللحم سابقني فقال : هذه بتلك .

وقال معروف لرجل صل بنا الظهر فقال : إن صليت بكم الظهر لم أصل بكم العصر فقال : وكأنك تؤمل أن تعيش إلي العصر! نعوذ بالله من طول الأمل ، وذكر رجل رجلاً بين يديه بغيبة فجعل معروف يقول له : اذكر القطن إذا وضعوه علي عينيك .

٩٨ ـ فصل : ربما أخذ المتيقظ بيت شعر فأخذ منه إشارة انتفع بها قال الجنيد : ناولني سري رقعة فيها مكتوب سمعت حادياً في طريق مكة شرفها الله تعالى يقول :

أبكي حـــذار أن تفارقيني　　أبكي وما يدريك ما يبكيني
وتقطعي حبلي وتهجـــريني　　[٤٦ / ب]

فانظر رحمك الله ووفقك إلي تأثير هذه الأبيات عند سري حتى أحب أن يطلع منها الجنيد علي ما اطلع عليه ، ولم يصلح للاطلاع علي مثلها إلا الجنيد ، فإن أقواماً فيهم كثافة طبع وخشونة فهم [يعترضون]

قال بعضهم لما سمع مثل هذه : إلام يشار بهذه ؟ إن كان إلي الحق ، فالحق ﷻ لا يشار إليه بلفظ تأنيث ، وإن كان إلي امرأة فأين الزهد ؟ ولعمري إن هذا حد أهل الغفلة إذا سمعوا مثل هذا ، ولذلك ينهى عن سماع القصائد وأقوال أهل الغناء ، لأن الغالب حمل تلك الأبيات علي مقاصد النفس ، وغلبات الهوى ومن أين لنا مثل الجنيد وسرى ؟ وإذا وجدنا مثلهما فهما خبيران بما يسمعان ، وأما اعتراض هذا الكثيف الطبع .

فالجواب : أن سرّيا لم يأخذ الإشارة من اللفظ ولم يقص ذلك على مطلوبة فيصيره تأنيثاً وتذكيراً وإنما أخذ الإشارة من المعنى ، وكأنه يخاطب حبيبه بمعنى الأبيات فيقول : أبكى حذراً من إعراضك وإبعادك ، فهذا الحاصل له ، وما التفت قط إلي تذكير ولا إلي لفظ تأنيث فافهم هذا .

وما زال المتيقظون يأخذون الإشارة من مثل هذا حتى كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بكان وكان ، فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد :

غسلت له طول الليل　　فركت له طول النهار
خرج يعاين غــيري　　زلق وقــع في الطــين

فاخذ من ذلك إشارة معناها : يا عبدي [إني] حسنت خلقك ، وأصلحت شأنك ، وقومت بنيتك ، فأقبلت على غيري ، فانظر عواقب خلافك لي ، وقال ابن عقيل : وسمعت امرأة تقول : من هذا المكان وكان كلمة بقيت في قلقها مدة :

كم كنت بالله أقل لك ... لـــذا التواني غائلـــة
وللقبيــــح خمـــيرة ... تبـــين بعـــد قليـــل

قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غداً تبين خمايرها بين يدي الله تعالى .

٩٩ ـ فصل : أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوع من أنواع الرخص ؛ فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء ؛ فكلما استنارت لي طريق التحصيل ؛ تجددت في قلبي ظلمة .

فقلت : يا نفس السوء – الإثم حزاز القلوب – وقد قال : استفت نفسك[(١)] فلا خير في الدنيا كلها [٤٧ / أ] إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر ، وأن الجنة لو حصلت بسبب يقدح في الدين أو في المعاملة ما لذت ، والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكآت الملوك .

وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني أخرى ، ثم تدّعوا الحاجة إلى تحصيل ما لابد لها منه ، وتقول : فما أتعدى في الكسب المباح في الظاهر ، فقلت لها : أليس الورع يمنع من هذا ؟ قالت : بلى . قلت : أليس القسوة في القلب تحصل به ، قالت : بلى . قلت : فلا خير لك في شيء هذا ثمرته ، فخلوت يوماً بنفسي ؛ فقلت لها : ويحك اسمعي أحدثك : إن جمعت شيئاً من الدنيا من وجه فيه شبهة أفأنت على يقين من إنفاقه ؟ قالت : لا . قلت : فالمحنة أن يحظى به الغير ، ولا تنالين إلا الكدر العاجل ، والوزر الذي لا يؤمن ، ويحك اتركي هذا

---

(١) **إسناده ضعيف** : رواه أحمد (٢٢٨/٤) ، وأبو يعلى (١٥٨٦ ، ١٥٨٧) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٩) والبخاري في التاريخ (١٤٤/١ – ١٤٥) وغيرهم من طريق حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن وابصة ، والزبير أبي عبد السلام ، وأيوب بن عبد الله مجهولان . بل إن أبا عبد السلام ضعفه الدولابي في الكنى (٧٢/٢) ، وقد جاء في بعض أسانيد أحمد أن الزبير بن عبد السلام لم يسمعه من أيوب .

الذي يمنع منه الورع لأجل الله فعامليه بتركه ، وكأنك لا تريدين أن تتركي إلا ما هو محرم فقط ، أو ما لا يصح وجهه ، أو ما سمعت أن « **مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لله عَوَّضَهُ اللهُ خَيْراً مِنْهُ** »[1] ، أما لك عبرة في أقوام جمعوا فحازه سواهم ، وأملوا فما بلغوا مناهم ، كم من عالم جمع كتباً كثيرة ما انتفع بها ، وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء ، كم من طيب العيش لا يملك دينارين وكم من ذي قناطير منغص ، وأما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجه فيسلب منه من أوجه .

ربما نزل المرض بصاحب الدار أو ببعض من فيها فأنفق في سنته أضعاف ما ترخص في كسبه ، والمتقى معافي ؛ فضجت النفس من لومي ، وقالت : إذا لم أتعد واجب الشرع فما الذي تريد مني ؟ فقلت لها : أضن بك عن الغبن ، وأنت أعرف بباطن أمرك . قالت : فقل لي ما أصنع ؟ قلت : عليك بالمراقبة لمن يراك ، ومثلي [نفسك] بحضرة مُعَظَّم من الخلق فإنك بين يدي الملك الأعظم يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك ؛ فخذي بالأحوط ، واحذري من الترخص في بيع اليقين ، والتقوى بعاجل الهوى ، فإن وقع الطبع مما تلقين فقولي له : مهلاً ، فما انقضت مدة الإشارة ، والله مرشدك إلى التحقيق ، ومعينك بالتوفيق .

١٠٠ ـ فصل : ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون ، ويفعلون أشياء توجب الحدود ؛ فبقيت أتفكر وأقول : متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ فلو ثبت [٤٧ / ب] فمن يقيمه ، وأستبعد هذا في العادة ؛ لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم ، فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم ، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات ، ومرت عليهم العجائب ، فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم ، فأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل ، والقيد الثقيل ، والذل العظيم . وفيهم من

---

(١) **إسناده صحيح** : رواه أحمد (٥/٧٨) ، والقضاعي (١١٣٥ ، ١١٣٦) ، وابن المبارك في الزهد (١٠٦٨) ، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٦٤) من طريق حميد بن هلال عن أبي قتادة ، وأبي الدهماء عن رجل من أهل البادية قال البدوي أخذ النبي ﷺ بيدي فذكر الحديث . وللحديث طرق أخرى وشواهد انظرها في تحقيق مسند أحمد (٢٠٧٣٩ ط الرسالة) .

قتل بعد ملاقاة كل شدة ، فعلمت أنه ما يمهل شيء ، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد .

١٠١ ـ فصل : اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع ، فمن ذلك حفظ ماله وطلب تنميته والرغبة في زيادته ، لأنه سبب بقاء الإنسان – مثال – فقد نهى عن التبذير فيه ، فقيل [له] : ﴿ **وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** ﴾ فاعلم أنه سبب لبقائه ﴿ **الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ أي قواماً لمعاشكم .

وقال عز وجل : ﴿ **وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ ومن فضيلة المال أن الله تعالى قال : ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ** ﴾ وجعل المال نعمة ، وزكاته تطهيراً ؛ فقال تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾ . وقال ﷺ : « **نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ** »[1].

وقال : « **مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ** »[2]. وكان أبو بكر ﷺ يخرج إلى التجارة ويترك رسول الله ﷺ فلا ينهاه عن ذلك ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ : لأن أموت بين شعبتي جبل أطلب كفاف وجهي أحب إلي من أن أموت غازياً في سبيل الله .

وكان جماعة من الصحابة ﷺ يتجرون ، ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب ؛ فمات وخلف مالاً وكان يحتكر الزيت ، وما زال السلف على هذا ثم تعرض نوائب كالمرض يحتاج فيها إلى شيء من المال فلا يجد الإنسان بداً من الاحتيال في طلبته ، فيبذل عرضه أو دينه ، ثم للنفس قوة بدنيه عند وجود المال ، وهو معدود عند الأطباء من الأدوية ، حكمة وضعها الواضع ، وإنما نبغ أقوام طلبوا طريق الراحة فادعوا أنهم متوكلة وقالوا نحن لا نمسك شيئاً ولا نتزود لسفر ، ورزق الأبدان يأتي ، وهذا على مضادة [٤٨ / أ] الشرع ؛ فإن رسول الله

---

(١) **إسناده حسن** : سبق تخريجه .

(٢) **إسناده صحيح** : سبق تخريجه .

ﷺ نهى عن إضاعة المال[١].

وموسى – عليه الصلاة السلام – لما سافر في طلب الخضر تزود ، ونبينا ﷺ لما هاجر تزود ، وأبلغ من هذا قوله تعالى : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾ ثم يدعي هؤلاء المتصوفة بغض الدنيا فلا يفهمون ما الذي ينبغي أن يبغض ، ويرون زيادة الطلب للمال حرصاً وشرهاً ، وفي الجملة إنما اخترعوا بآرائهم طريقاً فيها شيء من الرهبانية إذا صدقوا ، وشيء من البهرجة إذا نصبوا شباك الصيد بالتزهد ؛ فسموا ما يصل إليهم من الأرزاق فتوحاً .

قال ابن قتيبة في غريب الحديث في قوله ﷺ : ((واليد العليا))[٢] ؛ قال : هي المعطية ، قال : فالعجب عندي من قوم يقولون هي الآخذه ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً استطابوا السؤال ، فهم يحتجون للدناءة ، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم ، وفي الحديث : ((ضاق البلد بمواشي إبراهيم ولوط – عليهما السلام – فافترقا))[٣].

وكان شعيب – عليه السلام – كثير المال . ثم قد ند طمعه في زيادة الأجر من موسى – عليه السلام – فقال : ﴿ **فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ** ﴾ وكان ابن عقيل – رحمه الله – يقول : من قال إني لا أحب الدنيا فهو كذاب ، فإن يعقوب – عليه الصلاة السلام – لما طلب منه ابنه بنيامين قال : ﴿ **هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ فقالوا : ﴿ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ** ﴾ فقال : خذوه . وقال بعض السلف : من ادعى بغض الدنيا فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه ، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون ، وقد نفر جماعة من المتصوفة خلقاً من الخلق من الكسب ، وأوحشوا بينهم وبينه ، وهو دأب الأنبياء والصالحين . وإنما طلبوا طريق الراحة وجلسوا على الفتوح ؛ فإذا شبعوا رقصوا ؛ فإذا انهضم الطعام أكلوا . فإن لاحت لهم حيلة على غني أوجبوا عليه دعوة ، إما بسبب شكر أو بسبب استغفار ، وأطم الطامات ادعاؤهم أن هذا قربة ، وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادعى الرقص

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٤٠٨) ، ومسلم (طرف ٥٩٣) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (١٤٢٩) ، ومسلم (١٠٣٤) .

(٣) **لم أقف عليه** .

أن قربة إلى الله تعالى كفر ، فلو أنهم قالوا مباح كان أقرب حالاً ، وهذا لأن القرب لا تعرف إلا بالشرع ؛ وليس في الشرع أمر بالرقص ولا ندب إليه .

ولقد بلغني عن جماعة منهم أنهم كانوا يوقدون الشمع في وجوه المردان[١] ، وينظرون إليهم ، فإذا سئلوا عن ذلك سخروا بالسائل ؛ فقالوا : [٤٨ / ب] نعتبر بخلق الله ، أفتراهم أقوى من النبي ﷺ حين أجلس الشاب الذي وفد عليه من وراء ظهره ، وقال : وهل كانت فتنة داود إلا من النظر[٢] ، هيهات لقد تملك الشيطان تلك الأزمة فقادها إلى ما أراد ، والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيشبع ، ولا ينظر من أين المطعم ؟ وما زال صالحو السلف يفتشون على المطعم ، حتى كان إبراهيم بن أدهم يسهر هو وأصحابه ويقولون : مع من نعمل غداً وكان سري السقطي يعرف بطيب الغذاء ، وله في الورع مقامات .

فجاء قوم يتسمون بالصوفية يدعون اتباع أولئك السادة ، ويأكلون من مال فلان - وهم يعرفون أصول تلك الأموال - ويقولون : رزقنا ، فواعجباً إذا كان الآكل لا يبالي به من أين ؟ ولا امتناع من شهوة ولا تقلل ، ولا يخلو الرباط من المطبخ ، ولا ينقطع ليلة ، وأصله من مال قد عرف من أين هو ، والحمام دائر ، والمغني يدق [بدف] في جلاجل ، ورفيقه بالشبابة ، وسعدي وليلى في الإنشاد . والمردان في الشمع ، ثم يذم الدنيا بعد هذا ، فقولوا لنا : من يتلهى بالناس ؟ ولكن من مرت عليهم زرجنتهم[٣] فإنه أخس منهم .

١٠٢ ـ فصل : عرض بي في طريق الحج خوف من العرب[٤] فسرنا على طريق خيبر ، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني ، وزادت عظمة الخالق [عز وجل في صدري] عندي فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطريق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها ، فصحت بالنفس ويحك اعبري إلى البحر وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر ، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من

---

(١) **المردان** : جمع أمرد ، وهو الغلام الذي لم تنبت لحيته بعد .

(٢) **موضوع** : رواه الديلمي وغيره وحكم عليه الشيخ الألباني بالوضع كما في الضعيفة (٣١٣) .

(٣) **زرجنتهم** : خدعتهم .

(٤) **المقصود بهم** : البدو ، وهم الأعراب الذين يتعرضون للقوافل ويفسدون في الأرض .

هذه ، ثم اخرجي عن الكون والتفتي إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة في فلاة ، ثم جولي في الأفلاك وطوفي حول العرش وتلمحي ما في الجنان والنيران ، ثم اخرجي عن الكل والتفتي إليه ، فإنك تشاهدينه في قبضة القادر الذي لا تقف قدرته عند حد ، ثم التفتي إليك فتلمحي بدايتك ونهايتك ، وتفكري فيما قبل البداية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البلى وليس إلا التراب ، فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى ، وكيف يغفل فعل القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم ، بالله لو صحت النفوس من سكر هواها لذابت من خوفه ، أو لغابت من حبه ، غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل ، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت [٤٩ / أ] القدرة عليه أوفى من دليل الجبل ، سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عما خلقوا له سبحانه .

١٠٣ ـ فصل : للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل ، فلابد للمبتلي من الصبر إلى أن ينقضي أوان البلاء ، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل ؛ كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو فإنها لن ترجع ، فلابد من الصبر إلى حين البطالة ؛ فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع .

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع إلا به إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل ، بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم ، ويقطع المواد التي كانت سبباً للبلاء ؛ فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة ، فأما المستعجل فمزاحم للمدبر ، وليس هذا مقام العبودية وإنما المقام الأعلى هو الرضا والصبر هو اللازم ، والتلاحي بكثرة الدعاء نعم المعتمد ، والاعتراض حرام ، والاستعجال مزاحمة للتدبير ، فافهم هذه الأشياء فإنها تهون البلاء .

١٠٤ ـ فصل : ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر إما عن المحبوب ، أو على المكروهات ، وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج ، وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها ، والزاد يتنوع من أجناس ؛ فمنه تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون أكثر ؛ ومنه أنه في حال [كون ما] فوقها أعظم منها مثل أن يبتلى بفقد ولد وعنده أعز منه ، ومن ذلك رجاء العوض في

الدنيا ، ومنه تلمح الأجر في الآخرة ، ومنه التلذذ بتصور المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه ، والأجر من الحق عز وجل .

ومن ذلك بأن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه إلى غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر ، فليس في طريق الصبر نفقة سواها ؛ فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنْزل .

١٠٥ ـ فصل : ينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يختلج في قلبه أمر من تأخر الإجابة أو عدمها ، لأن الذي إليه أن يدعو ، والمدعو مالك حكيم ، فإن لم يجب فعل ما يشاء في ملكه ، وإن أخّر فعل بمقتضى حكمته ، فالمعترض عليه في سره خارج عن صفة عبد ؛ مزاحم لمرتبته مستحق ثم ليعلم أن اختيار الله تعالى له خير من اختياره لنفسه ؛ فربما سأل سيلاً سال به .

وفي الحديث : « إن رجلاً كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف إنك إن غزوت [٤٩ / ب] أسرت ، وإن أُسرت تنصرت »(١).

فإذا سلم العبد تحكيماً لحكمته وحكمة ، وأيقن أن الكل ملكه طاب قلبه ، قضيت حاجته أو لم تقض . وفي الحديث : « ما من مسلم دعا الله تعالى إلا وأجابه ، فإما أن يعجلها وإما أن يؤخرها ، وإما أن يدخرها له في الآخرة »(٢) فإذا رأى يوم القيامة أن ما أجيب فيه قد ذهب ، وما لم يجب فيه قد بقي ثوابه ، قال : ليتك لم تجب لي دعوة قط ، فافهم هذه الأشياء ، وقد سلم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال .

---

(١) جاء نحوه عن سفيان فعله في التدوين في أخبار قزوين (٣٩٩/١ ط دار الكتب العلمية)

(٢) **إسناده حسن** : رواه أحمد (١٨/٣) ، وابن أبي شيبة (٢٠١/١٠) ، وعبد بن حميد (٩٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠) وأبو يعلى (١٠١٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٣١١/٦ ، ٣١٢) والمزي في تهذيب الكمال (٥٧/٢١) ، والحاكم (٤٩٣/١) ، وابن عبد البر في التمهيد (٣٤٤/٥ – ١٣٣٥) من طريق حماد بن أسامة وشيبان بن فروخ ، وجعفر بن سليمان الضبعي ، ومحمد بن يزيد عن على بن علي سمعت أبا المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري . وقال أبو نعيم (٣١٧٦) غريب من حديث أبي المتوكل تفرد برفعه عن علي – فيما أعلم – شيبان ، ورواه على بن الجعد عن علي مرسلاً .

قلت : لم يتفرد شيبان بالرفع بل تابعه غيره كما في التخريجات السابقة . وانظر شواهد للحديث في مسند أحمد تحت حديث (١١١٣٣ ط الرسالة) .

شرف العلم بالتقوى

١٠٦ ـ فصل : من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزهاد فلينظر في رتبة جبريل وميكائيل ومن خص من الملائكة بولاية تتعلق بالخلق ، وباقي الملائكة قيام التعبد في مراتب الرهبان في الصوامع ، وقد حظى أولئك بالتقريب على مقادير علمهم بالله تعالى . فإذا مرّ أحدهم بالوحي انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخبر ﴿ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ [سبأ : ٢٣].

كما إذا انزعج الزاهد من حديث يسمعه ، سأل العلماء عن صحته ومعناه .

فسبحان من خص الخصوص بخصائص شرفوا بها على جنسهم ، ولا خصيصة أشرف من العلم ؛ بزيادته صار آدم مسجوداً له ، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة ، فأقرب الخلق من الله العلماء ، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به ، فكلما دله على فضل اجتهد في نيله ، وكلما زاد نهاه عن نقص بالغ في مساعدته ، فحينئذ يكشف العلم له سره ، ويسهل عليه طريقه ، فيصير كمجتذب بحث الجاذب ، فإذا حركه عجل في سيره . والذي لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره ، ولا يكشف له عن سره ، فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه فافهم هذا المثل ، وحسن قصدك وإلا فلا تتعب .

١٠٧ ـ فصل : اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال في كل شيء وإذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير أعمالهم ، أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة .

فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت وأحاديث الآخرة تقرأ عليه ، وتجرى على لسانه فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بمرة . بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى الكثير الذكر للآخرة أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفس أمله قليلاً ؛ فيصنف ويعمل أعمال خير ، ويقدر على طلب ولد [٥٠ / أ] فأما إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته ، ألم تسمع أن النبي ﷺ سابق عائشة – رضي الله عنها –

فسبقته ، وسابقها فسبقها[1] ، وكان يمزح ويشاغل نفسه ، فإن مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن وتزعج النفس .

وقد روى عن أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى –: أنه سأل الله تعالى أن يفتح عليه باب الخوف ففتح عليه فخاف على عقله ؛ فسأل الله أن يرد ذلك عنه ؛ فتأمل هذا الأصل فإنه لابد من مغالطة النفس وفي ذلك صلاحها والله الموفق [والسلام].

١٠٨ـ فصل : من أعمل فكره الصافي دله على طلب أشرف المقامات ، ونهاه عن الرضا بالنقص في كل حال وقد قال أبو الطيب المتنبي :

و لم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبل النقائص رضاه بالأرض ، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض ، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن ، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل ، وأنا أشرح من ذلك ما يدل مذكورة على مغفله ، أما في البدن : فليست الصورة داخله تحت كسب الآدمي ؛ بل يدخل تحت كسبه تحسينها وتزيينها ، فقبيح بالعاقل إهمال نفسه ، وقد نبه الشرع على الكل بالبعض . فأمر بقص الأظافر ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، ونهي عن أكل الثوم والبصل النيء لأجل الرائحة .

وينبغي له أن يقيس على ذلك ويطلب غاية النظافة ونهاية الزينة ، وقد كان النبي ﷺ يعرف بمجيئه بريح الطيب ، فكان الغاية في النظافة والنّزاهة ، ولست آمراً بزيادة التقشف الذي يستعمله الموسوس ، أو المترفون ولكن التوسط هو المحمود . ثم ينبغي له أن يرفق ببدنه الذي هو راحلته ولا ينقص من قوتها فتنقص قوتها . ولست آمراً بالشبع الذي يوجب الجشأ ، وإنما آمر بالتوسط ، فإنه قوى الآدمي كعين جارية ، فكم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره .

ويعين صانعاً ولا يلتفت إلى قول الموسوسين من المتزهدين [٥٠ / ب] الذين

---

(١) **إسناده صحيح** : وسبق تخريجه .

جدوا في التقلل فضعفوا عن الفرائض ، وليس ذلك من الشرع ، ولا نقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه ، إنما كان الرسول ﷺ وأصحابه إذا لم يجدوا جاعوا ، وربما آثروا فصبروا ضرورة ، وكذلك ينبغي أن ينظر لهذه الراحلة في علفها - فرب لقمة منعت لقمات - فلا يعطيها ما يؤذيها ، بل ينظر لها في الأصلح ولا يلتفت إلى متزهد يقول لا أبلغها الشهوات ، فإن النظر ينبغي أن يكون في حل المطعم وأخذ ما يصلح بمقدار .

ولم ينقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه ﷺ ما أحدثه الموسوسون في ترك المشتهيات على الإطلاق ، إنما نقل عنهم تركها لسبب : إما للنظر في حلها ؛ أو للخوف من مطالبة النفس بها في كل وقت ، ويجوز ذلك وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب ؛ ليفضل على غيره ولا يفضل غيره عليه ، وليبلغ من ذلك غاية لا يمنعه عن العلم ، ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم .

ومن أقبح النقص التقليد ، فإن قويت همته رقَّتْهُ إلى أن يختار لنفسه مذهباً ولا يتمذهب لأحد ؛ فإن المقلد أعمى يقوده مقلده . ثم ينبغي أن يطلب الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته ، وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصّلها ؛ فإن القنوع بما نزل المبارك حالة الأرزال .

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامـــة همته في الثـــريا

ولو أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد فافعل ، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل ، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها ، واعلم أنك في ميدان سباق والأوقات تنتهب ، ولا تخلد إلى كسل ، فما فات ما فات إلا بالكسل ، ولا نال من نال إلا بالجدّ والعزم ، وأن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور ، وقد قال بعض من السلف :

ليس لي مال سوى كرمي فبه أمـــنى من العـــدم
قنعت نفسي بمـــا رُزقت وتمطت في العلا هممي

١٠٩ ـ فصل : ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمـــع المال للاستغناء عن الناس ، فإنه إذا ضُمَّ إلى العلم حيز الكمال ، وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب ، فاحتاجوا إلى ما لابد منه ، وقل الصـــبر فدخلوا مدخل شانتهم [٥١/أ] وإن تأولوا فيها ، إلا أن غيرها كان أحسن لهم .

فالزهري مع عبد الملك ، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين ، وابن أبي الدنيا مؤدب المعتضد ، وابن قتيبة فصدَّر كتابه بمدح الوزير .

وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم ، وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل فإنهم فقدوا من قلوبهم ، وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا .

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم فمنهم من يداهن ويرائي ، ومنهم من يمدح بما لا يجوز ، ومنهم من يسكت عن منكرات إلى غير ذلك من المداهنات وسببها الفقر ، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون [في البعد] عن العمال الظلمة ، ولم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين : إما من كان له ماله كسعيد بن المسيب كان يتجر في الزيت وغيره ، وسفيان الثوري كانت له بضائع ، وابن المبارك .

وإما من كان شديد الصبر قنوعاً بما رزق وإن لم يكفه كبشر الحافي ، وأحمد بن حنبل . ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين ، ولا كمال أولئك ، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات ، وربما تلف دينه . فعليك [يا طالب][1] العلم بالاجتهاد في جمع المال للغني عن الناس فإنه يجمع لك دينك . فما رأينا في الأغلب منافعاً في التدين والتزهد والتخشع ، [ولا آفة][2] طرأت على عالم إلا بحب الدنيا ، وغالب ذلك الفقر .

فإن كان له ما يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة ، فذلك معدود في أهل الشره ، خارج عن حيز العلماء ، نعوذ بالله من تلك الأحوال .

١١٠ ـ فصل : أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته ، ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم ، فإن أرباب المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبداً ، وإن كان في زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللغة .

واعتبر هذا بأهل زماننا فإنك ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة

(١) في المخطوط : بما طلب .والأصح المثبت .

(٢) في المخطوط : والآفة . والمثبت أوجه .

فيستغنى ، ويعرف حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النحرير[١] من باقي العلماء . وكم رأينا مبرزاً في علم القرآن أو في الحديث أو في التفسير أو في اللغة لا يعرف مع الشيخوخة معظم أحكام الشرع وربما جهل علم ما ينويه في صلاته ، على أنه ينبغي للفقيه ألا يكون أجنبياً عن باقي العلوم فإنه لا يكون فقيهاً بل يأخذ من كل علم بحظ ثم يتوفر على الفقه فإنه عز الدنيا والآخرة .

١١١ ـ فصل : [٥١ / ب] رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة ، ويكثرون من الصـــدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، في أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول .

فبحثت عن سبب ذلك فوجدته من شيئين : أحدهما : العادة ، والثاني : غلبة الهوى في تحصيل المطلوب فإنه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً ، ومن هذا القبيل أن أخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادى : ﴿ **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾.

﴿ **لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** ﴾ ، فجاء في التفسير أنه لما دخلوا مصر كعموا[٢] أفواه إبلهم لئلا تتناول ما ليس لهم ، فكأنهم قالوا : قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا فكيف نسرق ؟ ونسوا هم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها ، وبين إلقاء يوسف - عليه السلام - في الجب وبيعه بثمن بخس ، وفي الناس من يطيع في صغار الأمور دون كبارها وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة وفيما لا ينقص شيئاً من عادته في مطعم وملبس .

نرى أقواماً يأخذون بالربا ويقول أحدهم : كيف يراني عدوي بعين أني بعت داري ، أو تغير ملبوسي ومركوبي ؟! ونرى أقواماً يوسوسون في الطهارة ويستعملون الكثير ولا يتحاشون من غيبة ، وأقواماً يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم مع علمهم أنها لا تجوز ، حتى أني رأيت رجلاً من أهل الخير والتعبد أعطاه رجل مالاً ليبنى به مسجداً فأخذه لنفسه وأنفق عوض الصحيح قراضة ، فلما احتضر قال لذلك الرجل : أجعلني في حل فإني فعلت

---

(١) **النحرير** : الفطن البصير بكل شيء .

(٢) **كعموا** : كعب البعير ، أي : شد فاه لئلا يعض أو يأكل .

كذا وكذا ، ونري أقواماً يتركون الذنوب لبعدهم عنها فقد ألفوا الترك وإذا قربوا منها لم يتمالكوا ، وفي الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها .

وقد علمنا أن خلقاً من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد في دينهم ، فلما جاء الإسلام وعرفوا صحته لم يطيقوا مقاومة أهوائهم في محو رياستهم .

وكذلك قيصر فإنه عرف رسول الله ﷺ بالدليل ثم لم يقدر علي مقاومة هواه وترك ملكه ، فالله الله في تضييع الأصول ! ومن إهمال شرح الهوى فإنه إن أهملت ماشية نفشت في زروع التقي وما [مثل][1] الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة فإن استوثق منه [٥٢ / أ] ضابطه كفه وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم يقاومها السلسلة فأفلت ، علي أن من الناس من يكف هواه بسلسلة ومنهم من يكفه بخيط فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى وأن يكون بصيراً بما يقوى عليه من أعدائه وبمن يقوى عليه .

١١٢ـ فصل : من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلي الأصدقاء فإن أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدوا لأنه قد اطلع علي خفي السر ، قال الشاعر :

احـــذر عـــدوك مـــرة ... واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصـــديق ... فكـــان أدرى بالمضـــرة

واعلم أن من الأمر الموضوع في النفوس الحسد علي النعم أو الغبطة وحب الرفعة فإذا رآك من يعتقدك مثلاً له وقد ارتقيت عليه ولا بد أن يتأثر وربما حسد ، فإن أخوة يوسف – عليه السلام – من هذا الجنس جرى لهم .

فإن قلت : كيف يبقي الإنسان بلا صديق ؟ قلت لك : أتراك ما تعلم أن المجانس يحسد ، وأن أكثر العوام يعتقدون في العالم أنه لا يبتسم ولا يتناول من شهوات الدنيا شيئاً ، فإذا رأوا بعض انبساطه في المباح هبط من أعينهم فإذا كانت هذه حالة العوام ، وتلك حالة الخواص فمع من تكون المعاشرة ؟.

لا بل والله ما تصح المعاشرة مع النفس لأنها متلونة ، وليس إلا المداراة للخلق ، والاحتراز منهم واتخاذ المعارف من غير طمع في صديق صادق ، فإن

(١) في المخطوط : ملل ، والمثبت أصح .

ندر فليكن غير مماثل ، لأن الحسد إليه أسبق ، وليكن مرتفعاً عن رتبة العوام ، غير طامع في نيل مقامك . وإن كانت معاشرة هذا لا تشفي لأن المعاشرة ينبغي أن تكون بين العلماء من مجانس لزمهم من الإشارات في المخالطة ما تطيب به المجالسة ، ولكن لا سبيل إلي الوصال .

ومثل هذه الحال أنك إن استخدمت الأذكياء عرفوا باطنك ، وإن استخدمت البُلّه انعكست مقاصدك .

فاجعل الأذكياء لحوائجك الخارجة ، والبله لحوائجك في منْزلك لئلا يعلموا أسرارك ، واقنع من الأصدقاء بمن وصفته لك ، ثم لا تلقه إلا متدرعاً درع الحذر ، ولا تطلعه علي باطن يمكن أن يستر عنه ، وكن كما يقال عن الذئب :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخـــ ـــرى الأعادي فهو يقظان هاجع

١١٣ ـ فصل : رأيت جماعة ممن أفنى أوائل عمره وريعان شبابه في طلب العلم يصبر [٥٢ / ب] علي أنواع الأذى ، وهجر فنون الراحات ، أنفة من الجهل ورذيلته ، وطلباً للعلم وفضيلته ، فلما نال منه طرفاً رفعه عن مراتب أرباب الدنيا ، ومن لا علم له إلا بالعاجل ضاق به معاشه ، فسافر البلاد يطلب من الأراذل ، ويتواضع للسفلة وأهل الدناءة والمكاس وغيرهم .

فخاطبت بعضهم وقلت : ويحك أين تلك الأنفة من الجهل التي سهرت لأجلها ، وأظمأت نهارك بسببها ، فلما ارتفعت وانتفعت عدت إلي أسفل سافلين ، أفما بقي عندك ذرة من الأنفة تنبو به عن مقامات الأراذل ؟ ولا معك يسير من العلم يسير بك عن مناخ الهوى ؟ ولا حصلت بالعلم قوة تجذب بها زمام النفس عن مراعي السوء ؛ غير أنه يبين لي أن سهرك وتعبك كأنه كان لنيل الدنيا ، ثم إني أراك تزعم أنك تريد شيئاً من الدنيا تستعين به علي طلب العلم .فاعلم أن التفاتك إلي نوع كسب تستغني به عن الأراذل أفضل من التزيد في علمك ، فلو عرفت ما ينقص به لم تر ما قد عزمت عليه زيادة مما يحتوى عليه هذا العزم السفر الذي كله مخاطرة بالنفس ، وبذل الوجه الذي طال ما صين لمن لا يصلح التفات مثلك إلي مثله ، وبعيد أن تقنع بعد شروعك في هذا الأمر بقدر الكفاف ، وقد علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الإثم ، وأبعد منه أن تقدر علي الورع في المأخوذ ومن لك بالسلامة والرجوع إلي الوطن .

وكم رمي فقر في بواديه من هالك .

ثم ما يحصله يفني ويبقي منه ما أعطي ، وعيب المتقين إياك ، واقتداء الجاهلين بك ، ويكفيك أنك عدت إلي ما علمت من ذم الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ، خصوصاً وقد مر أكثر العمر ، ومن أحسن فيما مضي يحسن فيما بقي .

١١٤ـ فصل : رأيت الشره في تحصيل الأشياء يفوت الشره مقصوده ، وقد رأينا من كان شرهاً في جمع المال فحصل له الكثير منه ، وهو حريص علي الازدياد ، ولو فهم علم أن المراد من المال إنفاقه في العمر ، فإذا أنفق العمر في تحصيله فات المقصودان جميعاً ، وكم رأينا ممن جمع المال ولم يتمتع به ، فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر :

كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغــيرها بالذي تبنيه ينتفع

وكذا رأينا خلقاً كثيراً يحرصون علي جمع الكتب فينفقون أعمارهم في كتابتها [٥٣ / أ] ، وكدأب أهل الحديث ينفقون أعمارهم في النسخ والسماع إلي آخر العمر ؛ ثم ينقسمون فمنهم من يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه ولعله لا يفهم جواب حادثة ، ولعله عنده لحديث : ((**أَسْلَمْ سَالَمَهَا اللَّهُ**))(١) مائة طريق . وقد حكي لي عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جزء بن عرفه عن مائة شيخ وكان عنده سبعون نسخة ومنهم من يجمع الكتب ويسمعها ولا يدري ما فيهـــا ، لا من حيث صحتها ، ولا من فهم معناهـــا ، فتراه يقول : [الكتاب] الفلاني سماعي وعندي به نسخة ، والكتاب الفلاني والفلاني فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهم صحيحه من سقيمه ، وقد صد اشتغاله بذلك عن المهم من العلم فهم كما قال الحطيئة :

زوامل للأخبار لا علم عندها بمعتبهـــا إلا كعلم الأباعـــر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر

ثم ترى منهم من يتصدر ويفتقر الزمان إلي تصدره للرواية فيمد يده إلي ما ليس من شغله . فإن أفتي أخطأ ، وإن تكلم في الأصول خلط ، ولولا أني لا أحب ذكر الناس لذكرت من أخبار كبار علمائهم وما خلطوا ما يعتبر به ، ولكنه

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٣/ ٣٥) ، ومسلم (٢٥١٨) .

لا يخفي علي المحقق حالهم ، فإن قال قائل : أليس في الحديث : ((**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ طَالِب عِلْم وَطَالِب دُنْيَا**))(١) .

قلتَ : أما العالِم فلا أقول له اشبع من العلم ولا اقتصر علي بعضه بل أقول له : قدم المهم فإن العاقل من قدر عمره وعمل بمقتضاه وإن كان لا سبيل إلي العلم بمقدار العمر غير أنه يبنى علي الأغلب فإن وصل فقد أعد لكل مرحلة زاد وإن مات قبل الوصول فبنيته تسلك ، فإذا علم العاقل أن العمر قصير ، وإن العلم كثير ، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليحصل كل طريق ، وكل رواية ، وكل غريب ، وهذا لا يفرغ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً إن تشاغل بالنسخ ، ثم لا يحفظ القرآن ، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرف الحديث ، أو بالخلاف في الفقه ولا يعرف النقل الذي عليه مدار المسألة .

فإن قال قائل : فدبر لي ما تختار لنفسك **فأقول** : ذو الهمة لا يخفي من زمان الصبي كما قال سفيان بن عيينة ، قال لي أبي : - وقد بلغت خمس عشرة سنة - أنه قد انقضت عنك شرائع الصبا فاتبع الخير تكن من أهله ، فجعلت وصية أبي قبلة أميل إليها ولا أميل عنها .

ثم قبل شروعي في الجواب أقول : ينبغي لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه [٥٣ / ب] عن النفس ، فلو كانت النبوة مثلاً تأتي بالكسب لم يجز له أن يقنع بالولاية ، أو تصور أن يكون مثلاً خليفة لم يحسن به أن يقنع بإمارة ، ولو صح له أن يكون ملكاً لم يرض [أن يكون] بشراً .

والمقصود : أن ينتهي بالنفس إلي كمالها الممكن لها في العلم والعمل ، وقد علم قصر العمر وكثرة العلم فيبتدى بالقرآن وحفظه ، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفي عليه بذلك منه شيء ، وإن صح له قراءة القراءات السبعة

---

(١) **إسناده حسن** : رواه الحاكم (١/٩٢) (١٥٩٨ ط الحرمين) من طريق سريج بن النعمان ثنا أبو عوانه عن قتادة عن أنس مرفوعاً . وله طرق أخرى عن ابن عباس وابن مسعود وأسانيدها ضعيفة . انظر الدارمي (١/٩٦) ، والعلم لابن أبي خيثمة (١٤١) ، وابن عدي في الكمال (٤/١٤٩) وصححه الشيخ ناصر في صحيح الجامع (٦٦٢٤) .

وسد أشياء من النحو وكتب اللغة وابتدأ بأصول الحديث من حيث النقل كالصحاح والمسانيد والسنن ، ومن حيث علم الحديث كمعرفة الضعفاء والأسماء ، فلينظر في أصول ذلك ، وقد رتب العلماء من ذلك ما يستغني به الطالب عن التعب ، ولينظر في التواريخ ليعرف ما لا يستغني عنه كنسب الرسول ﷺ وأقاربه وأزواجه وما جرى له ، ثم ليقبل علي الفقه ، فلينظر في المذهب والخلاف ، وليكن اعتماده علي مسائل الخلاف فلينظر في المسألة وما تحتوى عليه ، فيطلبه من مظانه ، كتفسير آية وحديث وكلمة لغة ، ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض .

وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم ويكفيه من النظر في الأصول ما يستدل به علي وجود الصانع ، فإذا أثبته بالدليل وعرف ما يجوز عليه مما لا يجوز ، وأثبت إرسال الرسل وعلم وجوب القبول منهم ، فقد احتوى علي المقصود من علم الأصول فإن اتسع الزمان للتزيد من العلم فليكن من الفقه فإنه الأنفع ومهما فسح له في المهل فأمكنه تصنيف في علم فإنه يخلف بذلك خلفه خلفاً صالحاً مع اجتهاده في التسبب إلي اتخاذ الولد .

ثم يعلم أن الدنيا معبرة فيلتفت إلي فهم معاملة الله تعالى فإن مجموع ما حصله من العلم يدله عليه فإذا تعرض لتحقيق معرفته ، ووقف علي باب معاملته ، فقل أن يقف صادقاً أو يجذب إلي مقام الولاية ، ومن أريد وفق .. وإن لله ﷻ أقواماً يتولى تربيتهم ويبعث إليهم في زمن الطفولة مؤدباً ، ويثمر [فيهم] العقل ، ومقوماً يقال له الفهم ، ويتولى تأديبهم وتثقيفهم ، ويهيئ لهم أسباب القرب منه ، فإن لاح قاطع قطعهم عنه ، وإن تعرضت بهم فتنة دفعها عنهم ، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم ، ونعوذ به من خذلان لا ينفع معه اجتهاد .

دوام العافية بخشية الله

١١٥ـ فصل : [٥٤ / أ] أن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة ، كم من مؤمن بالله ﷻ يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهى حذراً من عقابه ، أو رجـاء لثوابه ، أو إجلالاً له ، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً علي مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلائق ولا يدرون أين هو .

وعلي قدر المجاهدة في ترك ما تقوى محبته ، أو علي مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب ، ويتفاوت تفاوت العود ، فتري عيون الخلق تعظم هذا الشخص وألسنتهم تمدحه ولا يعرفون لم ؟ ولا يقدرون علي وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته ، وقد تمتد هذه الأرائيح بعد الموت علي قدرها ، فمنهم من يذكر بالخير [مدة] مديدة ثم ينسي ، ومنهم من يذكر مائة سنة ثم يخفي ذكره وقبره ، ومنهم أعلام يبقي ذكرهم أبداً ، وعلي عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خلوته بالحق فإنه علي قدر مبارزته بالذنوب وعلي مقادير تلك الذنوب يفوح منه ريح الكراهية فتمقته القلوب فإن قل مقدارها جني قل ذكر الألسن له بالخير ، ويبقي مجرد تعظيمه ، وإن كثر كان قصاري الأمر سكوت الناس عنه لا يمدحونه ولا يذمونه .

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة وكأنه قيل له : ابق بما آثرت فيبقي أبداً في التخبيط ، فانظروا إخواني إلي المعاصي أثرت وعثرت .

قال أبو الدرداء ﷺ : إن العبد ليخلوا بمعصية الله تعالي فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ، فتلمحوا ما سطرته ، واعرفوا ما ذكرته ، ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم ، فإن الأعمال بالنية ، والجزاء علي مقدار الإخلاص .

١١٦ ـ فصل : من عرف جريان الأقدار ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قاواها ، لأن مراد المقدر الذل له . فإذا قاويت القدر فنلت مرادك من ذلك لم يبق لك ذل .

مثال هذا : أن يجوع الفقير فيصبر قدر الطاقة ، فإذا عجز خرج إلي سؤال الخلق مستحياً من الله كيف يسألهم ، وإن كان له عذر بالحاجة التي ألجأته ، غير

أنه يري أنه مغلوب الصبر فيبقي معتذراً مستحياً وذلك المراد منه ، أو ليس يخرج النبي ﷺ من مكة فلا يقدر علي عود إليها حتى يدخل في خفارة المطعم بن عدى وهو كافر فسبحان من ناط الأمور بالأسباب ليحصل ذل العارف بالحاجة إلي التسبب .

١١٧ ـ فصل : سبحان المتصرف في خلقه [٥٤ / ب] بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم ، ويظهر جواهرهم في الابتلاء ، هذا آدم ﷺ تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة ، وهذا نوح عليه السلام يضرب حتى يغشي عليه ثم بعد قليل ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه ، وهذا الخليل عليه السلام يلقي في النار ثم [بعد قليل] يخرج إلي السلامة ، وهذا الذبيح يضجع مستسلماً ثم يسلم ويبقي المدح . ، وهذا يعقوب عليه السلام يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول ، وهذا الكليم عليه السلام يشتغل بالرعي ثم يرقي إلي التكليم ، وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالأمس اليتيم ، ويقلب في عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ومن مكابد الفقر أخرى ، وهو أثبت من جبل حراء ، ثم لما تم مراده من الفتح ، وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل به ضيف النقلة ، فقال : ((واكرباه))[1]. فمن تلمح بحر الدنيا وعلم كيف تتلقى الأمواج وكيف يصبر علي مدافعة الأيام لم يستهول نزول بلاء ، ولم يفرح بعاجل رخاء .

١١٨ ـ فصل : ينبغي للعاقل أن لا يقدم علي العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها ؟ ويجرب نفسه في ركوب بعضها سراً من الخلق فإنه لا يأمن أن يري في حالة لا يصبر عليها ، ثم يعود فيفتضح ، مثاله : رجل سمع بذكر الزهاد فرمى ثيابه الجميلة ولبس الدون وانفرد في زاوية ، وغلب علي قلبه ذكر الموت والآخرة فلم يلبث متقاضي الطبع أن ألح بما جرت به العادة ، فمن القوم من عاد بمرة إلي أكثر مما كان عليه كأكل الناقة من مرض ، ومنهم من توسط الحال فبقي كالمذبذب ، وإنما العاقل هو الذي يستر نفسه بين الناس بثوب وسط لا

---

(١) **موضوع** : رواه الطبراني في الكبير (٢٦٧٦) ومن طريق أبو نعيم في الحلية (٤/٧٣) وفي إسناد عبد المنعم بن إدريس وهو كذاب وضاع ، وانظر مجمع الزوائد (٩/٢٥ - ٣١) ، وجاءته لفظ واكرباه من قول فاطمة عند البخاري (٤٤٦٢) .

يخرجه من أهل الخير ، ولا يدخله في زي أهل الفاقة ، فإن قويت عزيمته عمل في بيته ما يطيق ، وترك ثوب التجمل لستر الحال ، و لم يظهر شيئاً للخلق ، فإنه أبعد من الرياء ، وأسلم من الفضيحة .

ومن الناس من غلب عليه قصر الأمل وذكر الآخرة حتى دفن كتب العلم ، وهذا الفعل عندي من أعظم الخطأ وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار ، ولقد ذكرت [هذا] لبعض مشايخنا فقال : أخطأوا كلهم ، وقد تأولت لبعضهم بأنه كان فيها أحـــاديث عن قوم ضعفاء و لم يميزوها ، كما روى عن [٥٥ / أ] سفيان في دفن كتبه ، أو كان فيها شيء من الرأي فلم يحبوا أن يؤخذ عنهم فكان من جنس تحريق عثمان ﷺ للمصاحف لئلا يؤخذ بشيء مما فيها من المجمع علي غيره ، وهذا التأويل يصح في حق علمائهم ، فأما غسل أحمد بن أبي الحواري كتبه وابن أسباط فتفريط محض .

فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة ، أو من إظهار ما لا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى « **وَعَلَيْكُمْ مِنَ العَمَلِ بِمَا تُطِيقُونَهُ** »[١] كما قال ﷺ .

١١٩ ـ فصل : أجهل الجهال من آثر عاجلاً [علي آجلاً] لا يأمن سوء مغبته ، فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها ، و لم ينظر في حلال وحرام فنَزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ ، ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة ، ولو كان هذا فحسب لكفي حزناً ، وكيف والجزاء الدائم بين يديه ، فالدنيا محبوبة للطبع لا ريب في ذلك ولا أنكر علي طالبها ومؤثر شهواتها ، ولكن ينبغي له أن ينظر في كسبها ويعلم وجه أخذها ، ليسلم له عاقبة لذته ، وإلا فلا خير في لذة من بعدها النار ، وهل عد في العقلاء قط من قيل له اجلس في المملكة سنة ثم نقتلك ، هيهات بل الأمر بالعكس وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة بل سنين ليستريح في عاقبته ، وفي الجملة أف للذة أعقبت عقوبة .

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب قال :

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٩٦٦) ، ومسلم (٧٨٥) .

أخبرنا الحسن بن أبي طالب قال : حدثنا يوسف بن عمر القواس قال : حدثنا الحسين بن إسماعيل إملاء قال : حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال : حدثنا محمد ابن مسلمة البلخي قال : حدثنا محمد بن علي القوهستاني قال : ثنا أبي دلف قال : رأيت كأن آتياً أتى بعد موت أبي قال : أجب الأمير ، فقمت معه فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء الحيطان مقلعة السقوف والأبواب ، ثم أصعدني درجاً فيها ، ثم أدخلني غرفة فإذا في حيطانها أثر النيران ، وإذا في أرضها أثر الرماد وإذا أبي عريان واضعاً رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم : دلف ؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير ! فأنشأ يقول :

أُبْلغَن أهلنا ولا تُخْـــف عنهم ... ما لَقينـــا في البرزخ الخفـــاق
قَد سُئلْنا عن كل ما قَد فَعَلْنا ... فارحموا وحشتي وما قد ألاقي

أفهمت ؟ قلت : نعم ! فأنشأ يقول : | ٥٥ / ب |

فلو أنا إذا متْنَـــا تُرِكْنا ... لكانَ الموتُ راحَة كُلِّ حيّ
ولكنا إذا متْنَـــا بُعثْنَـــا ... ونُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شيء

١٢٠ ـ فصل : اللذات كلها بين حسي وعقلي ، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح ، وغاية اللذات العقلية العلم . فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية ، وأنا أرشد الطالب إلا أعلا المطلوبين ، غير أن للطالب المرزوق علامة وهو أن يكون مرزوقاً علو الهمة ، وهذه الهمة تولد مع الطفل فتراه من زمن طفولته يطلب معالي الأمور .

كما يروى في الحديث : أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر فكان النبي ﷺ يأتي وهو طفل فيجلس عليه فيقول عبد المطلب : إن لابني هذا شأناً[(١)].

فإن قال القائل : فإذا كانت لي همة ولم أرزق ما أطلب فما الحيلة ؟ فالجواب : أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر ، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك فانظر في حالك فلعله أعطاك شيئاً ما شكرته ، أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١٥٦/١) تحت باب كفالة أبي طالب لرسول ﷺ .

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيراً ليوفرك على لذات العلم فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك فإن الشاب المبتدئ في طلب العلم ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفاً ويجعل علم الفقه الأهم ، ولا يقصر في معرفة النقل ، فبه تبين سير الكاملين ، وإذا رزق فصاحة من حيث الوضع ، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو ، فقد شحذت شفرة لسانه على أجود مسن .

ومتى تعلم العلم لمعرفة الحق وخدمة الله عز وجل فتحت له أبواب لا تفتح لغيره ، وينبغي له بالتلطف أن يجعل جزءاً من زمانه مصروفاً إلى توفير الاكتساب والتجارة ، مستنيباً فيها غير مباشر لها مع التدبير في العيش الممتنع من الإسراف والتبذير فإن رواية العلم والعمل به إلى درجة المعرفة لله عز وجل ، فربما شغلته لذة ما وصل إليه عن كل شيء ، ويا لها حالة سليمة من آفة .

وإن وجد من طبعة منازعاً إلى الشوق في النكاح فليتخير السراري | ٥٦ / أ | فإن الحرائر في الأغلب غل ، وليعزل عن المملوكات إلى أن يجرب خلقهن ودينهن ، فإن رضيهن طلب الولد منهن وإلا فالاستبدال بهن سهل ، ولا يتزوج حرة إلا أن يعلم أنها تصبر على التزويج عليها والتسري ، وليكن قصده الاستمتاع بها لا إجهاد النفس في الإنزال ، فإن ذلك يهدم قوته فيضعف الأصل ، فهذه الجامعة من لذتي الحس والعقل ذكرتها على وجه الإشارة ، وفهم الذكي يملي عليه ما لم أشرحه .

١٢١ ـ فصل في تعليم حفظ العلم : أعلم أن العلم يفتقر إلى دوام الدراسة ومن الغلط الانهماك على الإعادة ليلاً ونهاراً ، فإنه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أياماً ثم يفتر أو يمرض .

وقد روينا أن الطبيب دخل على أبي بكر بن الأنباري في مرض موته فنظر إلى ما به وقال : قد كنت تفعل شيئاً لا يفعله أحد ثم خرج ، فقال : ما يجيء منه شيء . فقيل له : ما الذي كنت تفعل ؟ قال : كنت أعيد كل أسبوع عشرة آلاف ورقة . ومن الغلط حفظ الكثير أو الحفظ من فنون ، فإن القلب جارحة من الجوارح ، وكما أن من الناس من يحمل المائة رطل ، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً ، فكذلك القلوب فليأخذ الإنسان على قدر قوته

ودونها ، فإنه إذا استنفذها في وقت ضاعت منه أوقات ، كما أن الشره يأكل فضل لقيمات فيكون سبباً إلى منع أكلات .

والصواب : أن يأخذ قدر ما يطيق ، ويعيد في وقتين من النهار والليل ، ويرفه القوى في بقية الزمان ، والدوام أصل عظيم . فكم ممن ترك بعد الحفظ فضاع زمن طويل في استرجاع محفوظ قد نسي ، وللحفظ أوقات من العمر ، فأفضلها الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان ، وأفضلها إعادة الأسحار وأنصاف النهار ، والغدوات خير من العشيات ، وأوقات الجوع خير من أوقات الشبع .

ولا يحمد الحفظ بحضرة خضرة وعلى شاطئ نهر ، لأن ذلك يلهي ، والأماكن العالية للحفظ خير من السوافل ، والخلوة أصل وجمع الهم أصل الأصول ، وترفيه النفس من الإعادة يوماً في الأسبوع ليثبت المحفوظ ، وتأخذ النفس قوة كالبنيان يترك أياماً حتى يستقر ثم يبني عليه ، وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم ، وأن لا يشرع في فن حتى يحكم ما قبله .

ومن لم يجد [٥٦ / ب] نشاطاً للحفظ فليتركه ، فإن مكابرة النفس لا تصلح ، وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة ؛ فإن للمأكولات أثراً في الحفظ . قال الزهري : ما أكلت خلاً منذ عالجت الحفظ .

وقيل لأبي حنيفة : بم يستعان على حفظ الفقه ؟ قال : بجمع الهم ، وقال حماد بن سلمه : بقلة الغم ، وقال مكحول : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طلبت ريحه زاد عقله ، ومن جمع بينهما زادت مروءته .

واختار للمبتدئ في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن ، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة ، وهذا لأجل جمع الهم فإن غلب عليه الأمر تزوج ، واجتهد في المدافعة بالفعل لتتوفر القوة على إعادة العلم ، ثم لينظر ما يحفظ من العلم فإن العمر عزيز والعلم غزير ، وإن أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أولى منه ، وإن كان كل العلوم حسناً ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل ، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن ثم الفقه ، وما بعد هذا بمنزلة تابع ، ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم يحتج إلى دليل ، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم دله المقصود على الأحسن ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

١٢٢ ـ فصل : من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله ﷻ ، فإنه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافيه التقوى وإن قل إلا وجد عقوبة عاجلة أو آجلة ، ومن الاغترار أن تسيء فترى إحساناً فتظن أنك قد سومحت ، وتنسى : ﴿ **مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به** ﴾ [النساء : ١٢٧] وبما قالت النفس : إنه يغفر فتسامحت ، ولا شك أنه يغفر وَلكن لمن يشاء ، وأنا أشرح لك حالاً فتأمله بفكرك تعرف معنى المغفرة ، وذلك أن من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ولا عزم على العود بعد الفعل ، ثم انتبه لما فعل فاستغفر الله كان فعله وإن دخله عمداً في مقام خطأ ، مثل أن يعرض له مستحسن فيغلبه الطبع فيطلق النظر ويتشاغل في حال نظره بالتذاذ الطبع عن تلمح معنى النهي ، فيكون كالغائب أو كالسكران فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله ، فقام الندم بغسل تلك الأوساخ التي كانت كأنها غلطة لم تقصد ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

فأما المداوم على تلك النظرة المردد لها ، المصر عليها ، فكأنه في مقام متعمد للنهي [٥٧ / أ] مبارز بالخلاف فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره ، ومن البعد أن لا يرى الجزاء على ذلك كما قال ابن الجلاء : رآني شيخي وأنا قائم أتأمل حدثاً نصرانياً فقال : ما هذا ؟ لترين غبَّها[1] ولو بعد حين ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحن الاغترار بالسلامة بعد الذنب ، فإن العقوبة تتأخر ، ومن أعظم العقوبة ألا يحس الإنسان بها . وأن تكون في سلب الدين وطمس القلب وسوء الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البدن وبلوغ الأغراض ، قال بعض المعتبرين : أطلقت نظري فيما لا يحل لي ثم كنت أنتظر العقوبة فألجئت إلى سفر طويل لا نية لي فيه ، فعانيت المشاق . ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندي ، وذهاب أشياء كان لها وقع عظيم عندي ، ثم تلافيت أمري بالتوبة فصلح حالي . ثم عاد الهوى يحملني على إطلاق بصري مرة أخرى ، فطمس قلبي وعدمت رقته ، واستلب مني ما هو أكثر من فقد الأول ، ووقع لي

---

(١) **غبها** : عاقبتها .

تعويض عن المفقود ما كان فقده أصلح ، فلما تأملت ما عوضت وما سلب مني صحت من ألم تلك السياط فها أنا أنادي من على الساحل : إخواني احذروا لجة هذا البحر ، ولا تغتروا بسكونه ، وعليكم بالساحل ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرة ، واعلموا أن في ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمشتهيات ، غير أنها في ضرب المثل كالحمية تعقب صحة ، والتخليط ربما جلب موت الفجأة ، وبالله لو نمتم على المزابل مع الكلاب في طلب رضا المبتلي كان قليلاً في نيل رضاه ولو بلغتم نهاية الأماني من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم كانت سلامتكم هلاكاً وعافيتكم مرضاً ، وصحتكم سقماً والأمر بآخره ، والعاقل من تلمح العواقب ، وصابروا رحمكم الله تعالى هجير البلاء فما أسرع زواله . والله الموفق إذ لا حول إلا به ، ولا قوة إلا بفضله .

١٢٣ - فصل : قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم فارتقوا منابر التذكير للعوام ، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون ليس لله في الأرض كلام ، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج ؟ وأن الله ليس في السماء وأن الجارية التي قال لها النبي ﷺ أين الله ؟ كانت خرساء فأشارت إلى السماء[1] ، أي ليس هو من الأصنام التي تعبد [٥٧ / ب] في الأرض ، ثم يقولون : أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت ؟ هذا عبارة جبريل . فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن في صدور أكثر العوام ، وصار أحدهم يسمع فيقول هذا هو الصحيح ! وإلا فالقرآن شيء يجيء [به] جبريل في كيس .

فشكا إليّ جماعة من أهل السنة فقلت لهم : اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات ، وإن كانت مدموغة ، وللباطل جولة [وللحق صولة] والدجالون كثير . وقد لا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان .

قال قائل : فما جوابنا عن قولهم ؟ **قلت** : اعلم وفقك الله تعالى أن الله [ﷻ] ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجمل ، ولم يكلفا معرفة التفاصيل ، إما لأن الاطلاع على التفاصيل يخبط العقائد ، وإما لأن قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك ، فأول ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخالق ونزل عليه القرآن

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود (٣٢٨٤) ، وأصل الحديث في مسلم (٥٣٧) .

بالدليل على وجود الخالق بالنظر في صنعه فقال تعالى : ﴿ **أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَارًا** ﴾ [النحل ٦١] وقال تعالى : ﴿ **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات ٢١] وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته ، وعلى قدرته بمصنوعاته ، ثم أثبت نبوة نبيه بمعجزاته ، وكان من أعظمها القرآن الذي جاء به فعجز الخلائق عن مثله ، واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصحابة ومضى على ذلك القرن الأول والمشرب صاف لم يتكدر .

وعلم الله ﷻ ما سيكون من البدع فبالغ في إثبات الأدلة وملأ بها القرآن ولما كان القرآن هو منبع العلوم ، وأكبر المعجزات للرسول ، أكد الأمر فيه فقال تعالى : ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ** ﴾ [الأنعام ١٥٥] ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] فأخبر أنه كلامه بقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ** ﴾ [الفتح : ١٥] وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى : ﴿ **حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ** ﴾ وأخبر أنه محفوظ فقال تعالى : ﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٩] وأخبر أنه مكتوب ومتلو فقال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] إلى ما يطول شرحه من تعدد الآيات في هذه المعاني التي توجب إثبات القرآن .

ثم نزه نبيه ﷺ عن أن يكون أتى به من قبل نفسه فقال تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ [السجدة ٣] وتواعده لو فعل فقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ** ﴾ [٥٨/١] وقال في حق الزاعم أنه كلام الخلق حين قال : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** ﴾ [المدثر : ٢٥-٢٦] .

ولما عذب كل أمة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة كصيحة جبريل عليه السلام بثمود ، وإرسال الريح على عاد ، والخسف بقارون وقلب جبريل دار لوط – عليهما السلام – وإرسال الطير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة وتولى هو بنفسه عقاب المكذبين بالقرآن فقال تعالى : ﴿ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ** ﴾ [القلم ٤٤] ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾ [المدثر : ١١] وهذا لأنه أصل هذه الشرائع والمثبت لكل شريعة تقدمت ، لأن جميع الملل ليس عندهم ما يدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا لأن كتبهم غيرت وبدلت .

وقد علم كل ذي عقل أن القائل ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ إنما أشارت إلى ما سمعه ، ولا يختلف أولـــوا الألباب وأهل الفهم للخطـــاب أن قـــوله : ﴿ **وأنه** ﴾ كناية عن القرآن ، وقوله : ﴿ **نَزل به** ﴾ كناية أيضاً عنه ، وقوله : ﴿ **هَذَا كِتَابٌ** ﴾ إشارة إلي حاضر .

وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحد من القدماء في زمن الرسول ﷺ والصحابة ﷺ ثم دس الشيطان دسائس البدع فقال قوم : هذا المشار إليه مخلوق ، فثبت الإمام أحمد – رحمه الله – ثبوتاً لم يثبته غيره على دفع هذا القول لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمحو بعض تعظيمه في النفوس ، ويخرجه عن الإضافة إلى الله ﷻ ورأى أن ابتداع ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله فقال : كيف أقول ما لم يقل ؟ ثم لم يختلف الناس في غير ذلك إلى أن نشأ علي بن إسماعيل الأشعري ، فقال مرة بقول المعتزلة ، ثم عن له فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس ، فأوجبت دعواه هذه أن ما عندنا مخلوق وزادت فخبطت العقائد ، فما زال أهل البدع يجولون في تيارها إلى اليوم .

والكلام في هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه في كتب الأصول فلا أطيل به هاهنا بل أذكر لك جملة تكفي من أراد الله هداه ، وهو أن الشرع قنع منا بالإيمان جملة وبتعظيم الظواهر ، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهته ولا يقوى علي قطع طريقه إقدام الفهم ، وإذا كان قد نهى عن الخوض في القدر فكيف يجوز الخوض في صفات المقدر؟ وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرهما ، إما لخوف إثارة شبهة تزلزل العقائد ، أو لأن قوى البشر تعجز عن إدراك [٥٨ / ب] الحقائق ، فإذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن فقال قائل : ليس هاهنا قرآن ، فقد رد الظواهر التي تعب الرسول ﷺ في إثباتها وقرر وجودها في النفوس وبماذا يحل ويحرم ، ويبت ويقطع وليس عندنا من الله تعالى تقدم بشيء ، وهل للمخالف دليل إلا أن يقول : قال الله فيعود فيثبت ما نفى .
فليس الصواب لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع فإن اعترضـــه ذو شبهة فقال : هذا صوتك وهذا خطك ، فأين القرآن ؟ فليقل له : قد أجمعنا أنا وأنت علي وجود شيء به نحتج جميعاً ، وكما أنك تنكر علي أن أثبت شيئاً لا يتحقق لي إثباته حساً ، فأنا أنكر عليك كيف تنفي وجود شيء قد ثبت شرعاً

وأما قولهم : هل في المصحف إلا ورق وعفص وزاج ؟ هذا كقول القائل : هل الآدمي إلا لحم ودم ؟ هيهات إن معنى الآدمي هو الروح فمن نظر إلى اللحم والدم ووقف مع الحس ، فإن قال : فكذا أقول أن المكتوب غير الكتابة ، قلنا له : وهذا مما ننكره عليك لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخصمك ، فإن أردت بالكتابة الحبر وتخطيطه فهذا ليس هو القرآن ، وإن أردت المعنى القائم بذلك فهذا ليس هو الكتابة وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها فإن ما دونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل كالروح مثلاً ، فإنا نعلم وجودها في الجملة ، فأما حقيقتها فلا ، فإذا جهلنا حقائقها كنا لصفات الحق أجهل فوجب الوقوف مع السمعيات مع نفي ما لا يليق بالحق لأن الخوض يزيد الخائض تخبيطاً ولا يفيده تحصيلاً ، بل يوجب عليه نفي ما يثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلي فلا وجه للسلامة إلا طريق السلف والسلام ، وكذلك أقول أن إثبات الإله بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوام من تحديثهم بالتنْزيه ، وإن كان التنْزيه لازماً .

وقد كان ابن عقيل يقول : الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآي والسنن لأنهم يأنسون بالإثبات فمتى محونا ذلك من قلوبهم زالت السياسات والحشمة ، وتهافت العوام في الشبهة أحب إلي من إغراقهم في التنْزيه ، لأن التشبيه يغمسهم في الإثبات فيطمعوا ويخافوا شيئاً قد أنسوا إلي ما يخاف مثله ويرجى ، فالتنْزيه يرمي بهم إلى النفي ولا طمع ولا مخافة من النفي ، ومن تدبر الشريعة رآها عامة للمكلفين [٥٩ / أ] في التشبيه بالألفاظ التي لا يعطي ظاهرها سواه كقول الأعرابي : أو يضحك ربنا ؟ قال : نعم ، فلم يكفهر من هذا القول .

مجاهدة النفس

١٢٤ ـ فصل : أعظم البلايا أن يعطيك همة عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول إرفاق الخلق استثقالاً لحمل منهم ، ثم يبتليك بالفقر فيأخذ منهم ، ويلطف مزاجك فلا تقبل من المأكولات ما سهل إحضاره ، فتحتاج إلى فضل نفقة ثم يقلل رزقك ويعلق همتك بالمستحسنات ، ويقطع بالفقر السبيل إليهن ويريك العلوم في مقام معشوق ، ويضعف بدنك

عن الإعادة ، ويخلي يديك من المال الذي تحصل به الكتب ، ويقوي توقك إلى درجات العارفين والزهاد ، ويحوجك إلى مخالطة أرباب الدنيا وهذا البلاء المبين .

وأما الخسيس الهمة الذي لا يستنكف من سؤال الخلق ، ولا يري الاستبدال بزوجته ، ويكتفي بيسير [من] العلم ، ولا يتوق إلى أحوال العارفين ، فذاك لا يؤلمه فقد شيء ، ويرى ما وجد هو الغاية ، فهو يفرح فرح الأطفال بالزخارف فما أهون الأمر عليه ! إنما البلاء على العارف ذي الهمة العالية الذي تدعوه همته إلى جمع الأضداد للتزيد من مقام الكمال ، وتقصر خطاه عن مدارك مقصوده فياله من حال ينفد في طريقه زاد الصابرين !

ولولا حالات غفلة تعتري هذا المبتلى يعيش بها ، لكان دوام ملاحظته للمقامات يعمي بصره ، واجتهاده في السلوك يحفى قدمه ، لكن ملاحظات الإمداد له تارة ببلوغ بعض مراده وتارة بالغفلة عما قصد ، وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه ، ولا يعلم كنهه إلا أصحابه .

١٢٥ ـ فصل : تراعنت على نفسي في طلب شيء من أغراضها بتأويل فاسد ، فقلت لها بالله عليك تصبري - في المعبر شغل يحذر الغرق من كثرة الموج - عن التنزه في عجائب البحر ، إذا هممت بفعل ، فقدري حصوله ثم تلمحي عواقبه وما تجتنين من ثمراته ، فأقل ذلك الندم على ما فعلت ، ولا يؤمن أن يثمر غضب **الحق** ﷻ وإعراضه عنك ، فأف للقاطع عنه ولو كان الجنة ، ثم اعلمي أيتها النفس أنه ما يمضي شيء جزافاً ، وأن ميزان العدل تبين فيه ذرة فتلمحي الأموات والأحياء ، وانظري إلى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيادة ذلك ونقصانه ، فسبحان من أظهر دليل الخلوات على أربابها حتى أن حبات القلوب تتعلق بأهل الخير [٥٩ / ب] ، وتنفر من أهل الشر من غير مطالعة لشيء من أعمال الكل ، قال إبليس : أو تترك مرادك لأجل الخلق ؟ قلت : لا إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة من طريق الغرض ، ونحن نرى من يمشي ثلاثين فرسخاً ليقال ساع ، فالمتقي قد نال شرف الذكر وإن لم يقصد نيل ذلك ،مترجحاً له في وزن الجزاء ﴿ **سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم ٩٦].

قالت النفس : لقد أمرتني بالصبر على العذاب ، لأن ترك الأغراض عذاب ، قلت : لك عن الغرض عوض ومن كل متروك بدل ، وأنت في مقام مستبعد

ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار ، وكل زمان المتقى نهار صوم ، ومن خاف العقاب ترك المشتهى ، ومن رام القرب استعمل الورع ، وللصبر حلاوة تبين في العواقب .

١٢٦ ـ فصل : من نازعته نفسه إلي لذة محرمة فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها ، وسمع هتاف العقل يناديه ويحك لا تفعل ! فإنك تقف عن الصعود وتأخذ في الهبوط ، ويقال لك ابق بما اخترت ، فإن شغله هواه ، فلم يلتفت إلى ما قيل له ، لم يزل في نزول ، وكان مثله في سوء اختياره كالمثل المضروب : أن الكلب قال للأسد : يا سيد السباع ، غَيِّرْ اسمي فإنه قبيح . فقال له : أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم ، قال : فجربني . فأعطاه شقة لحم وقال : احفظ لي هذه إلى غد ، وأنا أغير اسمك ، فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر ، فلما غلبته نفسه قال : وأي شيء باسمي ؟ وما كلب إلا اسم حسن فأكل ، وهكذا الخسيس الهمة ، القنوع بأقل المنازل ، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل .

فالله الله في حريق الهوى إذا ثار ، انظـــر كيف تطفئه ، فرب زلة في بئر بوار ، ورب أثر لم ينقلع ، والفائت لا يستدرك على الحقيقة ، فابعد عن أسباب الفتنة ، فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم والسلام .

١٢٧ ـ فصل : رأيت الخلق كلهم في صف محاربة ، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى ، ويضربونهم بأسياف اللذة ، فأما المخلطون فصرعى من أول وقت اللقاء ، وأما المتقون ففي جهد جهيد من المجاهدة ، فلا [بد] مع طول الوقوف في المحاربة من جراح ، فهم يجرحون ويداوون ، إلا أن القتل محفوظ ، بلى ! إن الجراحة في الوجه شين باق فليحذر من ذلك .

١٢٨ ـ فصل : الدنيا فخ ، والجاهل بأول نظرة وقع ، فأما العاقل المتقي فهو يصابر المجاعة ، ويدور حول الحب ، والسلامة | ٦٠ / أ | بعيدة ، فكم ممن صابر واجتهد سنين ، ثم في آخر الأمر وقع ، فالحذر الحذر ، فقد رأينا من كان على سنن الصواب ثم زل على شفير القبر .

١٢٩ ـ فصل : اعلموا إخواني ومن يقبل نصيحتي : أن للذنوب تأثيرات قبيحة ، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة ، والمجازي بالمرصاد لا يسبقه

شيء ولا يفوته ، أو ليس يروى في التفسير ، أن كل واحد من أولاد يعقوب عليه السلام - وكانوا اثني عشر - ولد له اثني عشر ولد إلا يوسف فإنه ولد له إحدى عشر ، وجوزي بتلك الهمة فنقص ولد فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالأمل ، ولمثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر ، ولمتقلب في عقوبات ما يدري بها ، ولعمري إن أعظم العقوبة أن لا يدري بالعقوبة .

فوا عجباً للخالط نفسه ، يرضي ربه بطاعة ، ويسرق معصية ، ويقول : حسنة وسيئة ويك[1] من كيسك تنفق ، ومن بضاعتك تهدم ، ووجه جاهك تشين ، رب جراحة قتلت ، ورب عثرة أهلكت ، ورب فارط لا يستدرك ، ويحك انتبه لنفسك ما الذي تنتظر بأوبتك ، وماذا ترتقب بتوبتك المشيب ؟! فها هو أوهن العظم ، وهل بعد رحيل [الأهل] والأولاد والأقارب إلا اللحاق ، قدر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصل ، فكان ماذا ؟ أما هو عاجل فشغلك عاجلاً ، ثم آخر جرعة اللذة شرقة ، إما أن تفارق محبوبك أو يفارقك ، فيا لها جرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره .

آه لمحجوب العقل عن التأمل ، ولمصدود عن الورود ، وهو يرى المنهل ، أمَا في هذه القبور نذير ، أمَا في كرور الزمان زاجر ! أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل .. نادهم في ناديهم ، هيهات صموا عن مناديهم .. فلو أن حسابهم بالموت ، إنما القبور هينة العمل حصل يا معدوماً بالأمس .. يا متلاشي الأشلاء في الغد ، .. بأي وجه تلقى ربك ! أيساوي ما تناله من الهوى لفظ عتاب ؟ بالله إن الرحمة بعد المعاتبة ، ربما لم تستوف قلع البغضة من صميم القلب ، فكيف إن عقب العتاب عقاب ، وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب قال : أخبرنا محمد بن الحسين المعدل ، قال : أخبرنا أبو الفضل الزهري قال : أخبرنا محمد بن أحمد الزعفراني قال حدثنا أبو العباس بن واصل المقري قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن [٦٠ / ب] الصيرفي قال : رأى جار لنا يحيي بن أكثم بعد موته في منامه[2] فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال :

(١) كذا بالأصل ، وفي نسخة ويحك .

(٢) في المخطوط : مقامه ، والمثبت أصح .

وقفت بين يديه فقال لي : سوأة لك يا شيخ فقلت يا رب : إن رسولك قال إنك لتستحي من أبناء الثمانين أن تعذبهم - وأنا ابن ثمانين أسير الله في الأرض - فقال لي : صدق رسولي قد عفوت عنك[1] .

وفي رواية أخرى عن محمد بن سلم الخواص قال : رأيت يحيي بن أكثم في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني بين يديه وقال لي يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار .

والمقصود من هذا النظر بعين الاعتبار هل يفي هذا بدخول الجنة فضلاً عن لذات الدنيا ، فنسأل الله ﷻ أن ينبهنا من رقدات الغافلين وأن يرينا الأشياء كما هي لنعرف عيوب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ ـ فصل : ضاق بي أمر أوجب غماً لازماً دائماً وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه فما رأيت طريقاً للخلاص فعرضت لي هذه الآية : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** ﴾ فعلمت أن التقوى سبباً للمخرج من كل غم فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج ، فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله ﷻ ، وامتثال أمره فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج ، ثم أعجبه أن يكون من حيث لم يقدره المتفكر المحتال المدبر كما قال ﷻ : ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** ﴾ ، ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله ﷻ كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب فقد قال ﷻ : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق : ٣].

١٣١ ـ فصل : من العجب إلحاحك في طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك وتنسي أنها قد تمتنع لأحد أمرين : إما لمصلحتك فرب معجل آذى ، وإما لذنوبك ، فإن صاحب الذنوب بعيد عن الإجابة ، فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصي ، وانظر فيما تطلبه : هل هو لإصلاح دينك ، أو لمجرد هواك ؟

---

(١) روى أحمد (٨٩/٢) نحوه بإسناد ضعيف جداً وله أسانيد أخرى ضعيفة واهية انظر تحقيق مسند أحمد (٥٦٢٦ ط الرسالة) وأورده السيوطي في اللآلي المصنوعة (١٤٧/١) .

فإن كان للهوى المجرد ، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه ، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيمنع رفقاً به ، وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره ، أو كان صلاح الدين بعده .

وفي الجملة : تدبير الحق ﷻ لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك ، فأره الصبر الجميل ترى عن قرب ما يسر ، ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب ، وصبرت على ما يقضيه لك [٦١ / أ] ، فكل ما يجرى أصلح لك ، عطاء كان أو منعاً .

١٣٢ ـ فصل : يجب على من لا يدري متى يبغته المـوت أن يكون مستعداً ولا يغترر بالشباب والصحة ، فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشبان ، ولهذا يندر من يكبر ، وقد أنشدوا :

يُعمَّرُ واحد فيغر قوماً ... وينسى من يموت من الشباب

ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظم منه ؛ فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً ، وإنما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل ، وتبادر الشهوات ولا تنسى الإنابة لطول الأمل ، وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل ، ولا تمس حتى تنظر فيما مضى من يومك ، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة ، أو خرقاً فارقعه باستغفار ، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك ، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس .

وخـذلك منك على مهلـة ... ومقبـل عيشك لم يدبـر
وخف هجمة لا تقيل العثـار ... وتطـوى الورود على المصدر
ومثل لنفسك أي الرعيـل ... يضمك فـي حـلبة المحشر

ثم صور لنفسك قصر العمر ، وكثرة الأشغال ، وقوة الندم على التفريط عند الموت ، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت ، وصور ثواب الكاملين وأنت ناقص ، والمجتهدين وأنت متكاسل ، ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها ، وفكرة تحادثها بها ، فإن النفس كالفرس المتشيطن إن أهملت لجامه لم تأمن أن يرمى بك ، وقد والله دنستك أهواؤك ، وضيعت عمرك .

فالبدار البدار في الصبابة ، قبل تلف الباقي بالصبابة ، فكم تعرقل في فخ الهوى جناح حازم ، وكم وقع في بئر بوار مخمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

١٣٣ ـ فصل : الحذر الحذر من المعاصي ؛ فإن عواقبها سيئة وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبداً مع تعثير أقدامه ، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا ، وحسرة لمن نالها ؛ فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذي ارتكبه كان اعتراضه على القدر في فوات أغراضه يعيد العذاب جديداً ، فوا أسفاً لمعاقب لا يحس بعقوبته ، وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه ، أو ليس ابن سيرين يقول [٦١ / ب] : عَيَّرت رجلاً بالفقر فافتقرب بعد أربعين سنة ، وابن الجلاء يقول : نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة ؛ فواحسرة لمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها .

فالله الله في تجديد[١] **التوبة** عساها تكف كف الجزاء ، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات ؛ فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه ، وأصلح ما بينك وبينه في السر ، وقد أصلح لك أحوال العلانية ولا تغترر بستره أيها العاصي فربما يجذب عن عورتك ، ولا بحلمه[٢] فربما بغت العقاب ، وعليك بالقلق واللجأ [إليه] ، والتضرع ، فإن نفع شيء فذلك ، وتقوّت بالحزن ، وتمزز كأس الدمع ، واحفر بمعول الأسى قليب قلب الهوى ؛ لعلك تنبط[٣] من الماء ما يغسل جرم جرمك[٤].

١٣٤ ـ فصل : إخواني : اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر ؛ إنه بقدر إجلالكم لله ﷻ يجلكم ، وبمقـــدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقـــداركم وحرمتكم ، ولقد رأيت والله من أنفق عمره في العلم إلى أن كبرت سنه ، ثم تعدى بعض الحدود فهان عند الخلق ، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته .

ولقد رأيت من كان يراقب الله ﷻ في صبوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم ؛ فعظم الله قدره في القلوب حتى علقته النفوس ، ووصفته بما يزيد على ما

---

(١) في المخطوط : تجويد ، والمثبت أولى .

(٢) في المخطوط : يحمله ، والمثبت أوجد .

(٣)النبط : نبع الماء .

(٤)الجرم : بالكسر ، الجسم ، وبالضم : الذنب .

فيه من الخير ، ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام فإذا زاغ مال عنه اللطف ، ولولا عموم الستر وشمول رحمه الكريم لافتضح هؤلاء المذكورون ، غير أنه في الأغلب تأديب أو تلطف في العقاب كما قيل :

ومن كان في سخطه محسناً فكيف يكـون إذا ما رضى

غير أن العادل لا يحابي ، وحاكم الجزاء لا يجور ، وما يضيع عند الأمين شيء .

١٣٥ ـ فصل : أيهـا المذنب إذا أحسست نفحات الجـزاء فلا تكثرن الضجيج ، ولا تقولن قد تبت وندمت ، فهل لازال عني من الجزاء ما أكره ، فلعل توبتك ما تحققت ، وإن للمجازاة زماناً يمتد امتداد المرض الطويل ، فلا تنجع فيه الحيل حـتى ينقضي أوانه ، وأن بين زمان : « وعصـى » إلى أبان : « فتلقى » مدة مديدة فاصبر أيها الخاطيء حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس ؛ فإذا عصرته كف الأسى ، ثم إذا تكررت دفع الغسلات حكم بالطهارة .

بقي آدم يبكي على زللـه ثلاثمائة [٦٢ / أ] سنة[١] ، ومكث أيوب عليه السلام في بلائه ثمانية عشر سنة ، وأقام يعقوب يبكي على يوسف عليهما السلام ثمانين سنة[٢] ، وللبلايا أوقات ثم تنصرم ، ورب عقوبة امتدت إلى زمان الموت .

فاللازم لك أن تلازم محراب الإنابة ، وتجلس جلسة المستجدي ، وتجعل طعامك القلق ، وشرابك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيراً ، وإن مت في سجن سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخـرة ، وفي ذلك ربح عظيم .

---

(١) جاء عند الطبراني في الأوسط (٣٥٩٠ مجمع البحرين) بلفظ لو أن بكاء داود ﷺ وبكاء أهل الأرض يعدل ببكاء آدم فأعد له ،وإسناده ضعيف .

(٢) **إسناده صحيح** : رواه أبو يعلى (٢٩٩/٦) ، والحاكم (٥٨١/٢ ، ٥٨٢) ، وابن حبان (٢٨٩٨) كما في الإحسان والبزار (٢٣٥٧ كشف ، وأبو نعيم في الحلية ٣٧٤/٣ - ٣٧٥) ، والطبري (٢٩٩٤٨) من طريق سعيد بن أبي مريم عن نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس مرفوعاً . وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٨/١) ، وقال : وهذا غريب رفعة جداً والأشبة أن يكون موقوفاً .

١٣٦ ـ فصل : الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي فإن نارها تحت الرماد ، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت ، وربما جاءت مستعجلة ، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب ، ولا ماء يطفي تلك النار ، إلا ما كان من عين العين ، لعل خصم الجزاء يرضي قبل أن يبت الحاكم [في] حكمه .

١٣٧ ـ فصل : واعجباً من عارف بالله ﷻ يخالفه ولو في تلف نفسه ، هل العيش إلا معه ؟ هل الدنيا والآخرة إلا له ؟ أُف لمترخص في فعل ما يكره لنيل ما يحب ، تالله لقد فاته أضعاف ما حصل ، أَقْبِلْ على ما أقوله يا ذا الذوق هل وقع لك تعثير في عيش ، وتخبيط في حال ، إلا حال مخالفته .

ولا انثني عزمي عن بابكم إلا تعثـرت بأذيـالي

أما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف أنه قال : رأيت على سور بيروت شاباً يذكر الله تعالى . فقلت له : ألك حاجة ؟ فقال : إذا وقعت لي حاجة سألته إياها بقلبي فقضاها .

يا أرباب المعاملة بالله عليكم لا تكدروا[1] المشرب قفوا على باب المراقبة وقوف الحراس وادفعوا ما لا يصلح أن يلج فيفسد ، واهجروا أغراضكم لتحصيل محبوب الحبيب ، فإن أغراضكم تحصل على أنني أقول : أف لمن ترك بقصد الجزاء ؛ أهذا شرط العبودية ؟ كلا ! إنما ينبغي لي إذا كنت مملوكاً أن أفعل ليرضي لا لأعطى ، فإن كنت محباً رأيت قطع الآراب[2] في رضاه وصلاً . أقبل نصحي يا مخدوعاً بغرضه إن ضعفت عن حمل بلاويه فاستغث به ، وإن آلمك كرب اختياره فإنك بين يديه ، ولا تيأس من روحه وإن قوى خناق البلاء . بالله إن موت الخادم في الخدمة حسن عند العقلاء .

إخواني لنفسي أقول فمن له شرب معي فليرد أيتها النفس لقد أعطاك ما لم تأملي وبلغك ما لم تطلبي وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام فما هذا الضجيج من فوات[3] كمال الأغراض ، أمملوكة [٦٢ / ب] أنت أم حرة ؟

---

(١) لا تكدروا : لا تعكروا .

(٢) آراب : جمع إرب ، وهي الحاجة .

(٣) في المخطوط : ممن فوق .

أما علمت أنك في دار التكليف ، وهذا الخطاب ينبغي أن يكون للجهال ، فأين دعواك المعرفة ؟ أتراه لوهبت نفحة فأخذت البصر ، كيف كانت تطيب لك الدنيا ! واأسفاه عليك لقد غشيت البصيرة التي هي أشرف ، وما علمت كم أقول عسى ولعل ! وأنت في الخطأ إلى قدام قربت سفينة العمر من ساحل القبر وما لك في المركب بضاعة تربح ، تلاعبت في بحر العمر ريح الضعف ففرقت تلفيق القوى ، وكأن قد فصلت المركب بلغت نهاية الأجل وعين هواك تتلف إلى الصبا ، بالله عليك لا تشمتي بك الأعداء .

هذا أقل الأقسام وأوفى منها أن أقول : بالله عليك لا يفوتنك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضمار ، الخلوة الخلوة واستحضري قرين العقل ، وجولي في حيرة الفكر ، واستدركي صَبَابة الأجل قبل أن تميل بك الصُّبَابة عن الصواب .

واعجباً كلما صعد العمر نزلت ، وكلما جد الموت هزلت ، أتراك ممن ختم له بفتنة ، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة ، كان أول عمرك خيراً من الأخير ، كنت في زمن الشباب أصلح منك في زمن [أيام] المشيب ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت ٤٣] نسأل الله ﷻ ما لا يحصل مطلوبنا إلا به وهو توفيقه ، إنه سميع مجيب .

١٣٨ ـ فصل : قدرت في بعض الأيام على شهوة للنفس هي عندها أحلى من الماء الزلال في فم الصادي ، وقال التأويل : ما هاهنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع ، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز ، فترددت بين الأمرين فمنعت النفس عن ذلك ، فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعي ، فقلت لها : يا نفس والله ما من سبيل إلا ما لا يؤمن من دونه ؟ فتقلقلت ، فصحت بها كم وافقتك في مراد ذهبت لذته وبقي التأسف على فعله ، فقدري بلوغ الغرض من هذا المراد ، أليس الندم يبقى في مجال اللذة أضعاف زمانها ؟ فقالت : كيف أصنع ؟ فقلت :

صبرت ولا والله ما بي جلادة فراغ على الحب لكني صبرت على الرغم

وها أنا أنتظر من الله ﷻ حسن الجزاء على هذا الفعل ، وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر فأسطره فيه [٦٣ / أ] إن شاء الله تعالى ، فإنه قد يعجل جزاء الصبر وقد يؤخره ، فإن عجل سطرته ،

وإن أخر فما أشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه ، فإنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والله إني ما تركته إلا لله تعالى ويكفيني تركه ذخيرة ، حتى لو قيل لي أتذكر يوماً آثرت الله على هواك ، قلت : يوم كذا وكذا ، فافتخري أيتها النفس بتوفيقك من وفقك ، فكم قد خذل سواك ، واحذري أن تخذلي في مثلها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،وكان هذا في سنة إحدى وستين وخمسمائة ، فلما دخلت سنة خمسة وستين ، عوضت خيراً من ذلك بما لا يتقارب مما لا يمنع منه ورع ولا غيره ، فقلت : هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه في الدنيا ، ولأجر الآخرة خير والحمد لله .

١٣٩ ـ فصل : لا أنكر على من طلب لذة الدنيا من طريق المباح ، لأنه ليس كل أحد يقوى على الترك ، إنما المحنة لمن طلبها فلم يجدها أو أكثر إلا من طريق الحرام ، فاجتهد في تحصيلها ، ولم يبال كيف حصلت فهذه المحنة التي بخس العقل فيها حقه ، ولم ينتفع صاحبه بوجوده ، لأنه لو وزن ما أوثر وعقابه ، طاشت كفة اللذة التي فنيت عند أول ذرة من جزائها ، وكم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه فليعجب العاقل حين التصفح لأحوالهم كيف آثروا شيئاً ما أقاموا معه ، وصاروا إلى عقاب لا يفارقهم .

فالله أدبه في بخس العقول حقها ، ولينظر السالك أين يضع قدمه ، فرب مستعجل وقع في بئر بوار ، ولتكن عين التيقظ مفتوحة ، فإنكم في صف حرب لا يدري فيه من أين يتلقى النبل ، فأعينوا أنفسكم ولا تعينوا عليها .

١٤٠ ـ فصل : الحق ﷻ أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه ، فأمر بقصد نيته ورفع اليدين إليه والسؤال له ، فقلوب الجهال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصي ، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفت الأكف عن الخطايا ، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة وكفتهم عن الانبساط ، ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية لما انبسطت كف بأكل ، ولا قدرت عين على نظر ، ومن هذا الجنس ، ((**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي**))[1] ، ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس ، وإنما يقع

---

(١)**صحيح** : رواه مسلم (٢٧٠٢) .

الأنس[1] بتحقيق الطاعة ، لأن المخالفة توجب الوحشة ، والموافقة مبسطة المستأنسين [٦٣ / ب] ، فيا لذة عيش المستأنسين ، ويا خسارة المستوحشين .

وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها في مجرد الصلاة الصيام ، إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر واجتناب النهي ، هذا هو الأصل والقاعدة الكلية ، فكم من متعبد بعيد ، لأنه مضيع للأصل ، وهادم للقواعد بمخالفة الأوامر وارتكاب النهي ، وإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس ، فأدى ما عليه واجتنب ما نهى عنه ، فإن رزق زيادة تنفل وإلا لم يضره والسلام .

١٤١ ـ فصل : الدنيا في الجملة معبر ، فينبغي للإنسان أن لا ينافس بلذاتها وأن يعبر الأيام ، فإنه لو تفكر في كيفية الذبائح ووسخ من يباشرها وعمل الكامخ[2] وغيرها من المأكولات ما طابت له ، ولو تفكر في جولان اللقمة مختلطة بالريق ما قدر على إساغتها ، فلا يخلو من حالين : إما أن يريد التنعم باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت بالضرورات ، وأيهما طلب فلا ينبغي له أن يبحث فيما يناله عن باطنه ، فإنه لو نظر إلى عورة الزوجة نبا عنها ، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - ما رأيته من رسول الله ﷺ ولا رآه مني[3] .

فينبغي للعاقل أن يكون له وقت معلوم يأمر زوجته بالتصنع له فيه ثم يغمض عن التفتيش ليطيب له عيشه ! وينبغي لها أن تتفقد من نفسها هذا فلا تحضره إلا على أحسن حال ، وبمثل هذا يدوم العيش ، فأما إذا حصلت البذلة بانت بها العيوب فنبت النفس وطلبت الاستبدال ، ثم يقع في الثانية مثل ما يقع في الأولى ، وكذلك ينبغي أن يتصنع لها كتصنعها له ليدوم الود بحسن الائتلاف ، ومتى لم يجر الأمر على هذا في حق من له أنفة من شيء تنبو عنه النفس وقع في

(١) في المخطوط : الإنسان ، والمثبت أوجه وأصح .

(٢) الكامخ : ما يؤتدم به .

(٣) وجاء في رواية ما رأيت فرج النبي ﷺ قط . رواه ابن ماجه (٦٦٢ ، ١٩٢٢) ، أحمد (٦/٣٦ ، ١٩٠) ، والترمذي في الشمائل (٣٥٢) ، وابن أبي شيبة (١/١٠٦) وإسحاق (١٠٣٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٨٢) من طريق مولى لعائشة وفي رواية عن مولاة لعائشة عن عائشة فذكرته وإسناده ضعيف . لإبهام الراوي عن عائشة ، وله طريق أخر في إسناده وضاع . انظر مسند أحمد (٣٤٤ ط الرسالة) .

أحد أمرين : إما الإعراض عنها ، وإما الاستبدال بها ، ويحتاج في حالة الإعراض إلى صبر عن إعراضه ، وفي حالة الاستبدال إلى فضل مؤنة وكلاهما يؤذي ، ومتى لم يستعمل ما وصفنا لم يطب له عيش في متعة ، ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغي .

١٤٢ ـ فصل : نازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع ، وجعلت تنصب لي التأويلات ، وتدفع الكراهة ، وكانت تأويلاتها فاسدة والحجة ظاهرة على الكراهة ، فلجأت إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي وأقبلت على القراءة ، [٦٤ / أ] وكان درسي قد بلغ إلى سورة يوسف فافتتحتها ، وذلك الخاطر قد شغل قلبي حتى لا أدري ما أقرأ ، فلما بلغت إلى قول تعالى : ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [يوسف : ٢٣] انتبهت لها وكأني خوطبت بها ، فأفقت من تلك السكرة فقلت : يا نفس أفهمت ؟ هذا حر بيع ظلماً فراعى حق من أحسن إليه ، وسماه مالكاً وإن لم يكن عليه ملك فقال : إنه ربي ، ثم زاد في بيان موجب كف كفه عما يؤذيه فقال : أحسن مثواي ، فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك ، وأن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصا ، أفما تذكرين كيف رباك وعلمك ورزقك ودافع عنك ، ساق الخير إليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجاك من كل كيد ، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن ، وسهل لك مدار العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله ، وجلى في عرصة لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر على الخلق مقابحك ، فتلقوها منك بحسن الظن ، وساق رزقك بلا كلفة ولا تكلف ولا كدر من رغد غير نزر ، فوالله ما أدري أي نعمة عليك [أن] أشرح لك ، حسن الصورة وصحة الآلات ، أم سلامة المزاج واعتدال التركيب ، أم لطف الطبع الخالي عن خساسة ، أم إلهام الرشاد منذ الصغر ، أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل ، أم تحبيب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ، ولا انخراط في سلك مبتدع : ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [النحل : ١٨] .

كم كائد نَصَبَ لَكَ المكايد فوقاك ، كم عدو حط منك بالذم فرقاك ، كم أعطش من سراب الأماني خلقاً وسقاك ، كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك

وأبقاك ، فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن ، محروسة الدين ، في تزيد من العلم وبلوغ الأمل فإن منعت مراداً فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح ، ولو ذهبت أعد من هذه النعم – ما نسخ ذكره – امتلأت الطروس و لم تنقطع الكتابة ، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر ، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح ، فكيف يحسن بك التعرض بما يكرهه : ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ .

١٤٣ ـ فصل : ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقل [illegible] أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ((**وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيه**))[1] .

قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم ويحتمل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردد ، فجاهدت النفس ، فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، قارب المقدور عليه فإذا تمكنت فتركت ، كنت تاركاً حقيقة ، ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه الجواز وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون الأمر محرماً ، فرأيت أنها تارة تقوى علي بالرخص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا رخصت لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظوراً ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب ، فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدري أن هذا الأمر مباح قطعاً فوالله الذي لا إله إلا هو لا عدت إليه ، فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير . ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق .

١٤٤ ـ فصل : لولا غيبة العاصي في وقت المعاصي كان كالمعاند ، غير أن الهوى يحول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى إلا قضاء شهوته ، وإلا فلو لاحت له المخالفة خرج من الدين بالخلاف ، فإنما يقصد هواه فيقع الخلاف ضمناً وتبعاً ، وأكثر ما يقع هذا في مقاربة الفتنة ، وقل من يسلم عند المقاربة ،

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

لأنه كتقديم نار إلى حلفا ، ثم لو ميز العاقل بين قضاء وطره لحظة وانقضاء باقي العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قَرُبَ منه ولو أُعْطِي الدنيا ، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك .

آه كم من معصية مضت في ساعتها كأنها لم تكن ثم بقيت آثارها ، وأقلها ما لا يبرح من المرارة في الندم ، والطريق الأعظم في الحذر أن لا يتعرض لسبب فتنة ، ولا يقاربه ، فمن فهم هذا وبالغ في الاحتراز كان إلى السلامة أقرب .

١٤٥ ـ **فصل** : البلايا على مقادير الرجال ، فكثير من الناس تراهم ساكتين [٤٠/أ] راضين بما عندهم من دين ودنيا ، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة ، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم .

إنما المحنة العظمى أن ترزق همة عالية لا تقنع منك إلا بتحقيق الورع ، وتجويد الدين ، وكمال العلم ، ثم تبتلى بنفس تميل إلى المباحات ، وتدعي أنها تجمع بذلك همها ، وتشفي مرضها ، لتقبل مزاحة العلة على تحصيل الفضائل ، وهاتان الحالتان كضدين ، لأن الدنيا والآخرة ضرتان ، واللازم في هذا المقام مراعاة الواجبات ، وأن لا يفسح للنفس في مباح لا يؤمن أن يتعدى منه إعراض عن واجب ، ودع المبتلى يضج ، فلأن يبكي الطفل خير من أن يبكي الوالد .

واعلم أن فتح باب المباحات ربما جر أذى كثيراً في الدين ، فأوثق السكر قبل فتح الماء ، وألبس الدرع قبل لقاء الحرب ، وتلمح عواقب ما تجني قبل تحريك اليد ، واستظهر في الحذر باجتناب ما يخاف منه وإن لم يتيقن .

١٤٦ ـ **فصل** : ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفاً إلى الحفظ والإعادة ، فلو صح صرف جميع الزمان إلى ذلك كان أولى ، غير أن البدن مطية ، وإعداد السير مظنة الانقطاع ، ولما كانت القوى تكل فتحتاج إلى تجديد ، وكان النسخ والمطالعة والتصنيف لا بد منه ، مع أن المهم الحفظ ، وجب تقسيم الزمان على الأمرين ، فيكون الحفظ في طرفي النهار وطرفي الليل ، ويوزع الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعة ، وبين راحة للبدن وأخذ لحظة .

ولا ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء ، فإنه متى ما أخذ أحدهم فوق حقه أثر الغبن وبان أثره ، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار ، لأن ذلك أشهى وأخف عليها ، فليحذر الراكب من إهمال

الناقة ، ولا يجوز له أن يحمل عليها ما لا تطيق ، ومع العدل والإنصاف يتأتى كل مراد ، ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه ، ومن طوى منازل في منزل أوشك أن يفوته ما جد لأجله ، على أن الإنسان إلى التحريض أحوج لأن الفتور أولى من الجد ، وبعد فاللازم في العلم طلب المهم ، فرب صاحب حديث حفظ مثلاً لحديث : « **مَنْ أَتَى الجُمْعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ** »[1] عشرين طريقاً ، والحديث قد ثبت من طريق واحد ، فشغله ذلك عن معرفة آداب الغسل [٦٥ / ب] ، والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه في نفس ، وكفى بالعقل مرشداً إلى الصواب من عضده التوفيق .

١٤٧ ـ فصل : إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكليف فإن كثيراً من العلماء يأنفون من قول لا أدري ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال : جهلوا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا ، وهذا نهاية الخذلان . وقد روى عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال : سافرت البلدان إليك ، فقال : ارجع إلى بلدك ، وقل سألت مالكاً فقال : لا أدري .

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكلفة ، وسلم عند الله ﷻ . ثم إن كان المقصود الجاه عندهم فقلوبهم بيد غيرهم .

والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت ، ويتخشع في نفسه ولباسه والقلوب تنبو عنه ، وقدره في النفوس ليس بذاك ، ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع ، والقلوب تتهافت على محبته ، فتدبرت السبب فوجدته السريرة . كما روى عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم ، وإنما كانت له سريره . فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه ، فالله الله في السرائر ، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر .

---

(١) **إسناده صحيح** : رواه النسائي في الكبرى (١٦٨٠) ، وأحمد (٥٣/٢) من طريق أبي إسحاق سمعت يحيى بن وثاب يحدث عن ابن عمر فذكره مرفوعاً .

١٤٨ ـ فصل : نزلت بي شدة وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة ، وتأخرت الإجابة ، فانزعجت النفس وقلقت ، فصحت بها : ويلك ، تأملي أمرك ؛ أمملوكة أنت أم مالكة ؟ أمدبِّرة أنت أم مدبَّرة ؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبري على ما ينافي مرادك فأين الابتلاء ؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض[1] وعكس المقاصد ، فافهمي معنى التكليف وقد هان عليك ما عزَّ ، وسهل ما استصعب .

فلما تَدبَّرت ما قُلْتُهُ سكنت بعض السكون فقلت لها : وعندي جواب ثان وهو : أنك تقتضين الحق بأغراضك ولا تقتضين نفسك بالواجب له ؛ وهذا عين الجهل ، وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس ، لأنك مملوكة والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى ، فسكنت أكثر من ذلك السكون .

فقلت لها : وعندي جواب [٦٦ / أ] ثالث : وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سددت طرقها بالمعاصي ، فلو [قد] فتحت الطريق أسرعت ، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى . أو ما سمعت قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ ﴾ [الطلاق : ٢ - ٣] ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أو ما فهمت أن العكس بالعكس ؟ آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها [من] الوصول إلى مزدرع الأماني . فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت .

فقلت : وعندي جواب رابع ؛ وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك ؛ فمثلك كمثل طفل محموم يطلب الحلوى ؛ والمدبر لك أعلم بالمصالح كيف وقد قال : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]. فلما بان الصواب للنفس في هذه الأجوبة ، زادت طمأنينتها .

فقلت لها : وعندي جواب خامس ؛ وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحط من مرتبتك ، فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك ، ولو أنك طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك ؛ فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت .

---

(١) في المخطوط : الأغراض .

فقالت : لقد سرحت في رياض ما شرحت ، فهمت إذ فهمت .

السبيل إلى صلاح حال العلماء

١٤٩ ـ **فصل** : حضرنا بعض أعزية أرباب الأموال ، فرأيت العلماء أذل الناس عندهم ؛ فالعلماء يتواضعون لهم ويذلون لموضع طمعهم فيه ، وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم ، فرأيت هذا عيباً في الفريقين .

أما [في] أهل الدنيا فوجه العتب عليهم أنهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم ؛ ولكن لجهلهم بقدره فاتهم ، وآثروا عليه كسب الأموال ؛ فلا ينبغي أن يطلب منهم تعظيم ما لا يعرفون ولا يعلمون قدره .

وإني أعود باللوم على العلماء وأقول : ينبغي لكم أن تصونوا أنفسكم التي شرفت بالعلم عن الذل للأندال ، وإن كنتم في غنى عنهم كان الذل لهم والطلب منهم حراماً عليكم ، وإن كنتم في كفاف فلم لم تؤثروا التنَزُّه عن الذل بالعفة عن الحطام الفاني الحاصل بالذلة .

إلا أنه يتخيل لي من هذا الأمر ، أني علمت قلة صبر النفس على الكفاف والعزوف عن الفضول ، فإن وجد ذلك منها في وقت لم يوجد على الدوام ؛ فالأولى للعالم أن يجتهد في طلب الغني ويبالغ في الكسب ، وإن ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم ؛ فإنه يصون بعَرَضه عرْضه .

وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلَف مالاً ، وخلف سفيان الثوري مالاً [٦٦/ب] وقال لولاك لتمندلوا بي ، وقد سبق في كتابي هذا في بعض الفصول شرف المال ، ومن كان من الصحابة والعلماء يقتنيه ؛ والسر في فعلهم ذلك . وحثى طالبي العلم على ذلك ما بينته من أن النفس لا تثبت على التعفف ، ولا تصبر على دوام التزهد ؛ وكم قد رأينا من شخص قويت عزيمته على طلب الآخرة فأخرج ما في يده ، ثم ضعفت فعاد يكتسب من أقبح وجه . فالأولي ادخار المال والاستغناء عن الناس ، ليخرج الطمع من القلب ، ويصفو نشر العلم من شائبة ميل ، ومن تأمل أخبار الأخيار من الأحبار وجدهم على هذه الطريقة .

وإنما سلك طريق الترفه عن الكسب من لم يؤثر عنده بذل الدين والوجه ، فطلب الراحة ونسى أنها في المعنى عناء ؛ كما فعل جماعة من جهال المتصوفة في إخراج ما في أيديهم وادعاء التوكل ، وما علموا أن الكسب لا ينافي التوكل ، وإنما طلبوا طريق الراحة ، وجعلوا التعرض للناس كسباً ؛ وهذه طريقة مركبة من شيئين : أحدهما : قلة الأنفة على العرض ، والثاني : قلة العلم .

١٥٠ ـ فصل : تأملت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان ، وإنما يقصدون موافقة هواهم ، فتبع العصيان تبعاً . فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق ، وفضله الزاخر . ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفة ؛ فإنه ينبغي والله أن يحذر ممن أقل فعله تعميم الخلق بالموت ، حتى إلقاء الحيوان البهيم للذبح ، وتعذيب الأطفال بالمرض ، وفقر العالم ، وغنى الجاهل ؛ فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته . فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ ، وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء ؛ فالخائف آخذ بالحزم ، والراجي متعلق بحبل طمع ، وقد يخلف الظن .

١٥١ ـ فصل : رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء ويستذلونهم بشيء يسير يعطونهم من زكاة أموالهم ؛ فإن كان لأحدهم ختمة قال فلان ما حضر ، وإن مرض قال فلان ما تردد . وكل منته عليه شيء نزر يجب تسليمه إلى مثله ، وقد رضى العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة ؛ فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم ودواؤه من جهتين .

أحدهما : القناعة باليسير ؛ كما قيل : من رضي بالخل والبقل لم يستعبده أحد .

والثاني : صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا ؛ فإنه يكون سبباً لإعزاز العلم ، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم ، مع احتمال هذا الذل .

ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة قدر قوته ، واحتفظ بما معه ، أو سعى في مكتسب يكفه ، ومن لم يأنف من مثل هـــذه الأشياء لم يحظ من العلم إلا بصورته دون معناه .

١٥٢ ـ فصل : مدار الأمر كله على العقل ؛ فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل ، وثمرة العقل فهم الخطاب ، وتلمح المقصود من الأمر ، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل كان كالباني على أساس وثيق ، وإني رأيت كثيراً من الناس لا يعملون على دليل ، بل كيف اتفق ، وربما كان دليلهم العادات ؛ وهذا أقبح شيء يكون .

ثم رأيت خلقاً كثيراً لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى ، فإنهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل هو صحيح أم لا ؟ ، وكذلك يثبتون الإله ولا يعرفون ما يجوز عليه مما لا يجوز ، فينسبون إليه الولد ، ويمنعون جواز تغييره ما شرع ، وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في إثبات الصانع وما يجوز عليه ولا في الدليل على صحة النبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كالباني على رمل .

ومن هذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون وينصبون أبدانهم في العلم بأحاديث باطلة ، ولا يسألون عنها من يعلم .

ومن الناس من يثبت الدليل ولا يفهم المقصود الذي دل عليه الدليل ، ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهدوا ، وما فهموا المقصود ، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها وأن النفس تجب عداوتها ، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق ، وعذبوها بكل نوع ، ومنعوها حظوظها ؛ جاهلين بقوله ﷺ : « **إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقّاً** »[1] ، وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض ، ونحول الجسم ، وضعف القوى ، وكل ذلك لضعف الفهم للمقصود والتلمح للمراد .

كما روي عن داود الطائي أنه كان يترك ماء في دن تحت الأرض فيشرب منه وهو شديد الحر ، وقال لسفيان : إذا كنت تأكل اللذيذ الطيب ، وتشرب الماء البارد المبرد ، فمتى تحب الموت والقدوم [٦٧ / ب] على الله ؟ وهذا جهل بالمقصود ؛ فإن شرب الماء الحار يورث أمراضاً في البدن ولا يحصل به الري ، وما أمرنا بتعذيب أنفسنا في الصورة ، بل بخلاف ما تدعو إليه مما نهى الله عنه .

---

(١) **صحيح** : وسبق تخريجه .

وفي الحديث الصحيح : أن أبا بكر ﷺ لما حلب له الراعي في طريق الهجرة صب الماء على القدح حتى برد أسفله ، ثم سقى رسول الله ﷺ ، وفرش له في ظل صخرة [١].

وكان يستعذب لرسول الله ﷺ الماء ، وقال : « **إنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ وَإِلاَّ كَرَعْنَا** »[٢] ، ولو فهم داود - رحمه الله - أن إصلاح علف الناقة متعين لقطع المنزل لم يفعل هذا .

ألا ترى إلى سفيان الثوري فإنه كان شديد المعرفة والخوف وكان يأكل اللذيذ ويقول : إن الدابة إذا لم يحسن إليها لم تعمل ، ولعل بعض من لم يسمع كلامي هذا يقول : هذا ميل على الزهاد . فأقول . كن مع العلماء وانظر إلى طريق الحسن . وسفيان ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد ، والشافعي ، وهؤلاء أصول الإسلام ، ولا تقلد دينك من قل علمه وإن قوى زهده ، واحمل أمره على أنه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيما لا تطيقه ، فليس أمرنا إلينا ، والنفس وديعة عندنا . فإن أنكرت ما شرحته فأنت ملحق بالقوم الذين أنكرت عليهم ؛ هذا رمز إلى المقصود والشرح يطول .

١٥٣ ـ فصل : الواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما [لا] يجني من مكروه ؛ مثاله : أنه قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق ﷻ وملكه وتدبيره ، فإذا رأى الإنسان عالماً محروماً ، وجاهلاً مرزوقاً ، أوجب عليه الدليل المثبت - حكمة الخالق - التسليم إليه ، ونسبة العجز عن معرفة الحكمة إلى نفسه ؛ فإن أقواماً لم يفعلوا ذلك جهلاً منهم ، فتراهم بماذا حكموا بفساد هذا التدبير ! أليس بمقتضى عقولهم أوما عقولهم من جملة مواهبة ؟ فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التي هي بالإضافة إليه أنقص من كل شيء ؟

ولقد بلغني عن [اللعين] ابن الراوندي أنه كان جالساً على الجسر وفي يده رغيف يأكله ، فجازت خيل وأموال . فقال : لمن هذه ؟ فقيل لفلان الخادم ، فلما مر الخادم رأى شخصاً محتقراً ، فرمى الرغيف إلى ناحيته وقال : وهذا لفلان

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٣٦١٥) ، ومسلم (٢٠٠٩) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٥٦١٣) .

ما هذه القسمة .

ولو فكر المدبر لبانت له وجوه : أقلها جهله بمن يدعي معرفته [٦٨ / أ] وقلة تعظيمه ، وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضييق العيش ، ولكنه ميراث إبليس ، حيث اعتقد سوء التدبير في تفضيل آدم عليه السلام ، فالعجب من تلميذ يتمعلم على أستاذه ، ومن مملوك يتيه على سيده .

ومما ينبغي أن يتبع فيه الدليل ولا يلتفت إلى ما جنت الحال ، أن العلم أشرف مكتسب ؛ وقد رأى جماعة من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا فأزروا على العلم وقالوا لا فائدة فيه ، وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فإن تابع الدليل لا يبالي ما جنى ، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض .

ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا ﷺ إلا إعراضه عن الدنيا وتضييق العيش عليه ، ثم لم يخلف شيئاً وحرم أهله الميراث ؛ فدل على صدق طلبه لمطلوب آخر . وربما رأى الجاهل قوماً من العلماء يفعلون خطيئة فيزدري على العلم ، ويدعيه نقصاً وهذا غلط كبير ، فليتق الله العاقل ، وليعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم ، وليعلم أن الابتلاء في الصبر على فوات المطلوب ، وليلزم اتباع الدليل وإن جنى مكروهاً والله الموفق .

١٥٤ ـ **فصل** : قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك ، فتأملت خبيئة الأمر فإذا هي مخالفة للهوى المكروه . فقلت : واعجباً لو وافق هواه من كان يكون ؟! ولما قد خالفه ، لقد صار أمراً عظيماً يضرب الأمثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجتهاده ، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فيا له عزاً وفخراً ، يقاوم كل لحظة من ذكره أمثال ساعة الصبر عن المحبوب .

وبالعكس منه حالة آدم في موافقة هواه ، لقد عادت نقيصة في حقه أبداً لولا التدارك فتاب عليه ؛ فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى .

فالعاقل من ميز بين الأمرين : الحلوين والمرين ، فإن من عدل ميزانه و لم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح في الصبر ، وكل الخسران في موافقة النفس ، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهي ، والله الموفق .

١٥٥ ـ فصل : رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين . فأما مجرد العلم بالحلال | ٦٨ / ب | والحرام فليس له كبير عمل في رقة القلب ، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث ، وأخبار السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها ، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق ؛ لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء .

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم ، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء . وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه ؛ لا لاقتباس علمه ، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته .

فافهم هذا وامزج طلب الحديث و الفقه بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك ، وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه ؛ فجمعت كتاباً في أخبار الحسن ، وكتاباً في أخبار سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، وأحمد بن حنبل ، ومعروف ، وغيرهم من العلماء والزهاد ، والله الموفق للمقصود .

ولا يصلح العمل مع قلة العلم ؛ فهما في ضرب المثل كسائق وقائد ، والنفس بينهما حرون[١] ، ومع جد السائق والقائد ينقطع المنْزل ، ونعوذ بالله من الفتور .

١٥٦ ـ فصل : ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب فوجدت في قلبي قسوة عظيمة ، وتخايل لي نوع طرد عن الباب ، وبُعد وظلمة تكاثفت . فقالت نفسي : ما هذا ؟ أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء !.

فقلت لها : يا نفس السوء جوابك من وجهين :

أحدهما : أنك تناولت ما لا تعتقدين ؛ فلو استفتيت لم تُفْت بما فعلت . قالت : لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته . قلت : إلا أن اعتقادك ما ترضينه لغيرك في الفتوى .

---

(١) حرون : أي غير منقاده .

والثاني : أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك ، لأنه لولا نور في قلبك ما أثر منك هذا عندك .

قالت : فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب . قلت : فاعزمي على الترك وقدري ما تركت جائزاً بالإجماع ، وعدى هجره ورعاً ، وقد سلمت .

١٥٧ ـ فصل : مما أفادتني تجارب الزمان أنه لا ينبغي لأحد أن يظاهر بالعداوة أحداً مهما استطاع ، فإنه ربما يحتاج إليه وإن الإنسان قد لا يظن الحاجة إليه يوماً [ما] كما قد يحتاج إلى [٦٩ / أ] عويد منبوذ لا يلتفت إليه .

وكم من محتقر احتيج إليه ، وإن لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخص في جلب نفع وقعت الحاجة في دفع ضرر ، ولقد احتجت في عمري إلى ملاطفة أقوام ما خطر لي قط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذى من حيث لا يعلم ؛ لأن المظاهر بالعداوة كشاهر السيف ينتظر مضرباً ، وقد يلوح مضرب خفي ، وإن اجتهد المتدرع في ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو ؛ فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في أن لا يظاهر بالعداوة أحداً لما بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض . وإقدار بعضهم على ضرر بعض ، وهذا فصل مفيد تبين فائدته للإنسان مع تقلب الزمان .

١٥٨ ـ فصل : رأيت النفس تنظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة وتنسى كيف حصلت وما يتضمنها من الآفات .

وبيان هـــذا أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة فتأملت نعمته وجدتهـــا مشوبة بالظلم ؛ فإن لم يقصـــد هو حصل من عماله ، ثم هو خائف منْزعج في كل أموره ؛ حذر من عدو أن يسمه ؛ قلق ممن هو فوقه أن يعزله ، ومن نظيره أن يكيده ، ثم أكثر زمانه يمضي في خدمة من يخافه من السلاطين ، وفي حساب أموالهم ، وتنفيذ أوامرهم التي لا تخلو من أشياء منكرة ، وإن عزل أربى ذلك على جميع ما نال من لذة ، ثم تلك اللذة تكون معمورة بالحذر فيها ومنها وعليها .

وإن رأيت صاحب تجارة رأيته قد تقطع في البلاد ، فلم ينل ما نال إلا بعد علو السن ودهاب زمان اللذة ، كما حكى أن رجلاً من أولاد الرؤساء كان

حال شبيبته فقيراً ، فلما كبر استغنى ، وملك أموالاً ، واشترى عبيداً من الترك وغيرهم ، وجوار من الروم ، فقال هذه الأبيات في شرح حاله .

ما كنت أرجوه إذ كنت ابن عشرينا ملكته بعد أن جاوزت سبعينا
يطوف بي من بني الأتراك أغزلة مثل الغصون على كثبان يبرينا
وخرد[1] من بنات الروم رائعة يحكين بالحسن حور الجنة العينا
يغمزنني بأساريع منعمة تكاد تعقد من أطرافها لينا
يردن إحياء ميت لا حراك به وكيف يحيين ميتاً صار مدفونا ؟
قالوا أنينك طول الليل يُسْهِرُنا فما الذي تشتكي ؟ قلت : الثمانيا

[٦٩ / ب] وهذه الحالة هي الغالبة ، فإن الإنسان لا يكاد يجتمع له كل ما يحب إلا عند قرب رحيله ، فإن بدر ما يحب في بداية شبابه فالصبوة مانعة من فهم التدبير في الالتذاذ ، والإنسان في حال الصبوة لا يدري أين هو إلى أن يبلغ ، فإذا بلغ كانت همته في المنكوح كيف اتفق ، فإن تزوج جاء الأولاد فمنعوه اللذة ، وانكسر في نفسه ، وافتقر إلى التكسب عليهم ، فبينما هو قد دعك في تلك المديدة القريبة الثلاثين وخطه الشيب ؛ فانفرق[2] من نفسه لعلمه أن النساء ينفرن منه كما قال ابن المعتز بالله :

لقد أتعبت نفسي في مشيبي فكيف يحبي الخرد الكعاب

فإذا فهم المتمتع بالمستحسنات ، وخرج عن طلب صورة النكاح ، لم يجد ما لا يبلغ به المراد ، فإن كسب ضاع زمن تمتعه ، وإذا تم المطلب فالشيب أقبح قذى وأعظم مبغض .

ثم أن صاحب المال هو خائف على ماله ، محاسب لعامليه ، مذموم إن أسرف وإن قتر ، ولده يرصد موته ، وجاريته قد لا ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه في محن ، واللذات فيه خلس معتادة لا لذة فيها ، ثم في القيامة يحشر الأمير والتاجر إلا من عصم الله . فإياك إياك أن

(١) الخرد : الخريدة : والخريد والخرود من النساء البكر التي لم تمس
(٢) انفرق : انفصل ، وتبددا فتلاقا

تنظر إلى صورة نعيمهم فإنك تستطيبه لبعده عنك ، ولو قد نلته برد عندك ، ثم في ضمته من محن الدنيا والآخرة ما لا يوصف فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدنيا والدين . وقد قيل لبعض الزهاد – وعنده خبز يابس – كيف تشتهي هذا ؟ فقال : أتركه حتى أشتهيه .

١٥٩ ـ **فصل** : وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معاداة لأجل المذهب ؛ فإني كنت في مجلس التذكير أنصر أن القــرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدم أبا بكر ، واتفق في أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعري ، وفيهم من يميل إلى مذهب الروافض ، وتمالؤوا عليّ في الباطن ، فقلت يوماً في مناجاتي للحق سبحانه وتعالى : سيدي نواصي الكل بيدك ، وما فيهم من يقدر لي على ضُرٍّ إلا أن تجريه على يده ، وأنت قلت سبحانك : ﴿ **وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

وطيِّبت قلبي المبتلى بقولك ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ فإن أجريت على أيدي بعضهم [٧٠ / أ] ما يوجب خذلاني كان خوفي على ما نصرته أكثر من خوفي على نفسي ، لئلا يقال : لو كان على حق ما خذل .

وإن نظرت إلى تقصيري وذنوبي فإني مستحق للخذلان ، غير أني أعيش بما نصرته من السنة ، فأدخلني في خفارته(١) ، وقد استودعتني إياك خلق من صالح عبادك ، فإن لم تحفظني بي فأحفظني لهم ، سيدي انصرني على ما عاداني ، فإنهم لا يعرفونك كما ينبغي ، وهم معرضون عنك على كل حال ، وأنا على تقصيري إليك أنسب .

١٦٠ ـ **فصل** : روى عن الحلاج الصوفي أنه كان يقعد في الشمس في الحر الشديد وعرقه يسيل ، فجاز بعض العقلاء فقال : يا أحمق هذا تقاوى على الله تعالى . وما أحسن ما قال هذا ! فإنه ما وضع التكليف إلا على خلاف الأغراض ، وقد يخرج صاحبه إلى أن يعجز عن الصبر . فالجاهل الأحمق من يتقاوى ويسأل البلاء ، كما قال ذلك الأبله : فكيف ما شئت فاختبرني !.

---

(١) خفارتك : حمايتك .

١٦١ ـ **فصل**: والسعيد من ذل وسأل العافية ، فإنه لا يوهب العافية على الإطلاق فلابد من بلاء ، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله فيقرب الصبر على يسير البلاء . وفي الجملة ينبغي للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته ، ففي كل جرعة غصص ، وفي كل لقمة شجا[1].

وكم من يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل إلى الوصـــال

وعلى الحقيقة ما الصبر إلا على الأقدار ، وقل أن تجرى الأقدار إلى على خلاف مراد النفس ! فالعاقل من دارى نفسه في الصبر بوعد الأجر ، وتسهيل الأمر ، ليذهب زمان البلاء سالماً من شكوى ، ثم يستغيث بالله تعالى سائلاً العافية ، فأما المتجلد فما عرف الله قط . نعوذ بالله من الجهل به ، ونسأله عرفانه ، إنه كريم مجيب .

١٦٢ ـ **فصل**: الجادة السليمة والطريق القويمه ، الاقتداء بصاحب الشرع ، والبدار[2] إلى الاستنان به ، فهو الكامل الذي لا نقص فيه .

فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد ، وحملوا أنفسهم فوق الجهد ، فأفاقوا في أواخر العمر ، والبدن قد نُهك ، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره .

وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم فبالغوا في طلبه ، فأفاقوا في آخر قدم ، وقد فاتهم العمل به .

فطريق المصطفى ﷺ العلم والعمل ، والتلطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله ابن عمرو [بن العاص] [٧٠ / ب] وقال له : « **إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقاً ، وَلَزَوْجكَ عَلَيْكَ حَقاً** »[3] فهذه هي الطريق الوسطى الفضلى .

فأما اليبس المجرد ، فكم فوَّت من علم – لو حصل – نيل به أكثر مما نيل بالعمل ، فإن مثل العالم كمثل رجل يعرف الطريق ، والعابد جاهل بها فيمشي العابد من الفجر إلى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلتقيان ، وقد سبق العالم فضل شوط ، فإن قال قائل : بين لي هذا ، قلت : صورة التعبد خدمة لله تعالى ،

---

(١) شجا : حزن .

(٢) البدار : الإسراع .

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (١٩٧٥) ، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمر .

وذل له ، وربما لم يطلع العابد على معنى تلك الصورة ، لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكرامة على يده ، أو أنه مستحق تقبيل يده ، أو أنه خير من كثير من الناس ، وذلك كله لقلة العلم ، وأعني بالعلم فهو أصول العلم ، لا كثرة الرواية ومطالعة مسائل الخلاف ، فإذا طالع العالم الأصول ، سبق هذا العابد بحسن خلق ، ومداراة للناس ، وتواضعه في نفسه ، وإرشاده الخلق إلى الله تعالى ، فيعبر على هذا العابد ، وهو في ليل جهله بالحال راقد .

ربما تزوج العابد ثم حمل نفسه على التجفف فحبس زوجته عن مطلوبها و لم يطلقها ، وصار كالتي حبست الهرة فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض .

ومن تأمل حالة الرسول ﷺ رأى كاملاً من الخلق يعطي كل ذي حق حقه فتارة يمزح ، و [تارة] يضحك ، ويداعب الأطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشرة النساء ، ويأكل ما قدر عليه وفتح له ، فإن كان لذيذاً كالعسل يستعذب له الماء ، ويفرش له في الظل ، ولا ينكر ذلك و لم يسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفة والمتزهدين ، من منع النفس شهواتها على الإطلاق ، فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، ويقبل ، ويمص اللسان ، ويطلب المستحسنات .

فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتخفيف البدن ، وهجر كل مشتهى فإنه تعذيب للنفس ، وهدم للبدن ، لا يقتضيه عقل ، ولا يمدحه شرع ، وإنما اقتنع أقوام بالقليل لأسباب ، مثل إن حدثت شبهة فتقللوا ، أو اختلط طعام بطعام فتورعوا ، ثم كان النبي ﷺ يوفى العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد في الذكر .

فعليك بطريقته التي هي أكمل الطرق وبشرعته التي لا شوب فيها ، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن محمل ، وأقم لهم الأعذار مهما قدرت [٧١ / أ] فإن لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله ، إذ هو قدوة الخلق ، وسيد العقلاء .

وهل فسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة ! ولقد حدثت آفات من المتصوفة والمتزهدين ، خرقوا بها شبكة الشريعة وعبروا ، فمنهم من يدعي المحبة والشوق ، ولا يعرف المحبوب ، فتراه يصبح ويستغيث ويمزق ثيابه ويخرج عن

حد الشرع بدعواه مضمونها ، ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمرو : « **صُمْ يَوْماً ، وَأَفْطِرْ يَوْماً** » فقال : أريد أفضل من ذلك . فقال : « **لاَ أَفْضَل مِنْ ذَلِكَ** »[1] ، وفيهم من خرج إلى السياحة فأفات نفسه الجماعة ، وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلي ويصوم ، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح لأن النفس تغفل وتحتاج إلى التذكير في كل وقت ، ونعم المذكر كتب العلم ، وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قدر ، وكان مقصوده بدفن الكتب إطفاء المصباح ، ليسير العابد في الظلمة .

وما أحسن ما قال بعض العلماء لرجل سأله فقال : أريد أن أمضي إلى جبل اللكام ، فقال هذه (هوكلة) ، وهذه كلمة عامية معناها حب البطالة .

وعلى الحقيقة الزهاد في مقام الخفافيش ، وقد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس ، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع عن خير من جماعة ، واتباع جنازة ، وعيادة مريض ، إلا أنها حالة الجبناء ، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون ، وهي مقامات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أترى كم بين العابد إذ نزلت به حادثة وبين الفقيه ؟ بالله لو مال الخلق إلى التعبد لضاعت الشريعة .

على أنه لو فهم معنى التعبد لم يقتصر به على الصلاة والصوم ، فرب ماش في حاجة مسلم فضل تعبده ذلك على صوم سنة ، والعمل بالبدن سعي الآلات الظاهرة ، والعلم سعي الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشرف . فإن قلت : كيف تذم المعتزلين للشر إلى التعبد ؟ قلت : ما أذمهم ، بل حدثت منهم حوادث اقتضاها الجهل من الدعاوى والآفات التي سببها قلة العلم ، وحملوا على أنفسهم التي ليست لهم وعن غير إذن الآمر ما لم يجز ، حتى أن أحدهم يرى أن فعل ما يؤذي النفس على الإطلاق فضيلة ، حتى قال بعض الحمقى : دخلت الحمام فوجدت غفلة ، فآليت أن لا أخرج حتى أسبح [٧١ / ب] كذا وكذا تسبيحه ، فطال الأمر فمرضت ، وهذا رجل خاطر بنفسه في فعل ما ليس له .

ومن المتصوفة والزهاد من قنع بصورة اللباس ، وركب من الجهل في الباطن

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) .

ما لا يسعه كتاب . طهر الله الأرض منهم وأعان العلماء عليهم ، فإن أكثر الحمقى معهم ، فلو أنكر عالم على أحدهم مال العوام على العالم لقوة الجهل ، ولقد رأيت كثيراً من المتعبدين ، وهو في مقام العجائز يسبح تسبيحا لا يجوز النطق به . ويفعل في صلاته ما لم ترد به السنة ، ولقد دخلت يوماً على بعض من كان يتعبد ، وقد أقام إماماً ، وهو خلفه في جماعة يصلي بهم صلاة الضحى ويجهر ، فقلت لهم : إن النبي ﷺ قال : « **صلاة النهار عجماء** »[1] ، فغضب ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا ! وقد دخل فلان وأنكر وفلان وأنكر ، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام ، فقلت : واعجباً ومن قال لكم لا تناموا ، أليس في الصحيحين من حديث ابن عمرو أن النبي ﷺ قال له : « **قُمْ وَنَمْ** »[2] وقد كان رسول الله ﷺ ينام ، ولعله ما مضت عليه ليلة إلا ونام فيها .

ولقد شاهدت رجلاً كان يقال له حسن القزويني بجامع المنصور وهو يمشي في المسجد مشياً كثيراً دائماً ، فسألت ما السبب في هذا المشي ؟ فقيل لي : حتى لا ينام . وهذه كلها حماقات أوجبها قلة العلم ، لأنه إذا لم تأخذ النفس حظها من النوم اختلط العقل ، وفات المراد من التعبد لبعد الفهم .

ولقد حدثني بعض الصالحين المجاورين بجامع المنصور أن رجلاً كان اسمه « كثير » دخل عليهم الجامع فقال : إني عاهدت الله على أمر ونقضته ، وقد جعلت عقوبتي لنفسي أن لا آكل شيئاً أربعين يوماً . قال : فمكث منها عشرة أيام قريب الحال يصلي في جماعة ، ثم في العشر الثاني بان ضعفه ، وكان يداري الأمر ، ثم صار في العشر الثالث يصلي قاعداً ، ثم استطرح في العشر الرابع ، فلما تمت الأربعون جيء بنقوع فشربه فسمعنا صوته في حلقه مثلما يقع الماء على المقلا ، ثم مات بعد أيام . فقلت : يالله العجب ، انظروا ما فعل الجهل بأهله ، ظاهر هذا أنه في النار ، إلا أن يُعفى عنه .

ولو فهم العلم وسأل العلماء لعرَّفُـوه أنه يجب عليه أن يأكل ، وأن ما فعله

---

(١) قال النووي : باطل لا أصل له ، وقال الدارقطني : لم يرو عن النبي ﷺ ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء كما في كشف الخفاء (٢/٣٦) .

(٢) **صحيح** : وهو المتقدم قبل السابق .

بنفسه حرام ، ولكن من أعظم الجهل استبداد | ٧٢ / أ | الإنسان بعلمه .

وكل هذه الحوادث نشأت قليلاً قليلاً حتى تمكنت . فأما الشرب الأول فلم يكن فيه من هذا شيء ، وما كانت الصحابة تفعل شيئاً من هذه الأشياء ، وقد كانوا يؤثرون ويأكلون دون الشبع ، ويصبرون إذا لم يجدوا .

فمن أراد الاقتداء فعليه برسول الله ﷺ وأصحابه ، ففي ذلك الشفاء والمطلوب ، ولا ينبغي أن يخلد العاقل إلى تقليد معظم لشياعه اسمه ، فيقول : قال أبو يزيد ، وقال الثوري ، فإن المقلد أعمى ، وكم قد رأينا أعمى يأنف من حمل عصا . فمن فهم هذا المشار إليه طلب الأفضل والأعلى ، والله الموفق .

١٦٣ ـ فصل : تأملت الدخل الذي دخل في ديننا في العلم والعمل فرأيته من طريقين : قد تقدما هذا الدين دنس بهما .

فأما أصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة ، وهو أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسنة ، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

وأما أصل الدخل في باب العمل فمن الرهبانية ، فإن خلقاً من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ولم ينظروا في سير نبينا ﷺ وأصحابه ، وسمعوا ذم الدنيا وما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا من سوء الفهم للمقصود ، فحدثت منهم بدع قبيحة .

فأول ما ابتدأ به إبليس أنه أمرهم بالإعراض عن العلم ، فدفنوا كتبهم وغسلوها ، وألزمهم زاوية التعبد فيما زعم ، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل إليهم هواهم ، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم أنطفأ مصباحهم ما فعلوا ، لكن إبليس دقبق المنقب وفخه دفين تحت الأرض ، وبالعلم يُعلم فساد الطريقين ويُهدى إلى الأصوب : نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يحرمنا إياه فإنه النور في الظلم ، والأنيس في الوحدة ، والوزير عند الحاجة .

١٦٤ ـ فصل : أعوذ بالله من صحبة البطالين . لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمون ذلك التردد خـــدمة ،

ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني ، ويتخلله غيبة ، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس [٧٢ / ب] ، وربما طلبه المزور وتشوف إليه واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان .

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء ، والواجب انتهابه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين : إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان ، فصرت أدافع باللقاء جهدي ، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق ، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً ، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد[1] وبرى الأقلام ، وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ، لئلا يضيع شيء من وقتي . نسأل الله ﷻ أن يعرفنا شرف أوقات العمر ، وأن يوفقنا لاغتنامه .

ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله تعالى عن الكسب بكثرة ماله ، فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس ، وكم تمر به من آفة ومنكر ، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج ، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك ، فعلمت أن الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٥] .

١٦٥ ـ فصل : رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة ، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين وأشافه بتصنيفي خلقاً لا تُحصى ما خلقوا بعد ، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم .

فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد ، فإنه ليس كل من صنف صنف ، وليس المقصود جمع شيء كيف كان ، وإنما هي أسرار

(١) **الكاغد** : القرطاس .

يطلع الله ﷻ عليها من [عباده] ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فرق أو يرتب ما شتت ، أو بشرع ما أهمل ، هذا هو التصنيف المفيد .

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر . لأن أوائل العمر زمان الطلب ، وآخره كلال الحواشي ، وربما خان الفهم [والعقل] من قدر [٧٣ / أ] عمره ، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة ، لا أنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين ، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم . هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ ، وأعين على تحصيل المطالب .

فأما إذا قلّت الآلات عنده من الكتب ، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده في هذا الأوان ، أخّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة ، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين ، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعلم ويسمع الحديث والعلم ، ويعلل التصانيف إلا أن يقع مهم إلى رأس السبعين ، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل ، فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه ، أو تصنيف يفتقر إليه ، فذلك أشرف العدد للآخرة .

ولتكن همته في تنظيف نفسه وتهذيب خلاله ، والمبالغة في استدراك زلاته ، فإن اختطف في خلال ما ذكرنا فنية المؤمن خير من عمله ، وإن بلغ إلى هذه المنازل فقد بينا ما يصلح لكل منْزل .

وقد قال سفيان الثوري : من بلغ سن رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفناً . وقد بلغ جماعة من العلماء سبعاً وسبعين سنة ، منهم أحمد بن حنبل . فإن بلغها فليعلم أنه على شفير القبر ، وأن كل يوم يأتي بعدها مستطرف فإن تمت له الثمانون فليجعل همته كلها مصروفه إلى تنظيف خلاله . وتهيئة زاده ، وليجعل الاستغفار حليفه ، والذكر أليفه ، وليدقق في محاسبة النفس في بذل العلم ، أو مخالطة الخلق ، فإن قرب الاستعراض للجيش يوجب عليهم الحذر من العارض ، وليبالغ في إبقاء أثره قبل رحيله ، مثل بث علمه ، وإنفاق كتبه ، وشيء من ماله ، وبعد فمن تولاه الله ﷻ علّمه ، ومن أراد ألهمه نسأل الله ﷻ أن ينعم علينا بأن يتولاه ولا يتولى عنا إنه قريب مجيب .

١٦٦ـ **فصل** : رأيت عادات الناس قد غلبت على عملهم بالشرع ، فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة لا لنهي الشرع ! فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشتري ، فإذا حصلت له القراضة باعها بالصحيح من غير تقليد لإمام ، أو عمل برخصة عادة من القوم واستثقالاً للاستفتاء ، ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب [٧٣ / ب] ويتوانون عن الفرائض .

وكثيراً من المتصوفين لا يستوحشون من ظلم الناس ، ثم يتصدقون على الفقراء ، وربما توانوا عن إخراج الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ، ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال ، ومنهم من يخرج بعض الزكاة مصانعه عما لم يخرجه ، ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام ويصعب عليه فراقه للعادة ، وفيهم من يحلف بالطلاق ويحنث ويرى الفراق صعباً ، فربما تأول وربما تكاسل عن التأويل اتكالاً على عفو الله تعالى ، ووعداً من النفس بالتوبة ، ومنهم من يرى أن استعمال الشرع ربما كان سبباً في تضييق معاشه ، وقد ألف التفسح فلا يسهل عليه فراق ما قد ألف ، والعادات في الجملة هي المهلكة .

ولقد حضر عندي رجل شيخ ابن ثمانين سنة ، فاشتريت منه دكاناً وعقدت معه العقد ، فلما افترقنا غدر بعد أيام ، فطلبت منه الحضور عند الحاكم فأبى ، فأحضرته فحلف باليمين الغموس أني ما بعته ، فقلت : ما تدور عليه السنة ، وأخذ يبرطل لمن يحول بيني وبينه من الظلمة ، فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العادات فلا يلتفت معها إلى قول فقيه ، ويقول هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البيع ؟ وآخر يقول : كيف يجوز لك أن تأخذ دكانه بغير رضاه ؟ وآخر يقول : يجب عليك أن تقيله البيع ، فلما لم أقله أخذ هو وأقاربه يأخذون عرضي ، ورأى : أنه يحامي عن ملكه ، ثم سعى بي إلى السلطان سعاية تحرض فيها من الكذب ما أدهشني ، وبرطل مالاً لخلق من الظلمة ، فبالغوا وسعوا ، إلا أن الله تعالى نجاني من شرهم . ثم إني أقمت عليه البينة عند الحاكم ، فقال بعض أرباب الدنيا للحاكم : لا تحكم له ، فوقف عن الحكم بعد ثبوت البينة عنده ، فرأيت من هذا الحاكم ومن حاكم آخر أعلى منه من ترك إنفاذ الحق حفظاً لرياستهم ما هوَّن عندي ما فعله ذلك الشيخ حفظاً لماله ؛ لجهله وعلم هؤلاء .

فينحل لي من الأمر أن العادات غلبت على الناس وأن الشرع أعرض عنه ، وإن وقعت موافقة للشرع فكما اتفق أو لأجل العادة ، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت ، ويأخذ أعراض الناس [٧٤/أ] وأموالهم عادة أخرى فكم قد رأيت هذا الشيخ يصلي ويحافظ على الصلاة ، ثم لما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانباً ، وكم قد رأيت أولئك الحكام يتعبدون ويطلبون العلم ، غير أنهم لما خافوا على رياستهم أن تزول تركوا جانب الدين ثم إن الله تعالى نصرني عليه وتقدم إلى الحاكم بإنفاذ ما ثبت عنده ودارت السنة فمات الشيخ على قل فنسأل الله ﷻ [التوفيق] الانقياد لشرعه ومخالفة أهوائنا .

١٦٧ـ فصل : ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة و[لا] سلامة أفضل من العزلة ، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله ﷻ وعند الخلق ، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم ، وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً في أمر مباح هان عندهم ، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم ، فقد قال بعض السلف : كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك . وقال سفيان الثوري : تعلموا هذا العلم وأكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب ، فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر ، وقد قال ﷺ لعائشة : « **لَوْلاَ حَدَثَان قَوْمك بالكُفْر لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْن** »[1] وقال أحمد بن حنبل في الركعتين قبل المغرب : رأيت الناس يكرهونها فتركتها ، ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذا صيانة للعلم .

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قل عندهم وإن كان مباحاً ، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية ، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظاً لهم ، ومتى أراد مباحاً فيستتر به عنهم ، وهذا القدر الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب ﷺ حين قدم الشام راكباً على حمار ورجليه من جانب ، فقال : يا أمير المؤمنين يتلقاك عظماء الناس ، فما أحسن ما لاحظ ! إلا أن عمر ﷺ أراد تأديب أبي عبيـــدة

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (١٥٨٣) ، ومسلم (١٣٣٣) .

بحفظ الأصل فقال : إن الله أعزكم بالإسلام فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم .

والمعنى ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الأفعال ، وإن كانت الصور تلاحظ ، فإن الإنسان يخلو في بيته عرياناً ، فإذا خرج [٧٤ / ب] إلى الناس لبس ثوبين وعمامة ورداء ، ومثل هذا لا يكون تصنعاً ولا ينسب إلى كبر . وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيب ويقعد للحديث .

ولا يلتفت يا هذا إلى ما ترى من تبذل العلماء على أبواب السلاطين ، فإن العزلة أصون للعالم والعلم ، وما يخسره العلماء في ذلك أضعاف ما يربحونه ، وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة ، وعن قوله هذا سكتوا عنه وهذا فعل الحازم ، فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك ، وكن معتزلاً عن أهلك يطيب لك عيشك ، واجعل للقاء الأهل وقتاً ، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك . فكانت المعاشرة بذلك أجود .

وليكن لك بيت في بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كتبك وتجرى في حلبات فكرك ، واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام ، واجتهد في كسبك يعفك عن الطمع ، فهذه نهاية لذة العالم في الدنيا ، وقد قيل لابن المبارك : ما لك لا تجالسنا ؟ فقال : أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين ، وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه .

ومتى رزق العالم الغني عن الناس والخلوة ، فإن كان له فهم يجلب التصانيف فقد تكاملت لذته ، وإن رزق فهماً يرتقي إلى معاملة الحق ومناجاته فقد تعجل دخول الجنة قبل الممات . نسأل الله ﷻ همة عالية تسموا إلى الكمال ، وتوفيقاً لصالح الأعمال ، فالسالكون طريق الحق أفراد .

١٦٨ـ فصل : تأملت أحوال الناس في حالة علو أسنانهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارهم حينئذ فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب ، ومنهم من فرط في اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات ، حينئذ فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت ، أو قوى ضعف ، أو فضيلة فاتت ، فيمضي زمان الكبر في حسرات ، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال وأسفا على ما جنيت ، وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما كان يلتذ به فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن

الشيخوخة يحمد جني ما غرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى [ما يفقد] من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم ، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به [٧٥ / أ] إدراك المطلوب ، وربما كانت تلك الآمال أطيب مما ينل منها كما قال الشاعر :

أهتز عند تمنى وصلها طرباً ورب أمنية أحلى من الظفر

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه ، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم . فقال لي إبليس : ونسيت تعبك وسهرك ، فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدي لا وقوع له عند رؤية يوسف ، وما طالت طريق أدت إلى صديق .

جزى الله المسير إليه خيراً وإن ترك المطايا كالمـــزاد

ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو . كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة وأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها الماء ، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي للحديث ، وآداب سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال الصحابة وتابعيهم فصرت في معرفة طريقهم كابن أجود ، وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك بالعلم ، حتى أني أذكر في زمان الصبوة ووقت الغلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت النفوس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي من العلم من خوف الله ﷻ .

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر ، لقد كنت أخاف على نفسي من العجب ، غير أنه ﷻ صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته ، وإيثار الخلوة به ، وحتى أنه لو حضر معي معروف وبشر لرأيتهما زَحمة ، ثم عاد فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيراً مني ، وتارة يوقظني لقيام الليل ولذة مناجاته ، وتارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني ، ولولا بشارة العلم بأن هذا

نوع تهذيب وتأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل ، وإما إلى اليأس عند البطالة لكن رجائي في فضله قد عادل| ٧٥ / ب | خوفي منه ، وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه ، لأني رأيته قد رباني منذ كنت طفلاً ، فإن أبي مات وأنا لا أعقل به ، والأم لم تلتفت إلى ، فركز في طبعي حب العلم ، وما زال يوقعني على المهم فالمهم ، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب ، حتى قوم أمري وكم قد قصدني عدو وصده عني ، وإذ رأيته قد نصرني وبصرني ودافع عني ووهب لي قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي ، ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل ، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام ، وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي .

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه ، أو دمعت عينه ، فقلت لنفسي : كيف بك إن نجوا وهلكت ! فصحت بلسان وجدي : إلهي وسيدي إن قضيت علي بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي . لئلا يقولوا عذب من دل عليه .

إلهي قد قيل لنبيك ﷺ اقتل ابن أُبَيّ المنافق فقال : ((**لاَ يَتَحَدّث النَّاسَ أَنَّ مُحَمْداً يَقْتُلُ أَصْحَابَه**))[1].

إلهي فاحفظ حسن عقائدهم في كرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك . حاشاك والله يارب من تكدير الصافي .

لا تبر عــوداً أنت ريشته حاشا لباني الجود أن ينقضا
لا تعطش الزرع الذي نبته بصوب إنعامك قد روضـا

١٦٩ ـ فصل : من الأمور التي تخفى على العاقل أن يرى [أنه] متى لم يكن عنده امرأة أو جارية يهواها هوى شديداً أنه لا يلتذ في الدنيا ، فإذا صور محبوباً مملوكاً تخايل لذة عظيمة ، وإذا كان عنده من لا يميل إليه اعتقد نفسه محروماً ، وهذا أمر شديد الخفاء ، فينبغي أن يوضح ، وهو أن المملوك مملوك . ومتى قدر الإنسان على ما يشتهيه مله ومال إلى غيره ، تارة لبيان عيوبه التي

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤) .

تكشفها المخالطة ، فإنه قد قال الحكماء : العشق العمى عن عيوب المحبوب ، وتارة لمكان القدرة عليه ، والنفس لا تزال تتطلع إلى ما لا تقدر عليه ، ثم لو قدرنا دوام المحبة مع القدرة فإنها قد تكون ولكن ناقصة بمقدار القدرة ، وإنما يقويها [٧٦ / أ] تجني المحبوب فيكون تجنيه كالامتناع ، أو امتناعه من الموافقة ، فإذا صفا فلابد من أكدار ، منها الحذر عليه ، ومنها قلة ميله إلى هذا العاشق ، وربما تكلف القرب منه بعلم الإنسان بقلة ميل محبوبه إليه ينغص بل يبغض ، فإن خاف منه خيانة احتاج إلى حراسته فقويت النغص ، وأصلح المقدمات التوسط ، وهو اختيار ما تميل النفس إليه ولا يرتقى إلى مقام العشق ، فإن العاشق في عذاب ، وإنمـــا يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك ، فإنه كما قيل :

وما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيــا في كــل وقت ... مخــافة فــرقة أو لاشــتياق
فيبكـــى إن نأوا شوقا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينـــه عند التدانـــي ... وتسخن عينه عند الفـــراق

١٧٠ ـ **فصل** : ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته ، فإن من علت همته يختار أعالي المعالي ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب . وإني أعطيت من علو الهمة طرفاً فأنا به في عذاب ، ولا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل . ولقد رأيت أقواماً يصفون علو هممهم ، فتأملتها فإذا بها في فن واحد ، ولا يبالون بالنقص فيما سواه ، قال الرضى :

ولكل جسم في النحول بلية ... وبلاء جسمي من تفاوت همتي

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة ، وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام ، فقيل في ذلك فقال : ذهن صاف ، وهم بعيد ، ونفس تتوق إلى معالي الأمور ، مع عيش كعيش الهمج الرعاع ، قيل : فما الذى يبرد غليلك[1] ؟ قال : الظفر بالملك ، قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأهوال ، قيل : فاركب

(١) الغليل : شدة العطش .

الأهوال ، قال : العقل مانع ، قيل فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلي جهلاً ، وأحاول به خطراً لا ينال إلا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به ، فإن الخمول أخو العدم .

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا به قد ضيع أهم المهمات [٧٦ / ب] وهو جانب الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات ، فكم فتك وقتل حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا ، ثم لم يتنعم في ذلك من ثمان سنين ، ثم اغتيل ونسى تدبير العقل فقتل ، ومضى إلى الآخرة على أقبح حال ، وكان المتنبي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله ... مدى ينتهي بي في مراد أحده
ترى جسمه يكسى شنوفاً[1] تربه ... فيختار أن يكسى دروعاً تهده

فتأملت هذا الآخر فإذا بهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب ، ونظرت إلى علو همتي فرأيتها عجباً وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه ، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء كل فن ، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه ، فإن عرض لي همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره ، فلا أعد همته تامة ، مثل المحدث فاته الفقه ، والفقيه فاته علم الحديث ، فلا أرى الرضي بنقصان من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة ، ثم إنني أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق إلى ورع بشر ، وزهادة معروف ، وهذا مع مطالعة والتصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد .

ثم إني أروم الغنى عن الخلق ، وأستشرف الإفضال عليهم ، والاشتغال بالعلم ، مانع من الكسب ،وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية ،ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد ، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف ، لبقاء الخلفان نائبين عني بعد التلف ، وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد ، ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال ثم لو حصل فرق جمع الهم .

وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب ، فإنه متعود للترف واللطف ، وفي قلة المال مانع ، وكل ذلك جمع بين أضداد ، فأين أنا وما وصفته

(١) الشنوف : جمع شنف ، وهو من حلي الأذن .

من حال من كانت غاية همته الدنيا ، وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب ، ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي ،فواقلقي من طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع من إعادة العلم ، وشغل القلب بالتصانيف ، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم ، ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة [٧٧ / أ] في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم ، ويا كدر الورع مع طلب ما لابد منه للعائلة ، غير أني قد استسلمت لتعذيبي ، ولعل تهذيبي في تعديبي ، لأن عليان الهمة لطلب المعالي المقربة إلى الحق ﷻ ، وربما كانت الخيرة في الطلب دليلاً إلى المقصود ، وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس من غير فائدة ، وإن بلغ همي مراده وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله .

١٧١ ـ فصل : لما سطرت هذا الفصل المتقدم ، رأيت ادكار النفس بما لا بد لها في الطريق منه ، وهو أنه لا بد لها من التلطف ، فإن قاطع مرحلتين في مرحلة خليق بأن يقف ، فينبغي أن يقطع الطريق بألطف ممكن ، وإذا تعبت الرواحل نهض الحادي يغنيها ، وأخذ الراحة للجد جد ، وغوص السابح في طلب الدر صعود ، ودوام السير يحسر الإبل ، والمفازة صعبة .

ومن أراد أن يرى التلطف بالنفس فلينظر في سير الرسول ﷺ فإنه كان يتلطف بنفسه ، ويمازح ويخالط النساء ، ويقبل ويمص اللسان ، ويختار المستحسنات ويستعذب له الماء ويختار الماء البارد ، والأوفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى ، وهذا كله أرفق بالناقة في طريق السير .

فأما من جرد عليها السوط فإنه يوشك إن لا يقطع الطريق ، وقد قال ﷺ : ((إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى))[1] واعلم أنه ينبغي للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكشف العقل عن عواره ،

---

(١) **ضعيف** : رواه البيهقي في السنن (١٩/٣) وفي الشعب (٣٨٨٦) من طريق أبي صالح ثنا الليث عن ابن عجلان عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً ، وفي الإسناد علتين الأولى جهالة ، المولى ، والثاني ضعف أبي صالح (عبد الله بن صالح) وله شاهد آخر رواه البزار (٧٤ كشف) ، والحاكم (٩٥ ، ٩٦) والقضاعي (١١٤٧ ، ١١٤٨) ، وغيرهم من طريق ابن عقيل يحيي ابن المتوكل عن محمد بن سوقه عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً ، وخالف يحيى بن المتوكل مروان ابن معاوية كما في زيادات المروزي على زهد ابن المبـارك (١١٧٨) وشيخ من بني جعفر كما عند =

فإن فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة إلى أنها عتناق بجسد يحتوي على قذارة ، وقبل بلع اللقمة أنها متقلبة في الريق لو أخرجها الإنسان ، في قرب الموت وما يجري عليه بعده ، لبغض عاجل لذته ، فلا بد من مغالطة تجري لينتفع الإنسان بعيشه كما قال لبيد :

فأكذب النفس إذا حدثتها ... إن صدق النفس يزري بالأمل

وقال البستي :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... تجمُّ وعُلّلْــه بشيء من المــزح
ولكن إذا أعطيته داك فليكــن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقال أبو علي بن الشبل : | ٧٧ / ب |

وإذا هممت فنــاج نفسك بالمُنى ... وَعْداً فخيرات الجنان عداتُ
واجعل رجاءك دون يأسكَ جنة ... حتى تزول بهمِّك الأوقــاتُ
واستر عن الجلســـاء بَّثك إنما ... جلساؤك الحُساد والشـمّاتُ
ودع التوقع للحــوادث إنــه ... للحي من قبل الممات ممــات
فالهــم ليس له ثبــات مثلمــا ... في أهلــه ما للسرور ثبــات
لولا مغالطــة النفوس عقولهــا ... لم يصــف للمتيقظين حيــاة

وقال أيضاً :

بحفظ الجسم تبقى النفس فيه ... بقاء النار تحفظ بالوعــاء
فباليأس الممض فلا تمتهــا ... ولا تمدد لها طول الرجــاء
وعدها في شدائدها رخــاء ... وذكرها الشدائد في الرخاء
يعد صلاحــها هذا وهــذا ... وبالتركيب منفعــة الدواء

وقد كان عموم السلف يخضبون الشيب لأن لا يرى الإنسان منهم ما يكره وإن كان الخضاب لا يعدم النفس علمها بذلك ، ولكنه نوع مخادعة للنفس ،

= وكيع في الزهــد (٢٣٤) روياه عن محمد بن المنكدر مرسلاً . وهو الصواب . وابن المنكدر له طريق عن عائشة كما عند البيهقي في الشعب (٣٨٨٥) وأشار إليه البزار على أثر حديث (٧٤) وصحح البيهقي المرسل . وانظر الضعيفة للشيخ الألباني (٢٤٨٠) وإن كان أول الحديث له شواهد يحسن لها . انظر الضعيفة للشيخ الألباني وتحقيق مسند أحمد حديث (١٣٠٥٢) للشيخ شعيب الأرنؤوط ، وتحقيق زهد وكيع (٢/٤٨٢ - ٤٩٣) للفريوائي .

وما زالت ترى الظاهر ، وإنما الفكر والعقل مع الغائب ، ولا بد من مغالطة تجري ليتم العيش ، ولو عمل العامل بمقتضى قصر الأمل ما كتب العلم ولا صنف ، فافهم هذا الفصل مع الذي تقدمه ، فإن الأول في مقام العزيمة ، وهذا في مكان الرخصة ولا بد للتعب من راحة وإعانة ، والله ﷻ على قدر صدق الطلب ، وقوة اللجا وخلع الحول والقوة ، وهو الموفق .

١٧٢ ـ فصل : في تعليم التدبير ، قوام الآدمي بشيئين الحرارة والرطوبة ، ومن شأن الحرارة أن تحلل الرطوبة وتفنيها .

فالآدمي محتاج إلى تحصيل خلف المتحلل ، فأبدان النشء[1] تغتذى بأكثر مما يتحلل منها ، والأبدان المتناهية تغتذى بمقدار ما يتحلل منها ، والأبدان التي قد أخذت في الهرم يتحلل منها أكثر مما تغتذى به ، فينبغي للنشء البالغ أن يتحفظ في النكاح ، لأنه يربي قاعدة قوة يجد أثرها في الكبر ، وأما المتوسط والواقف السن فينبغي أن يحذر فضول الجماع [٧٨ / أ] ، فإن حصل له مثل ما يخرج منه فأسرف ، أخذ من الحاصل ، ويوشك أن يسرع الفناء ، وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له ، وخصوصاً إذا زاد علو السن ، لأنه ينفق من الجوهر الذي لا يحصل مثله أبداً .

ثم ينبغي أن ينظر العاقل في ماله فيكتسب أكثر مما ينفق ليكون الفاضل مدخراً لوقت العجز ، وليحذر السرف ، فإن العدل هو الأصلح . ثم ينظر في الزوجة ، والمطلوب منها شيئان : وجود الولد وتدبير المنزل ، فإذا كانت مبذرة فعيب لا يحتمل ، فإن انضمت صفة العقر[2] فلا وجه للإمساك ، إلا أن تكون مستحسنة الصورة ، فإن ضم إليها عقل وعفاف حسن الإمساك ، وإن كانت مما يحتاج أن تحفظ فتركها لازم .

فأما الخادم فليجتهد في تحصيل خادم لا تستعبده الشهوة ، فإن عبد الشهوة له مولى غير سيده ، ولينظر المالك في طبع المملوك ، فمنهم من لا يأتي إلا على الإكرام فليكرمه فإنه يربح محبته ، ومنهم من لا يأتي إلا على الإهانة فيداره

---

(١) في المخطوط : البشر ، والمثبت أوجه .

(٢) في المخطوط : الفقر ، والمثبت أوجه .

وليعرض عن الذنوب ، فإن لم يمكن عاتب بلطف ، وليحذر العقوبة ما أمكن وليجعل للمماليك زمن راحة ، والعجب ممن يعني بدابته وينسى مداراة جاريته وأجود المماليك الصغار ، وكذلك الزوجات ، لأنهم متعودون خلق المشتري .

وليحفظ نفسه بالهيبة من الانحراف مع الزوجة ولا يطلعها على ماله ، فإنها سفيهة تطلب كثرة الإنفاق .

وأما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالطة تفسد ، ومتى كان الصبي حيياً ذا أنفة رجي خيره ، وليحمل على صحبة الأشراف والعلماء ، وليحذر الصبي الجهال والسفهاء ، فإن الطبع لص وليحذر الصبي من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة للصبيان ، وليوصيه بزيادة البر للوالدين ، وليحفظ من مخالطة النساء ، فإذا بلغ فليزوج بصبية لم تعرف غيره فينتفعان ، هذه الإشارة إلى تدبير أمور الدنيا ، فأمر تدبير العلم فينبغي أن يحمل الصبي من حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث ليحصل له المحفوظات أكثر من المسموعات ، لأن زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة ، فإذا بلغ تشتتت همته ، فليضرب تارة ، ليرشى أخرى ، ليبلغ وقد حصل محفوظات سنية .

وأول ما ينبغي أن يكلف حفظ القرآن متقناً فإنه يثبت [٧٨ / ب] ويختلط باللحم والدم ، ثم مقدمة من النحو يعرف بها اللحن ثم الفقه مذهباً وخلافاً وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظه فحسن ، وليحذر من عادات أصحاب الحديث ، فإنهم يفنون الزمان في سماع الأجزاء التي تتكرر فيها الأحاديث فيذهب العمر وما حصلوا فهم شيء فإذا بلغوا سناً طلبوا جواز فتوى ، أو قراءة جزء من القرآن ، فعادوا القهقري يحفظون بعد كبر السن فلا يحصل مقصودهم .

فالحفظ في الصبا للمهم من العلم أصل عظيم ، وقد رأينا كثيراً ممن تشاغل بالمسموعات وكتابة الأجزاء ورأى الحفظ صعباً فمال إلى الأسهل فمضى عمره في ذلك ، فلما احتاج في نفسه قعد يحفظ على كبر فلم يحصل مقصوده ، فاليقظة لفهم ما ذكرت ، وانظر في الإخلاص ، فما ينفع شيء دونه .

١٧٣ـ فصل : اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين ، وكلما جاء الشعير زاد ، فتواقع الناس على اشتراء الطعام ، فاغتبط من يستعد كل سنة بزرع ما يقوته ، وفرح من بادر في أول النيسان إلى اشتراء الطعام فإنه يضاعف

ثمنه ، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم فرموه في سوق الهوان ، وبان ذل نفوس كانت عزيزة ، فقلت : يا نفس خذي من هذه الحال إشارة ، ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه ، وليفرحن من له جواب عند إقبال المسألة ، وكل الويل على المفرط الذي لا ينظر في عاقبته فتنبهي ، فقد نبهت ناساً الدنيا على أمر الآخرة ، وبادري موسم الزرع ما دامت الروح في البدن ، فلزمان كله تشرين قبل أن يدخل نيسان الحصاد ، ومالك زرع ، وحاجة المفتقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار .

١٧٤ـ فصل : تأملت حالة أزعجتني ، وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهي لا تحبه ، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه ، وقد يتقرب إلى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره ، فيبقى متحيراً يقول : ما حيلتي ، فخفت أن تكون هذه حالي مع الخالق سبحانه ، أتقرب إليه وهو لا يريدني ، وربما يكون قد كتبني شقياً في الأزل ، ومع هذا خاف الحسن ، فقال : أخاف [٧٩ / أ] أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال : لا غفرت لك ، فليس إلا القلق والخوف لعل سفينة الرجا تسلم يوم دخولها الشاطئ من جرف .

١٧٥ـ فصل : جرى بيني وبين أصحاب الحديث كلام في قول الإمام أحمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعمائة ألف حديث ، فقلت [له] : إنما يعني به الطريق ، فقال : لا إلا المتون ، فقلت : هذا بعيد التصور ، ثم رأيت لأبي عبد الله الحاكم كلاماً ينصر ما قال ذلك الشخص وهو أنه قال في كتاب المدخل إلى كتاب الإكليل : كيف يجوز أن يقال إن حديث رسول الله ﷺ لا يبلغ عشرة آلاف حديث وقد روي عنه من أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة صحبوه نيفاً وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة حفظوا أقواله وأفعاله ونومه ويقظته وحركاته وغير ذلك سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة ، واحتج بقول أحمد : صح الحديث عن رسول الله ﷺ سبعمائة ألف حديث وكسر ، وإن إسحاق بن راهويه كان يملي سبعين ألف حديث حفظاً ، وإن أبا العباس بن عقدة قال : أحفظ لأهل البيت ثلاثمائة ألف حديث ، قال ابن عقدة : وظهر لابن كريب بالكوفة ثلاثمائة ألف حديث .

قلت : ولا يحسن أن يشار بهذا إلى المتون ، وقد عجبت كيف خفي هـذا

على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة مسند أحمد بن حنبل وقد طاف الدنيا مرتين حتى حصله وهو أربعون ألف حديث منها عشرة آلاف مكررة .

قال حنبل بن إسحاق : جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله وقرأ علينا المسند وقال لنا : هذا كتاب جمعته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفاً فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺفارجعوا إليه فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة . أفتري يخفى على متيقظ أنه أراد بكونه جمعه من سبعمائة ألف أنه أراد الطرق ، لأن السبعمائة ألف إن كانت من كلام رسول الله ﷺفكيف أهملها فإن قيل : فقد أخرج في مسنده أشياء [٧٩ / ب] ضعيفة ، ثم أعوذ بالله أن يكون سبعمائة ألف ما تحقق منها سوى ثلاثين ألفاً ، وكيف ضاعت هذه الجملة ، ولم أهملت ؟ ، وقد وصلت كلها إلى زمن أحمد فانتقى منها ورمى الباقي .

وأصحاب الحديث قد كتبوا كل شيء من الموضوع والكذب، وكذلك قال أبو داود : جمعت كتاب السنن من ستمائة ألف حديث ولا يحسن أن يقال أن الصحابة الذين رووها ماتوا ولم يحدثوا بها التابعين ، فإن الأمر قد وصل إلى أحمد فأحصى سبعمائة ألف حديث ، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلاً ، ومعلوم أنه لو جمع الصحيح والمحال والموضوع وكل منقول عن رسول الله ﷺ ما بلغ خمسين ألفاً ، فأين الباقي ؟ ولا يجوز أن يقال : تلك الأحاديث كلام التابعين ، فإن الفقهاء نقلوا مذاهب القوم ودونوها وأخذوا بها ، ولا وجه لتركها فعلم كل ذي لب أن الإشارة إلى الطرق ، وأن ما توهمه الحاكم فاسد ، ولو عرض هذا الاعتراض عليه ، وقيل له : فأين الباقي ؟ لم يكن له جواب ، لكن الفهم عزيز ، والله المنعم بالتوفيق .

ومثل هذا تغفيل قوم ، قالوا : إن البخاري لم يخرج كل ما صح عنده ، وإن ما أخرج كالأنموذج ، وإلا فكان يطول ، وقد ذهب إلى نحو هذا أبو بكر الإسماعيلي ، وحكي عن البخاري أنه قال : ما تركت من الصحيح أكثر ، وإنما يعني الطرق ، يدل على ما قلته أن الدار قطني - وهو سيد الحفاظ - جمع ما يلزم البخاري ومسلم إخراجه ما لم يذكراه أحاديث يسيرة ، ولو كان كما قالوا ، لأخرج مجلدات ، ثم قوله : ما يلزم البخاري دليل صحيح على ما قلته ، لأن من أخرج الأنموذج لا يلزمه شيء .

وكذلك أخرج أبو عبد الله الحاكم كتاباً جمع فيه ما يلزم البخاري إخراجه فذكر حديث الطائر فلم يلتفت الحفاظ إلى ما قال ، فما أقل فهم هؤلاء الذين شغلهم الحديث من التدقيق الذي لا يلزم في صحة الحديث ، وإن ما وقع لقلة الفقه والفهم أن البخاري ومسلم تركا أحاديث أقوام ثقات لأنهم خولفوا في الحديث ، فنقص الأكثرون من الحديث وزادوهم ولو كان ثم فقه لعلموا أن الزيادة من الثقة مقبولة ، وتركوا أحاديث أقوام لأنهم انفردوا بالرواية عن شخص ، ومعلوم أن انفراد الثقة لا عيب فيه ، وتركوا من ذلك الغرائب ، وكل ذلك سوء فهم ، ولهذا لم يلزم الفقهاء هذا [٨٠ / أ] ، وقالوا : الزيادة من الثقة مقبولة ولا يقبل القدح حتى يبين سببه ، وكل من لم يخالط الفقهاء وجمد مع المحدثين تأذى وساء فهمه ، فالحمد لله الذي أنعم علينا بالحالتين .

١٧٦ـ فصل : اعلم أن الله ﷻ وضع في النفوس أشياء لا تحتاج إلى دليل ، فالنفوس تعلمها ضرورة ، وأكثر الخلق لا يحسنون التعبير عنها ، فإنه وضع في النفس أن المصنوع لا بد له من صانع ، وأن المبنى لا بد له من بان ، وأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين في حالة واحدة ، ومثل هذه الأشياء لا تحتاج إلى دليل ، وألهم العرب النطق بالصواب من غير لحن ، فهم يفرقون بين المرفوع والمنصوب بأمارات في جبلتهم ، وإن عجزوا عن النطق بالعلة .

قال عثمان بن جني : سألت يوماً أبا عبد الله محمد بن العساف العقيلي فقلت له : كيف تقول ضربت أخوك ؟ فقال : أقول ضربت أخاك ، فأدرته على الرفع فأبى ، وقال : لا أقول أخوك أبداً قال : كيف تقول ضربني أخوك فرفع ، فقلت : أليس زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً ؟ فقال : إيش هذا ، اختلفت جهتها في الكلام ، وهذا أدل شيء على تأملهم مواقع الكلام ، وإعطائهم إياه في كل موضع حقه ، وأنه ليس استرسالاً ولا ترخيماً .

قال عثمان : واللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والنحو انتحاء سمعت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتصغير والتكسير وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة أهلها .

الاجتهاد في تحصيل ثواب الآخرة

١٧٧ـ فصل مفيد : تدبرت أحوال الأخيار والأشرار فرأيت سبب صلاح الأخيار النظر ، وسب فساد الأشرار إهمال النظر.

وذاك أن العاقل ينظر فيعلم أنه لا بد له من صانع ، وأن طاعته لازمة ويتأمل معجزات رسول الله ﷺ فيسلم قياده إلى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه إليه زلفى ، فإذا شق عليه إعادة العلم تأمل ثمرته فسهل ذلك ، وإذا صعب عليه قيام الليل فكذلك ، وإذا رأى مشتهى تأمل عاقبته فعلم أن اللذة تفنى والعار والإثم يبقى ، فيسهل عليه الترك ، وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ذكر ثواب الصبر وندم على الغضبان أفعاله في حال الغضب ، ثم لا يزال يتأمل سرعة ممر العمر فيغتنمه بتحصيل [٨٠ / ب] أفضل الفضائل فينال مناه .

وأما الغافل فإنه لا يرى إلا الشيء الحاضر ، فمنهم من لم يتأمل في معنى المصنوع وإثبات الصانع فجحدوا وتركوا[1] النظر وجحدوا الرسل وما جاءوا به ، ونظروا إلى العاجل ، ولم يتفكروا في مبدأه ومنتهاه فليس عندهم من عرفان المطعم إلا الأكل ، ولو تأملوا كيف أنشئ ولماذا جعل حافظاً للأبدان لعرفوا حقائق الأمور ، وكذلك كل شهوة تعرض لهم لا ينظرون في عاقبتها بل في عاجل لذتها ، وكم قد جنت عليهم من وقوع حد وقطع يد وفضيحة .

فتعجيل اللذة يفوت الفضائل ، ويحصل الرذايل وسببه عدم النظر في العواقب وهذا شغل العقل ، وذاك المذموم شغل الهوى ، نسأل الله ﷻ يقظة ترينا العواقب ، وتكشف لنا الفضائل والمعائب ، إنه قادر على ذلك .

١٧٨ـ فصل : خلقت لي همة عالية تطلب الغايات ، بلغت السن وما بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال ، فأنكرت علي العادات وقالت : ما جرت عادة بما تطلب ، فقلت : إنما أطلب من قادر يخرق العادات ، وقد قيل لرجل : لنا حويجة فقال : اطلبوا لها رجيلاً ، وقيل لآخر : جئناك في حاجة لا ترزؤك ، فقال : هلا طلبتم لها سفاسف الناس .

في ط : وترك ، والمثبت أوجه .

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطمع في فضل كريم قادر ، وقد سألته هذا السؤال في ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين فإن مد لي أجل وبلغت ما أملته نقلت هذا الفصل إلى ما بعد وبيضته ، وأخبرت ببلوغ آمالي ، وإن لم يتفق ذلك فسيدي أعلم بالمصالح فإنه لا يمنع بخلاً ، ولا حول [ولا قوة] إلا به .

١٧٩ ـ فصل : ما أقل من يعمل لله تعالى خالصاً لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم ، وسفيان الثوري كان يقول : لا أعتد بما ظهر من عملي ، وكانوا يسرون أنفسهم ، واليوم ثياب القوم تشهرهم ، وقد كان أيوب السختياني يطول قميصه حتى يقع على قدميه ، ويقول : كانت الشهرة في التطويل ، واليوم الشهرة في التقصير[1] ، فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق ، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل ، وإخلاص القصد وستر الحال هو الذي رفع من رفع .

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافياً في وقت ونعليه في يديه ويخرج للقاط ، وبشر يمشي [٨١ / أ] حافياً على الدوام وحده ، ومعروف يلتقط النوى ، واليوم صارت الرياسات أكثر من كل حاجة ، وما تتمكن الرياسات حتى تتمكن من القلب الغفلة ، ورؤية الخلق ، ونسيان الحق ، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجباً من يتزيا بالعلم ، فإن رآني أمشي وحدي أنكر عليّ ، وإن رآني أزور فقيراً عظم ذلك ، وإن رآني انبسط بتبسم نقصت من عينه ، فقلت : واعجباً هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة ﷺ ، فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه ، لا جرم والله سقطتم من عين الحق ، فأسقطكم من عين الخلق . فكم ممن يتعب في تربية ناموس ولا يلتفت إليه ولا يحظى بمراده ، ويفوته المراد الأكبر .

فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق ، ولتكن عمدتكم

---

(١) نحو هذا الأثر عن أيوب عند أبي نعيم في الحلية (٣/٧) من طريق معمر عن أيوب به . وفيه كان في قميص أيوب بعض التزييل ، وفي هامش النسخة بعض الطول ، وفي رواية معمر عن البصرين ضعيف وأيوب بصري ولعل هذا التطويل فوق الكعبين للأحاديث الواردة في ذم المسبل .

الاستقامة مع الحق . فبذلك صعد السلف وسعدوا ، وإياكم وما الناس عليه اليوم ، فإنه بالإضافة إلى يقظة السلف نوم .

١٨٠ ـ فصل : والله ما ينفع تأديب الوالد إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الولد ، فإنه سبحانه إذا أراد شخصاً رباه من طفولته وهداه إلى الصواب ، ودله على الرشاد ، وحبب إليه ما يصلح ، وصحّبه من يصلح ، وبغض إليه ضد ذلك ، وقبّح عنده سفساف الأمور ، وعصمه من القبائح ، وأخذ بيده كلما عثر . وإذا أبغض شخصاً تركه دائم التعثير متخبطاً في كل حال ، و لم يخلق له همة لطلب المعالي ، وشغله بالرذائل عن الفضائل ، وإن قال لم خصصت بهذا ، قال الخطاب الذي لا يُجاب ﴿ **فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ [الشورى : ٣٠].

١٨١ ـ فصل : من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه أن هذه النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها ، و دبرت مصالحها ، وترقت إلى معرفة الأفلاك ، واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم ، وشاهدت الصانع في المصنوع ، فلم يحجبها ستر ، وإن تكاثف ، ولا يعرف مع هذا ماهيتها ولا كيفيتها ولا جوهرها ولا محلها بأنفعالها ، ولا يفهم من أين جاءت ، ولا يدرى أين تذهب ، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد .

وهذا كله[١] يوجب علينا أن نعتقد أن لها مدبراً وخالقاً ، وكفى بذلك دليـــلاً عليه [٨١ / ب] ؛ إذ لو كانت وجدت بها لمـــا خفيت أحوالها عنها ؛ فسبحانه سبحانه .

١٨٢ ـ فصل : سبحان من منّ على الخلق بالعلماء الفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر ومراد الشارع . فهم حفظة الشريعة فأحسن الله جزاهم ، وإن الشيطان ليتجافاهم خوفاً منهم ، فإنهم يقدرون على أذاه ، وهو لا يقدر على أذاهم ، ولقد تلاعب بأهل الجهل والقليلي الفهم ، وكان من أعجب تلاعبه أن حسن للأقوام ترك العلم ، ثم لم يقنعوا بهذا حتى قدحوا في المتشاغلين به ، وهذا لو فهموه قدح في الشريعة ، فإن رسول الله ﷺ يقول : « **بَلِّغُوا عَنِّي** »[٢].

---

(١) في المخطوط : كلها ، والمثبت أوجه .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣٤٦١) .

وقد قال له ربه ﷺ ﴿ بَلِّغْ ﴾ وإذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة إلى الخلق ، ولقد نقل مثل هذا عن كبار الزهاد ، كبشر الحافي ، فإنه قال لعباس بن عبد العظيم : لا تجالس أصحاب الحديث . وقال لإسحاق بن الضيف : إنك صاحب حديث فأحب أن لا تعود إليَّ ، ثم اعتذر فقال : إنما الحديث فتنة إلا لمن أراد الله به ، وإذا لم يعمل به فتركه أفضل ، وهذا عجب منه ! من أين له أن طلابه لا يريدون الله به ، وإنهم لا يعملون به ، أو ليس العمل به على ضربين : عمل بما يجب ، وذلك لا يسع أحد تركه ، والثاني : نافلة ولا يلزم ، والتشاغل بالحديث أفضل من التنفل بالصوم والصلاة ، وما أظنه أراد إلا طريقه في دوام الجوع والتهجد ، وذلك شيء لا يلام تاركه فإن كان يريد أن لا يوغل في علوم الحديث فهذا خطأ لأن جميع أقسامه محمود ، أفترى لو ترك الناس طلب الحديث أكان بشر يفتي ! فالله الله في الالتفات إلى قول من ليس بفقيه ، ولا يهولنك تعظيم اسمه ، فالله يعفو عنه .

حفظ جانب الله تعالى وإن سخط الناس

١٨٣ ـ فصل: العاقل من يحفظ جانب الله تعالى وإن غضب الخلق ، وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه .

قال المأمون لبعض أصحابه : لا تعص الله بطاعتي فيسلطني عليك . ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين وفتك به ، وصلب رأسه وإن كان ذلك عن إرادة المأمون ، ولكن بقي أثر ذلك في قلبه ، فكان لا يقدر أن يراه .

ولقد دخل عليه يوما فبكى المأمون فقال له طاهر : لم تبكي لا أبكى الله عينك [٨٢ / أ] ، فلقد دانت لك البلاد فقال : أبكي لأمر ذكره ذل ، وستره حزن ولن يخلو أحد من شجن فلما خرج طاهر نفذ إلى حسين الخادم مائتي ألف درهم وسأله أن يسأل المأمون لم بكى ؟ فلما تغدى المأمون قال : يا حسين اسقني . قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لي : لم بكيت حين دخل عليك طاهر ؟ قال : يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألت عنه ؟ قال لغمي بذلك

قال : يا حسين أمر إن خرج من رأسك قتلتك . قال : يا سيدى ومتى أخرجت لك سراً ؟ قال : إني ذكرت أخي محمدا وما ناله من الذلة فخنقتني العبره فاسترحت إلى إفاضتها ، ولن يفوت طاهر مني ما يكره ، فأخبر حسين طاهراً بذلك فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد . فقال له : إن المعروف عندي ليس بضـــائع فغيبني عن عينه قال : سأفعل . فدخل على المأمـــون فقال : ما بت البارحة ؟ قال : ولم ؟ قال : لأنك وليت غسان بن عباد [خرسان وهو] ومن معه أكلة رأس ، فأخاف أن يخرج خارج من الترك فيصطلمه قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فعقد له فمضى فبقي مدة ثم قطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة فقال له صاحب البريد : ما دعوت لأمير المؤمنين . قال : سهو فلا تكتب . ففعل ذلك في الجمعة الثانية والثالثة فقال له : لابد أن أكتب لئلا يكتب التجار ويسبقوني . قال : اكتب فكتب فدعا المأمون أحمد بن أبي خالد ، وقال : إنه لم يذهب علي احتيالك في أمر طاهر ، وأنا أعطي الله عهداً إن لم تشخص حتى توافيني به كما أخرجته من قبضتي لتذمن عقباك ، فشخص وجعل يتلوم في الطريق ويعتل المرض ، فوصل إلى الري وقد بلغته وفاة طاهر .

قلت : ولما خرج الراشد من بغداد وأرادوا تولية المقتفي ، شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لا يصلح للخلافة فنَزعوه وولي المقتفي فبلغني أنه ذكر للمقتفي بعض الشهود فذمه ، وقال : كان فيمن أعان على أبي جعفر .

وعلى ضد هذا كل من يراعي جانب الحق والصواب يرضى عنه من سخط عليه ، ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة أن المستنجد بالله كتب إليه كتاباً وهو يومئذ ولي عهد ، وأراد أن يستره عن أبيه قال : فقلت : للواصل به : والله ما يمكنني ، أقرؤه ولا أجيب عنه ، فلما ولي الخلافة دخلت عليه فقلت : أكبر دليل على صدقي وإخلاصي أني ما حابيتك في أبيك فقال : صدقت أنت الوزير [٨٢ / ب] ، وحدثني بعض الأصدقاء أن قوماً ألحقوا[1] إلى المخزن بعض دين لهم ليستخلص ، فقال الرشيد لصاحب المخزن ، خلصه لهم وخذ ما ضمنوا لنا ، فأحضر ابن الرطبي وعرض الأمر عليه ، فقال : هذا أمر بظلم وما أحكم فيه ،

---

(١) في المخطوط : الحو ، والمثبت أوجه .

فقال : إن السلطان قد تقدم ، قال : ما أفعل ، فأحضر قاضياً آخر فبت في الحكم ، فأخبر الخليفة بالحال فقال : أما ابن الرطبي فيشكر على ما قال ، وأما الآخر فيعزل ، وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابن الرطبي ، وكذلك ما طلبه السلطان من أن يلقب بملك الملوك ، فاستفتى الفقهاء فأجازوا ذلك ، وامتنع من إجازته الماوردي ، فعظم قدره عند السلطان ، ومثل هذا إذا تتبع كثير . فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق وإن سخط المخلوق ، فإنه يعود صاغراً ولا يسخط الخالق ، فإنه يسخط المخلوق فيفوت الحظان جميعاً .

١٨٤ ـ فصل مفيد : ينبغي للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج إليه ، ثم ينظر بعد ذلك في الصور ، فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن .

أما الأصول فإن الشيء يرجع إلى أصله ، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن ، وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت رديء فقل أن تكون صينة ، وكذلك أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر .

فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب السلامة ، فإن وقع ذلك كان نادراً ، وقد قال عمر بن عبد العزيز ﷺ لرجل : أشر علي فيمن أستعمل . فقال : أما أرباب الدين فلا يريدونك ، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ، ولكن عليك بالأشراف ، فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح .

وقد روى أبو بكر الصوط[1] قال : حدثني الحسين بن يحيى عن إسحاق قال : دعاني المعتصم يوماً فأدخلني معه الحمام ، ثم خرج فخلا بي ، وقال : يا أبا إسحاق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه ، إن أخي المأمون اصطنع قوماً فأنجبوا واصطنعت أنا مثلهم فلم ينجبوا ، قلت : ومن هم ؟ قال : اصطنع طاهراً وابنه وإسحاق وآل سهل فقد رأيت كيف هم ، واصطنعت أنا الأفشين فقد رأيت إلى ما آل أمرهم ، وأساس فلم أجده شيئاً وكذلك إيتاخ ووصيف [٨٣ / أ] . قلت : يا أمير المؤمنين ، هاهنا جواب على أمان من الغضب . قال : لك ذاك ، قلت : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعملت

---

(١) في المطبوع : الصولي .

فروعاً لا أصول لها فلم تنجب ، فقال : يا أبا إسحاق مقاساة ما مر بي طول هذه المدة أهون علي من هذا الجواب .

أما الصور ، فإنه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب في الباطن أيضاً ، فاحذر من به عابة كالأقرع والأعمى وغير ذلك ، فإن بواطنهم في الأغلب رديئة ، ثم مع معرفة أصول المخالط وكمال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة ، واستعمال الحذر لازم ، وإن كان كما ينبغي .

١٨٥ ـ فصل : ينبغي أن يكون شغل العاقل النظر في العواقب والتحرز مما يمكن أن يكون ، ومن الغلط النظر في الحالة الحاضرة كالموافق لمعاشه ولصحة بدنه ، وبما يجري له مصحوبه فينبغي أن يعمل على انقطاع ذلك ، فيكون مستعداً لتغير الأحوال وكذلك النظر في لذة تفنى وتبقى تبعتها وعارها ، وإيثار الكسل والدعة لما يجني من بقاء الجهل ، وكذلك تحصيل المرادات التي لا تحصل إلا بالتلطف في الاحتيال ، خصوصاً إذا أريد من ذكي فإنه يفطن قبل تلويح ، فمن أراد غلبة الذكي دقق النظر وتلطف في الاحتيال ، وقد ذكر في كتب الحيل ما يشحذ الخواطر ، وأتينا بجملة منه في كتاب الأذكياء ، ومثل ما روى أن رجلاً من الأشراف كان لا يقوم لأحد ولا يخشى أحداً ، فجاز عليه بعض الوزراء فلم يرد ولم يقم ، فقال ذاك الوزير لرجل : أخبر فلاناً أني قد كلمت أمير المؤمنين في حقه ، وقد أمر له بمائة ألف ، فليحضر ليقبضها ، فأخبره ذلك الرجل ، فقال [الشريف] : إن كان أمر لي بشيء فلينفذه إلي ، وإنما مقصوده أن يضع مني بالتردد عليه ، فمتى وقع الإنسان مع ذكي فينبغي أن يتحرز منه ويسرق أغراضه بصنوف الاحتيال وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترز منه كما ينظر صاحب الرقعة النقلات .

وكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكي فأعطوه وبالغوا في إكرامه ليصيدوه ، فإن كان قليل الفطنة وقع في الشرك ، وإن كان أقوى منهم ذكاء علم أن تحت هذه (الجنة حيه)[1] فزاده ذلك احترازاً ، وأقوى ما ينبغي

(١) في المطبوع : الخبية جنية .

أن يكون الاحتراز من موتور ، فإنك إذا آذيت [٨٣ / ب] شخصاً فقد غرست في قلبه عداوة ، فـلا تأمن تفريع تلك الشجرة ، ولا تلتفت إلى ما يظهر من ود – وإن حلف – فإن قاربته فكن منه على حذر .

١٨٦ ـ فصل : في حفظ السر . رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم ، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروه به ، فوا عجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاه ، وفي الحديث : ((**اسْتَعِينُوا عَلَى [قَضَاءِ] أُمُورِكُم بالكِتْمَانِ**))[1]. ولعمري إن النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وترى بإفشائه راحة ، خصوصاً إذا كان مرضاً أو هماً أو عشقاً ، وهذه الأشياء في إفشائها قرينة ، إنما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد أن يحصل به غرضاً ، فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه فإنه إذا ظهر بطل ما يراد أن يفعل ، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع . وقد كان النبي ﷺ : إذا أراد سفراً ورى بغيره[2].

فإن قال قائل : إنما أحدث ، **قيل له** : وكل حديث جاوز الاثنين شائع ، وربما لم يكتم صديقك . وكم قد سمعنا بمن يحدث عن الملوك بالقبض على صاحب ، فنمى الحديث إلى الصاحب وهرب ، ففات السلطان مراده ، وإنما الرجل الحازم الذي لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد .

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة ، والمال من جملة السر ، فاطلاعهم عليه إن كان كثيراً فربما تمنوا إهلاك المورث ، وإن كان قليلاً تبرموا بوجوده ، وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات .

وستر المصائب من جملة كتمان السر ، لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب ، وكذلك ينبغي أن يكتم مقدار السن لأنه إن كان كبيراً استهرموه ، وإن كان صغيراً احتقروه ، ومما قد اهمل فيه كثير من المفرطين ، أنهم يذكرون بين

---

(١) هذا الحديث مروى من جمع من الصحابة وهم معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عباس ، وعليّ بن أبي طالب ، عمر بن الخطاب وبريدة بن الحصيب وأبو هريرة ، وأكثر هذا الطرق متكلم فيها بشدة وقد اختلف في تحسين هذا الحديث من تضعيفه . انظر الصحيحة للشيخ الألباني (١٤٥٣) وكتاب إقامة البرهان على ضعف حديث استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان لأبي لؤي خالد المؤذن .

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٢٩٤٧) ، ومسلم (طرف حديث ٢٧٦٩) بلفظ فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها .

أصدقائهم أميراً أو سلطاناً فيقولون فيه فيبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك ، وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصاً وفياً فأشاع سره ، وقد قيل :

احذر عـــدوك مـــرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكـــان أدري بالمـــضرة

ورب مفش سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهيناً عنده ولا يتجاسر أن يطلق زوجته ، ولا أن يهجر الصديق ، مخافة أن يظهر سره القبيح [٨٤ / أ].

فالحازم من عامل الناس بالظاهر ، فيضيق صدره بسره ، فإن فارقته امرأة أو صديق أو خادم لم يقدر أحد [منهم] أن يقول فيه ما يكره ، ومن أعظم الأسرار الخلوات ، فلينظر الحازم فيها من الانبساط بمرأى من مخلوق ، من خلق له عقل ثاقب دله على الصواب قبل الوصايا .

١٨٧ـ فصل : ما رأيت أصعب على النفس من الحفظ للعلم والتكرار ، وخصوصاً تكرار ما ليس لها في نفس تكراره حظ ، مثل مسائل الخـــلاف ، بخلاف الشعر والسجع ، فإن لها لذة في إعادته وإن كان يصعب ، لأنها تلتذ به مرة ومرتين ، فإذا زاد التكرار صعب عليها ، ولكن دون صعوبة الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع ، فتراها تخلد إلى الحديث والشعر والتصانيف والنسخ ، لأنه يمر بها كل لحظة ما لم تره ، فهو في المعنى كالماء الجاري ، لأنه يمر بها جزء بعد جـــزء وكذا من ينسخ ما يحب أن يسمعه أو يصنف ، فإنه يلتذ بالجـــدة ويستريح من تعب الإعادة ، إلا أنه ينبغي للعاقل أن يكون جل زمانه للإعادة ، خصوصاً الصبي والشاب ، فإنه يستقر المحفوظ عندهما استقراراً لا يزول ، ويجعل أوقات التعب من الإعادة للنسخ ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ عن الإعادة فيقهرها ، فإنه يحمد ذلك حمد السرى[1] وقت الصباح ، وسيندم من لم يحفظ ندم الكسعي وقت الحاجة إلى النظر والفتوى ، وفي الحفظ نكتة ينبغي أن تلحظ ، وهو أن الفقيه يحفظ الدرس ويعيده ، ثم يتركه فينساه فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه ، فينبغي أن يحكم الحفظ ويكثر التكرار ليثبت قاعدة الحفظ .

---

(١) السرى : السفر أول النهار .

١٨٨ ـ فصل : ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخلق خصوصاً للعالم والزاهد فإنك لا تكاد ترى إلا شامتاً بنكبة أو حسوداً على نعمة ، ومن يأخذ عليك غلطاتك ، فيا للعزلة ما ألذها ، سلامة من كدر غيبة ، وآفات تصنع ، وأحوال لمداجاة وتضييع الوقت . ثم خلا فيها القلب بالفكر ، لأنه مستلذ عنه بالمخالطة ، فدبر أمر دنياه وآخرته . فمثله كمثل الحمية يخلو فيها المعا بالأخلاط فتزيبها .

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط ، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس وكلامهم فيشتغل بها عما بين يديه . فمثله كمثل رجل يريد سفراً قد أزف(١) فجالس أقواماً فشغلوه بالحديث [٨٤ / ب] حتى ضرب البوق وما تزود ، فلو لم يكن في العزلة إلا التفكير في زاد الرحيل والسلامة من شر المخالطة كفى .

ثم لا في عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ، فإنهما يعلمان مقصود العزلة ، وإن كانا لا عزلة . وأما العالم فعلمه مؤنسه ، وكتبه محدثه ، والنظر في سير السلف مقومه ، والتفكر في حوادث الزمان السابق فرجته . فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه ، وتشبث بأذيال محبته تضاعفت لذاته ، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها ، فخلا بحبيبه وعمل معه بمقتضى علمه .

وكذلك الزاهد تعبده أنيسه ، ومعبوده جليسه ، فإن كشف لبصـــره عن المعمول معه غاب عن الخلق ، وغابوا عنه .

إنما اعتزلا ما يؤذي ، فهما في الوحدة بين جماعة ، فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلق من شرورهما ، بل هما قدوة للمتعبدين وعلم للناسكين ، ينتفع بكلامهما السامع ، وتجري موعظتهما المدامع . وتنشر هيبتهما في المجامع .

فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة وإن كرهها ليثمر له الصبر العسل . وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم ، خصوصاً لأرباب المال والسلاطين يجتلب ويختلب فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله ، ثم أين الأنفة من الذل للفساق ، فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا

---

(١) أي : دنا .

يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به ، وكأنه به وقد وقع في بادية حرص[1] وقفر[2] أمل مهلك في تلك البراري ، وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط ، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنع والنفاق ، فيفوته الحظان ، لا الدنيا ونعيمها تحصل له ولا الآخرة .

فنسأل الله عز وجل خلوة حلوة ، وعزلة عن الشر لذة يستصلحنا فيها لمناجاته ، ويلهم كلا منا طلب النجاة .. إنه قريب مجيب .

الموت وما بعده

١٨٩ـ فصل : ما أبله من لا يعلم متى يأتيه الموت ، وهو لا يستعد للقائه ! وأشد الناس بلهاً وتغفيلاً من قد عبر الستين وقارب السبعين ، فإن ما بينهما هو معترك المنايا . ومن نازل المعترك استعد وهو غافل عن الاستعداد :

قال الشباب لعلنـــا في شيبنا ندع الذنوب فما يقول الأشيب [٨٥/أ]

والله إن الضحك من الشيخ ماله معنى ، وإن المزاح منه بارد المعنى ، وإن تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها يضعف القوى ويضعف الرأي ، وهل بقي لابن ستين منْزل . فإن طمع في السبعين فإنما يرتقي إليها بعناء شديد ، إن قام دفع الأرض وإن مشى لهث ، وإن قعد تنفس ، ويرى شهوات الدنيا ولا يقدر على تناولها ، فإن أكل كد المعدة ، وصعب الهضم ، وإن وطئ آذى المرأة ، ووقع دنفاً لا يقدر على رد ما ذهب من القوة إلى مدة طويلة فهو يعيش عيش الأسير ، فإن طمع في الثمانين فهو يزحف إليها زحف الصغير :

وعشر الثمانين من خاضها فإن الملمات فيها فنـــون

فالعاقل من فهم مقادير الزمان فإنه فيما [قيل] : قبل البلوغ صبي ليس على عمره عيار ، إلا أن يرزق فطنة ، ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم ، فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى وتعلم

(١) في المطبوع حرز : والجرز الأرض التي لا تنبت ، أو التي أكل نباتها أو لم يصبها المطر .
(٢) القفر : الخلاء من الأرض .

العلم ، فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة ، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه ، وقضى مناسك الأجل ، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن :

كأن الفتى يرقي من العمر معلماً إلى أن يجـوز الأربعين وينحط

فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همته التزود للآخرة ، ويكون كل تلمحه لما بين يديه ، ويأخذ في الاستعداد للرحيل ، وإن كان الخطاب بهذا لابن العشرين ، إلا أن رجاء التدارك في حق الصغير لا في حق الكبير ، فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه في الأجل وجاز من الزمن ، فليقبل بكليته إلى جمع زاده وليهيئ آلات السفر ، وليعتقد [أن] كل يوم يحيي فيه لغنيمة ما هي في الحساب ، خصوصاً إذا قوي عليه الضعف وزاد ، فإنه لا محرك كهو .

وكلما علت سنه فينبغي أن يزيد اجتهاده ، فإذا دخل في عشر الثمانين فليس إلا الوداع ، وما بقي بمكة العمر تجارة إلا نفس آسف على تفريط ، أو تعبد على ضعف ، نسأل الله ﷻ يقظة تامة يصرف عنا رقاد الغفلات ، وعملاً صالحاً نأمن معه من الندم يوم الانتقال ، والله الموفق .

١٩٠ـ فصل : ما نهى السلف عن الخوض في الكلام إلا لأمر عظيم وهو أن الإنسان يريد أن ينظر ما لا يقوى عليه بصره فربما تحير [٨٥ / ب] فخرج إلى الحجب ، لأنا إذا نظرنا في ذات الخالق سبحانه حار العقل وبهت الحس ، لأنه لا يعرف شيئاً لا بداية له ، لا يعلم إلا الجسم والجوهر والعرض ، فإثبات ما يخرج عن ذلك لا يفهمه ، وإن نظرنا في أفعاله رأيناه يحكم البنا ثم ينقضه ولا نطلع على تلك الحكمة ، فالأولى للعاقل أن يكف كف التطلع إلى ما لا يطيق النظر إليه ومتى قام العقل فنظر في دليل وجود الخالق بمصنوعاته ، وأجاز بعثه نبي واستدل بمعجزاته ، كفاه ذلك أن يتعرض لما قد أغنى عنه ، وإذا قال القرآن كلام الله [تعالى] ، بدليل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ كفاه .

وأما من تحذلق فقال : التلاوة هي المتلو أو غير المتلو ، والقراءة هي المقروء أو غير المقروء ، فيضيع الزمان في غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فهم .

وقد حكي أن ملكاً كتب إلى [بعض] عماله في البلدان إني قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، ففعلوا إلا واحد منهم ، فإنه قعد يتفكر في الكتاب فيقول : أترى كتبه بمداد أو بحبر ، أترى كتبه قائماً أو قاعداً ، فما زال يتفكر حتى قدم

الملك و لم يعمل مما أمره به شيئاً ، فأحسن جوائز الكل وقتل هذا .

١٩١ـ فصل : لقد غفل طلاب الدنيا عن اللذة فيها ، واللذة فيها شرف العلم وزهو العفة وأنفة الحمية ، وعز القناعة ، وحلاوة الإفضال على الخلق ، فأما الالتذاذ بالمطعم والمنكح فشغل جاهل باللذة ، لأن ذاك لا يراد لنفسه بل لإقامة العوض في البدن والولد ، وأي لذة في النكاح وهي قبل المباشرة لا تحصل ، وفي حال المباشرة قلق لا يثبت عند انقضائها ، وكأن لم يكن ، ثم يثمر الضعف في البدن ، وأي لذة في جمع المال فضلاً عن الحاجة ، فإنه مستعبد للخازن ، يبيت حذراً عليه ، ويدعوه قليله إلى كثيره ، وأي لذة في المطعم وعند الجوع يستوي خشنه وحسنه ، فإن ازداد الأكل خاطر بنفسه .

قال علي بن أبي طالب ﷺ : بنيت الفتنة على ثلاث : النساء وهن فخ إبليس المنصوب ، والشراب وهو سيفه المرهف ، والدينار والدرهم وهما سهماه المسمومان ، فمن مال إلى النساء لم يصف له عيش ، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ما عاش .

١٩٢ـ فصل : أصل كل محنة في العقائد ، قياس أمر الخالق على أحوال الخلق ، [٨٦ / أ] فإن الفلاسفة لما رأوا إيجاد شيء لا من شيء كالمستحيل في العادات قالوا بقدم العالم ، ولما عظم عندهم في العادة الإحاطة بكل شيء قالوا : إنه يعلم الجمل لا التفاصيل ، ولما رأوا تلف الأبدان بالبلاء أنكروا إعادتها ، وقالوا : الإعادة رجوع الأرواح إلى معادها ، وكل ما قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج إلى الكفر ، فإن المجسمة دخلوا في ذلك لأنهم حملوا أوصافه على ما يعقلون ، وكذلك تدبيره ﷻ فإن من حمله على ما يعقل في العادات رأى ذبح الحيوان لا يستحسن ، والأمراض تستقبح ، وقسمة الغنى للأبله ، والفقر للجلد العاقل ، أمراً ينافي الحكمة ، وهذا في الأوضاع بين الخلق ، فأما الخالق سبحانه فإن العقل لا ينتهي إلى حكمته ، بلى قد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته فتعرضه بالتفاصيل على ما تجري به عادات الخلق جهل ، ألا ترى إلى أول المعترضين وهو إبليس كيف ناظر فقال : أنا خير منه ، وقول خليفته وهو أبو العلاء المعري : رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

ونسأل الله ﷻ توفيقاً للتسليم ، وتسليماً للحكيم ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : ٨] أترى نقدر على تعليل أفعالـه فضلاً عن مطالعة ذاته ؟ ، وكيف نقيس أمره على أحوالنا ؟ فإنا إذا رأينا نبينا ﷺ سأل في أمه وعمه فلا يقبل منه ، ويتقلب خائباً والدنيا ملك يده ، ويقتل أصحابه والنصر بيد خالقه أو ليس هذا مما يحير ؟ فمالنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه .

١٩٣ ـ فصل : تأملت عجباً ، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله ، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة ، حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس ، ونحو هذا تحصيل المال ، فإنه يحتاج إلى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير ، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل إلى الفقر ، وكذلك الشجاعة ، فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس [قال الشاعر] :

لولا المخاوف ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتـــال [٨٦ / ب]

ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة ، فإنه يزيد على قدرة قوة الاجتهاد والتعبد ، أو على قدر وقع المبذول من المال في النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع ، وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى ، والعفاف لا يكون إلا بكف كف الشره . ولولا ما عاني يوسف عليه الصلاة والسلام ما قيل له أيها الصديق ، ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها فهم يبالغون في كل علم ، ويجتهدون في كل عمل ، ويثابرون علي كل فضيلة ، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون ، وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم ، فهم يحتقرونها مع التمام ، ويعتذرون من التقصير ، ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك ، ومنهم من لا يرى ما عمل أصلاً لأنه يرى نفسه وعمله لسيده .

وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الكسل والشره والشهوات ، فإن التذوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة ، ومن تلمح صبر يوسف عليه السلام وعجلة ماعز بان [له] الفرق ،

وفهم الربح من الخسران .

ولقد تأملت نيل الدر في البحر فرأيته بعد معاناة الشدائد ، ومن تفكر فيما ذكرته مثلاً بانت له أمثال ، فالموفق من تلمح قصر الموسم المعمول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له انتهب حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها : أو ليس في الحديث يقال للرجل : « **اقْرَأْ وَارْقَ فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا** »[١] فلو أن الفكر عمل في هذا حق العمل حفظ القرآن عاجلاً .

١٩٤ ـ فصل : ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ، ويجتنب المحظورات فحسب ، إنما المؤمن الكامل الإيمان لا يختلج في قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة ، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه ، وقوى تسليمه ، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً ، وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته ، فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة ، كما جرى لإبليس .

والإيمان القوي يبين أثره عند قوة | ٨٧ / أ | **البلاء ؛ فأما** إذا رأينا مثل يحيى ابن زكريا تسلط عليه فاجر ؛ فيأمر بذبحه [فيذبح] ، وربما اختلج في الطبع أن يقول فهل[٢] رد عنه من جعله نبياً ، وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين وما وقع رد عنهم ، فإن هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم

---

(١) **إسناده حسن** : رواه أبو داود (١٤٦٤) ، والترمذي (٢٩١٤) ، وأحمد (٢/١٩٢) ، وابن أبي شيبه (١٠/٤٩٨) ، وابن حبان (إحسان ٧٦٦) ، والحاكم (١/٥٥٢ - ٥٥٣) ، والبيهقي (٢/٥٣) والبغوي (١١٧٨) من طريق عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً . وفي إسناده عاصم ابن بهدلة بن أبي النجود وفيه كلام إلا أن حديثه لا ينزل عن مرتبة الحسن ، وللحديث شواهد منها ما رواه ابن ماجه (٣٧٨٠) وأحمد (٣/٤٠) من طريق شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً ، وعطية العوفي ضعيف ، ومنها ما رواه الشجري في أمالية (١/١١٠) من طريق أبي بكر بن أبي عياش عن أبي إسحاق السبيعي عن السائب بن مالك عن عبد الله بن عمر و في الإسناد السبيعي ، وهو مدلس وقد عنعن وفي رواية أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق كلام سبق ، ومنها ما رواه ابن أبي شيبة (١٠/٤٩٨) ، وأحمد (٢/٤٧١) من طريق وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ يقال لصاحبه القرآن . الحديث ، فهذا الإسناد صحيح موقوف .

(٢) في المخطوط : فهل لا ولعله يقصد فهلاً ، وإلا فالمثبت أصح .

كان كفراً ، وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، ويجوّع المؤمنون ويشبع الكفار ، ويعافي العصاة ، ويمرض المتقون ، لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمضَّ وأرمض . وقد ذهب يوسف بن يعقوب – عليهما السلام – فبكى يعقوب ثمانين سنة ثم لم ييأس ، فقال ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** ﴾ [يوسف : ٨٣] وقد دعا موسى عليه السلام على فرعون ، فأجيب بعد أربعين سنة ، وكان يذبح الأنبياء ولا ترده القدرة القديمة العظيمة ، وصلب السحرة ، وقطع أيديهم .

وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك إلا تسليماً ورضي ؛ فهناك يبين معنى قوله : ﴿ **وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ وهاهنا يظهر قدر قوة الإيمان لا في ركعات ، قال الحسن البصري : استوى الناس في العافية فإذا نزل البلاء تباينوا.

١٩٥ ـ فصل : أضر ما على العوام المتكلمون ، فإنهم يخبطون عقائدهم بما يسمعونه منهم ، ومن أقبح الأشياء أن يحضر العاصي الذي لا يعرف أركان الصلاة ولا الربا في البيع مجلس الوعظ فلا ينهاه عن التواني في الصلاة ، ولا يعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له القرآن قائم بالذات ، والذي عندنا مخلوق ، فيهون القرآن عند ذلك العامي ، فيحلف به على الكذب ؛ ويح المتكلم لو كان له فهم لعلم أن الله سبحانه وتعالى نصب أعلاماً تأنس بها النفوس وتطمئن إليها كالكعبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه ، وذكر من صفاته اليد والسمع والبصر والعين ، وينْزل إلى السماء الدنيا ، ويضحك ؛ وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات . وقد جل عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح ، وكذلك عظّم أمر القرآن ، ونهى المحدث أن يمس المصحف فآل الأمر بقوم من المتكلمين إلى أن أجازوا الاستنجاء به ؛ فهؤلاء على معاندة الشريعة ، لأنهم يهينون ما عظم الشرع . وهل الإيغال في الكلام مما يقرب إلى معرفة الحقائق التي لا يمكن خلافها ؟! هيهات لو كان كذلك [٨٧ / ب] ما وقع بين المتكلمين خلاف ، أو ليس السرب الأول ما تكلموا في شيء من هذا ! وإن كانوا تعرضوا ببعض الأصول ، ثم جاء فقهاء الأمصار فنهوا عن الخوض في الكلام ، لعلمهم ما يجلب [وما يجتنب] ومن لم يقنع بعقيدة الصحابة ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الخوض فلا كان من كان .

ثم بالله تأملوا أليس قد وجب علينا هجر الربا بقوله تعالى : ﴿ **لاَ تَأْكُلُوا**

الرِّبَا ﴾ ، وهجر الزنى بقوله : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا** ﴾ فأي فائدة لنا في ذكر قراءة ومقروء وتلاوة ومتلو وقديم ومحدث . فإن قيل : فلابد من اعتقاد ، قلنا : طريق السلف أوضح محجة ، لا أنا لا نقوله تقليداً ، بل بالدليل ولكنا لم نستفده عن جوهر وعرض وجزء لا يتجزأ ، بل بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا تحتاج إليه وليس هذا مكان الشرح .

١٩٦ـ فصل : ما زلت على عادة الخلق في الحزن على من يموت من الأهل والأولاد ، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان في القبور فأحزن لذلك . فمرت بي أحاديث قد كانت تمر بي ولا أتفكر فيها ، منها قول النبي ﷺ : ((**إِنَّمَا نَفْسُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرُدَّهُ** الله ﷻ **إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**))[١]

(١) **صحيح** : رواه الزهري عن عبد الرحمن بن كعب أنه أخـبره أن أباه كعباً كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فذكره ، ورواه عن الزهري جماعة منهم مالك بن أنس كما في الموطأ (١/ ٢٤٠) ، وأحمد (٣/ ٤٥٥ ، ٤٥٦) ، والنسائي (٤/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٧١) ، واللالكائي (٢١٦٠) ، والبيهقي (٢٢٤) في البعث والنشور ، والطبراني (١٩/ ٦٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٥٦) ، والآجري في الشريعة (٩٢٤) ، والليث بن سعد كما عند ابن حبان (٤٦٥٧ إحسان) ، ويونس بن يزيد كما عند أحمد (٣/ ٤٥٣ ، ٤٥٦) ، و البيهقي (٢٢٣ في البعث والنشور) واللالكائي (٢١٦١) ، ومعمر كما عند أحمد (٣/ ٤٥٥) ، وعبد بن حميد (٣٧٦) ، والطبراني في الكبير (١٩/ ٦٤) ، والأوزاعي كما عند الطبراني في الكبير (١٩/ ٦٥، ٦٦) . والحارث بن فضيل من رواية ابن إسحاق معنعناً عنه كما عند ابن ماجة (١٤٤٩) والطبراني (١٩/ ٦٥) والبيهقي (٢٢٦ في البعث والنشور) واللالكائي (٢١٦٢) وعزاه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٩٥) إلى ابن منده في المعرفة والحربي في غريب الحديث ، وفي روايته قصة مرجوحة لورودها بسياق آخر من طرق عن الزهري كما عند أحمد (٣/ ٤٥٥) والحميدي (٨٧٣) والطبراني في الكبير (١٩/ ٦٥-٦٦) وشعيب كما عند أحمد (٣/ ٤٥٦) والبيهقي (٢٢٥ في البعث والنشور) ورواه الطبراني في مسند الشاميين (٣٢١٢) وفيه أن شعيبا رواه عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بدلاً من عبد الرحمن بن كعب وهي إحدى الروايات له في بعض نسخ البيهقي في البعث والنشور وصالح ابن كيسان وأبو أويس روياه عن الزهري عن كعب كما عند أحمد (٣/ ٤٥٥-٤٥٦ ، ٤٦٠) ، والطبراني في الكبير (١٩/ ٦٤ ، ٦٥-٦٦) ورواه عمرو ابن دينار عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه من رواية سيفان عنه فقد رواه الحميدي في مسنده (٨٧٣) عنه بلفظ إنما نسمة المؤمن ... الحـديث . ورواه أحمد وابن أبي عمرو وابن كاسب عنه بلفظ ((إن أرواح الشهداء في طير خير تعلق في ثمر الجنة أو شجر الجنة ، وقد حكم الشيخ الألباني كما في الصحيحة (٩٩٥) على لفظ الشهداء بالشذوذ لتفرد سفيان بها ومخالفته لرواية الجماعة . **قلت** : وقد روى عبد الرازق (٩٥٥٦) عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن النبي ﷺ بلفظ =

فرأيت أن الرحيل إلى الراحة ، وأن هذا البدن ليس بشيء ، لأنه مركب تفكك وفسد ، وسيبنى جديداً يوم البعث ، فلا ينبغي أن يتفكر في بلاءه ، ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وإن اللقا للأحباب عن قرب ، وإنما يبقى الأسف لتعلق الخلق بالصور ، فلا يرى الإنسان إلا جسداً مستحسناً قد نقض فيحزن لنقضه .

والجسد ليس هو الآدمي ، وإنما هو مركبه ، فالأرواح لا ينالها البلاء ، والأبدان ليست بشيء ، واعتبر هذا بما إذا قلعت ضرسك فرميته في حفرة ، فهل عندك خبر مما يلقى في مدة حياتك ، فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس ، لا تدري النفس ما يلقى ، ولا ينبغي أن يغتنم بتمزيق جسد المحبوب وبلاءه ، واذكر تنعم الأرواح ، وقرب التجديد ، وعجل اللقاء والفكر في تحقيق هذا يهوّن الحزن ويسهّل الأمر .

١٩٧ ـ فصل : ينبغي للعاقل أن لا يتكلم في الخلوة عن أحد بشيء حتى يمثل ذلك الشيء ظاهراً معلناً به ثم ينظر فيما يجني ؛ فرب رجل [٨٨ / أ] وثق بصديق فتكلم عن سلطان بأمر فبلغه فأهلكه ، أو عن صديق فبلغه فوقعت الواقعة ، وكذلك ينبغي كتم المذاهب ، فإنه ما يربح مظهرها إلا بالمعاداة ، ولما

= أرواح الشهداء ولكن هذا ضعيف لإرساله ، ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن رواية الجماعة عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه بن مالك ﷺ أصح خلافاً لرواية صالح بن كيسان ومن تابعه وقد رجح الثاني محمد بن يحيى الزهلي ، فرد عليه أبو عمر بن عبد البر مرجحاً رواية مالك ومن تابعه – رواية الجماعة – فقال : لا وجه عندي لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه واتفاق مالك ويونس والأوزاعي ومحمد ابن إسحاق أولى بالصواب ، والنفس إلى قولهم وروايتهم أميل وأسكن وهم في الحفظ والاتفاق بحيث لا يقاس عليهم غيرهم ممن خالفهم في هذا الحديث وبالله التوفيق (التمهيد ١١/٥٦ – ٥٨) .

تنبيه : قد طعن أحمد بن صالح في سماع الزهري من عبد الله بن كعب بن مالك ورجح أن الذي يروى عنه الزهري هو عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك كما في تهذيب التهذيب .

قلت : قد أثبت يحيى بن معين (٥٣٨/٢ في تاريخه) ومحمد بن يحيى الزهلي ، وابن عبد البر كما في التمهيد (٥٦/١١) سماع الزهري من عبد الرحمن بن كعب بن مالك فضلاً عن تصريح الزهري بسماعه من عبد الرحمن بن كعب بن مالك كما في الإسناد . وللحديث شواهد أحدهما : عن أم هانيء – رضي الله عنها – عند أحمد (٤٢٤/٦) ، وفي إسناده ابن لهيعة وفيه مقال مشهور ، وآخر عن أم مبشر عند ابن أبي عاصم في الجهاد (٢٠١) وفي إسناده موسى بن عبيد الربذي وهو ضعيف .

صرح الشريف أبو جعفر في زمان المقتدي بمخالفة الأشاعرة أخذ وحبس حتى مات ، وكان المقصود قطع الفتن وإصلاح الرعية ، فإنه أهم المتغفلين للسلطان من التعصب لمذهب .

١٩٨ ـ فصل : رأيت كثيراً من المغفلين يظهر عليهم السخط بالأقدار ، وفيهم من قل إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج إلى الكفر ، ورأى أن ما يجرى كالبعث ، وقال ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد ، والابتلاء ممن هو غنيٌّ عن أذانا . فقلت لبعض من كان يرمز إلى هذا إن حضر عقلك وقلبك حدثتك ، وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وإنصاف فالحديث معك ضائع . ويحك ، أحضر عقلك ، واسمع ما أقول : أليس قد ثبت أنه الحق سبحانه مالك ، وللمالك أن يتصرف كيف شاء ! أليس قد ثبت أنه حكيم ، والحكيم لا يعبث ! وأنا أعلم أن في نفسك من هذه الكلمة شيئاً فإنه قد سمعنا عن جالينوس أنه قال : ما أدري أحكيم هو أم لا ؟ والسبب في قوله هذا ، أنه رأى نقضاً بعد إحكام ، فقاس الحال على أحوال الخلق وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى ؛ فليس بحكيم .

وجوابه لو كان حاضراً أن يقال : بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة ، أليس بعقلك الذي وهبه الصانع لك ؟ وكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال : وهذه المحنة التي جرت لإبليس ؛ فإنه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو تفكر علم أن واهب العقل أعلى من العقل ، وأن حكمته أوفى من كل حكيم ، لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول ؛ فهذا إذا تأمله المنصف زال عنه الشك وقد أشار سبحانه إلى نحو هذا في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ أي جعل لنفسه الناقصات وأعطاكم الكاملين ! فلم يبق إلا أن نضيف العجز عن فهم ما يجرى إلى أنفسنا ، ونقول : هذا فعل عالم حكيم ، ولكن ما يبين لنا معناه . وليس هذا بعجب ، فإن موسى عليه السلام خفي عليه وجه الحكمة في نقض السفينة [٨٨ / ب] الصحيحة ، وقتل الغلام الجميل ؛ فلما بين له الخضر وجه الحكمة أذعن . فليكن مع الخالق كموسى مع الخضر ؛ أو لسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فنون الطعـــام النظيف الظريف يقطع ويمضغ ، ولسنا [نملك] بتلك الأفعال ولا ينكر الإفساد له ، لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه ، فما المانع أن يكون فعل الحق سبحانه له باطن لا نعلمه .

ومن أجهل الجهال العبد المملوك إذا طلب أن يطلع على سر مولاه ، فإن فرضه التسليم لا الاعتراض .

ولو لم يكن في الابتلاء بما ينكره الطباع إلا أن يُقصد إذعان العقل وتسليمه لكفى ، ولقد تأملت حالة عجيبة ، يجوز أن يكون المقصود بالموت هي ، وذاك أن الخالق سبحانه غيبٌ في غيب ، لا يدركه الإحساس ، فلو أنه لم ينقض هذه البنية لتخايل للإنسان أنه صُنع لا بصانع ، فإذا وقع الموت عرفت النفس نفسها التي كانت لا تعرفها لكونها في الجسد ، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها ، فإذا رُدت إلى البدن عرفت ضرورة [أنها] مخلوقة لمن أعادها ، وتذكرت حالها في الدنيا ، فإن الأفكار تعاد كما تعاد الأبدان ، فيقول قائلهم : ﴿ **قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴾ [الطور : ٢٦] ومتى رأت ما قد وعدت به من أمور الآخرة ، أيقنت يقيناً لا شك معه ، ولا يحصل هذا بإعادة ميت سواها ، وإنما يحصل برؤية هذا الأمر فيها ؛فيبني بنية تقبل البقاء وتسكن جنة لا ينقضي دوامها ، فيصلح بذلك اليقين إن تجاور الحق ، لأنها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض ، ورأت في غيرها العبر ، ثم في نفسها فهذه هي التي يقال لها ﴿ **ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر : ٢٨ - ٣٠] .

فأما الشاك والكافر فيحق لهما الدخول إلى النار واللبث فيها ، لأنهما رأيا الأدلة ولم يستفيدا ، ونازعا الحكيم واعترضا عليه فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما ، فبقيت على ما كانت عليه ، فلما لم تنتفع بالدليل في الدنيا لم تنتفع بالموت والإعادة ، ودليل بقاء الخبث في القلوب قوله تعالى : ﴿ ... **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ... ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، فنسأل الله ﷻ عقلاً مسلماً نقف على حده ، ولا يعترض على خالقه [وموجده] ، ثم الويل للمعترض ، أيرد اعتراضه الأقدار ، فما يستفيد إلا الخزي ، عوذ بالله ممن خذل .

١٩٩ ـ فصل : [٨٩ / أ] لا ينبغي للمؤمن أن ينزعج من مرض أو نزول موت ، وإن كان الطبع لا يملك ، إلا أنه ينبغي له التصبر مهما أمكن ، إما لطلب الأجرة بما يعاني ،أو لبيان أثر الرضى بالقضاء ، وما هي إلا لحظات ثم تنقضي .

وليتفكر المعافي من المرض في الساعات التي كان يقلق فيها أين هي في زمان العافية ؟ ذهب البلاء وحصل الثواب كما تذهب حلاوة اللذات المحرمة ويبقى الوزر ، ويمضي زمان التسخط بالأقدار ، ويبقى العتاب .

وهل الموت إلا آلام تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهب ، فليتصور المريض وجود الراحة بعد رحيل النفس ، وقد هان ما يلقى ، كما يتصور العافية بعد شرب الشربة المرة . ولا ينبغي أن يقع جزع بذكر البلى ، فإن ذلك شأن المركب ، أما الراكب ففي الجنة أو في النار . إنما ينبغي أن يقع الاهتمام الكلي بما يزيد في درجات الفضائل قبل نزول المعوق عنها .

فالسعيد من وفق لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل ، في زمن الاغتنام ، وليعلم أن زيادة المنازل في الجنة على قدر التزيد من الفضائل هاهنا .

والعمر قصير ، والفضائل كثيرة فليبالغ في البدار . فيا طول راحة التعب ، ويا فرحة المغموم ، ويا سرور المحزون ، ومتى تخايل دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع ، هان عليه كل بلاء وشدة .

٢٠٠ ـ فصل : حضرنا يوماً جنازة شاب مات أحسن ما كانت الدنيا له ، فرأيت من ذم الناس للدنيا ، وعيب من سكن إليها ، والتقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصرع أمراً كبيراً من الحاضرين ، فقلت : نعم ما قلتم ، ولكن اسمعوا مني ما لم تسمعوه : أعجب الأشياء أن العاقل إذا علم قرب هذا المصرع منه أوجب عليه عقله البدار بالعمل والقلق من الخوف ، وقد اشتد ذلك بأقوام فهاموا في البراري ، وطووا الأيام بالمجاعة ، وداموا على سهر الليل ، ولازموا المقابر ، فهلكوا سريعاً ، ولعمري إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل ، ولكن نرى العقل الذي أوجب هذا القلق قد أمر بما يوجب السكون ، فقال : إنما خلق هذا البدن لتحمل النفس كما تحمل الناقة الراكب ، ولا بد من التلطف بالناقة ليحصل المقصود من السير ، ولا يحسن [٨٩ / ب] في العقل دوام السهر وطول القلق ، لأنه يؤثر في البدن فيفوت أكثر المقصود ، كيف وقد خلق بدن الآدمي خلقاً لطيفاً ! فإذا هجر الدسم نشف الدماغ ، فإذا دام على السهر قوي اليبس ، فإذا لازم الحزن مرض القلب .

فلا بد من التلطف بالبدن بتناول ما يصلحه وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له ، وإلا فمتى دام المؤذي عجل التلف . ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقل فيقول : « **إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ** »[1] ويقول : « **كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت** »[2] ، **ويحث عن النكاح** ».

ودوام القلق واليبس يترك الزوجة كالأرملة ، والولد كاليتيم ، ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق ، ومن أراد مصداق ما قلته فيتأمل حالة الرسول ﷺ فإنه كان يعدل ما عنده من الخوف فيما تزوح ، ويسابق عائشة ، ويكثر من التزويج ، وكان يلطف ببدنه فيختار الماء البايت ، ويحب الحلوى واللحم ، ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنف العلماء ، ولا حفظ العلم ، ولا كتب الحديث ، لأنه من يقول ربما مت اليوم كيف يكتب وكيف يسمع ويصنف ؟!

فلا يهولنكم ما ترون من غفلة الناس عن ذكر الموت حق ذكره ، فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا ، ويصلح الدين ، وإنما تذم قوة الغفلة الموجبة للتفريط والإهمال للمحاسبة للنفس ، وتضييع الزمان في غير التزود ، وربما قويت فحملت على المعاصي ، فأما إذا كانت بقدر كانت كالملح في الطعام لابد منه ، فإن كثر صار الطعام زعافاً . فالغفلة تمدح إذا كانت بقدر كما بينا ، ومتى زادت وقع الذم ، فافهم ما قلته . ولا تقل فلان شديد اليقظة ما ينام الليل ، وفلان غافل ينام أكثر الليل ، فإن غفلته توجب مصلحة البدن والقلب لا تذم والسلام .

٢٠١ ـ فصل : لا يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ ، لأن مشغول القلب بالحق يفر من الخلق ، ومتى تمكن فراغ القلب من معرفة الحق امتلأ بالخلق ، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم .

إني لأتأمل على بعض من يتزيا بالفقر والتصوف [٩٠/أ] وهو يلبس ثياباً لا تساوي ديناراً ، وعنده المال الكثير ، وقد أمرح نفسه في المطاعم الشهية ، وهو عامل بمقتضى الكبر والتصدر ، فيتقرب إلى أرباب الدنيا ، ويزدري أرباب العلم ،

---

(١) **صحيح** : سبق تخريجه .

(٢) **إسناده حسن** : سبق تخريجه .

ويزور أولئك دونهم ، وإنما يرد ما يعطي ليشيع له اسم زاهد ، فتراه يربي الناموس وهو في احتياله كثعلب ، وفي نهوضه على أغراضه في الباطن كلب شري .

فأقول : سبحان الله ، ما يزهد إلا الثياب ، أترى ما سمع هذا قول النبي ﷺ « **إنَّ الله يُحبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نَعْمَته عَلَى عَبْده** »(1) وأعوذ بالله من رؤية النفس ، ورؤية الخلق ، فإن من رأى نفسه تكبر ، والمتكبر أحمق ، لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه ، ومن رأى الخلق عبدهم وهو لا يعلم .

فأما العامل لله سبحانه وتعالى فهو بعيد عن الخلق ، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بعدهم عنه ، وقد رأينا من يرائي ولا يدري فيمتنع من المشي إلى السوق ، ومن زيارة الإخوان ، ومن أن يشتري شيئاً بنفسه ، وتوهمه نفسه أني أكره مخالطة السوقة ، وإنما هذا مر بي جاهاً بين العلماء ، إذ لو خالطهم لامتحي جاهه ، وبطل تقبيل يده ، وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار ، وأبلغ من هذا كله أن نبينا ﷺ كان يشتري [شيئاً] ويحمله ، وخرج عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو أمير المؤمنين إلى السوق فاشترى ثوباً ، وقد كان طلحة بن مطرف قارئ أهل الكوفة ، فلما كثر الناس عليه مشى إلى الأعمش وقرأ عليه ، فمال الناس إلى الأعمش وتركوا طلحة . هذا والله الكبريت الأحمر ، والإكسير ، لا من يظن أكسيراً في الكيمياء ، والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون .

فأما ضد هذه الحال فحالة عابد الخلق منبس ، وقد عم هـذا جمهور الخلق حاشا السلف .

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

٢٠٢ ـ فصل : كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، فإن الزنى من أقبح الذنوب ، فإنه يفسد الفراش ويغير الأنساب ، وهو بالجارة أقبح ، فقد روي في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله : أي [٩٠ / ب] الذنب أعظم ؟ قال : « **أَنْ تَجْعَلَ لله نداً وَهُوَ خَلَقَكَ** » قلت : ثم أي ؟ قال :

---

(1) إسناده حسن : رواه الترمذي (٢٨١٩) ، وأحمد (٢/١٨٢) ، والطيالسي (٣٧٥ ط هجر) ، والحاكم (٤/١٣٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٧١ ، ٦١٩٤ ، ٦١٩٥ ، ٦١٩٦) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

« **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** » قلت : ثم أي ؟ قال : « **أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ** »(١).

وقد روى البخاري في تاريخه من حديث المقداد بن الأسود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لأَنْ يَزْنِي الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَزْنِي بِامْرَأَةِ جَارِهِ ، وَلأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ** »(٢).

وإنما كان هذا لأنه يضم إلى معصية الله ﷻ انتهاك حق(٣) الجار .

ومن أقبح الذنوب أن يزني الشيخ ، ففي الحديث « **إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّانِي** »(٤) لأن شهوة الطبع قد ماتت ، وليس فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ ، فكانت معصيته عناداً .

ومن المعاصي التي تشبه المعاندة لبس الرجل الحرير والذهب ، خصوصاً خاتم الذهب الذي يتحلى به الشيخ وأنه من أبرد الأفعال وأقبح الخطايا . ومن هذا الفن الرياء والتخاشع وإظهار التزهد للخلق ، فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق ﷻ .

وكذلك المعاملة بالربا الصريح خصوصاً من الغني الكثير المال . ، ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنبه ، ولا يعتذر من زلته ، ولا يقضي ديناً ولا يوصي بإخراج حق عليه .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٦) .

(٢) **إسناده حسن** : رواه أحمد (٨/٦) ، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٣) وفي التاريخ الكبير (٥٤/٨) ، والطبراني في الكبير (٢٥٦/٢٠ - ٢٥٧) ، وفي الأوسط (٦٣٢٩) من طريق محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعد الأنصاري . قال : سمعت أبا ظبيه الكلاعي سمعت المقداد بن الأسود فذكره مرفوعاً ، وقد قال الحافظ في أبي ظبيه الكلاعي مقبول وليس كذلك بل وثقه أكثر من عالم كما في التهذيب .

(٣) في المطبوع : حرمه ، وهي أصوب .

(٤) **إسناده ضعيف** : رواه الترمذي (٢٥٦٨) ، وأحمد (١٥٣/٥) ، وابن خزيمة (٢٤٥٦) ، وابن حبان (٣٣٥٠) ، وابن أبي شيبة (٢٨٩/٥) ، والحاكم (٤١٦/١ - ٤١٧) والمزي في تهذيب الكمال (٨٢/١٠) من طريق ربعي بن حراش عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر مرفوعاً . وزيد بن ظبيان مجهول ، وزيد قد توبع عند أحمد (٢١٣٤٠ ط الرسالة) على غير هذا ، وصح عند مسلم (١٠٧) : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر .

ومن قبائح الذنوب أن يتوب السارق والظالم ولا يرد المظالم ، والمفرط في الزكاة أو في الصلاة ولا يقضي ، ومن أقبحها أن يحنث في يمين طلاقه ثم يقيم مع المرأة ، وقس على ما ذكرته ، فالمعاصي كثيرة ، وأقبحها ما يخفى .

وهذه المستقبحات فضلاً عن القبائح تشبه العناد للآمر ، فيستحق صاحبها اللعن ودوام العقوبة ، وإني لأرى شرب الخمر من ذلك الجنس لأنها ليست مشتهاة لذاتها ولا لريحها ولا لطعمها فيما يذكر إنما لذتها فيما يقال بعد تجرع مرارتها ، فالإقدام على ما لا يدعو إليه الطبع معاندة إلى أن يصل التناول إلى اللذة ، نسأل الله ﷻ إيماناً يحجز بيننا وبين مخالفته ، وتوفيقاً لما يرضيه ، فإنما نحن به وله .

٢٠٣ ـ فصل : اعتبرت على أكثر العلماء ، والزهاد أنهم يبطنون الكبر فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضاً [٩١ / أ] فقيراً يرى نفسه خيراً منه ، حتى أني رأيت جماعة يوماً إليهم ، منهم من يقول لا أدفن إلا في دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن في ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر ، ومنهم من يقول : ادفنوني إلى جانب مسجدي ظناً منه أنه [يصير] بعد موته مزوراً كمعروف [الكرخي] ، وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون قول النبي ﷺ : « **من ظن أنه خير من غيره فقد تكبر** »[1] وقل من رأيت إلا وهو يرى نفسه ، والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا رآها : إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، أو بالتعبد فقد سبقه العباد ، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية ، فإن قال : قد عرفت ما لم يعرف غيري من العلم في زمني ، فما على ممن تقدم ، قيل له : ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يا فقيه أن ترى نفسك في العلم كالعامي ، إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وإن قل علمه ، فإن الخيرية بالمعاني لا بصورة العلم والعبادة .

ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على شك ، فالذي يحذر منه الإعجاب بالنفس ، ورؤية

---

(١) لم أقف عليه.

التقدم في أحوال الآخرة ، والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز ﷺ إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إلى من أن أرى نفسي أهلاً لذلك .

وقد روينا : أن رجلاً من الرهبان رأى في المنـــام قائلاً يقول له : فلان الإسكافي خير منك ، فنزل من صومعته فجاء إليه فسأله عن عمله فلم يذكر كبير عمل ، فقيل له في المنام : عد إليه وقل له : مم صفرة وجهك ، فعاد فسأله فقال : ما رأيت مسلماً إلا وظننته خيراً مني ، فقيل له : فبذاك ارتفع .

٢٠٤ ـ فصل : متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح ، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصراً ، ولا أن تؤاخذه به ، فإن حاله حال السكران ، لا يدري ما يجري ، بل اصبر لفورته ، ولا تعول عليها ، فإن الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ، والعقل قد استتر .

ومتى أخذت في نفسك عليه ، أو أجبته [٩١ / ب] بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنوناً ، أو كمفيق عاتب مغمى عليه ، فالذنب لك ، بل انظر إليه بعين الرحمة ، وتلمح تصريف القدر له ، وتفرج في لعب الطبع به ، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر .

وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به ، وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد ، والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركه يشتفي بما يقول ، ولا تعول على ذلك ، فسيعود نادماً معتذراً ، ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة ، وجازى في الإفاقة على ما فعل في حقه وقت السكر .

وأكثر الناس على غير هذه الطريق ، ومتى رأوا غضباناً قابلوه بما يقول ويعمل على مقتضى الحكمة . هذا ، بل الحكمة ما ذكرته ، وما يعقلها إلا العالمون .

٢٠٥ ـ فصل : ليس في الدنيا أبله ممن يسيء إلى شخص ويعلم أنه قد بلغ إلى قلبه بالأذى ثم يصطلحان في الظاهر ، فيعلم أن ذلك الأثر محي بالصلح ، وخصوصاً الملوك ، فإن لذتهم الكبرى أن لا يرتفع عليهم أحد ، ولا ينكسر لهم

غرض ، فإذا جري شيء من ذلك لم ينجبر .

واعتبر هذا بأبي مسلم الخراساني ، فإنه غض من قدر المنصور قبل ولايته فحصل ذلك في نفسه فقتله ، ومن نظر في التواريخ رأى جماعة قد جرى لهم مثل هـذا ، ولا ينبغي لمن أساء إلى [ذي] سلطان أن يقع في يده ، فإنه إذا رام(1) التخلص لم يقدر ، فيبقى ندمه على ترك احترازه ، وحسرته على مساكنة الضمان للسلامة أشد عليه من كل ما يلقى به من الهوان والأذى .

ومن هذا الجنس الأصدقاء المتماثلون ، فإنك متى آذيت شخصاً وبلغ إلى قلبه أذاك فلا تثق بمودته ، فإن آذاك نصب عينه ، فإن لم يحتل عليك لم يصف لك ، ولا تخالط إلا من أنعمت عليه بحسب ، فهو لم ير منك شيئاً في نفسه ، وكذلك الولد والزوجة والعاملون ، ويلحق بهذا أن أقول : لا ينبغي أن تعادي أحداً ولا أن تقول في حقه ، فربما صارت له دولة فاشتفى ، وربما احتيج إليه فلم يقدر عليه ، فالعاقل يصور في نفسه كل ممكن ويستر ما في قلبه من البغض والود ، ويداري مع الغيظ والحقد [٩٢ / أ] هذه مساور العقل إن قبلت .

٢٠٦ ـ فصل : كل من لا يتلمح العواقب ويستعد لما يجوز وقوعه فليس بكامل العقل ، واعتبر هذا في جميع الأحوال ، مثل أن يغتر بشبابه ويدوم على المعاصي ويسوف بالتوبة ، فربما أخذ بغتة ولم يبلغ بعض ما أمله ، وكذلك إذا سوف بالعمل أو بحفظ العلم ، فإن الزمان ينقضي بالتسويف ويفوت المقصود ، وربما عزم على فعل خير أو وقف شيء من ماله فسوّف فبُغت .

فالعاقل من أخذ بالحزم في تصوير ما يجوز وقوعه وعمل بمقتضى ذلك ، فإن امتد الأجل لم يضره ، وإن وقع المخوف كان محترزاً ، ومما يتعلق بالدنيا أن يميل مع السلطان ويسيء إلى بعض حواشيه ثقة بقربه منه ، ربما تغير ذلك السلطان فارتفع عدوه فانتقم منه .

وقد يعادي بعض الأصدقاء ولا يبالي به لأنه دونه في الحالة الحاضرة ، فربما صعدت مرتبة ذلك فاستوفى ما أسلفه إليه من القبيح وزاد .

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ولم يعاد أحداً فإن كان بينهما ما يوجب

---

(1) رام : طلب .

المعاداة كتم ذلك ، فإن صح له أن يثب على عدوه فينتقم منه انتقاماً يبيحه الشرع جاز ، على أن العفو أصلح في باب العيش ، ولهذا ينبغي أن يخدم البطال ، فإنه ربما عمل فعرف ذلك لمن خـــدم ، وقس على أنموذج ما ذكرته من جميع الأحوال .

٢٠٧ ـ فصل : بقدر صعود الإنسان في الدنيا تنْزل مرتبته في الآخرة ، وقد صرح بهذا ابن عمر – رضي الله عنهما – فقال : والله لا ينال أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله ، وإن كان عنده كريماً ، فالسعيد من اقتنع بالبلغة ، فإن الزمان أشرف من أن يضيع في طلب الدنيا ،اللهم إلا أن يكون متورعاً في كسبه معيناً لنفسه عن الطمع قاصداً لاعانة أهل الخير والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالته .

فأما الصعود الذي سببه مخالطة السلاطين فبعيد أن يسلم معه الدين فإن وقع سلامته ظاهراً فالعاقبة خطرة في الدنيا **قال أبو محمد التميمي** : ما غبطت أحداً إلا الشريف أبا جعفر يوم مات القائم بأمر الله فإنه غسله وخرج ينفض أكمامه فقعد في مسجده لا يبالي بأحد ، ونحن منْزعجون لا ندري ما يجري علينا وذاك أن التميمي كان متعلقاً [٩٢ / ب]على السلطان يمضي له في الرسائل فخاف مغبة القرب .

وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة ، ولعمري إنهم طلبوا الراحة فأخطؤوا طريقها ، لأن غموم القلب لا يوازيها لذة مال ، ولا لذة مطعم هذا في الدنيا قبل الآخرة .

ومن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد في زاوية لا يخالط السلاطين ، ولا يبالي أطاب مطعمه أم لم يطب ، فإنه لا يخلو من كسرة وقعب ماء ، وهو سليم من أن يقال له كلمة تؤذيه أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال أحمد بن حنبل في انقطاعه وحال ابن أبي دؤاد ويحيي بن أكثم عرف الفرق في طيب العيش في الدنيا والسلامة في الآخرة .

وما أحسن ما قال ابن أدهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف ، ولقد صدق ابن أدهم ، فإن السلطان إن أكل شيئاً خاف أن يكون قد طرح له فيه سم ، وإن نام خاف أن يغتال ، وهو

وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة ، فإن خرج كان منْزعجاً من أقرب الخلق إليه ، واللذات التي ينالها تبرد عنده ، ولا يبقى له لذة مطعم ولا منكح وكلما استطرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته ، وكلما استجد الجواري أكثر منهن فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعد ما بين الوطء فلا يجد في الوطء كبير لذة ، لأن لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين وكذلك لذة الأكل ، فإن من أكل على شبع و وطيء من غير صدق شهوة وقلق لم يجد اللذة التامة التي يجدها الفقير إذا جاع ، والعزب إذا وجد امرأة ، ثم إن الفقير يرمى نفسه على الطريق في الليل فينام ، ولذة الأمن قد حرمها الأمراء ، فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد .

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد ، والعباد المحققون كمعروف فإن لذة العلم تزيد على كل لذة .

وما ضرهم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى ، فإن ذلك يزيد في رفعتهم ، وكذلك لذة الخلوة والتعبد ، فهذا معروف ،كان منفرداً بربه طيب العيش معه لذيذ الخلوة به ، ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة [٩٣ / أ] فما يخلو أن يهدى إليه كل يوم ما تقدير مجموعه أجزاء من القرآن ، وأقله من يقف على قبره فيقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ويهديها له ، والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة هذا بعد الموت ، ويوم الحشر ينشر الكرامات التي لا توصف ، وكذلك قبور العلماء المحققين .

ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير في أحوالهم كلها ، فقال سفيان بن عيينة : منذ أخذت من مال فلان الأمير منعت ما كان وهب لي من فهم القرآن ، وهذا أبو يوسف القاضي لا يزور قبره اثنان ، فالصبر عن مخالطة الأمراء – وإن أوجب ضيق العيش من وجه – يحصل طيب العيش من جهات ، ومع التخليط لا يحصل مقصود ، فمن عزم جزم .

كان أبو الحسن القزويني لا يخرج من بيته إلا وقت الصلاة ، فربما جاء السلطان فيقعد لانتظاره ليسلم عليه ، ومد النفس في هذا ربما اضجر السامع ومن ذاق عرف .

٢٠٨ ـ فصل : من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء ﷺ علم أن أكثر الناس على غير الجادة ، وإنما يمشون

مع العادة ، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضاً ، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ، ويشمت به إن كانت معصية ، ويتكبر عليه إن صح له ، ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن ، هذا كله يجري بين المنتمين إلى العلم والزهد لا الرعاع .

فالأولى بمن عرف الله سبحانه وعرف الشرع وسير السلف الصالحين الانقطاع عن الكل ، فإن اضطر إلى لقاء منتسب إلى العلم والخير تلقاه وقد لبس درع الحذر ، ولم يطل معه الكلام ، ثم عجل الهرب منه إلى مخالطة الكتب التي تحوي تفسيراً لنطاق الكمال .

٢٠٩ ـ فصل : الكمال عزيز ، والكامل قليل الوجود ، فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خلقاً ، وصورة الباطن تسمى خُلُقاً ، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت ، واستعمال الأدب ، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع ، والأخلاق ، فالطبائع : العفة ، والنَزاهة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشره ، والأخلاق [٩٣ / ب] الكرم ، والإيثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل ، فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال ، وظهر عنه أشرف الخلال ، وإن نقصت خلة أوجبت النقص .

٢١٠ ـ فصل : ليس في الدنيا أبله ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض ، فأين تكون البلوى إذن ؟ لا والله بل لا بد من انعكاس المرادات ، ومن توقف أجوبة السؤالات ، ومن تشفي الأعداء في أوقات ، فأما من يريد أن تدوم له السلامة والنصر على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف التكليف ، ولا فهم التسليم .

أليس الرسول ﷺ ينصر يوم بدر ثم يجرى عليه ما جرى يوم أحد ، أليس يصد عن البيت ثم يقهر بعد ذلك ، فلا بد من جيد وردي ، والجيد يوجب الشكر ، والردي يحرك إلى السؤال والدعاء فإن امتنع الجواب أريد نفوذ البلاء والتسليم للقضاء ، وهاهنا يبين الإيمان ، ويظهر في التسليم جواهر الرجال ، فإن تحقق التسليم باطناً وظاهراً فذلك شأن الكامل ، وإن وجد في الباطن انعصار من القضاء لا من المقضي فإن الطبع لا بد أن ينفر من المؤذي دل على ضعف المعرفة ،

فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١١ ـ فصل : من الابتلاء العظيم إقامة الرجل في غير مقامه ، مثل أن يحوج الرجل الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه ، وإلى مخالطة من لا يصلح ، وإلى أعمال لا تليق به ،أو إلى أمور تقطع عليه مراده الذي يؤثره ، مثل أن يقال للعالم : تردد إلى الأمير وإلا خفنا عليك سطوته ، فيتردد فيرى ما لا يصلح ولا يمكنه أن ينكر ، أو يحتاج إلى شيء من الدنيا وقد منع حقه فيحتاج أن يعرض بذكر ذلك ، أو يصرح لينال بعض حقه ، ويحتاج إلى مداراة من تصعب مداراته ، بل يتشتت همه لتلك الضرورات .

وكذلك يفتقر إلى الدخول في أمور لا تليق به ، مثل أن يحتاج إلى الكسب فيتردد إلى السوق أو يخدم من يعطيه أجرته ، وهذا لا يحتمل قلب المراقب لله تعالى لأجل ما يخالطه من الأكدار ، أو تكون له عائلة وهو فقير فيتفكر في إغنائهم ، فيدخل في مداخل كلها عنده عظيمة ، وقد يبتلى بفقد [٩٤ / أ] من يحب أو ببلاء في بدنه ، وبعكس أغراضه وتسليط معاديه عليه ، فيرى الفاسق يقهره ، والظالم يذله ، وكل هذه الأشياء تكدر عليه العيش وتكاد تزلزل القلب وليس في الابتلاء إلا التسليم واللجا إلى المقدر في الفرج ، فيرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه ، ولا ينطق بالشكوى لسانه .

أو ليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول من يؤويني من ينصرني ، ويفتقر إلى أن يدخل مكة في جوار كافر ، ويُشَق السلا على ظهره ، وتقتل أصحابه ، ويداري المؤلفة ، ويشتد جوعه وهو ساكن لا يتغير ، وما ذاك إلا لأنه علم أن الدنيا دار ابتلاء ، لينظر كيف تعملون ، ومما يهون هذه الأشياء علم العبد بالأجر ، وأن ذلك مراد الحق : فما لجرح إذا أرضاكم ألم .

٢١٢ ـ فصل : لا ينكر أن الطباع تحب المال ، لأنه سبب بقاء البدن ، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوباً لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد ، فترى البخيل يحمل عى نفسه العجائب ، ويمنعها اللذات ، وتصير لذاته في جمع المال ، وهذه جبلة في خلق كثير ، وليس العجب أن تكون في الجهال ، وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته ، خصوصاً في الأفعال اللازمة في المال .

فأما أن يكون العالم جامعاً للمال من وجوه قبيحة من شبهات قوية وبحرص شديد ويذل في الطلب ، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحل له مع الغنى ، ثم يدخره ولا ينفع به ، فهذه بهيمية تخرج عن صفات الآدمية ، بل البهيمية أعذر ، لأنها بالرياضة تتغير طباعها ، وهؤلاء ما غيرتهم رياضة ، ولا أفادهم العلم .

ولقد كان أبو الحسن البسطامي مقيماً في رباط البسطامي الذي على نهر عيسى ، وكان لا يلبس إلا الصوف شتاء وصيفاً ، وكان يحترم ويقصد ، فخلف ما لا يزيد على أربعة آلاف دينار .

ورأينا بعض أشياخنا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا ولد ، وقد مرض فألقى نفسه عند بعض أصدقائه ؛ فتكلف له ذلك الرجل [ما يشتهيه و] ما يشفيه ، فمات فخلف أموالاً عظيمة . ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ ، وكان على الدوام يذم الزمان وأهله ، ويبالغ في الطلب من الناس ، ويتخفف وهو في المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قيل ثلاثمائة دينار . [٩٤ / ب] ، وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفي ، وكان يجمع المال ، فسرق منه نحو مائة دينار ، فتلهف عليها وكان ذلك سبب هلاكه .

ومن أعجب أحوال الناس أنك ترى أقواماً جلسوا على صفة القوم يطلبون الفتوح ، فيأتيهم منها الكثير الذي يصيرون به من الأغنياء ، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ولا من طلب . وكذلك القُصَّاص ، يخرجون إلى البلاد ويطلبون ، فيحصل لهم المال الكثير ، ولا يتركون الطلب عادة .

فيا سبحان الله ، أي شيء أفاد العلم ؛ بل الجهل كان لهؤلاء أعذر .

ومن أقبح أحوالهم لزومهم الأسباب التي تجلب لهم الدنيا من التخاشع والتنسك في الظاهر ، وملازمة خشن العزلة عن المخالطة ، وكل هؤلاء بمعزل عن الشرع .

ولقد تأملت على بعضهم من القدح في نظيره إلى أن يبلغ به إلى التعرض به للهلاك . فالويل لهم ، ما أقلَّ ما يتمتعون بظواهر الدنيا ، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم ، لأن الحق ﷻ لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين ؛ فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة ، وهي مسك القلوب والآخرة

بالاتفاق ، وما حصلوا إلا صورة الحطام . نسأل الله ﷻ عقلاً يدبر دنيانا ، ويحصل لنا آخرتنا ، والرزاق قادر .

٢١٣ - فصل : ينبغي لمن عرف شرف الوجود أن يحصل أفضل الموجود ؛ هذا العمر موسم ، والتجارات تختلف ، والعامة تقول : عليكم بما خف حمله وكثر ثمنه . فينبغي للمستيقظ أن لا يطلب إلا الأنفس ، وأنفس الأشياء في الدنيا معرفة الحق ﷻ .

فمن العارفين السالكين من يرى في طريقه تعبه في السفر ، ومنهم من همته متعلقة بطلب ربحه ، ومنهم من ينظر إلى ما يُرضي الحبيب فيجلبه إلى بلد المعاملة ، ويرضي بالقبول ثمناً ، ويرى أن كل البضائع لا تفي بحق الخفارة ، ومنهم من يرى لزوم الشكر في اختياره للسلوك دون غيره فيقر بالعجز .

وقد ارتفع قوم عن هذه الأحوال ، فرأوا مجرد التوفيق يشغلهم عن النظر إلى العمل . أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون قدراً ، أقل نسلاً من عنقاء مغرب .

٢١٤ - فصل : من علم قرب الرحيل عن مكة استكثر من الطواف ، خصوصاً إن كان لا يؤمل العود لكبر سنه وضعف قوته . فكذلك ينبغي لمن قارب قاربه ساحل [٩٥ / أ] الأجل بعلو سنه ، أن يبادر اللحظات ، وينتظر الهاجم بما يصلح له فقد كان في قوس الأجل منْزع زمان الشباب ، واسترخى الوتر المشيب عن سية القوس ؛ فانحدر إلى القاب وضعفت القوى أن يوتر ، وما بقي إلا الاستسلام لمحارب التلف ، فالبدار البدار إلى التنظيف ليكون القدوم على طهارة ، وأي عيش في الدنيا يطيب لمن أيامه السليمة تقربه إلى الهلاك ، وصعود عمره نزول عن الحياة ، وطول بقائه نقص مد المدة ، فليتفكر فيما بين يديه ، وهو أهم مما ذكرناه .

أليس هذا في الصحيح : ((**مَا مِنْكُم أَحَد إلاَّ وَيُعْرَض عَلَيْه مَقْعَدهُ بالغَدَاة وَالعَشيّ منَ الجَنَّة والنَّار ، غُدْوَةً وَعَشيّاً ، فَيُقَال : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ الله**))[1] فَوا أسفاً المهدّد ، كم يقتل قبلَ القتل ، ويا طيب عيش الموعود بأزيد

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨١٦) .

المنى ، وليعلم من شارف السبعين أن النفس أنين . أعان الله من قد قطع عقبه العمر على رمل زرود[1] الموت .

٢١٥ ـ فصل : من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عز وجل في أفعاله ، وأن يدري من أين نشأ الرضا ،فليفكر في أحوال رسول الله ﷺ ؛ فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف في مملوكه ، ورآه حكيماً لا يصنع شيئاً عبثاً ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف ، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

هذا [سيد الرسل] ﷺ بعث إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر في دار الخيزران ، وهم يضربونه إذا خرج ويدمون عقبه ، وشق السلا على ظهره وهو ساكت ساكن ، ويخرج كل موسم فيقول من يؤويني ؟! بمن ينصرني ؟! ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع تأفف ، ولا من الباطن اعتراض ؛ إذ لو كان غيره لقال : يا رب أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر ، فلم أذل ؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية : ألسنا على الحق ، فلم نُعْط الدَّنِّيَّةَ في ديننا ؟! لما قال هذا ، قال له الرسول ﷺ : ((**إِنِّي عَبْدُ اللهِ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي**))[2] فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما .

فقوله : إني عبد الله ، إقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك [illegible] يفعل بي ما يشاء ، وقوله : لن يضيعني بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً .

ثم يُبْتَلَى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خزائن السموات والأرض ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمه وهو ساكت ، ثم يرزق ابناً ويسلب منه ، فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجرى عليهما ، ويسكن بالطبع إلى عائشة – رضي الله عنها – فينغص عيشه بقذفها ، ويبالغ في إظهار

---

(١) زرود : اسم موضع .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣١٨٢) ، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف بلفظ يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً .

المعجزات فيقام في وجهه مسيلمة والعنسي وابن صائد .

ويقيم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كذاب ساحر ، ثم يعلقه المرض كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فليعلم الصبر ، ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة وهو مضطجع في كساء ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلة إذ .

هذا الشيء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغي نبي قبله ، ولو ابتليت به الملائكة ما صبرت . هذا آدم عليه السلام يباح [له] الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العقر ، ونبينا ﷺ يقول في المباح : « **مَا لِي لَلدُّنْيَا** »[١] وهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى فيصيح من كمد وجده : ﴿ **لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** ﴾ [نوح : ٢٦]. ونبينا ﷺ [يقول] : « **اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون** »[٢] هذا الكليم [موسى] ﷺ يستغيث عند عبادة قومه للعجل على القدر : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ** ﴾ ، ويوجه إليه ملك الموت فيقلع عينه[٣] وعيسى ﷺ يقول : إن صرفت الموت عن أحد فاصرفه عني ، ونبينا[٤] ﷺ يخير بين البقاء والموت فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى[٥].

هذا سليمان ﷺ يقول : هب لي ملكاً[٦] ونبينا ﷺ يقول : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً** »[١]. هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجود ، فماتت أغراضه ، وسكتت اعتراضاته فصار هواه فيما يجري .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٦١٣) .

(٢) **لم أقف عليه** : من قول النبي ﷺ . وانظر الاتحاف للزبيدي (٢٥٨/٨) . ولكن أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٤١٧) من حديث عبد الله بن مسعود قال كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : يا رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، وقد قال الثوري هذا النبي الذي جرى له ما حكاه النبي ﷺ من المتقدمين ، قد جرى لنبينا نحو ذلك يوم أحد . انظر الفتح (٦٠١/٦) .

(٣) **صحيح** : رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (طرف حديث ٢٣٧٢) .

(٤) **لم أقف عليه** .

(٥) **صحيح** : رواه البخاري (٣٦٥٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

(٦) كما في سورة ص آية (٣٥) ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** ﴾ .

٢١٦ ـ فصل : أكثر شهوات الحس النساء .

وقد يرى الإنسان امرأة في ثيابها فيتخايل له أنها أحسن من زوجته ، أو يتصور بفكره المستحسنات وفكره لا ينظر إلا إلى الحسن من المرأة ، فيسعى في التزوج والتسري ، فإذا حصل له مراده لم يزل [٩٦ / أ] ينظر في عيوب الحاصل التي ما كان يتفكر فيها فيمل ويطلب شيئاً آخر ، ولا يدري أن حصول أغراضه في الظاهر ربما على محن ، منها أن تكون الثانية لا دين لها أو لا عقل أو لا محبة له أو لا تدبير ، فيفوت أكثر مما حصل ، وهذا المعنى هو الذي أوقع الزناة في الفواحش ؛ لأنهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم وظهور محاسنها ، فتلذ لهم تلك الساعة ، ثم ينتقلون إلى أخرى .

فليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد : ﴿ **وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٧] وما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله ﷻ ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** ﴾ [سورة البقرة : ٢٥] وذو الأنفة يأنف من الوسخ صورة ، وعيب الخلق معنى ؛ فليقنع بما باطنه الدين ، وظاهره الستر والقناعة ، فإنه يعيش مرفه السر ، طيب القلب ؛ ومتى ما استكثر ، فإنما يستكثر من شغل قلبه ورقة دينه .

علم الحديث .. ومراتب الخلق

٢١٧ ـ فصل : سبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون في الدنيا فأما في العلوم فحبب إلي هذا القرآن ، وإلي هذا الحديث ، وإلى هذا النحو ، إذ لولا ذلك ما حفظت العلوم ، وألهم هذا المتعيش أن يكون خبازاً ، وهذا أن يكون هراساً ، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقي البئار ليلتئم أمر الخلق .

ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مثلاً ، بات الخبز وهلك ، أو هراسين جفت الهرايس ، بل يلهم هذا بقدر لينتظم أمر الدنيا وأمر الآخرة ، ويندر من الخلق من يلهمه الكمال وطلب الأفضل ، والجمع بين العلوم والأعمال

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) .

ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أرباب هذه الحال ، فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار ، نسأله العفو إن لم يقع الرضا ، والسلامة إن لم يصلح للمعاملة .

٢١٨ـ فصل : علم الحديث هو الشريعة لأنه مبين للقرآن وموضح للحلال والحرام ، وكاشف عن سير الرسول ﷺ وسير أصحابه ، وقد مزجوه بالكذب ، وأدخلوا في المنقولات كل قبيح فإذا وفق الزاهد والواعظ لم يذكرا إلا ما شهدا بصحته ، ولو حرما التوفيق ، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه لحسن ظنه بالرواة ، وقال الواعظ كل شيء يراه لجهله بالصحيح ففسدت [٩٦ / ب] أحوال الزاهد ، وانحرف عن جادة الهدى وهو لا يعلم ، وكيف لا وعموم الأحاديث الدالة على الزهد لا تثبت ، مثل حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – « أيما امرئ مسلم اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له »[(١)] وهذا حديث موضوع ، يمنع الإنسان ما أحتيج له مما يتقوى به على الطاعة ، ومثل قوله : من وضع ثياباً حساناً ، وكذلك ما رووا أن رسول الله ﷺ قدم له أدمان فقال : « **أدمان في قدح ، لا حاجة لي فيه ، أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا** »[(٢)] وفي

(١) **موضوع** : رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١٣٨/٣) من طريق عمرو بن خالد عن حبيب بن أبي ثابت عن نافع عن ابن عمر فذكره مرفوعاً ، وعمرو بن خالد الواسطي كذبه أحمد ويحيى وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع وحكم عليه السيوطي بالوضع في اللآلئ المصنوعة (٣٢٢/٢) .
وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص ٢٥٨ : رواه الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً وهو موضوع ، والمتهم به عمرو بن خالد الواسطي .

(٢) **ضعيف منكر** : رواه الحاكم (١٢٢/٤) ، والطبراني في الأوسط (٧٤٠٠) ، وعزاه الشيخ الألباني في الضعيفة (٢١٨٢) إلى الضياء في المختارة (٢/١٣١) . من طريق عبد القدوس بن محمد بن عبد الكبير ابن شعيب بن الحبحاب حدثني محمد بن عبد الكبير حدثني عمي عبد السلام بن شعيب عن أنس بن مالك فذكره مرفوعاً ، وفي الإسناد عبد السلام بن شعيب لم يوثقه سوى ابن حبان ذكره في ثقاته ومحمد بن عبد الكريم لا يعرف . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤/٥) وفيه محمد بن عبد الكبير ، وفي الزوائد عبد الكريم لا أعرفه وبقية رجاله ثقات ونقل الضياء ، وعن البخاري أنه سئل عنه فأنكره ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، فرده الذهبي بقوله : بل منكر واهٍ ... ولم أر فيه جرحاً . **قلت** : ذكر الشيخ الألباني في الضعيفة الإسناد من طريق صالح بن عبد الكبير بن شعيب حدثني عبد السلام بن شعيب عن أبيه عن أنس فذكره ثم ذكر جهالة صالح من التقريب ونحوه في الميزان ، وله طريق أخر عن عائشة نحوه . عند ابن الجوزي في الموضوعات (١٩/٣) وفيه نعيم بن مودع وهو ضعيف جداً .

الصحيح أن رسول الله ﷺ أكل البطيخ بالرطب[1] ، ومثل هذا إذا تتبع كثير ، فقد بنوا على فساده ، ففسد أحوال الواعظ والموعوظ ، لأنه يبني كلامه على أشياء فاسدة ومحالات .

ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لا تصح ، فيضيع زمانهم في غير المشروع ، ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات ، ويرون أن التجفف هو الدين .

وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا أصحابه ، فقد صار المحال [عندهم] شريعة ، فسبحان من حفظ هذه الشريعة بأحبار أخيار ينفون عنها تحريف المغالين وانتحال المبطلين .

٢١٩ ـ فصل : كان قد سألني بعض أصحاب الحديث ، هل في مسند أحمد ما لا يصح ؟ فقلت : نعم ؛ فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب فحملت أمرهم على أنهم عوام ، وأهملت فكر ذلك ، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى ، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أبو العلاء الهمداني يعظمون هذا القول ، ويردونه ويقبحون قول من قاله ، فبقيت دهشاً متعجباً ، وقلت في

---

(١) **إسناد صحيح** : رواه أبو داود (٣٨٣٦) ، والترمذي في السنن (١٨٤٣) ، والشمائل (١٩٩) ، والنسائي في الكبرى (٦٧٢٢) ، وابن حبان (٥٢٤٦ ، ٥٢٤٧) ، والحميدي (٢٥٥) والبغوي (٢٨٩٤) ، والبيهقي (٢٨١/٧) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٧/٧) ، وغيرهم من طريق سفيان بن عيينه وأبي أسامه حماد بن أسامه وإبراهيم بن حميد الرؤاس ، وعيسى بن يونس ، وداود الطائي وغيرهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً ، وقال الترمذي : رواه بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلاً ، و لم يذكر فيه عن عائشة وقد روى يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة هذا الحديث .أ.هـ

قلت : قد رواه النسائي في الكبرى (١٧٢٣) من وجه ثان عن داود الطائي عن هشام عن أبيه مرسلاً . والصواب الموصول لرواية الجماعة عن هشام موصولاً ، ورواه النسائي (٦٧٢٧) ، والترمذي في الشمائل (٢٠١) من طريق يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة وفي إسناده ضعف وله شاهد من حديث أنس عند النسائي في الكبرى (٦٧٢٦) ، وأحمد (١٤٢/٣) ، والترمذي في الشمائل (٢٠٠) ، وابن حبان (٥٢٤٨) بإسناد صحيح بلفظ رأيت رسول الله ﷺ يجمع بين المرطب والخريز ، والخرز البطيخ كما في رواية ابن حبان وتعريف الخريز ، وانظر الصحيحة (٥٨) ، وله شواهد أخر عند ابن ماجه (٣٣٢٦) من حديث سهيل بن سعد وسنده ضعيف واه .

نفسي : واعجبا صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضاً ، وما ذاك إلا لأنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد ، وليس كذلك، فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء ، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ، ولم يقل به ولم يجعله مذهباً له ؛ أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ : مجهول !.

ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة [٩٧ / أ] كلها في المسند ، وقد طعن فيها أحمد . ونقلت من خط القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن الفراء في مسألة النبيذ قال :

إنما روى أحمد في مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ولا السقيم ، ، ويدل على ذلك أن عبد الله قال : قلت لأبي : ما تقول في حديث ربعي بن خراش عن حذيفة ! قال : الذي يرويه عبد العزيز بن أبي رواد ؟ قلت : نعم ، قال : لا الأحاديث بخلافه ، قلت : فقد ذكرته في المسند قال : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرد من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث ، لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ، قال القاضي : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند ؛ فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه وترك مقصده .

قلت : قد غمني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامة ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد روي ، والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٢٢٠ـ فصل : بلغني عن بعض فساق القدماء أنه كان يقول :

ما أرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئاً أو مصيبا

فتدبرت حال هذا وإذا به ميت النفس ، ليس له أنفة على عرضه ولا خوف عار ، ومثل هذا ليس في مسلاخ[1] الآدميين ، فإن الإنسان قد يقدم على القتل لئلا يقال جبان ، ويحمل الأثقال ليقال ما قصر ، ويخاف العار فيصبر على كل

---

(١) المسلاخ : الجلد .

آفة من الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بعين ناقصة . حتى أن الجاهل إذا قيل له يا جاهل غضب ، واللصوص المتهيئون للحرام إذا قال أحدهم للآخر لا تتكلم ، فإن أختك تفعل وتصنع ، أخذته الحمية فقتل الأخت ، ومن له نفس لا يقف في مقام تهمة لئلا يظن به .

فأما من لا يبالي أن يُري سكران ، ولا يهمه إن شهر بين الناس ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء ، فذاك في عداد البهائم ، وهذا الذي يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتذ به إلا أن لا يخاف عنتاً ولا لوماً ، ولا يكون له عرض يحذر عليه ، فهو بهيمة في مسلاخ إنسان ، وإلا فأي عيش لمن شرب الخمر وأخذ عقيب ذلك وضرب وشاع في الناس ما قد فعل به [٩٧ / ب] ، أما يفي ذلك باللذة ؟ لا ، بل يربى عليها أضعافاً ، وأي عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل ! واستغنوا بالتجارة وهو فقير !

فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى ؟

ولو تفكر الزاني في الأحدوثة عنه ، أو تصور أخذ الحد منه لكف الكف ، غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمع برق ، ويا شؤم ما أعقبت من طول الأسى ، هذا كله في العاجل ، فأما الآجل فمنغصة العذاب الدائمة ﴿ **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا** ﴾ [الشورى : ١٨] نسأل الله أنفة من الرذائل ، وهمة في طلب الفضائل إنه قريب مجيب .

٢٢١ ـ فصل : قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم ، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بإمهال العصاة ، لم يمهل وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسي النهي ، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة ، فإن كانت توجب اعتراضاً على الخالق أو منازعة له في عظمته ، فتلك التي لا تتلافى .. خصوصاً إن وقعت من عارف بالله ، فإنه يندر إهماله ، قال عبد المجيد بن عبد العزيز : كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفاً في ثلاثة أيام فلقيه رجل فقال : في كم كتبت هذا ؟ فقال وأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام وقال : في ثلاث ﴿ **وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** ﴾ فجفت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد .

وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدر أن يقول مثل القرآن فصعد إلى غرفة فانفرد فيها ، وقال : أمهلوني ثلاثاً ، فصعدوا إليه بعد الثلاث فوجدوه ويده قد يبست على القلم وهو ميت .

قال عبد الحميد : ورأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضاً ، فحاض ، فلما كثر الأمر به تاب فانقطع عنه ، ويلحق هذا أن يعير الإنسان شخصاً بفعل وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه فيقول يا أعمى ، ويا قبيح الخلقة .

و[قد] قال ابن سيرين : عيرت رجلاً بالفقر فحبست على دين ، وقد تتأخر العقوبة وتأتي في آخر العمر، فيا طول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت في الشباب ... فالحذر الحذر من عواقب الخطايا ، والبدار البدار إلى محوها بالإنابة فلها تأثيرات قبيحة إن أسرعت وإلا اجتمعت وجاءت .

٢٢٢ ـ **فصل** : اعلم أن الآدمي قد خلق لأمر عظيم ، فهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل ،ولا يكفيه التقليد ، وذلك يفتقر إلى جمع الهم في طلبه ، وهو مطالب بإقامة المفروضات [٩٨ / أ] واجتناب المحارم .

فإن سمت همته إلى طلب العلم احتاج إلى زيادة جمع الهم ، فأسعد الناس من له قوت دار بقدر الكفاية ، لا من منن الناس وصدقاتهم ، وقد قنع به ، فإنه حينئذ يجتمع همه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم ، وأما إذا لم يكن له قوت يكفي فالهم الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور يتشتت ويصير طالباً للتحيل في القوت فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن الذي لا يريد من بقائه[١] غير بقائه ، ويفوت المقصود ببقائه ، وربما احتاج إلى الانذال . قال الشاعر :

حسبي من الدهر ما كفاني ... يصون عرضي عن الهوان
مخافة أن يقــول قـــوم ... فضل فلان على فــلان

فينبغي للعاقل إذا رزق قوتاً أو كان له مواد أن يحفظها ليجتمع همه ، ولا ينبغي أن يبذر في ذلك فإنه يحتاج فيشتت همه ، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت ، فإن لم يكن له [مال] اكتسب بقدر كفايته ، وقلل العُلف ليجمع همه ، وليقنع بالقليل ، فإنه متى سمت همته إلى فضول المال وقع المحذور من

---

(١) في المخطوط : تعابه .

التشتت ، لأن التشتت في الأول للعدم ، وهذا التشتت يكون للحرص على الفضول فيذهب العمر على البارد :

ومن ينفق الأيام في حفظ ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فافهم هذا يا صاحب الهمة في طلب الفضائل ، فإنك ما لم تعزل قوت الصبيان شتتوا قلبك ، وطبعُك طفل . ففرغ همك من استعانته ، واعرف قدر شرف المال الذي أوجب جمع همك ، وصان عرضك عن الخلق ، وإياك أن يحملك الكرم على فرط الإخراج فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض لغيرك ؛ وفي الحديث أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فرأى عليه آثار الفقر ، فعرَّض به فأعطى شيئاً ، فجاء فقير آخر فآثره الأول ببعض ما أعطى ، فرماه النبي ﷺ فيه ، ونهاه عن مثل ذلك ، والقناعة بما يكفى ، وترك التشوف إلى الفضول أصل الأصول .

ولما آيس الإمام أحمد بن حنبل نفسه من قبول الهدايا والصلات اجتمع همه ، وحسن ذكره ، ولما أطمعها ابن المديني وغيره سقط ذكرهم . ثم فيمن يطمع ! إنما هو سلطان جائر ، أو مُزَكٍّ منان ، أو صديق مذل بما يعطي . والعز ألذ من كل لذة ، والخروج عن ربقة المنن ولو سف التراب .

٢٢٣ ـ فصل . [٩٨ / ب] قد ركز في الطباع حب التفضل على الجنس ؛ فما أحد إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره ، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه ، فينبغي له أن يتجلد بستر تلك النكبة ، لئلا يرى بعين نقص ، وليتحمل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة ، وليتحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية .

وقد قال ﷺ لأصحابه حين قدموا مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف أن يشمت بهم الأعداء حين [يروا] ضعفهم عن السعي ، فقال : « **رَحِمَ اللهُ مَنْ أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِه الجَلَد فَرَمِّلُوا** »[1] والرمل شدة السعي ، وزال ذلك السبب وبقي الحكم ، ليتذكر السبب فيفهم معناه .

---

(١) ينظر ابن هشام في المغازي (٤/٦) وروى البخاري (١٦٠٢) ، ومسلم (١٢٦٦) ، وفيه وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركين جَلدهم ... واللفظ لمسلم .

واستأذنوا على معاوية وهو في الموت ، فقال لأهله : أجلسوني ، فقعد متمكناً يظهر العافية ، فلما خرج العواد أنشد :

وتجـــلدي للشامتين أريهـــم أني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارهـــا ألفيت كل تميمة لا تنفـــع

وما زال العقـــلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقـــر والبلاء ، لئلا يحملوا مع النوائب شماتة الأعداء ، وإها أشد من كل نائبة ، وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية .

بلى ، ثمَّ نكته ينبغي أن تفهم ، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ[1] النعم ؛ فأصابه عدوه بالعين فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة ، والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشيء ، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد ، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع ؛ فإذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين .

فليكن الإنسان مُظهراً للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه في خير .

وليحذر الإفراط في إظهار النعم ، فإن العين هناك محذورة ، وقد قال يعقوب لبنيه – عليهم السلام –: ﴿ **لاَ تَدْخُلُوا منْ بَاب وَاحد وَادْخُلُوا منْ أَبْوَاب مُتَفَرِّقَة** ﴾ [يوسف : ٦٧]. وإنما خاف عليهم العين فليفهم هذا الفصل فإنه ينفع من له تدبير .

٢٢٤ ـ فصل : إنما خلقنا لنحيا مع الخالق في معرفته ومحادثته ورؤيته في البقاء الدائم ، وإنما اسدى كوننا في الدنيا لا لمان في مثال مكتب نتعلم فيه الخط والأدب ليصلح الصبي عند بلوغه للرتب .

فمن الصبيان [٩٩ / أ] بعيد الذهن يطول مكثه في المكتب ويخرج وما فهم شيئاً ، وهذا مثال من لا يعلم وجوده ، ولا نال المراد من كونه .

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه وقلة فهمه وعدم تعلمه أذى الصبيان ، فهو يؤذيهم ، ويسرق مطاعمهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صلح ولا فهم ولا كف الشر ؛ وهذا مثل أهل الشر والمؤذين .

---

(١) سبوغ : كثرة .

ومن الصبيان من علق بشيء من الخـط لكنه ضعيف الاستخراج رديء الكتابة ، فخرج و لم يعلق إلا بقدر ما يعلق به حساب معاملته ، وهذا مثل من فهم بعض الشيء وفاتته الفضائل التامة .

ومنهم من جـدد الخط و لم يتعلم الحساب ، وأتقن الآداب حفظاً ، غير أنه قاصد في أدب النفس ، فهذا يصلح أن يكون كاتباً للسلطان على مخاطرة لسوء ما في باطنه من الشره وقلة التأدب .

ومنهم من سمت همته إلى المعالي الكاملة ، فهو مقدم الصبيان في المكتب ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزة نفسه ، وأدب باطنه ، وكمال صناعة الآداب الظاهرة ، ولا يزال حاث من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة لعلمه أن المكتب لا يراد لنفسه بل لأخذ الأدب منه والرحلة إلى حالة الرجولية والتصرف ، فهو يبادر الزمان في نيل كل فضيلة ؛ فهذا مثل المؤمن الكامل يسبق الأقران يوم التجارير ، ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله : ﴿ **هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ** ﴾ [الحاقة : ١٩] ، وكذلك الدنيا وأهلها ؛ من الناس هالك بعيد عن الخالق وهم الكفار .

ومنهم خاطيء مع قليل من الإيمان فهو معاقب والمصير إلى خير . ومنهم سليم لكنه قصر ، ومنهم تام لكنه بالإضافة إلى من دونه ، وهو ناقص بالإضافة إلى من فوقه .

فالبدار البدار يا أرباب الفهوم فإن الدنيا معبر إلى دار إقامة ، وسفر إلى القرب من السلطان ومجاورته فتهيئوا للمجالسة ، واستعدوا للمخاطبة ، وبالغوا في استعمال الأدب لتصلحوا للقرب من الحضرة ، ولا يشغلنكم عن تضمير الخيل تكاسل ، وليحملكم على الجد في ذلك تذكركم يوم السباق ، فإن قرب المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم في الدنيا ، ومنازلهم على قدرهم .

فما منْزل النفاط كمنْزل الحاجب ، ولا منْزل الحاجب كمكان الوزير ، جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما .. وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما .. والفردوس الأعلى لآخرين .. والذين في أرض الجنة ينظرون أهل الدرجات [٩٩ / ب] كما يرون الكوكب الدري ، فليتذكر الساعي حلاوة التسليم إلى الأمين ، وليتذكر [في] لذاذة المدح يوم السباق ، وليحذر المسابق من تقصير لا يمكن استدراكه ،

وليخف من عيب يبقى قبح ذكره .. هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن ، وليصبر الهوى عن المشتهى ، فالأيام قلائل . يدخل فقراء المؤمنين قبل الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام .

فالجد الجـــد ؛ يا **أقدام المبادرة** ، فقد لاح العلم خصوصاً لمن بانت له بانة الوادي ، إما بالعلم الدال على الطريق ، وإما بالشيب الذي هو علم الرحيل وهو يأمله أهل الجد ، وكان الجنيد يقرأ وقت خروج روحه . فيقال له في هذا الوقت ! فيقول أبادر طي صحيفتي ، وبعد هذا : فالمراد موفـــق ، والمطلوب معان ، وإذا أرادك لأمر هيأك له .

٢٢٥ ـ فصل : تأملت حالة عجيبة وهو أن أهل الجنة الساكنين في أرضها في نقص عظيم بالإضافة إلى من فوقهم ، وهم يعلمون فضل أولئك فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك وقعت الحسرات غير أن ذلك لا يكون لأن ذلك لا يقع لهم لطيب منازلهم ، ولا يقع في الجنة غم ، ويرضى كل بما أعطى من وجهين :

أحدهما : إنه لا يظن أنه يكون نعيم فوق ما هو فيه ، وإن علت منْزلة غيره

والثاني : أنه يحبب إليه كما يحب إليه ولده المستوحش الخلقة ، فيؤثره على الأجنبي المستحسن . إلا أن تحت هذا معنى لطيف ، وهو أن القوم خلقت لهم همم قاصرة في الدنيا عن طلب الفضائل ، ويتفاوت قصورها .

فمنهم من يحفظ بعض القرآن ولا يتوق إلى التمام ، ومنهم من يسمع يسيراً من الحديث ، ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه ، ومنهم من قد رضي من كل شيء بيسيره ، ومنهم مقتصر على الفرائض ، ومنهم قنوع بصلاة ركعتين في الليل ، ولو علت بهم الهمم لجدت في تحصيل كل الفضائل ، ونبت عن النقص فاستخدمت البدن كما قال الشاعر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

ويدل على تفاوت الهمم أن في الناس من يسهر في سماع سمر ، ولا يسهل عليه السهر في سماع القرآن . والإنسان يحشر ومعه تلك الهمة ، فتعطى على مقدار ما حصلت في الدنيـــا ، فكما لم تتق إلى الكمال وقنعت بالدون ، قنعت في الآخرة بمثل ذلك . [١/١٠٠]

ثم إن القوم يتفكرون بعقولهم ، فيعلمون أن الجزاء على قدر العمل ، ولا يطمع من صلى ركعتين في ثواب من صلى ألفاً .

فإن قال قائل فكيف يتصور لها أن تروم ما ناله من هو أفضل منها ؟

قلت : إن لم يتصور نيله يتصور الحزن على فوته ، وهل رأيت عامياً يحزن على فوات الفقه حزناً يقلقه ! هيهات .. لو كان ذلك الحزن عنده لحركه إلى التشاغل ؛ فليس عندهم همة توجب الأسف مع أنهم قد رضوا بما هم فيه . فافهم ما قلته وبادر ، فهذا ميدان السباق .

٢٢٦ ـ فصل : تفكرت في إبقاء اليهود والنصارى بيننا وأخذ الجزية منهم ، فرأيت في ذلك حكماً عجيبة : منها ما قد ذكر من أن الإسلام كان ضعيفاً فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم ، ومنها ظهور عزه بذلهم ، إلى غير ذلك ما قد قيل .

ووقع لي فيه معنى عجيب : وهو أن وجودهم وتعبدهم وحفظهم شرع نبيهم ﷺ دليل على أنه قد كان أنبياء وشرائع ، وأن نبينا ﷺ ليس ببدع من الرسل ، فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع ، وإقرار برسل ، فبان أننا ما ابتدعنا ما لم يكن ، وهم يصبرون على باطلهم ، ويؤدون الجزية ، فكيف لا نصبر على حق ، والدولة لنا . وفي بقائهم احترام لما كان صحيحاً من الدين ، وليرجع متبصر ويستعمل فكر .

٢٢٧ ـ فصل : قد ثبت بالدليل شرف العلم وفضله ، إلا أن طلاب العلم افترقوا ، فكل تدعوه نفسه إلى شيء ، فمنهم من أذهب عمره في القراءات ، وذاك تفريط في العمر ، لأنه إنما ينبغي أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ ، وما أقبح بالقاريء أن يسأل عن مسألة في الفقه ولا يدري ، وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق في روايات القراءات ، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر ولا ينظر في فهم ما كتب . وقد رأينا في مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة في الصلاة فلا يدري ما يقول ، وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو .

وحدثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه قال : حدثني ابن المنصوري ا قال : حضرنا مع أبي محمد بن الخشاب ، وكان إمام الناس في النحو واللغة ،

فتذاكروا الفقه ، فقال : سلوني عما شئتم ، فقال له رجل : إن قيل لنا رفع اليدين في الصلاة ما هو فماذا نقول ؟ فقال : هو ركن ! فدهشت الجماعة من قلة فقهه .

وإنما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفاً ثم يهتم بالفقه ، ثم ينظر في مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه والمعرفة به والحب له ، وما أبله من يقطع عمره في معرفة علم النجوم ، وإنما ينبغي أن يعرف من ذلك التسيير والمنازل لعلم الأوقات .

فأما النظر فيما يدعي أنه القضاء والحكم فجهل محض ، لأنه لا سبيل إلى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب فبان جهل مدعيه ، وقد تقع الإصابة في وقت ، وعلى تقدير الإصابة لا فائدة فيه إلا تعجيل الغم . فإن قال قائل : يمكنه دفع ذلك فقد سلم أنه لا حقيقة له .

وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيميا[1] فإنه هذيان فارغ ؛ وإذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاساً لم يتصور قلب النحاس ذهباً ، فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس على الناس في النقود ، هذا إذا صح له مراده .

وينبغي لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذ فقد الإخلاص يمنع قبول الأعمال . وليجتهد في مجالسة العلماء ، والنظر في الأقوال المختلفة ، وتحصيل الكتب ، فلا يخلو كتاب من فائدة ، وليجعل همته للحفظ ، ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ ، وليحذر صحبة السلطان ، ولينظر في منهاج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، وليجتهد في رياضة نفسه والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٨ ـ فصل : طال تعجبي من أقوام لهم أنفة وعندهم كبر زائد في الحد ، خصوصاً العرب الذين من كلمة ينفرون ويحاربون ويرضون بالقتل حتى أن قوماً منهم أدركوا الإسلام ، فقالوا : كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا[2] ، فقال

---

(١) المقصود بعلم الكيمياء ، ما كانت معروفة آنذاك أيام المؤلف ، التي كانت أقرب منها إلى السحر والشعوذة دون القواعد العلمية ، التي أسست في القرون المتأخرة .

(٢) استاهنا : جمع است ، وهي مؤخره الإنسان .

رسول الله ﷺ : « لا خير في دين ليس فيه ركوع [ولا سجود] »[١] ، ومع هذا الأنفة يذلون لمن هم خير منهم ، وهذا يعبد حجراً ، وهذا يعبد خشبة ، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر ، وإن هؤلاء لأخس من إبليس ، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [الأعراف ١٢] وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلاً .

فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعظمين [١٠١ / أ] المتكبرين لحجر أو خشبة ، وإنما ينبغي أن يذل الناقص للكاملين ، وقد أشير إلى هذا في ذم الأصنام في قوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٩٥] والمعنى أنتم لكم هذه الآلات المدركة وهم ليس لهم ، فكيف يعبد الكامل الناقص ، غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف ، واستجلاء ما اخترعوه بآرائهم غطى على العقول ، فلم تتأمل حقائق الأمور .

ثم غطى الحسد على أقوام فتركوا الحق وقد عرفوه ، فأمية بن الصلت يقر برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لا أؤمن لرسول ليس من ثقيف ، وأبو جهل يقول : والله ما كـــذب محمد قط ، ولكن إذا كـــانت السدانة[٢] ، والحجابة في بني هاشم ثم النبوة فما بقى لنا ، وأبو طالب يرى

---

(١) **إسناده ضعيف** : رواه أبو داود (٣٠٢٦) ، وأحمد (٢١٨/٤) ، وابن أبي شيبة مختصراً (١٩٧/٣) ، وابن خزيمة مختصراً (١٣٢٨) ، والطيالسي (٩٨١ ط هجر) ، والبيهقي (٤٤٤/٢ - ٤٤٥) من طريق حميد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاصي فذكره مرفوعاً من غير لفظ ((ولا سجود)) ، وفي الإسناد . الحسن البصري وهو مدلس ، وقد عنعن ، وفي سماع الحسن من عثمان بن أبي العاص اختلاف قال المزي في ترجمة الحسن ، وقيل لم يسمع منه وجزم الحافظ في التهذيب بعدم السماع ، وقال المنذي : وقيل الحسن البصري لم يسمع من عثمان بن أبي العاص نقله الزيلعي في نصب الراية (٢٧٠/٤) ، ويعكر على ذلك ما ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٢١٢/٦) قول الحسن كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص ، وقد أخلى بيتاً للحديث ، وانظره في ترجمة الحسن في تهذيب الكمال ، وذكر المزي قول الحسن : دخلت على عثمان بن أبي العاص ، وقد خالف حميداً يونس ابن يزيد وأشعث بن سوار فروياه عن الحسن مرسلاً ببعض معناه وبدون ذكر الشاهد عند أبي داود في المراسيل (١٧) ، وابن أبي شيبة (٥٢٦/٢) ، وعبد الرزاق (١٦٢٠) ، وقد أشار البيهقي إلى هذه الرواية .

(٢) السدانة : حرمة الكعبة .

المعجزات ، ويقول : إني لأعلم أنك على الحق ، ولولا أن تعيرني نساء قريش لأقررت بها عينك ، فنعوذ بالله من ظلمة حسد وغيابة كبر ، وحماقة هوى يغطى على نور العقل ، ونسأله إلهام الرشد ، والعمل بمقتضى الحق .

٢٢٩ ـ فصل : قد سمعنا لجماعة من الصالحين عاملوا الله ﷻ على طريق السلامة والمحبة واللطف فعاملهم كذلك ، لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك .

ففي الأوائل برخ العابد خرج يستسقى فقال : ما هذا الذي لا نعرفه منك ؟! اسقنا الساعة فسقوا .

وفي الصحابة أنس بن النضير يقول : والله لا تكسر سن الربيع ، فجرى الأمر كما قال ، فقال النبي ﷺ : « **إنَّ منْ عَبَاد الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأبَرَّهُ** »(١). وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف والرفق فلطف بهم ، وأجروا على ما اعتقدوا .

وهناك أعلا من هؤلاء يسألون فلا يجابون ، وهم بالمنع راضون ، ليس لأحدهم انبساط ، بل قيدهم الخوف ، ونكس رؤسهم الحذر ، ولم يروا ألسنتهم أهلا للانبساط ، فغاية آمالهم العفو ، فإن انبسط أحدهم بسؤال فلم ير الإجابة عاد على نفسه بالتوبيخ ، فيقال : مثلك لا يجاب ، وربما قال لعل المصلحة في منعى ، وهؤلاء الرجال حقاً .

والأبله الذي يرى له من الحـــق أن يجاب ، فإن لم يجب تذمر في باطـــنه كأنه يطلب أجرة عمله ، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته ، وإنما العبد حقاً يرضى [. .] ما يفعله الخالق ، فإن سأل فأجيب رأى ذلك فضلاً ، وإن منع رأى تصرف مالك في مملوك ، فلم يجل في قلبه اعتراض بحال .

٢٣ ـ فصل : رأيت جماعة من العلماء يتقسمون ويظنون أن العلم يدفع عنهم ، وما يدرون أن العلم خصمهم وأنه يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب ، وذاك لأن الجاهل كم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه ، ورأيت بعض القوم يقول : أنا قد ألقيت منجلى بين الحصادين ونمت . ثم كان يتفسح في أشياء لا تجوز ، فتفكرت فإذا العلم الذي هو معرفة الحقائق ، والنظر

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٧٠٣) .

في سير القدماء ، والتأدب بآداب القوم ، ومعرفة الحق وما يجب له ، ليس عند القوم ، إنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل وما يحرم ، وليس ذلك العلم النافع . إنما فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه ، والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته ، والتأدب بآدابهم ، وفهم ما نقل عنهم ، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال .

ورأيت بعض من تعبد مده ثم فتر ، فبلغني أنه قال : قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد ، والآن قد ضعفت ، فقلت : ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لرد الكل ، لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئاً ، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات ففي حق نفسه فعل وما مثله إلا كمثل من وقف يكدى ، فلا ينبغي أن يمن على المعطي ، وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق ، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل حلة بن أشيم إذا رآه السبع هرب منه ، وهو يقول إذا انقضى الليل عند صلاته : يارب أجرني من النار ، أو مثلي يسأل الجنة ! وأبلغ من ذا قول عمر : وددت أن أنجو كفافاً لا لي ولا عليَّ ، وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة : أترجو لمثلي أن ينجو من النار ، وقول أحمد : لا بعد ، فأنا أحمد الله ﷻ إذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم ، [وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم] ، فإني قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحققين على ما يخرس لسان الانبساط ، ويمحو النظر إلى كل فعل ، وكيف أنظر إلى فعلى المستحسن ؟ وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ما خفي من غيري ، فهل حصل ذلك بي أو بلطفه . [١٠٢/أ]

وكيف أشكر توفيقي للشكر ! ثم أي عالم إذا سبر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه ، هذا في صورة العلم ، فدع معناه . وأي عابد يسمع بالعباد لا يجري في صورة التعبد . فدع المعنى .. نسأل الله ﷻ معرفة تعرفنا أقدارنا ، حتى لا يبقى للعجب بمحتقر ما عندنا أثر في قلوبنا ، ونرغب إليه في معرفة تعظيمه تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال ، ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الأعمال التي بها نزهوا حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها . إنه قريب مجيب .

٢٣١ ـ فصل : سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة ، وليس في الدنيا طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذي شغله رضا حبيبه والتزود للرحيل إليه ، فإنه إن وجد راحة في الدنيا استعان بها في طلب الآخرة ، وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثواب الآخرة ، فهو راض بكل ما يجرى عليه .. يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنه مراده ، كما قال قائلهم .

إن كان رضاكم في سهري فسلام اللـــه علـــى وسني

فأما من طلب حظه فإنه يقلق لفوت مراده ، ويتنغص لبعد ما يشتهى فلو افتقر تغير قلبه ، ولو ذل تغير ، وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه ، وما أحسن قول الحصري : ايش عليّ مني ، وأيش لي في ، وهذا كلام عارف ، لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكة فعبد يتصرف فيه مولاه ، فاعتراضه لا وجه له ، وإرادته أن يقع غير ما يحب فضول في البين . وإن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى** ﴾ أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشترى إذا ذبحها أو يتغير قلبه .. والله لو قال المالك سبحانه : إنما خلقتكم ليستدل على وجودي ، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة ، لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً لما قلت وطاعة ، وأي شيء لنا فينا حتى نتكلم ، فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود في النعيم ، الذي لا ينفد .

لكن طريق الوصول يحتاج إلى صبر على المشقة وما يبقى لتعب رمل زرود[١] أثر إذا لاح الحرم .. فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين [١٠٢ / ب] لاح المنْزل .. والسرور السرور يا متوسطين ضربت الخيم .. والفرح الكامل يا عارفين ، فقد تلقيتم بالبشائر .. زالت والله أثقال المعاملات عنكم ، فكانت معرفتكم بالمبتلى حلاوة تعقيب شربة المجاهدة ، فلم يبق في الفم للمر أثر .. تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور .. ودوار كئوس الرضا عنكم فقد أخذت شمس الدنيا في الطفل[٢] :

ما بيننا له إلا تصـــرم هذه السبع البواقـــي
حتى يطول حديثنـــا بصنوف ما كنا نلاقي

(١) زرود : اسم موضع بطريق الحاج من الكوفة .
(٢) طفلت الشمس : دنت للغروب (القاموس المحيط ص ١٠٢٥) .

من التغفيل أن تعاقب شخصاً أو تسيء إليه إساءة عظيمة وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد ، فتراه ذليلاً لك طائعاً بائناً مقلعاً عما فعل ، فتعود فتستطيبه وتنسى ما فعلت وتظن أنه قد انمحى من قلبه ؛ فربما عمل لك المحن ونصب لك المكايد ، كما جرى لقصير من الزباء[1] ، وأخباره معروفة .. فإياك أن تساكن من آذيته ، بل إن كان ولابد فمن خارج فما تؤمن الأحقاد .. ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لا يثنيه مثل هذا فأحسن إليه ، فإنه ينسى عداوتك ولا يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله ؛ فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه ، ومن الخور إظهار العداوة للعدو ، ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن ، ولو لم يمكن كان اللطف سبباً في كف أكفهم عن أذى ، وفيهم من يستحي لحسن فعلك فيتغير قلبه لك ، وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلاً قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه ، فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون في تقليب قلبه ، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا ، وكفى بالذهن[2] الناظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدباً .

٢٣٢ ـ فصل : تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان : يا سفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك ، فإنه لم يمنعك بخلاً ، إنما منعك لطفاً . فرأيته كلام من قد عرف الحقائق .

فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر ، وعجزه أصلح له ، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه إما لحفظهن أو بالكسب عليهم ، فإن قوى عشقه لهن ضاع أمره وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهن ، فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر ، وإن طلبن نفقة [١٠٣ / أ] لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه ، وإن أردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكنه أو فجرن ، وإن مات معشوق هلك هو أسفاً ، فالذي يطلب الفائق يطلب سكيناً لذبحه وما يعلم ، وكذلك إنفاد قدر القوت فإنه نعمة ، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) الزباء : ملكة تَدْمُر المشهورة ، بلاد الشام ، وقصير : رجل مخادع جدع أنفه وأوهم الزباء أنه غاضب من قومه لما فعلوه به ، تحايلاً عليها ، حتى يتمكن من قتلها .

(٢) في المخطوط : بالذهب ، والمثبت أصح .

« **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آل مُحَمَّداً قُوتاً** »[1] ومتى كثر تشتت الهم . فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم ، فقنع بدفع القوت في كل حال .

٢٣٣ ـ فصل : رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالأقدار ، فيقول قائلهم : إن وفقت فعلت ، وهذا تعلل بارد ، ودفع للأمر بالراح ، وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء – عليهم السلام – والشرائع جميعها ، فإنه لو قال كافر للرسول إن وفقني أسلمت ، لم يجبه إلا بضرب العنق .

وهذا من جنس قول الناس لعلي ﷺ : ندعوك إلى كتاب الله فقال : كلمة حق أريد بها باطل ، وكذلك قول المتعللين عن الصدقة : ﴿ **أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ** ﴾ ولعمري أن التوفيق أصل الفعل ، ولكن التوفيق أمر خفى ، والخطاب بالفعل أمر جلى ، فلا ينبغي أن يتشاغل عن الجلى بذكر الخفي .

ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل : إن الله سبحانه لم يكلفك شيئاً ، إلا وعندك أدوات ذلك الفعل ولك قدرة عليه ، فإن كانت القدرة عليه معدومة والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف ، وإن كنت تسعى بتلك الأدوات في تحصيل غرضك وهواك ، فاسع بها في إقامة مفروضك ، مثال ذلك أنك تسافر في طلب الربح ، وتسأل الحج فلا تفعل ويثقل عليك الانتباه بالليل ، فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سحراً وتقف في بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات فإذا وقفت في الصلاة استعجلت ، وثقل عليك . فإياك إياك أن تتعلق بأمر لا حجة لك فيه .

ثم من نصيبك ينقص ، ومن حظك يضيع ، فإنما تحرك لك ، وإنما تحرض لنفعك ، فبادر فإنك مبادر بك ، ومما يزيل كسلك إن تأملته أن تتخايل ثواب المجتهدين وقد فاتك ، ويكفي ذلك في توبيخ المقصر إن كانت له نفس . فأما الميت الهمة : فما لجرح بميت إيلام .. كيف بك إذا قمت من قبرك وقد قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرت ، وأسرعت [١٠٣ / ب] أقدام الصالحين على الصراط وتخبطت ، هيهات . ذهبت حلاوة البطالة ، وبقيت مرارة الأسف ، ونضب ماء كأس الكسل ، وبقى رسوب الندامة .

---

(١) **صحيح** : تقدم تخريجه .

وما قدر البقاء في الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة ! ثم ما قدر عمرك في الدنيا ونصفه نوم ، وباقيه غفلة . فيا خاطباً حور الجنة وهو لا يملك فلساً من عزيمة ، افتح عين الفكر في ضوء العبر لعلك تبصر مواقع خطابك ، فإن رأيت تثبطاً من الباطن فاستغث بعون اللطف ، وتنبه في الأسحار ، لعلك تتلمح ركب الأرياح ، وتعلق على قطار المستغفرين ولو خطوات ، وانزل في رباعة المجتهدين ولو منْزلاً .

٢٣٤ـ فصل : نظرت في قول أبي الدرداء ﷺ : ما أعرف شيئاً مما كنا عليه اليوم إلا القبلة ، فقلت : واعجباً كيف لو رآنا اليوم وما علينا من الشريعة إلا الرسم ، والشريعة هي الطريق ، وإنما تعرف شريعة رسول الله ﷺ إما بأفعاله أو أقواله .

وسبب الانحراف عن طريقه ﷺ إما بالجهل بها فيجرى الإنسان مع الطبع والعادات ، وربما اتخذ ما يضاد الشريعة طريقاً ، وقد كانت الصحابة شاهدته وسمعت منه فقل أن ينحرف أحد منهم عن جادته ، إلا أن أبا الدرداء ﷺ رأى بعض الانحراف لميل الطباع فضج ، فإنه قد يعرف الإنسان الصواب ، غير أن طبعه يميل عنه ، وما زالت الأحاديث المنقولة عن الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ يقل الإسعاد بها والنظر فيها إلى أن أعرض عنها بالكلية في زماننا [هذا] وجهلت إلا النادر ، واتخذت طرائق تضاد الشريعة ، وصارت عادات ، وكانت أسهل عند الخلق من اتباع الشريعة .

وإذا كان عامة من ينسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة فكيف العوام ؟! ولما أعرض كثير من العلماء عن المنقولات ابتدعوا في الأصول والفروع ، فالأصوليون تشاغلوا بالكلام وأخذوه من الفلاسفة وعلماء المنطق ، ودخلت أيدي الفروعيين في ذلك فتشاغلوا بالجدل ، وتركوا الحديث الذي عليه يدور الحكم .

ثم رأى القُصَّاصُ أن النفاق بالنفاق ، فأقبل قوم منهم على التلبيس بالزهد ، ومقصودهم الدنيا ، ورأى جمهورهم أن القلوب تميل إلى [١٠٤ / أ] الأغاني ، فأحضروا المطربين من القراء وأنشدوا أشعار الغزل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم يلتفتوا إلى نهي العوام عن الربا والزنى ، وأمرهم بأداء الواجبات ، وصار

متكلمهم يقطع المجلس بذكر ليلى والمجنون ، والطور وموسى ، وأبي يزيد والحلاج والهذيان الذي لا محصول له ، وانفرد أقوام بالتزهد والانقطاع ، فامتنعوا عن عيادة المرضى ، والمشي بين الناس ، وأظهروا التخاشع ، ووضعوا كتباً للرياضات ، والتقلل من الطعام ، فصارت الشريعة عندهم كلام أبي يزيد والشبلى والمتصوفة ، ومعلوم أن من سبر الشريعة لم ير فيها من ذاك شيئاً .

وأما الأمراء فجروا مع العادات ، وسموا ما يفعلونه من القتل والقطع سياسات لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة ، وتبع الأخير في ذلك المتقدم .. فأين الشريعة المحمدية ؟! ومن أين تعرف مع الإعراض عن المنقولات ؟ نسأل الله ﷻ التوفيق للقيام بالشريعة ، والإعانة على رد البدع إنه قادر .

٢٣٥ـ فصل : كنت أسمع على بن الحسين الواعظ يقول على المنبر : والله لقد بكيت البارحة من يد نفسي ، فبقيت أنا أفكر وأقول : أي شيء قد فعلت نفس هذا حتى يبكى ؟! هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات ، وقد بلغني أنه تزوج في السر بجملة من النساء ، ولا يطعم إلا الغاية من الدجاج والحلوى ، وله الدخل الكثير والمال الوافر والجاه العريض والإفضال على الناس ، وقد حصل طرفاً من العلم ، واستعبد كثيراً من العلماء بمعروفه ، وراحته دائمة ، فما الذي يبكيه ؟ فتفكرت ، فعلمت أن النفس لا تقف على حد ، بل تروم من اللذات ما لا منتهى له ، وكلما حصل لها غرض برد عندها وطلبت سواه ، فيفنى العمر ويضعف البدن ويقع النغص ، ويرق الجاه ، ولا يحصل المراد .

وليس في الدنيا أبله ممن يطلب النهاية في لذات الدنيا ، وليس في الدنيا على الحقيقة لذة ، إنما هي راحة من مؤم . فالسعيد من إذا حصلت له امرأة أو جارية فمال إليها ومالت إليه ، وعلم سترها ودينها ، أن يعقد الخنصر على صحبتها ، وأكثر أسباب دوام محبتها أن لا يطلق بصره ، فمتى أطلق بصره أو أطمع نفسه في غيرها فإن الطمع في الجديد ينغص الخلق ويدقق ملك المخالط ، ويستر عيوب الخارج ، فتميل النفس إلى المشاهد الغريب ، ويتكدر العيش مع الحاضر القريب كما قال الشاعر :

والمرء ما دام ذا عـــين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجتـــه ... لا مرحـــباً بسرور عاد بالضـــرر

ثم تصير الثانية كالأولى ، فتطلب النفس ثالثة وليس لهذا آخر ، بل الغض عن المشتهيات ، ويأس النفس عن طلب المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر .

ومن لم يقبل هذا النصح تعثر في طرق الهوى وهلك على البارد ، وربما سعى لنفسه في الهلاك العاجل ، أو في العار الحاضر ، فإن كثيراً من المستحسنات لسن بصينات ولا يفى التمتع بهن بالعار الحاصل ، منهن المبذرات في المـــال ، ومنهن المبغضة للزوج وهو يحبها كعابد صنم .

وأبله البله الشيخ الذي يطلب صبية .. ولعمري إن كمال المتعة إنما يكون بالصبا كما قال القائل : فعلت بنفسي النساء الصغار . ومتى لم تكن الصبية بالغة لم يكمل الاستمتاع ، فإذا بلغت أرادت كثرة الجماع والشيخ لا يقدر ، فإن حمل على نفسه لم يبلغ مرادها ، وهلك سريعاً .

ولا ينبغي أن يغتر بشهوته الجماع ، فإن شهوته كالفجر الكاذب ، وقد رأينا شيخنا اشترى جارية فبات معها فانقلب عنها ميتاً ، وكان في المارستان شاب قد بقى شهرين بالقيام ، فدخلت عليه زوجته فوطئها فانقلب عنها ميتاً ، فبان أن النفس باقية بما عندها من الدم ، والمني ، فإذا فرغا ولم تجد ماء تعتمد عليه ذهبت ، وإن قنع الشيخ بالاستمتاع من غير وطء فهي لا تقنع فتصير كالعدو له ، فربما غلبها الهوى ففجرت أو احتالت على قتله ، خصوصاً الجواري اللواتي أغلبهن قد جئن من بلاد الشرك ففيهن قسوة القلب .

وقبيح بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء ، فإن اتفق معه صاحبة دين قبل ذلك فليرع لها معاشرتها ، وليتمم نقصه عندها تارة بالإنفاق وتارة بحسن الخلق ، وليزد في تعريفها أحوال الصالحات والزاهدات ، وليكثر من ذكر القيامة [١٠٥ / أ] وذم الدنيا ، وليعرض بذكر محبة العرب فإنهم كانوا يعشقون ولا يرون وطء المعشوق كما قال قائلهم :

[إِنَّمَــا الحُـــبُّ قُبْلَةٌ وَغَمْزُ كَف وَعَضُدْ
إِنَّمَــا العشْقُ كَــذَا] إِنْ نَكَحَ الحبَّ فَسَدْ

فإن قدر أن يشغلها بحمل أو ولد عرقلها به ، فاستبقى قوته في مدة اشتغالها بذلك فإن وطئ فليصبر عن الإنزال حفظاً لقوته وقضاء لحقها ، وقد قيل لبشر : لم لم تتزوج فقال : على ماذا أغر مسلمة ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ

الَّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، والمسكين من دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول ورأى حبة الفخ فبادر طالباً لها ناسياً تعرقل الجناح والذبح .

ومجموع ما قد بسطته **حفظ البصر عن الإطلاق** ، ويأس النفس عن التحصيل ، قنوعاً بالحاصل خصوصاً من قد علت سنه ، وعلم أن الصبية عدو له ومتمنية هلاكه ، وهو يربيها لغيره ، وفي بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله ﷻ توفيقاً من فضله وعملاً بمقتضى العقل والشرع . إنه قريب مجيب .

٢٣٦ ـ فصل : أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة ، وتأميله الإصلاح فيما بعد وليس لهذا الأمل منتهى ، ولا للاغترار ، وكلما أصبح وأمسى معافي زاد الاغترار وطال الأمل ، وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان وقبور المحبوبين ، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم ، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك هذا والله شأن الحمقى ، وحوشى من له عقل أن يسلك هذا المسلك .

بل والله إن العاقل ليبادر السلامة فيدخر من زمنها للزمن ، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة ، خصوصاً لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل لها ، وإن التدارك بعد الفوت لا يمكن . وقدر أن العاصي عفى عنه ، أينال مراتب العمال ؟ ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم بل لذاتها متصلة من غير انقطاع ، وزيادتها على قدر زيادة الجد هاهنا انتهب هذا الزمان فلم ينم إلا ضرورة ، ولم يغفل عن عماره لحظة .

ومن رأى أن ذنباً قد [مضت لذته و] بقيت آفاته دائمة ؛ كفاه ذلك زاجراً عن مثله ، خصوصاً الذنوب التي تتصل آثارها مثل أن يزني بذات زوج فتحمل منه فيلحق [١٠٥ / ب] بالزوج فيمنع الميراث أهله ويأخذه من ليس من أهله ، وتتغير الأنساب والفرش ، ويتصل ذلك أبداً ، وكله شؤم لحظة . فنسأل الله ﷻ توفيقاً يلهم الرشاد ، ويمنع الفساد ، إنه قريب مجيب .

٢٣٧ ـ فصل : تأملت سبب تخليط العقائد ، فإذا به الميل إلى الحس وقياس الغائبات على الحاضر . فإن أقواماً غلب عليهم الحس ، فلما لم يشاهدوا الصانع جحدوا وجوده ، ونسوا أنه قد ظهر بأفعاله ، وأن هذه الأفعال لابد لها من

فاعل ، فإن العاقل إذا مر على صحراء خالية ثم عاد وفيها غرس وبناء ؛ علم أنه لابد من غارس وبان ، إذ الغرس لا يكون بنفسه ولا البناء .

ثم جاء قوم فأثبتوا وجود الصانع ، ثم قاسوه على أحوالهم فشبهوا ، حتى إن قائلهم يقول : في قوله (**ينزل إلى السماء**) ينتقل ، ويستدل بأن العرب لا تعرف النُزول إلا الانتقال . **وضل خلق كثير في صفاته كما ضل خلق في ذاته** ؛ فظن أقوام أنه يتأثر حين سمعوا أنه يغضب ويرضى ، ونسوا أن صفته [تعالى] قديمة لا يحدث منها شيء ، **وضل خلق في أفعاله** فأخذوا يعللون فلم يقعوا بشيء ، فخرج منهم قوم إلى أن نسبوا فعله إلى ضد ، تعالى عن ذلك .

فمن رزق **التوفيق فليحضر قلبه لما أقول** : اعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات ، وصفاته ليست كالصفات ، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق . أما ذاته سبحانه فإنا لا نعرف ذاتاً إلا أن تكون جسماً وذاك يستدعي سابقة تأليف ، وهو منَزه عن ذلك ، لأنه المؤلف ، أو أن يكون جوهراً فالجوهر متحيز ، وله أمثال ، وقد جل عن ذلك ، أو عرضاً ، فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى عن ذلك . فإذا أثبتنا ذاتاً قديمة خارجة عما يعرف ، فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات ، فلا يجوز لنا أن نقيس شيئاً منها على ما نفعله ونفهمه ، بل نؤمن به ونسلمه ، وكذلك أفعاله ، فإن أحدنا لو فعل فعلاً لا يجتلب به نفعاً ولا يدفع به عنه ضراً عد عابثاً . وهو سبحانه أوجد الخلق لا لنفع يعود إليه . ولا لدفع المضرار إذ المنافع لا تصل إليه والمضار لا تتطرق عليه . فإن قال قائل : إنما خلق الخلق لينفعهم بطل هذا القول ثم خلقه للكفر وعذبه . نراه يؤلم الحيوان والأطفال ، ويخلق المضار ، وهو [١٠٦/أ] قادر أن لا يفعل ذلك .

فإن قال قائل : إنه يثيب على ذلك . **قلنا** : وهو قادر أن يثبت بلا هذه الأشياء ، فإن السلطان لو أراد أن يغني فقيراً فجرحه ثم أغناه ليم على ذلك ، لأنه قادر أن يغنيه بلا جراح .

ثم [من] يرى ما جرى لرسول الله ﷺ وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم يسأل في أمه فلا يجاب ، ولو كان المسئول بعضنا قلنا : لم تمنع ما لا يضرك ؟! غير أن الحق سبحانه لا تقاس أفعاله على أفعالنا ولا تعلل ، والذي يوجب علينا التسليم أن حكمته فوق العقل ، فهي تقضي على العقول ،

والعقول لا تقضي عليها ، ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش . وإنما هلكت المعتزلة من هذا الفن ؛ فإنهم قالوا كيف يأمر بشيء ويقضي بامتناعه .

ولو أن إنساناً دعانا إلى داره ثم أقام من يصد الداخل لعيب ، ولقد صدقوا فيما يتعلق بالشاهد . فأما من أفعاله لا تعلل ولا يقاس بشاهد ، فإنا لا نصل إلى معرفة حكمته .

فإن قال قائل : فكيف يمكنني أن أقود عقلي إلى ما ينافيه . قلنا : لا منافاة ، لأن العقل قد قطع بالدليل الجلي أنه حكيم ، وأنه مالك ، والحكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، غير أن تلك الحكمة لا يبلغها العقل ، ألا ترى أن الخضر خرق سفينة وقتل شخصاً ، فأنكر عليه موسى - عليهما السلام - بحكم العلم ، ولم يطلع على حكمة فعله ، فلما أظهر له الحكمة أذعن ولله المثل الأعلى .

فإياك إياك أن تقيس شيئاً من أفعاله على أفعال الخلق ، أو شيئاً من صفاته ، أو ذاته سبحانه وتعالى فإنك إن حفظت هذا سلمت من التشبيه الذي وقع فيه من رأى الاستواء اعتماداً ، أو النُزول نقلة ، ونجوت من الاعتراض الذي أخرج قوماً إلى الكفر حتى طعنوا في الحكمة .

وأول القوم إبليس ، فإنه رأى تقديم الطين على النار ليس بحكمة ، فنسى أنه إنما علم ذلك بزعمه بالفهم الذي وهب له ، والعقل الذي منحه ، فنسى أن الواهب أعلم : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ [فصلت : ١٥].

ولقد رأيت لابن الرومي اعتراضاً على من يقول بتخليد الكفار في النار [قال : إن ذلك التأبيد مزيد من الانتقام ينكره العقل ، ولا] ينبغي أن يقبل كل ما يقوله العقل ، ولا يرد بعضه إذ ليس [١٠٦ / ب] رد بعضه بأولى من رد الكل ، وتخليد الكفار لا غرض فيه للمعذب ولا للمعذب فلا يجوز أن يكون .

فقلت : العجب من هذا الذي يدعي وجود العقل ولا عقل عنده ، وأول ما أقول له : أصح عندك الخبر عن الخالق سبحانه أنه أخبر بخلود أهل النار أم لم يصح ؟ فإن كان ما صح عنه فالكلام إذاً في إثبات النبوة وصحة القرآن ، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الأصل ، وإن قال قد ثبت عندي فواجب عليه أن يتحمل لإقامة العذر ، لا أن يقف في وجه المعارضة .

وإنما ينكر هذا من يأخذ الأمر من الشاهد ، وقد بينا أن ذات الحق سبحانه لا كالذوات ، وأن صفاته لا كالصفات ، وأن أفعاله لا تعلل ، ولو تلمحنا شيئاً من التعليل لخلود الكفار لبان ، إذ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لإظهار صدق الوعيد . فإنه قال : من كفر بي خلدته في العذاب ، ولا جناية كالكفر ولا عقوبة كدوام الإحراق ، فهو يدوم ليظهر صدق الواعد .

ومن الجائز أن يكون ذلك لتتمة تنعم المؤمنين فإنهم أعداء الكفار ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤] وكم من قلق في صدر ، وحنق على أبي جهل فيما فعل به ، وكم غم في قلب عمار وأمه سمية وغيرهم من أفعال الكفار بهم ، فدوام عذابهم شفاء لقلوب أهل الإيمان .

ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض وذكر المعذب بما لا يحسن ، فكلما زاد [عذابهم] زاد كفرهم واعتراضهم فهم يعذبون لذلك ، ودليل دوام كفرهم به : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١٨]. فإذا كفرهم مازال ، ومعرفتهم به ما حصلت ، والشر كامن في البواطن ، وعلى ذلك يقع التعذيب ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٨].

٢٣٨ ـ فصل : ينبغي للمؤمن بالله سبحانه إذا نظر في الفصل الذي قد تقدم هذا ألا يعترض على الله سبحانه في شيء لا في باطنه ولا في ظاهره ، ولا يطلب تعليلات أفعاله ، فإن المتكلمين أعرضوا عن السنن وتكلموا بآرائهم فما صفى لهم شرب ، بدليل اختلافهم .

وكذلك إضمار القياس لما عملوه جاءت أحاديث تعكر عليهم ، والصواب التعليل لما يمكن ، والتسليم لما يخفى .

وكذلك سؤال الحق سبحانه ، فإذا دعى المؤمن ولم ير إجابة سلم وفوض وتأول للمنع ، فيقول : ربما المنع أصلح ، وربما يكون لأجل ذنوبي ، وربما [١ / ١٠٧] يكون التأخير أولى ، وربما لم يكن هذا مصلحة . وإذا لم يجد تأويلاً لم يختلج في باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء ، فإن أنعم عليه فبفضل ، وإن لم يجب فمالك يفعل ما يشاء . وعلى أن أكثر السؤال إنما يقع في طلب أغراض الدنيا التي إذا ردت كان أصلح ، فليكن هم العاقل في إقامة حق الحق والرضا بتدبيره وإن أساء ، فمتى أقبلت عليه أقبل على إصلاح شأنك ،

وإذا عرفت أنه كريم فلذ له ولا تسأل ، ومتى أقبلت على طاعته فمحال أن يجود صانع وينصح في العمل ثم لا يعطي الأجرة .

٢٣٩ ـ فصل : والله إني لأتخايل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعتورها منغص ، في نعيم متجدد في كل لحظة إلى زيادة لا تتناهى ، فأطيش ، ويكاد الطبع [يضيق] عن تصديق ذلك لولا أن الشرع قد ضمنه ، ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد هاهنا . فواعجباً من مضيع لحظة يقع فيها ، فتسبيحة يغرس لها في الجنة نخلة أكلها دائم وظلها .

فيا أيها الخائف في فوت ذلك شجع قلبك بالرجاء ، ويا أيها المنْزعج لذكر الموت تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية ، فإنه من ساعة خروج الروح لا بل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها ، فيهون سير المجذوب للذة المنتقل إليه . ثم الأرواح في حواصل طير تعلق في أشجار الجنة .

فكل الآفات والمخافات في نهار الأجل ، وقد اصفرت شمس العمر ، فالبدار البدار قبل الغروب ولا معين ترافق على تلك الطريق إلا الفكر إذا جلس مع العقل فتذاكرا العواقب ، فإذا فرغ ذلك المجلس فالنظر في سير المجدين فإنه يعود مستجلباً للفكر منها للفضائل والتوفيق من وراء ذلك ، ومتى أرادك لشيء هيأك له . فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا من العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم وعلل العقل ، والعزلة عن الشر حمية ، والحمية سبب العافية .

٢٤٠ ـ فصل : رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله ﷻ والإقبال على الدنيا ، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته .

فأما من رزق معرفة بالله تعالى لا لأنه يستغني بالرضا بالقضاء فمهما قدر له رضى [١٠٠ / ب] وإن دعاه فلم ير أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض ، لأنه مملوك مدبر فتكون همته في خدمة الخالق ، ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ، ولا التذذ بالشهوات ، لأنه إما أن يكون مقصراً في المعرفة فهو مقبل على التعبد المحض بزهد في الفاني لينال الباقي ، وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل ، فتراه متأدباً في الخلوة به ،

مستأنساً بمناجاته ، مستوحشاً من مخالطة خلقه ، راضياً بما يقدر له ، فعيشة معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره .

فأما من لم يرزق هذه الأشياء ، فإنه لا يزال في تنغيص متكدر العيش ، لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه ، فيبقى أبداً في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة وطيب المعاملة . نسأل الله ﷻ أن يستصلحنا له ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به .

٢٤١ ـ فصل : تفكرت في نفسي فرأيتني مفلساً من كل شيء ، إن اعتمدت على الزوجة لم تكن ما أريد ، إن حسنت صورتها لم تكمل أخلاقها ، وإن تمت أخلاقها كانت مريدة لغرضها لا لي ، ولعلها تنتظر رحيلي . وإن اعتمدت على الولد فكذلك ، والخادم والمريد لي كذلك ، فإن لم يكن لهما مني فائدة لم يريداني ، وأما صديق فليس ، وأخ في الله كعنقاء مغرب[1] ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ويعتقدون فيهم فقد عدموا وبقيت وحدي ، وعدت إلى نفسي ، وهي لا تصفو إلي أيضاً ولا تقيم على حال سليمة ، فلم يبق لي إلا الخالق سبحانه . فرأيت أني إن اعتمدت على إنعامه فما آمن قطع ذلك بالبلاء ، وإن رجوت عفوه فما آمن من عقوبة ، فواأسفا لا طمأنينة ولا قرار ، واقلقي من قلقي ، واحرقي من حرقي ، بالله ما العيش إلا في الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضا والمعاشرة لمن لا يخون ولا يؤذي . فأما الدنيا فما هي دار ذاك .

٢٤٢ ـ فصل : ينبغي لمن صحب سلطاناً أو محتشماً أن يكون ظاهره معه وباطنه سواء ، فإنه قد يدس إليه من يختبره ، فربما افتضح في الابتلاء . وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريب المنادم ، ويجعلون له حجرة في دورهم ، فإذا أرادوا أن يختصّوه اختبروه باطناً [١٠٨ / أ] وذاك لا يدري ، فيظهر منه ما لا يصلح فيطرد .

ولقد امتحن أبرويز[2] رجلاً من خاصته ، فدس إليه جارية معها ألطاف ، وأمرها أن لا تقعد عنده فحملتها . ثم أنفذها مرة أخرى وأمرها أن تقعد بعد

---

(١) مثل يضرب به على عدم وجود الشيء واستحالته .

(٢) أبرويز : ملك فارس .

التسليم هنيئة ففعلت ، فلاحظها الرجل . ثم بعثها ثالثة وأمرها أن تطيل القعود عنده وتحدثه ، فأطالت الحديث معه ، فأبدى لها شيئاً من الميل إليها فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعني أدبر في هذا . فذهبت فأخبرت الملك بذلك ، فوجه غيرها من خواص جواريه بمثل ذلك ، فلما جاءته قال : ما فعلت فلانة ؟ قالت : مريضة فاربدَّ لونه ، ثم فعلت الجارية الثانية مثل ما فعلت الأولى ، فقالت له : إن الملك يمضي إلى بستانه فيقيم هناك ، فإن أرادك على أن تمضي معه فأظهر أنك عليل ، فإن خيّرك بين الانصراف إلى دور نسائك أو المقام هاهنا فاختر المقام هاهنا ، وأخبره أنك لا تقدر على الحركة ، فإن أجابك إلى ذلك جئت إليك كل ليلة ما دام الملك غائباً ، فسكن إلى قولها ، ثم مضت وأخبرت الملك بذلك .

فلما كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال : إني مريض ، فعاد الرسول فأخبره فتبسم ، وقال : هذا أول الشر ، فوجه إلى محفة حمل فيها إليه فلما بصر به أبرويز قال : والمحفة الشر الثاني ، فرأى العصابة على رأسه ، قال : والعصابة الشر الثالث ، فقال له الملك : أيما أحب إليك الانصراف إلى نسائك ليمرضنك أو المقام هاهنا إلى وقت رجوعي قال : المقام هاهنا أرفق لي لقلة الحركة ، فتبسم وقال : حركتك هاهنا إن تركت أكثر من حركتك إلى منْزلك ، ثم أمر له بعصا الرباة التي كان يوسم بها من زنى ، فأيقن الرجل بالأمر ، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفاً حرفاً فيقرأ على الناس حرفاً حرفاً إذا حضروا ، وأن ينفى إلى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رمح يكن معه حيث كان ليحذر منه من لا يعرفه . فلما نفي أخذ من بعض الموكلين مدية[1] فجب بها ذكره وقال : من أطاع عضواً صغيراً فسد عليه جميع أعضائه ، ومات من ساعته .

قلت : وقد كان جماعة من الأمراء يتنكرون ويسألون العوام عن سيرتهم ، فيتكلم العامي بما لا يصلح فيصطنعون عليه وربما بعثوا دسيساً [١٠٨ / ب] ، ورب كلمات قالها مسترسل فبلغها فضولي .

---

(١) [illegible] : شيء كالسكين يقطع به .

ورأى عمر بن عبد العزيز رجلاً من العمال كثير الصلاة ، فدس عليه من قال له : إن أخذت لك الولاية الفلانية فما تعطيني ؟ قال : أعطيتك كذا وكذا ، قال : عمر غررتنا بصلاتك .

وقد بُلّغنا أن رجلاً كلم امرأة فأجابته فاستدعته إلى دارها ، فلما دخل أقامت على قتله . فقد ينحل من هذه الحكاية أنه لا ينبغي أن يسكن إلى قول امرأة أو رجل يجوز أنه يكون جاسوساً ومخسراً .

وكذلك لا يظهر ما ينبغي إخفاؤه من مال أو مذهب أو سب رجل ؛ فربما كان له في الحاضرين [من] قريب .

ولا يوثق بمودة لا أصل لها ، فربما كانت تحتها آفة تقصده ، وليحذر من كل أمر يحتمل ؛ ورب كلمة نقلها صديق إلى صديق فتحدث بها من لا يقصد أذى للقائل فبُلغت فتأذى ، ورب مظهر للمحبة مبالغ حتى يستمكن من مراده ، فالحذر الحذر من الطمأنينة إلى أحد خصوصاً من عدو آذيته أو قتلت له قريباً ، فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء .

[الأمل والغرور .. وسبيل السلامة]

٢٤٣ ـ فصل : رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها ويزداد حرصها كما قال النبي ﷺ : « **يَشيبُ ابْنُ آدَمَ وتَشبُّ مِنْهُ خصْلَتَان الحِرْص والأَمَل** »[1].

ورأيت أكثر أسبَاب ذلك فراغ اليَد مِنَ الدنيا وكثْرة العائلة وقوة الحاجة ، فيحتاج الإنسان إلى التعرض بما يشين العرض ليحصل الغرض . فقلت : إلهي أبعد رؤية جبال عرفه أضل ، أبعد مشارفة الحرم تأخذني أعرابة البادية ، واأسفا أيطلع فجر النحر وما وصلت إلى عرفات ويا ضياع سفر العمر وما حصل المقصود .

قد كنتُ أرجوكَ لنيل المُنى   واليومَ لا أطلبُ إلى الرِّضا

---

(١) أورد نحوه العجلوني في كشف الخفاء (٥٣٧/٢) وأحاله إلى الشيخين بألفاظ متقاربة . وجاء عند البخاري (٦٤٢١) من حديث أنس « ويكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان حب المال وطول العمر » .

ثم قلت : يا نفس ما لك ملجأ إلا اللجا واستغاثة الغريق ؛ فإن رُحمت وإلا فكم من حسرة تحت التراب .

٢٤٤ ـ فصل : شكا لي بعض الأشياخ فقال : قـد علت سني وضعفت قوتي ، ونفسي تطلب مني شراء الجواري الصغار ، ومعلوم أنهن يردن النكاح وليس في ، ولا تقنع مني النفس بربة البيت إذ قد كبرت .

فقلت له : **عندي جوابان ؛ أحدهما** : الجواب العامي ، وهو أن أقول : ينبغي أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت إليه ، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر [١٠٩ / أ] على إيفاء حقها فإنها تبغضك ، فإن أجهدت نفسك استعجلت التلف . وإن استبقيت قوتك غضبت هي ، على أنها لا تريد شيخاً كيف كان ، وقد [أنشدنا] علي ابن عبيد الله قال : أنشدنا أبو محمد التميمي :

أفق يا فؤادي من غرامي واستمع مقـالة محـزون عليـك شفيق
علقـت فتـاة قلبهـا متعلـقٌ بغـيرك فاستوثقت غـير وثيق
وأصبحت موثوقاً وراحت طليقة فكم بـين موثوق وبين طليـق

فاعلم أنها تعد عليك الأيام ، وتطلب منك فضل المال لتستعد لغيرك ، ر: قصدت حتفك ، فاحذر والسلامة في الترك ، والاقتناع بما يدفع الزمان .

والجواب الثاني : فإني أقول : لا يخلو أن تكون قادراً على الوطء في وقـ أو لا تكون ، وإن كنت لا تقدر فالأولى مصابرة الترك للكل ، وإن كان يمكـ الحازم أن يداري المرأة بالنفقة وطيب الخلق إلا أنه يخاطر .

وإن كنت تقدر في أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك توقاً شديداً فعليك بالمراهقات فإنهن ما عرفنا النكاح ، وما طلبن بالوطء ، واغمرهن بالإنفاق وحسن الخلق مع الاحتياط عليهن ، والمنع من مخالطة النسوة ، وإذا اتفق وطء فتصبر عن الإنزال ريثما تقضي المرأة حاجتها .

واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة ، واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح ، وقبح صورة ا[illegible] ، والفت قلبها إلى ذكر الصالحين ، ولا تخل نفسك من الطيب والتزين والكياسة والمداراة والإنفاق الواسع . فهذا ربما حرك الناقة للمسير مع خطر السلامة .

٢٤٥ ـ فصل : أبله الناس من عمل على الحال الحاضرة ولم يتصور تغيرها ولا وقوع ما يجوز وقوعه . مثاله أن يغتر بدولة فيعمل بمقتضى ملكه فإذا تغيرت هلك ، وربما عادى خلقاً اغتراراً بأنه متسلط أو أنه صاحب سلطان ، فإذا تغيرت حاله أكل كفيه ندماً عند فوات التدارك ، وكذلك من له مال يبذره سكوناً إلى وجود المال ، وينسى حاله عند العدم .

وكذا من يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح ثقة بعافيته وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض ، والآفات ، ومن أظرف الأحوال أن يحب جاريته فيعتقها ويهب لها ، أو امرأة فيسكن إليها ويهب لها فتتمكن [١٠٩ / ب] ، ولا تمضى الأيام حتى يسلوها أو يطلب غيرها ، ولا يجد طريقاً للخلاص ؛ فإن تخلص منها أخذت ما غنمت منه فلقى من الغيظ أضعاف ما يلتذ به ، فلا ينبغي أن يوثق بامرأة ولا بمحبة الإنسان امرأة ، فإنه قد يحب امرأة ويظن أنه لا يسلوها أبداً فيسترسل إليها والسلو يحدث ، وربما أحب غيرها فينسى الأولى فيصعب عليه الخلاص من الأولى ؛ فالعاقل لا يدخل في شيء حتى يهيئ الخروج منه ، فإن الأشياء لا تثبت ، والمحبة لا تدوم ، والتغير مقرون بكل حال . وكذلك يعطى ماله ولده ثم يبقى كلاً عليه فيتمنى الولد هلاكه ، وربما عذبه في النفقة ، وكذلك قد يثق بالصديق فيبث أسراره إليه ، فربما أظهرت فكان منها ما يوجب هلاكه . وكذلك يغتر الإنسان بالسلامة وينسى طروق الموت فيأتيه بغتة فتبهته ، وقد فات الاستدراك ولم يبق إلا الندم . فالعاقل من كانت عينه مراقبة للعواقب ، ومحترزة مما يجوز وقوعه ، عاملة بالاحتياط في كل حال ، حافظة للمال ، والسر ، غير واثقة بزوجة ولا ولد ولا صديق ، متأهبة للرحيل متهيئة للنقلة . وهذه صفة أهل الحزم ، والتفريط المدامع البذر .

٢٤٦ ـ فصل : من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله ﷻ وصفاته وأفعاله ، وهيهات .. ليس إلا المعرفة بالجملة .

ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشيء فرجع عقلاؤهم إلى التسليم ، وكذلك أصحاب الرأي مالوا إلى القياس فإذا أشياء كثيرة بعكس مرادهم ، فلم يجدوا ملجأ إلا التسليم ، فسموا ما خالفهم استحساناً . فالفقيه من علل بما يمكن ، فإذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد .

فأما من يقول لم فعل كذا وما معنى كذا ؟ فإنه يطلب الاطلاع على سر الملك ، وما يجد إلى ذلك سبيلاً لوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى ستر كثيراً من حكمه عن الخلق .

والثاني : أنه ليس في قوى البشر إدراك حكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المخرج إلى الكفر : ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ [الحج ١٥]. والمعنى : من رضى بأفعاله وإلا فليختنق نفسه فما أفعل إلا ما أريد .

٢٤٧ـ فصل : من رزقه الله تعالى العلم ، والنظر في سير السلف ، رأى أن هذا العالم ظلمة ، وجمهور العالم على غير الجادة ، والمخالطة [١١٠ / أ] لهم تضر ولا تنفع ، فالعجب لمن يترخص في المخالطة ، وهو يعلم أن الطبع بصير يسرق من المخالطة ، وإنما ينبغي أن تقع المخالطة للأرفع والأعلى في العلم والعمل ليستفاد منه ؛ فأما مخالطة الدون فإنها تؤذي ، إلا أن يكون عامياً يقبل من معلمه ، فينبغي أن يخالط بالاحتراز .

وفي هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام فهم ظلمة مستحكمة فإذا ابتلى العالم بمخالطتهم فليشمر ثياب الحذر ، ولتكن مجالسته إياهم للتذكرة والتأديب فحسب .

وإن وقعت المخالطة للعلماء فأكثرهم على غير الجادة مقصودهم صورة العلم لا العمل به ؛ فلا تكاد ترى من تذاكره أمر الآخرة ، إنما شغلهم الغيبة وقصد الغلبة واجتلاب الدنيا ، ثم فيهم من الحسد للنظراء ما لا يوصف .

وإن وقعت المخالطة للأمراء ، فذاك تعرض لفساد الدين ، لأنه إن تولى لهم ولاية دنيوية فالظلم من ضروراتها ، لغلبة العادة عليه والإعراض عن الشرع . وإن كانت ولاية دينية كالقضاء ، فإنهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا ، وأكثر القوم يخاف على منصبه ، فيفعل ما أمر به وإن لم يجز ، وربما رأيت في هذا الزمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاة ، أو شهوداً ، ومقصودهم الرفعة .

ثم أكثر الشهود يشهد على من لا يعرفه ، ويقول : إنه معرف ويدري أنه كذاب ، وأنه إنما عرّف لأجل حبة يعطاها ، وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، وعلى مكره .

وإن وقعت المخالطة للمتزهدين فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لأنفسهم نواميس ، فلا يتسمون ولا يخرجون إلى سوق ، ويظهرون التخشع الزائد وكله نفاق ، وفيهم من يلبس الصوف تحت ثيابه ، وربما لوّح بكمة ليُرى .

وقد حكى عن طاهر بن الحسين أنه قال لبعض المتزهدين : مذ كم قدمت العراق ؟ قال : دخلتها منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال : سألناك عن مسألة فأجبت عن اثنتين .

وبنت الصوفية أربطة فهي خوارج على المساجد ، هي دكاكين كريه يقعد فيها الكسالى عن الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالقعود للصدقات ، ولأموال الظلمة ، وقد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم وأكثرهم لا يصلي نافلة ، ولا يقوم الليل ، بل همتهم المأكول [١١٠/ب] والمشروب والرقص ، وقد اتخذوا سنناً تخالف الشريعة فهم يلبسون المرقع لا من فقر .. وهذا قبيح ؛ لأنه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى الملبس الدون ، فثيابهم تصيح نحن زهاد ، وباقي أفعالهم المستورة [تفضحهم] إذا اطلع عليها .. فالمطبخ دائر .. والحمام والحلوى كثيرة .. والطيب والدعة ، والكبر حاصل بذلك الكبر .

وقد قال النبي ﷺ لمالك بن نضلة ، ورآه أشعث الهيئة : « **أَمَا لَكَ مَالٌ ؟** » قال : بلى من كل المال آتاني الله ﷻ ! . قال : « **فَإِنَّ** الله ﷻ **إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى عَلَيْهِ** »[1].

---

(١) إسناده صحيح : رواه أبو داود (٤٠٦٣) ، والنسائي (١٨٠/٨-١٨١) ، وأحمد (٤٧٣/٣) ، وعبد الرزاق (٢٠٥/٣) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار من طرق عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه فذكره وأبو إسحاق مدلس ولكن روى عنه شعبة عند أحمد وصرح بالتحديث عنده كذلك .

ومن أخلاقهم تنفير الناس عن العلم، ويزعمون أن لا حاجة إلى الوسائط ، وإنما هو قلب ورب ، ولهم من الأقوال والأفعال المنكرات ما قد ذكرته في تلبيس إبليس .. آه لو كان للزمان عُمر لاحتاج كل يوم إلى مائة درة .. لا بل كان يستعمل السيف في حق هؤلاء الخوارج ، وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم .. إذ قولهم فيهم لا يقبل .

فمن رزقه الله سبحانه النظر في سير السلف، ووفقه للاقتداء بهم أن يعتزل عن أكثر الخلق ، ولا يخالطهم فإنه من خالط دارى ، ومن دارى لم يسلم من المداهنة ، فالنصح اليوم مردود .

٢٤٨ ـ فصل : من البله أن يبارز عدواً أو حسوداً بالمخاصمة ، وإنما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما ، وإن اعتذر قبلت ، وإن أخذ في الخصومة صفحت ، وأريته أن الأمر قريب ، ثم تبطن في الحذر منه ؛ فلا تثق به في حال ، وتتجافاه باطناً مع إظهار المخالطة في الظاهر ؛ فإذا أردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك نفسك واجتهادك فيما يرفعك ، ومن أعظم العقوبة له العفو عن ذللــه ، وإن بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه ، ويحمدك العلماء على حلمك ، وما تؤذيه به من ذلك وغيره في الباطن أضعاف ، وما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها .

ثم بالخصومة تعلمه أنك عدو فيأخذ الحذر ويبسط اللسان دائماً ، وبالصفح يجهل ما في باطنك ، فيمكنك حينئذ أن تشتفي منه بما يؤذى دينك فيكون هو الذي قد اشتفى منك ، ما ظفر قط من ظفر به الإثم بل الصفح المطلق من غير اضمار [١١١ / أ] جزاء عقوبة الكرم وهو الصفح الجميل ، وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليطه عليه إما عقوبة لذنب أو لرفع درجة أو للابتلاء فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة .

٢٤٩ ـ فصل : إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها ليس لك إلا الدعاء واللجا بعد أن تقدم التوبة من الذنوب ، فإن الزلل يوجب العقوبة ، فإذا زال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب ، فإذا ثبت ودعوت ولم تر للإجابة أثراً فتفقد أمرك ، فربما كانت التوبة ما صحت ، فصححها ثم ادع ولا تملَّ من الدعاء ، فربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة ، وربما لم تكن المصلحة في

الإجابة ، فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك ، ومن منافعك أن لا تعطي ما طلبت بل تعوض غيره .

فإذا جاء إبليس فقال : كم تدعوه ولا ترى جواباً فقل له : أنا أتعبد بالدعاء ، وأنا موقن أن الجواب حاصل ؛ غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح عليَّ ما بينب ، ولو لم يحصل حصل التعبد والذل . فإياك أن تسأل شيئاً إلا وتقرنه بسؤال الخيرة ، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سبباً للهلاك ، وإذا كنت قد أمرت بالمشاورة في أمور الدنيا لجليسك ليبين لك في بعض الآراء ما يعجز رأيك ، وترى أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالمصالح ، والاستخارة من جنس المشاورة .

٢٥٠ ـ فصل : نظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل ، فأما الجهال فانقسموا ، **فمنهم سلطان** قد ربى في الجهل ، ولبس الحرير ، وشرب الخمور ، وظلم الناس ، وله عمال على مثل حاله ، فهؤلاء بمعزل عن الخير بالجملة ، **ومنهم تجار** همتهم الاكتساب وجمع الأموال ، وأكثرهم لا يؤدي الزكاة ولا يتحاشا من الربا فهؤلاء في صور الناس ، **ومنهم أرباب معاش** يطففون المكيال [ويخسرون الميزان] ويبخسون [الناس] ويتعاملون بالربا وهم في الأسواق طول النهار لا همة لهم إلا ما هم فيه ، فإذا جاء الليل وقعوا نياماً كالسكارى ، فهمة أحدهم ما يأكل ويلتذ به ، وليس عندهم من الصلاة خبر ، فإن صلى أحدهم نقرها أو جمع بينهما ، فهؤلاء في أعداد البهائم .

ومن الناس [ذوو] رذالة في جميع أحوالهم ؛ فهذا كناس وهذا زبال وهذا نخال وهذا يكسح الحش فهؤلاء أرذل القوم .

ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش فيخـــرج إلى قطع الطريق [١١١ / ب] ، وهؤلاء أحمق الجماعة ، إذ لا عيش لهم ؛ فإن التذوا لحظة بأكل أو شرب فحركت الريح قصبة هربوا خوفاً من السلطان ، وما أقل بقاءهم ، ثم القتل والصلب مع إثم الآخرة . **ومنهم أرباب قرى قد عمهم الجهل** ، وأكثرهم لا يتحاشا من نجاسة ، فهم في زمرة البقر .

ورأيت النساء ينقسمن أيضاً ، فمنهن المستحسنة التي تبغي ، ومنهن الخائنة لزوجها في ماله ، ومنهن من لا تصلي ولا تعرف شيئاً من الدين ؛ فهؤلاء حشو

النار ، فإذا سمعت موعظة فإنها كما مرت على حجر ، وإذا قرىء عندهم القرآن فكأنهن يسمعن السمر .

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذي نية خبيثة يقصد بالعلم المباهاة لا العمل ، ويميل إلى الفسق ظناً أن العلم يدفع عنه ، وإنما هو حجة عليه .

وأما المتوسطون والمشهورون ، فأكثرهم يغشى السلاطين ويسكت عن إنكار المنكر ، وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده .

فمن أراد الله به خيراً رزقه حسن القصد في طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفـــع ، ولا يبالي بعمل مما يدله عليه العلم ، فتراه يتجافى [عن] أرباب الدنيا ، ويحذر مخالطة العوام ، ويقنع بالقليل خوفاً من المخاطرة بالدنيا في تحصيل الكثير ، ويؤثر العزلة فليس مذكراً للآخرة مثلها .

وليس على العالم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسن للعالم الدنيا ويهون عليه المنكر ، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له ، فإن عُدم القناعة وغلبته نفسه في طلب فضول الدنيا يسلم عليه لأنه يتعرض بأربابها ، وإن الإنسان ليمشي في السوق ساعة فينسى بما يرى ما يعلم ، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء والطمع في أموالهم .

فأما الوحدة فإنها سبب رجوع القلب ، وجمع الهم ، والنظر في العواقب ، والتهيؤ للرحيل وتحصيل الزاد ؛ فإذا انضمت إليها القناعة جلبت المستحسنة ، ولا يحسن اليوم المجالسة إلا لكتاب يحدثك عن أسرار السلف ؛ فأما مجالسة العلماء فمخاطرة ، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في [الأغلب].

ومجالسة العوام فتلف للدين ، إلا أن يحترز مجالسهم ويمنعهم من القول فيقول هو ويكلفهم السماع ، ثم يستوفز للبعد عنهم ولا يمكن الانقطاع الكلى إلا بقطع الطمع ، ولا ينقطع [١١٢ / أ] الطمع إلا بالقناعة باليسير أو تمييز تجارة أو أن يكون له عقار يستغله ، فإنه متى احتاج تشتت الهم ، ومتى انقطع العالم عن الخلق وقطع طمعه فيهم ، وتوفر على ذكر الآخرة ؛ فذاك الذي ينتفع وينتفع به . والله الموفق .

٢٥١ ـ **فصل** : من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر ، ولذات بلا انقطاع ، وبلوغ كل مطلوب للنفس ، والزيادة بما لا عين رأت ولا

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من غير تغيير ولا زوال ، ولا يقال ألف ألف سنة ولا مائة ألف ألف ، ولو أن الإنسان عدّ الألوف ألوف سنين لا يقضي عدده ولا كان له نهاية ، وبقاء الآخرة لا نفاد له ؛ إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر . وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمسة عشر صبوة وجهل ، وثلاثون بعد السبعين - إن حصلت - ضعف وعجز .

والتوسط نصفه نوم وبعضه زمان أكل وشرب وكسب ، والمنتحل منه للعبادات يسير . أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل ؟ إن الإعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لغبن فاحش في العقل ، وخلل داخل في الإيمان بالوعد ؛ فإنما من يدري كيف يعقد البيع بالعلم ، هو الذي يدل على الطريق ويعرّف ما يصلح لها ويحذر من قطاعها .

ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات أعظمها أنه صرفهم عن العلم ؛ فكأنه شرع في إطفاء المصباح ليسرق في الظلمة ؛ حتى أنه أخذ قوماً من كبار العلماء فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم ؛ فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال : شاورت متبوعاً مقدماً من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه .

وقال : السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم ، بل تصير إلى حالة يستوى عندك وجود ذلك وعدمه ، ثم تخلو بنفسك في زاوية ، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغ القلب ، ولا تزال تقول : الله الله .. إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك ، ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء .

قلت : وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من الموصى | ١١٢ / ب | به ، وإنما أتعجب من الذي قبله مع معرفته وفهمه ، وهل يقطع الطريق بالإعراض عن تلاوة القرآن ؟ وهل فتح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم ؟ وهل يوثق بما يظهر ؟ ثم ما الذي يفتح ؟ أثم اطلاع على علم الغيب أم وحي .. فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم .

وربما كان ما يتخايل من أثر الماليخوليا ومن إبليس ، فعليك بالعلم ، انظر في سير السلف ؛ هل فعل أحد منهم من هذا شيئاً أو أمر به ، وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها . نسأل الله ﷻ علماً نافعاً ، للعدو مانعاً . إنه قادر .

٢٥٢ ـ فصل : من أراد اصطفاء محبوب فالمحبوب نوعان امرأة يقصد منها حسن الصورة ، وصديق يقصد منه حسن المعنى ، فإذا أعجبك صورة امرأة فتأمل خلالها الباطنة مديدة قبل أن يتعلق القلب بها تعلقاً محكماً ، فإن رأيتها كما تحب وأصل ذلك كله الدين كما قال : « **عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّين** »[1] فمل إليها واستولدها وكن في ميلك معتدل الميل ، فإنه من الغلط أن تظهر لمحبوبك المحبة ، فإنه يشتط عليك ، وتلقي منه الأذى والتجني والهجران والإذلال وطلب الإنفاق الكثير ، وإن كانت تحبك ، لأن هذا إنما يجتلبه حب الإذلال لمقهور ؛ ثم نكتة عجيبة ؛ وهو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ، وهي تحكم بكمال الحب ، ثم إن ذلك لا يثبت إليك يقع فتبقى مقهوراً ويصعب عليك الخلاص ، وربما تمكنت بمعرفة سرك أو بأخذ كثير من مالك .

ومن أحسن ما بلغني في هذا أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حباً شديداً ولا تظهر له ذلك ، فسئلت عن هذا ؛ فقالت : لو أظهرت ما عندي لجفاني فهلكت . قال الشاعر :

لا تظهرن محبـــة لحـــبيب فترى بعينك منه كل عجيب
أظهرت يوماً للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيب

وكذلك ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد ، لأنه يتسلط عليك ، ويضيع مالك ، ويبالغ في الإدلال ، ويمتنع عن التعلم والتأديب ، وكذلك إذا اصطفيت صديقاً وخبرته فلا تخبره بكل ما عندك ، بل تعاهده بالإحسان كما [١١٣ / أ] تتعاهد الشجرة ، فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد . ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال . وقد قيل :

---

(١) **صحيح** : رواه مسلم . طرف حديث (١٤٦٦) بلفظ فعليك بذات الدين تربت يداك ، وهو عند البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) بلفظ فاظفر بذات الدين .

احــذر عـــدوك مـــرة | واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلب الصـديق | فكـان أدرى بالمضـرة

٢٥٣ـ [فصل] : وأما إذا أبغضت شخصاً فلا تظهرن ذلك له فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك ، وتدعوه إلى المبارزة فيبالغ في حربك والاحتيال عليك ، بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت ، وتبره ما استطعت ؛ فانكسرت عادته جبلة بالحياء من بغضك . فإن لم تطق فهجر جميل ، لا تبين فيه ما يؤذي ، ومتى سمعت عنه كلمة قذعة فاجعل جوابها كلمة جميلة ، فهي أقوى في كف لسانه ، وكذلك جميع ما يخاف إظهاره ، فلا تتكلمن به ، فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز سلطان فنقلت إليه فكانت سبب هلاكك أو عن صديق فكانت سبب عداوته ، أو صرت رهيناً لمن سمعها خائفاً أن يظهرها ، فالحزم كتمان الحب والبغض . وكذا ينبغي أن تكتم سنك فإن كنت كبيراً استهرموك ، وإن كنت صغيراً استحقروك .

وكذلك مقدار مالك ، فإنه إن كان كثيراً نسبوك في نفقتك إلى البخل ، وإن كان قليلاً طلبوا الراحة منك .

وكذلك المذهب فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك .

وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار :

احفـظ لسانك لا تبـح بثلاثة | سناً ومالٍ ما ستطعت ومذهب
فعلـى الثـلاثة تبتلى بثـلاثة | بممـوه ومِمخرف ومكـذب

٢٥٤ـ فصل : طال تعجبي من مؤمن بالله ﷻ مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى من الجور الظاهر فواعجباً ما الذي يعجبه ؟ إن كان الذي يعجبه دنيوياً فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله ، وأن يتصدر في المجالس ويلوى عنقه كبراً على النظراء ، ويأخذ الأسحات وهو يعلم من أين حصل ، وربما انبسط في البراطيل ، ثم يقابل هذا أن يصادر ويعزل ؛ فيستخرج تلك المرارة من كل حلاوة كانت في الولاية وربما كان قريب الحال فافتقر بالمصادرة جداً ، ثم تنطلق الألسن للمادحة بالذم .

ثم لو سلم من هذا فإنه [١١٣ / ب] لا يسلم من الرقيب له والحذر منه ، فهو كراكب البحر إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف .

وإن كان ديناً فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه في الغالب من العمل بمقتضى الدين ؛ فإنهم يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز فيذهب دينه على البارد ولعقاب الآخرة أشق .

٢٥٥ ـ فصل : العجب من الذي أنف من الذل كيف لا يصبر على جلف[1] الخبز ولا يتعرض لمنن الأنذال ، أتراه ما يعلم أنه ما بقي صاحب مروءة ! وأنه إن سأل سُئل بخيلاً لا يعطي ، فإن أعطى نزراً فإنه يستعبد المعطي باقي العمر بذلك ، ثم ذاك القدر النَزر يذهب عاجلاً ، وتبقى المنن والخجل ورؤية النفس بعين الاحتقار ، إذ صارت سائلة ، ورؤية المعطي بعين التعظيم أبداً ، ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطى ، والبدار إلى قضاء حقوقه وحدسه فيما يفي .

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الأحرار بقليل العطاء الفاني ولا يفعل ، فإن الحر لا يشتري إلا بالإحسان قال الشاعر :

تفضل على من شئت واعن بأمره ... فأنت - ولو كان الأمير - أميره
وكن ذا غنى عن من تشاء من الورى ... ولو كان سلطانا فأنت نظيره
ومن كنت محتاجاً إليه ووافقا ... على طمع منه فأنت أسيره

٢٥٦ ـ فصل : يتضمن وصية الشباب ؛ ينبغي للصبي إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك في الكبر ؛ لأنه من الجائز كبره والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب .

كما ينبغي أن يستعد للشتاء قبل هجومه ، ومتى أنفق الحاصل وقت القدرة تأذى بالفقر إليه وقت الفاقة .

وليعلم ذو الذهن والفهم أن المتعة إنما تكون بالقرب من الحبيب ، والقرب يحصل بالتقبيل والضم ؛ وذلك يقوى المحبة ، والمحبة يلذ وجودها والوطء ينقص المحبة ويعدم تلك اللذة .

وقد كان العرب يعشقون ولا يرون وطء المعشوق . قال قائلهم : إن نكح الحب فسد ؛ فأما الالتذاذ بنفس الوطء فشأن البهائم .

ولقد تأملت المراد من الوطء فوجدت فيه معنى عجيباً يخفى على كثير من

---

(١) هو الغليظ اليابس من الخبز (القاموس المحيط ص ٧٩٧) .

الناس ، وهو أن النفس إذا عشقت شخصاً أحبت القرب منه ، فهي تؤثر الضم والمعانقة لأنها غاية في القرب ، ثم تريد قرباً يزيد على هذا فيقبل الخد ، ثم تطلب القرب من الروح فيقبل الفم ، لأنه | ١١٤ / أ | منفذ إلى الروح ، ثم تطلب الزيادة فيمص لسان المحبوب ، وقد كان رسول الله ﷺ يتوشح عائشة ويقبلها ويمص لسانها ؛ فإذا طلبت النفس زيادة في القرب إلى النفس استعملت الوطء ؛ فهذا سره المعنوي ، ويحصل منه الالتذاذ الحسي .

٢٥٧ ـ فصل : ليس على العوام أضر من سماعهم علم الكلام ، وإنما ينبغي أن يحذر العوام من سماعه والخوض فيه ، كما يحذر الصبي من شاطيء النهر خوف الغرق ، وربما ظن العامي أن له قوة يدرك بها هذا وهو فاسد ، فإنه قد زل في هذا خلق من العلماء فكيف العوام .

وما رأيت أحمق من جمهور قُصاص زماننا ، فإنه يحضر عندهم العوام الغشم فلا ينهوهم عن خمر وزنا وغيبة ، ولا يعلمونهم أركان الصلاة ووظائف التعبد ، بل يملؤون الزمان بذكر الاستواء وتأويل الصفات ، وأن الكلام قائم بالذات فيتأذى بذلك من كان قلبه سليماً .

وإنما على العاصي أن يؤمن بالأصول الخمسة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويقنع بما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والاستواء حق والكيف مجهول ، وليعلم أن رسول الله ﷺ لم يكلف الأعراب سوى مجرد الإيمان ، ولم يتكلم الصحابة ﷺ في الجواهر والأعراض ، فمن مات على طريقهم مات مؤمناً سليماً من بدعة ، ومن تعرض لساحل البحر وهو لا يحسن السباحة فالظاهر غرقه .

٢٥٨ ـ فصل : أشد الناس جهلاً منهوم باللذات ، واللذات على ضربين مباحة ومحظورة .

فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هو مهم من الدين ؛ فإذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم ، ثم لا تكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها ألوف ، فإذا صور عدمها الألوف صار التصوير مغلصماً للهوى مجرئاً للنفس ؛ فإذا أنعت أنعت من الأسف على الدوام ما لا يحـــويه صفة ؛ فهي تغر

الغمر[1] وتهدم العمر وتديم الأسى .

ومع هذا فالمنهوم كلما عدَّ من لذة طلب أختها ، وقد عرف خيانة الأولى وجناياتها ، وهذا مرض العقل ، وداء الطبع ؛ فلا يزال صاحب هذا كذلك إلى أن يُختطف بالموت فيبقى لقاً على بساط ندم لا يُستدرك .

فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر [١١٤ / ب] ، ثم لا يهتم بآخرته التي لذاتها سليمة من شامت ، منَزهة عن معائب دائمة إلى الأمد باقية ببقاء الأبد .. وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك ، وعمران هذه بتخريب تلك .. فواعجباً لعاقل حصيف حسن التدبير ، فاته النظر في هذه الأحوال ، وغفل عن تمييز ما بين هذين الأمرين .

وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه عار الدنيا ، والفضيحة بين الخلق ، وعقوبة الحدود ، وعقاب الآخرة وغضب الحق سبحانه .

بالله إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل ، فذم ذلك لبيان الحزم ، فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل ، نسأل الله ﷻ يقظة تحركنا إلى منافعنا ، وتزعجنا عن خوادعنا إنه قريب مجيب .

٢٥٩ ـ فصل : تأملت على الخلق وأنا في الأول حالة عجيبة يكاد يقطع معها بفساد العقل ، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ وتذكر له الآخرة فيعلم صدق القائل ، فيبكي وينْزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه ؛ فإذا قيل له : أتشك فيما وُعدت به ؟ قال : لا والله . فيقال له : فاعمل . فينوي ذلك ثم يتوقف عن العمل ، وربما مال إلى لذة محرمة ، وهو يعلم النهى عنها .

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الذين خلفوا و لم يكن لهم عذر ، وهم يعلمون قبح التأخر ، وكذلك كل عاص ومفرط .

فتأملت السبب في أن الاعتقاد صحيح والفعل بطيء ، فإذا له ثلاثة أسباب

أحدها : رؤية الهوى العاجل ، فإن رؤيته تشغل عن الفكر فيما يجنيه .

والثاني : التسويف بالتوبة ؛ ولو حضر العقل لحذر من آفات التأخير ، فربما

---

(١) **الغمز** : الخامل المغمور .

هجم الموت و لم تحصل التوبة .

والعجب ممن يجوز سلب روحه قبل مضي ساعة لا يعمل على الحزم ، غير أن الهوى يطيل الأمل ، وقد قال صاحب الشرع ﷺ « **صل صلاة مودع** »[1] وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فإنه من ظن أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى جدّ واجتهد .

والثالث : رجاء الرحمة ، فيُرى العاصي يقول : ربي رحيم ، وينسى أنه شديد العقاب ، ولو علم أن رحمته ليست رقة إذ لو كانت كذلك لما ذبح عصفوراً ، ولا آلم طفلاً ، وعقابه غير مأمون ، فإنه شرع قطع اليد الشريفة [١١٥/ أ] بسرقة خمسة قراريط ، فنسأل الله ﷻ أن يهب لنا حزماً يبيت المصالح جزماً .

٢٦٠ ـ فصل : نظرت في قول رسول الله ﷺ لمـــا لبس الخاتم ثم رمى به وقال : « **شغلني نظرة إليكم ونظرة إليه** »[2] . وقوله : « **هَذَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ في حُلّته مرجِّلاً جُمَّته خُسفَ به الأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فيهَا إِلى يَوْمِ القيَامَة** »[3] .

فرأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يلبس ثوباً معجباً ولا شيئاً من زينة ، لأن ذلك يوجب النظر إلى النفس بعين الإعجاب ، والنفس ينبغي أن تكون ذليلة للخالق ،

---

(١) **إسناده ضعيف** : رواه ابن ماجة (٤١٧١) ، وأحمد (٥/٤١٢) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٢١٦) ، والطبراني في الكبير (٣٩٨٧) ، والمزي في تهذيب الكمال (١٩/٣٤٧) ، والبيهقي في الزهد الكبير (١٠٢) ، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٣٦) ، وأبو نعيم في الحلية (١/٣٦٢) (وقد تحرف عثمان ابن جبير في المطبوع في الأمثال إلى عثمان بن خثيم وفي الحلية إلى عمير بن جبير) من طريق عثمان ابن جبير ، وهو مجهول وقد اضطرب فيه فمرة رواه عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً ومرة رواه عن جده عن أبي أيوب ومرة عن أبيه عن أبي أيوب . وله شاهد عن سعد بن أبي وقاص عند الحاكم (٤/٣٢٦- ٣٢٧) وفيه حميد بن أبي حميد وهو ضعيف . وله شاهد آخر عند ابن عمر عند الطبراني في الأوسط (٤٤٢٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٩٥٢) ، والزهد الكبير للبيهقي (٥٢٨) وقـــد قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢٩) وفيه من لم أعرفهم ، وقد روى نحوه مرقوفاً على سعد بن عماره السعدي عند الطبراني في الكبير (٥٤٥٩) قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٣٦) رجاله ثقات ولكن قال في المجمع (١/٢٢٨) وفيه عبيد الله بن سعد عن أبيه و لم أر من ترجم لهما .

(٢) **إسناده صحيح** : رواه النسائي (٨/١٩٤- ١٩٥) ، وأحمد (١/٣٢٢) ، وابن حبان (٥٤٩٣) ، والطبراني (١٢٤٠٨) عن عثمان بن عمر عن مالك بن مغول عن سليمان الشيباني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً فلبسه ، قال : شغلني هذا عنكم منذ اليوم إليه نظرة وإليكم نظرة . ثم ألقاه .

(٣) **صحيح** : رواه مسلم (٢٠٨٨) .

وقد كان قدماء الأحبار في بني إسرائيل يمشون على العصا لئلا يقع منهم بطر في المشي .

ولبست أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – درعاً لها فأعجبت به ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إليك في حالتك هذه »(١).

ولما لبس رسول الله ﷺ خميصة لها أعلام قال : « **أَلْهَتْنِي هَذه عَنْ صَلاتِي** »(٢)

وهذا كله موجب الإعراض عن الزينة وما يحرك إلى الفخر والزهو والعجب ؛ ولهذا حرم الحرير .

وأقول على أسباب هذا : أن المرقعـــات التي يتتوق فيها المتصوفة بالسوارك والتلميع ، ربما أوجبت زهو الملابس ، إما لحسنها في ذاتها ، أو لعلمه أنها تنبئ عنه بالتصوف والزهد . وكذلك الخاتم في اليد ، وطول الأكمام ، والنعال الصرارة ، ولا أقول : إن هذه الأشياء تحرم ، بل ربما جلبت ما يحرم من الزهو ، فينبغي للعاقل أن يتنبه بما قلت في دفع كل ما يحذر من شره ، وقد ركب ابن عمر نجيباً فأعجبه مشيه فنزل ، وقال : يا نافع أدخله في البُدْن .

٢٦١ ـ **فصل** : من أراد اجتماع همه وإصلاح قلبه ، فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان ، فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره ، فصار الاجتماع على ما يضر . وقد جربت على نفسي مراراً أني أحصرها في بيت العزلة ، فتجتمع هي ويضاف إلى ذلك النظر في سير السلف فأرى العزلة حمية والنظر في سير القوم دواء ، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع .

فإذا فسحت لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم تشتت القلب المجتمع ، ووقع الذهول عما كنت أراعيه ، وانتعش في القلب ما قد رأته العين ، وفي الضمير ما تسمعه الأذن ، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا ، وإذا جمهور المخالطين أرباب غفلة ، والطبع [١١٥ / ب] بمجالستهم يسرق من طباعهم ؛ فإذا عدت أطلب القلب لم أجده ، وأروم ذاك الحضور فأفقده ، فيبقى في غمار ذلك اللقاء للناس أياماً حتى ما يسلو الهوى .

---

(١) **لم أقف عليه** .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) .

وما فائدة تعريض البناء للنقض ، فإن دوام العزلة كالبناء ، والنظر في سير السلف يرفعه ، فإذا وقعت المخالطة انتقض ما بنى في مدة في لحظة ، وصعب التلاقي ، وضعف القلب ، ومن له فهم يعرف أمراض القلب وإعراضه عن صاحبه وخروج طائره من قفصه ، ولا يؤمن [على] هذا المريض أن يكون مرضه هذا سبب التلف ، ولا على هذا الطائر المحصور أن [لا] يقع في الشبكة ، وسبب مرض القلب أنه كان محمياً عن التخليط مُغَذياً بالعلم وسير السلف فخلط ؛ فلم يحتمل مزاجه فوقع المرض . فالجد الجد فإنما هي أيام وما تمئ من يلقى ولا من يؤخذ منه ، ولا من تنفع مجالسته ، إلا أن يكون نادراً ما أعرفه :

ما في الصحاب أخو وجد نطارحه ... حـــديث نجـــد ولا صب نجاريه

فالزم خلوتك ، وراع ما بقيت . وإذا قلقت النفس مشتاقة إلى لقاء الخلق ، فاعلم أنها بعدُ كدرة فرضها ليصير لقاؤهم عندها مكروهاً ، ولو كان عندها شغل بالخالق لما أحبت الزحمة ، كما أن الذي يخلو بحبيبه لا يؤثر حضور غيره ، ولو أنها عشقت طريق اليمن لم تلتفت إلى الشام .

٢٦٢ ـ **فصل** : تفكرت في سبب هداية من يهتدي وانتباه من يتيقظ من رقاد غفلته ، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق ﷻ لذلك الشخص كما قيل : إذا أرادك لأمر هيأك له ، فتارة تقع اليقظة بمجرد فكر يوجبه نظر العقل ، فيتلمح الإنسان وجود نفسه فيعلم أن لها صانعاً ، وقد طالبه بحقه وشكر نعمته وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر .

ومن هذا ما جرى لأهل الكهف ﴿ **إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الكهف : ١٤]. وفي التفسير : إن كل واحد منهم ألقى في قلبه يقظة فقال : لابد لهذا الخلق من خالق ، فاشتد كرب بواطنهم من وقود نار الحذر ، فخرجوا إلى الصحراء ، فاجتمعوا عن غير موعد ، فكل واحد يسأل الآخر : ما الذي أخرجك فتصادقوا .

ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه وتعالى لذلك السبب الذي هو الفكر والنظر سبباً ظاهراً . إما من موعظة يسمعها أو يراها ، فيحرك هذا السبب الظاهر [١١٦ / أ] فكرة القلب الباطنة . ثم ينقسم المتيقظون فمنهم من يغلبه هواه ويقتضيه طبعه ما يشتهي مما قد اعتاده ، فيعود القهقري ولا ينفعه ما حصل

له من الانتباه . فانتباه مثل هذا زيادة في الحجة عليه .

ومنهم من هو واقف في مقام المجاهدة بين صفين العقل الآمر بالتقوى ، والهوى المتقاضي بالشهوات ، فمنهم من يُغلب بعد المجهدات الطويلة فيعود إلى الشر ويختم له به ، ومنهم من يغلب تارة ويغلب أخرى فجراحاته لا في مقتل .

ومنهم من يقهر عدوه فيسجنه في حبس ، فلا يبقى للعدو من الحيلة إلا الوساوس ومن الصفوة أقوام مذ تيقظوا ما ناموا ، ومذ سلكوا ما وقفوا ، فهمهم صعود وترق ، كلما عبروا[1] مقاماً إلى مقام رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا .

ومنهم من يرقى عن الاحتياج إلى مجاهدة إما لخسة ما يدعوا إليه الطبع عنده ولا وقع له ، وإما لشرف مطلوبه فلا يلتفت إلى عائق عنه .

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام ، وإنما يقطع بالقلوب . والشهوات العاجلة قطاع الطريق والسبيل كالليل المدلهم ، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء ، والصدق في الطلب [منار] أين أجودها يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم يُخلص . وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٢٦٣ ـ فصل : عجبت لمن يعجب بصورته ويختال في مشيته وينسى مبدأ أمره ؛ إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء ؛ فإن شئت كسيرة خبز معها تمرات وقطعة من لحم ومذقة من لبن وجرعة من ماء ، ونحو ذلك طبخته الكبد فأخرجت منه قطرات مني ، فاستقر في الأنثيين فحركتها الشهوة ، فبقيت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها فخرجت طفلاً يتقلب في خرق البول .

وأما آخره فإنه يُلقى في التراب فيأكله الدود ويصير رفاتاً تسفيه السوافي ، وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر ، ويقلب في أحوال أن يعود فيجمع . هذا خبر البدن .

إنما الروح عليها العمل ، فإن تجوهرت بالأدب وتقومت بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه فما يضرها نقض المركب ، إن هي بقيت على صفتها من

---

(١) في المخطوط عرر ، والمثبت أوجه .

الجهالة شابهت الطين بل صارت إلى أخس حالة منه .

٢٦٤ ـ فصل : هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا [١١٦ / ب] ؛ خصوصاً بالشاب الفقير الذي قد ألف الفقر ؛ فإنه إذا تزوج وليس له شيء من الدنيا اهتم بالكسب أو بالطلب من الناس ، فتشتت همته وجاءه الأولاد فزاد الأمر عليه ، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام ومن ينكر فهمته ما يأكل وما يأكله أهله ، وما يرضى به الزوجة من النفقة والكسوة ، وليس له وجه ذلك . فأي قلب يحضر له ، وأي هم يجتمع ؟ هيهات !.

والله لا يجتمع الهم والعين تنظر إلى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ، واللسان يخاطبهم ، والقلب متوزع في تحصيل ما لابد منه . فإن قال قائل : فكيف أصنع ؟. قلت : إن وجدت ما يكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفك فاقنع بها ، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت ، وإن تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير وتصبر أنت على صورتها وفقرها ، ولا تترك نفسك تطمح إلى من تحتاج إلى فضل نفقة . فإن رزقت امرأة صالحة جمعت همك ، وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة وإياك والمستحسنات فإن صاحبهن إذا سلم كعابد صنم ، وإذا حصل بيدك شيء فأنفق بعضه ، فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك .

واحذر كل الحذر هذا الزمان وأهله فما بقى مواس ولا مؤثر ، ولا من يهتم لسد خلة ، ولا من لو سئل أعطى إلا أن يعطي نزراً بتضجر ، ومنه يستعبد بها المعطي بقية العمر ، ويستثقله كلما رآه ويستدعي خدمته له ويتردد إليه .

وإنما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيد سمع أبا عثمان المغربي يقول يوماً على المنبر على ألف دينار ، وقد ضاق صدري ، فمضى أبو عمرو إليه في الليل بألف دينار ، وقال اقض دينك ، فلما عاد وصعد المنبر قال شكر الله لأبي عمرو فإنه أراح قلبي وقضى ديني . فقام أبو عمرو فقال : أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدتي وقد شق عليها ما فعلت فإن رأيت أن تتقدم برده فافعل ، فلما كان في الليل عاد إليه ، وقال له : لماذا شهرتني[1] بين الناس وأنا ما فعلت ذلك لأجل الخلق ، فخذه ولا تذكرني .

---

(١) في المخطوط : نلتهرتني ، والمثبت أوجه .

ماتوا وغيب في التراب شخوصهم فالنشر مسك والعظـــام رميم

فالبعد البعد عن من همته الدنيا ، فإن زاهدهم اليوم إلى أن يحصل أقرب منه إلى أن يؤثر ، ولا تكاد ترى إلا عدواً في الباطن صديقاً في الظاهر شامتاً بباطنة [١١٧ / أ] حسوداً على نعمه ، فاشتر العزلة بما بيعت فإن من له قلب إذا مشى في الأسواق وعاد إلى منْزلة تغير قلبه ، فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدنيا ، واجتهد في جمع الهم بالبعد عن الخلق ليخلو القلب بالتفكر في المآب وتتلمح عين البصيرة خيم الرحيل .

٢٦٥ ـ فصل : كان المريد في بداية الزمان إذا أظلم قلبه أو مرض لبه ؛ قصد زيارة بعض الصالحين فانجلى ما أظلم . واليوم متى حصلت ذرة من الصدق لمريد فرْدية في بيت عزلة ، ووجد نسيماً من روح العافية ، ونوراً في باطن قلبه ، وكاد همه يجتمع وشتاته ينتظم ، فخرج فلقى من يومي إليه بعلم أو زهد رأى عنده البطالين وهو يجرى معهم مسلك الهذيان الذي لا ينفع ، ورأى صورته صورة منمس[1] ، وأهون ما عليه تضييع الأوقات في الحديث الفارغ . فما يرجع المريد عن ذلك الوطن إلا وقد اكتسب ظلمة في القلب وشتاتاً في العزم ، وغفلة عن ذكر الآخرة ، فيعود مريض القلب ؛ يتعب في معالجته أياماً كثيرة حتى يعود إلى ما كان فيه ، وربما لم يعد لأن المريد في ضعف فإذا رأى شيخاً قد جرب وعرف ثم يؤثر البطالة ، لم يأمن أن يتبعه الطبع فالأولى للمريد اليوم أن لا يزور إلا المقابر ولا يفاوض إلا الكتب التي قد حوت محاسن القوم ، وليستعن بالله تعالى على التوفيق لمراضيه ، فإنه إن أراده هيأه لما يرضيه .

٢٦٦ ـ فصل : تأملت الذي يختارهم الحق ﷻ لولايته والقرب منه ؛ فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم ممن رأيناه فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصاً كامل الصورة ، لا عيب في صورته ، ولا نقص في خلقته . فتراه حسن الوجه معتدل القامة سليماً من آفة في بدنه .

ثم يكون كاملاً في باطنه ، سخياً جواداً عاقلاً غير خب[2] ولا خادع [ولا

(١) المنمس : التنميس : التلبيس

(٢) الخب : الرجل الخداع .

حقود] ولا حسود ولا فيه عيب من عيوب الباطن .

فذاك الذي يربيه من صغره فتراه في الطفولة معتزلاً عن الصبيان ، كأنه في الصبا شيخ ينبو عن الرذائل ويفزع عن النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تنمى حتى يرى ثمرها مهندلاً على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، محافظ للزمان ، مراع للأوقات ، ساع في طلب الفضائل ، خائف من النقائص ، ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني كيف يأخذ بيده إن عثر ، ويمنعه من الخطأ إن هم ، ويستخدمه [١١٧ / ب] في الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه .

ثم ينقسم هؤلاء : فمنهم من تفقه على قدم الزهد والتعبد ، ومنهم من تفقه على العلم واتباع السنة ، ويندر منهم من تجمع له الكل ويرقيه إلى مزاحمة الكاملين .

وعلامة إثبات الكمال في العلم والعمل ، والإقبال بالكلية على معاملة الحق ومحبته واستيعاب الفضائل كلها فلو تصورت النبوة أن تكتسب لدخلت في كسبه ، ومراتب هذا لا يحتملها الوصف ؛ لكنه درة الوجود ، التي لا تكاد تنعقد في الصدف إلا في كل كورودور .

نسأل الله ﷻ توفيقاً لمراضيه وقربه ، ونعوذ به من طرده وإبعاده .

٢٦٧ ـ فصل : أكثر الخلائق على طبع رديء لا تقوِّمُه الرياضة . لا يدرون لم خلقوا ولا المراد منهم . غاية همتهم حصول فهمتهم من أغراضهم ، ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم ؛ يبذلون العرض دون الغرض ، ويؤثرون لذة ساعة ، وإن اجتلبت زمان مرض .. يلبسون عند التجارات ثياب محتال ، في شعار مختال ، ويُلبِّسُون في المعاملات ، ويسترون الحال .

إن كسبوا فشبهة ، وأن أكلوا فشهوة ؛ ينامون الليل وإن كانوا نياماً بالنهار في المعنى ، ولا نوم بهذه الصورة . فإذا أصبحوا سعوا في تحصيل شهواتهم بحرص خنْزير ، وتبصيص كلب ، وافتراس أسد ، وغارة ذئب ، وروغان ثعلب . ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى لا على عدم التقوى ﴿ **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ [النجم : ٣٠]

كيف يفلح من يؤثر ما يراه بعينه على ما يبصره بعقله ، وما يدركه ببصره أعز عنده مما يراه ببصيرته . تالله لو فتحوا أسماعهم لسمعوا هاتف الرحيل في زمان الإقامة يصيح في عرصات الدنيا ، تلمحوا تقويض خيام الأوائل . لكن غمرهم سكر الجهالة ، فلم يفيقوا إلا بضرب الحد .

٢٦٨ـ فصل : رأيت بعض المتقدمين سئل عن من يكسب حلالاً وحراماً من السلاطين والأمراء ثم يبني المساجد والأربطة ، هل له فيها ثواب ؟ فأفتى بما يوجب طيب قلب المنفق ، وأن له في إنفاق ما لا يملكه نوع سمسره لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيرد .

فقلت : واعجباً ؛ من متصدين للفتوى لا يعرفون أصول الشريعة . ينبغي أن ينظر في حال هذا المنفق أولاً ، فإن كان سلطاناً فما يخرج من بيت المال قد عرفت وجوه مصارفه ، فكيف يمنع مستحقه ويشغله [١١٨ / أ] بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط ! وإن كان المنفق من الأمراء ونواب السلاطين ، فإنه يجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال ، وليس فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به ، فإن تصرف في غير ذلك كان متصرفاً فيما ليس له ، ولو أذن له كان الأذن جائزاً . وإن كان قد أقطع ما لا يقاوم عمله كان ما يأخذه فاضلاً من أموال المسلمين لا حقَّ له فيه ، وعلى من أطلقه في ذلك إثم أيضاً ، هذا إذا سلم المال وكان من حله .

فأما إذا كان حراماً أو غصباً فكل تصرف فيه حرام ، والواجب رده على من أخذ منه أو على ورثتهم ، فإن لم يعرف طريق إلى الرد كان في بيت مال المسلمين يصرف في مصالحهم ، أو يصرف في الصدقة ، و لم يحظ آخذه بغير الإثم .

أنبأنا أحمد بن الحسن بن البنا قال : أخبرنا محمد بن على الزجاجي قال : أخبرنا عبد الله بن محمد الأسدي قال : أخبرنا على بن الحسن قال : حدثنا أبو داود قال : حدثنا محمد بن عون الطائي قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا الأوزاعي قال : حدثني موسى بن سليمان قال : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول قال رسول الله ﷺ : « **من اكتسب مالاً من مأثم ، فوصل رحماً ، أو تصدق**

به ، أو أنفقه في سبيل الله ، جمع ذلك جميعاً فقذف به في جهنم »[1].

فأما إذا كان الباني تاجراً مكتسباً للحلال فبنى مسجداً ووقف وقفاً للمتفقهة فهذا مما يثاب عليه ، ويبعد من يكسب الحلال حتى يفضل عنه هذا القدر ، ويخرج الزكاة مستقصاة ، ثم يطيب قلبه بمثل هذا البناء والنفقة ؛ إذ مثل هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة ! وأين سلامة النية وخلوص القصد ؟ وإن بناء المدارس اليوم مخاطرة ؛ إذ قد انعكف أكثر المتفقهة على علم الجدل ، وأعرضوا عن علوم الشريعة ، وتركوا التردد إلى المساجد ، واقتنعوا بالمدارس والألقاب .

وأما أبناء الأربطة فليس بشيء أصلاً ، لأن جمهور المتصوفة جلوس على بساط الجهل والكسل ، ثم يدعى مدعيهم المحبة والقرب ، ويكره التشاغل بالعلم ، وقد تركوا سيرة سرى وعادة الجنيد ، واقتنعوا بأداء الفرائض ، ورضوا بالمرقعات ؛ فلا تحسن إعانتهم على بطالتهم وراحتهم ، ولا ثواب في ذلك .

٢٦٩ ـ فصل : عجبت لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قربة من قلوبهم ، وينسى أن قلوبهم بيد من يعمل له ، فإن رضى عمله [١١٨ / ب] ورآه خالصاً ألفت القلوب إليه ، وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه .

ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب [إليه] فقد زاحم الشرك ، لأنه ينبغي أن يقنع بنظر من يعمل له ، ومن ضرورة الإخلاص إلفات القلوب إليه ، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك .

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة ، وإن لم يطلعوا عليها ؛ فالقلوب تشهد للصالح بالصلاح وإن لم تشاهد منه ذلك وتشهد للطالح بحاله وإن لم يشاهد منه ذلك .

فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعاً ، لأنه غير مقبول

---

(١) **ضعيف مرسل** : رواه أبو داود في المراسيل (١٣١) من طريق موسى بن سا مان سمعت القاسم بن مخيمرة عن النبي ﷺ مرسلاً وموسى بن سليمان الأموي الدمشقي مجهول ، وروى أحمد (١/ ٣٨٧) ، وأبو يعلى (٥٠٤٧) ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) نحو هذا الحديث من طريق ابن مسعود وفي الإسناد الصباح بن محمد وهو ضعيف والراجح فيه الوقف . انظر مسند أحمد (٣٦٧١ تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط) ، وروى البخاري (٧٤٣٠) ، ومسلم (١٠١٤) من طريق أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب » . الحديث واللفظ لمسلم .

عند الخالق ولا عند الخلق ، لأن قلوبهم قد الفتت عنه ؛ فقد ضاع العمل ، وذهب العمر .

ولقد أخبرنا ابن الحصين قال : أخبرنا ابن المذهب قال : أخبرنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثني أبي قال : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا ابن لهيعة قال : حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لو كان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان** »[1] فليتق الله العبد وليقصد من ينفعه قصده ، ولا يتشاغل بمدح من عن قليل بلى هو وهم .

٢٧٠ ـ فصل : قدم علينا بعض فقهاء من بلاد الأعاجم ، وكان قاضياً ببلده فرأيت على دابته الذهب ومعه أتوار[2] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات ! فقلت : أي شيء أفاد هذا العلم ؟ بل والله قد كثرت عليه الحجج . وأكبر الأسباب قلة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه الرسول ﷺ ؛ إلا أنهم يجهلون الجملة ، ولكنهم يتشاغلون بعلم الخلاف ، ويقصدون التقدم ، ولا سماع حديث ولا بالنظر في سير السلف ، ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزّيي بزيهم ، فربما خطر لهم أن هذا قريب ، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صاد ، وربما خطر لهم أن هذا يحتمل ويغفر في جانب تشاغلنا بالعلم .

ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم ، ولا ينكرون عليهم ، ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم من يستصحب المردان ، ويشتري المماليك ، وما كان من يفعل هذا إلا من قد يئس [من] الآخرة ، ورأيت من قد بلغ الثمانين من [١١٩ / أ] العلماء ، وهو على هذه الحالة .

فالله الله يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة ، وإياك والتأويلات الفاسدة ، والأهواء الغالية ، فإنك إن ترخصت بالدخول في بعضها جرّك الأمر إلى الباقي ،

---

(١) إسناده ضعيف : رواه أحمد (٣/٢٨) ، وأبو يعلى (١٣٧٨) ، وابن حبان (٥٦٧٨) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً . ورواية دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ضعيفة نص عليها غير واحد من أهل العلم .

(٢) أتوار : جمع تور ، وهو إناء يشرب فيه .

ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى ، فاقبل نصحي ، واقنع بالكسرة ، وابعد عن أرباب الدنيا ، فإذا ضج الهوى فدعه يهدي ، وربما قال لك : فالأمر الفلاني قريب ، فلا تفعل ، فإنه يدعو إلى غيره ويصعب التلافي . فالصبر الصبر على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى ، فما يتم دين إلا بذلك ، ومتى وقع الترخص حمل إلى غيره ، كالشاطيء إلى اللجة ، وإنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، ووجه أصبح من وجه ، وإنما هي أيام يسيرة .

٢٧١ ـ فصل : من تفكر في عظمة الله ﷻ طاش عقله لأنه يحتاج أن يثبت موجوداً لا أول لوجوده ، وهذا شيء لا يعرفه الحس ، وإنما يُقرُبه العقل ضرورة ، وهو متحير بعد الإقرار . ثم يرى من أفعاله ما يدل على وجوده فلا يخفى وجوده ، ثم يجري في أقداره أمور لولا ثبوت الدليل على وجوده لأوجبت الجحد ، فإنه يفرق البحر لبني إسرائيل وذلك شيء لا يقدر عليه سوى الخالق ، ويصير العصا حية ثم يعيدها عصا ، وتلتقف ما صنعوا ولا يزيد فيها شيء ، فهل بعد هذا بيان ؟ فإذا آمنت السحرة تركهم مع فرعون يصلبهم ولا يمنع .

والأنبياء يبتلون بالجوع والقتل ، وزكريا ينشر ، ويحيى تقتله زانية ، ونبينا ﷺ يقول كل عام : من يؤويني ، من ينصرني ؟ فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول : لو كان موجوداً لنصر أولياءه .

فينبغي للعاقل الذي قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجلية أن لا يمكّن عقله من الاعتراض عليه في أفعاله ولا يطلب لها علة ، إذ قد ثبت أنه مالك حكيم . فإذا خفي عليه وجه الحكمة في فعله فسب العجز إلى فهمه . وكيف لا وقد عجز موسى عليه السلام أن يعرف حكمة خرق السفينة وقتل الغلام ، فلما بان له حكمة ذلك الفساد في الظاهر أقر ؛ فلو قد بانت الحكمة في أفعال الخالق جحد العقل جحد موسى يوم الخضر .

فمتى رأيت العقل يقول لمَ ؛ فأخرسه بأن تقول له : يا عاجز أنت لا تعرف حقيقة نفسك ، فما لك والاعتراض [١١٩ / ب] على المالك .

وربما قال العقل : أي فائدة في الابتلاء وهو قادر أن يثيب ولا بلاء ، وأي غرض في تعذيب أهل النار وليس ثم تشفى ؟ فقيل له : حكمته فوق مرتبتك ، فسلم لما لا تعلم ، فإن أول من اعترض بعقله إبليس فرأى فضل النار على الطين

فأعرض ، وقد رأينا خلقاً كثيراً وسمعنا عنهم أنهم يقدحون في الحكمة لأنهم يحكّمون العقول على مقتضاها ، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول .

فإياك أن تفسح لعقلك في تعليل ، أو أن تطلب له جواب اعتراض ، وقل له سلم تسلم ، فإنك لا تدري غور البحر إلا وقد أدركك الغرق قبل ذلك . هذا أصل عظيم ، متى فات الآدمي أخرجه الاعتراض إلى الكفر .

٢٧٢ـ فصل : العجب ممن يقول : أخرج إلى المقابر فأعتبر بأهل البلى ، ولو فطن علم أنه مقبرة يغنيه الاعتبار بما فيها من غيرها ، خصوصاً من قد أوغل في السن ، فإن شهوته ضعفت ، وقواه قلّت ، والحواس كلّت ، والنشاط فتر ، والشعر ابيض ، فليعتبر بما فقد ، وليستغن عن ذكر من فقد ، فقد اغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره .

٢٧٣ـ فصل : متى تكامل العقل فقد لذة الدنيا فتضاءل الجسم وقوى السقم واشتد الحزن ، لأن العقل كلما تلمّح العواقب أعرض عن الدنيا ، والتفت إلى ما تلمّح ولا لذة عنده بشيء من العاجل ، وإنما ياتذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل ، ولهذا لا يقدر على مخالطة الخلق ، لأنهم كأنهم من غير جنسه ، كما قال الشاعر :

ما في الديار أخو وجد نطارحُهُ حديث نجد ولا حبٌّ نُجـــاريه

٢٧٤ـ فصل : ادعى الطبائعيون أن مادة الموجودات الماء والتراب والنار والهواء ، فإذا كان في القيامة أذهب الأصول ، ثم أعاد الحيوان ليعلم أنها كانت بالقدرة لا عن تأثير الكليات .

ومن قدح في البعث فقد بالغ في القدح في الحكمة ، ومن قال : الروح عرض ، فقد جحد البعث ، لأن العرض لا يبقى والأجساد تصير تراباً ، فإن وجد شيء فهو ابتداء خلق ؛ كلا والله بل يعيد النفس بعينها بدليل إعادة مذكوراتها : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ وعزته إن لطفه في البداية دليل على النهاية ، حنن الوالدين ، وأجرى اللبن في الثدى ، وأنشأ [١٢٠ / أ] الأطعمة ، وأطلع العقل على العواقب . أفيحسن أن يقال بعد هذا التدبير : إنه يهمل بعد الموت فلا يبعث ؟ أترى من أحب أن يُعرَف فأنشأ الخلق وقال :

كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف[1] يؤثر أن يعدمهم فيجهل قدره ! سبحان من أعمى أكثر القلوب عن معرفته .

٢٧٥ ـ فصل : سبحان من ظهر لخلقه حتى لم يبق خفاء ، ثم خفي حتى كأنه لا ظهور ، أي ظهور أجلا من هذه المصنوعات التي كلها تنطق بأن لي صانعاً صنعني ورتبني على قانون الحكمة ، خصوصاً هذا الآدمي الذي أنشأه من قطرة ، وبناه على أعجب فطرة ، ورزقه الفهم والذهن واليقظة والعلم ، وبسط له المهاد وأجرى له الماء والريح ، وأخرج له الزرع ورفع له من فوقه السماء وأوقد له مصباح الشمس بالنهار ، وجاء بالظلمة ليسكن ؛ إلى غير ذلك مما لا يخفى ، وكله ينطق بصوت فصيح يدل على خالقه ، وقد تجلى الخالق سبحانه بهذه الأفعال فلا خفاء ، ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ضعاف الأبدان ، فقهر بهم الجبابرة ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما لا يدخل تحت مقدور البشر ؛ وكل ذلك ينطق وقد تخلى سبحانه بذلك ، ثم يأتي موسى عليه السلام إلى البحر فينفرق فلا يبقى شك في أن الخالق فعل هذا ، ويكلم عيسى عليه السلام الميت فيقوم ، ويبعث طيراً أبابيل تحفظ بيته فيهلك قاصديه ، وهذا أمر يطول ذكره كله ؛ يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء .

فإذا ثبت عند العقلاء ذلك من غير ارتياب ولا شك ، جاءت أشياء كأنها تستر الظاهر على ما سبق من تسليط الأعداء على الأولياء ، وإذا ثبت التجلى بأدلة لا تحتمل التأويل ، علمت أن لهذا الخفاء سراً لا نعلمه يفترض على العقل فيه التسليم للحكيم فمن سلّم سلم ، ومن اعترض هلك .

٢٧٦ـ فصل : قد يدعي أهل مذهب الاجتهاد في طلب الصواب [وأكثرهم] لا يقصد إلا الحق ؛ فترى الراهب يتعبد ويتجوع ، واليهودي يذل ويؤدي الجزية ، وصاحب كل مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيم والأذى طلباً للهدى وتحصيل الأجر ، ومع هذا فيقطع بضلال الأكثرين ، وهذا قد يشكل .

---

(١) **قال ابن تيمية** : وليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف . وتبعه الزركشي والحافظ بن حجر ، والسيوطي وغيرهم كما في كشف الخفاء (١٧٣/٢) .

وإنما كشفه أنه ينبغي أن يطلب الهدى بأسبابه ، ويستعمل [١٢٠ / ب] الاجتهاد بآلاته . فأما من فاتته الأسباب أو فقد بعض الآلات فلا يقال له مجتهد ؛ فاليهود والنصارى بين عالم قد عرف صدق نبينا ﷺ ثم يمسك لرئاسته . فهذا معاند ، وبين مقلد لا ينظر فهذا مهمل ، فهو يتعبد مع إهمال الأصل ، وهذا لا ينفع . وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر ، فيقول في التورية أن ديننا لا ينسخ ، وهو على غير ثقة أن هذا غير معمول ولا مدخل فيه ويقول النسخ ذا ولا ينظر في الفرق ، فينبغي أن ينظر حق النظر . ومن هذا الجنس تعبد الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصر ، وقولهم : لا حكم إلا لله و لم يفهموا أن التحكيم من حكم الله ، فجعلوا قتال عليٍّ ﷺ وقتله مبنياً على ظنهم الفاسد .

ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : إن دخلت النار بعد هذا إنني لشقي ، فظن بجهله أنهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم . فالويل لعامي قليل العلم لا يتهم نفسه في واقعة ، ولا يذاكر به من هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم ، وهذا أصل ينبغي تأمله ، قد هلك في إهماله خلق لا تحصى وقد رأينا خلقاً من العوام إذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً** ﴾ [الغاشية : ٢ - ٤] .

٢٧٧ ـ فصل : للنفس ذخائر في البدن ، منها الدم والمني وأشياء تتقوى بها ، فإذا فقدت الذخائر و لم يبق منها شيء ذهبت . ومن ذخائرها التقوى بالمال والجاه وما يوجب الفرح ؛ فإذا فقدت ذلك وكانت عزيزة ذات أنفه خرجت ، وقد يهجم عليها الخوف فلا تجد ذخيرة من الرجاء يقاومه فتذهب ، ويغلب عليها الفرح فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب . فاجتهد في حفظ ذخائرها وخصوصاً الشيخ ؛ فإنه ينبغي له أن لا يفرط بإخراج الدم ، ولا يرى إخراج المني وإن وجد شبقاً ، إلا أن يكون الشبق زائداً في الحد فيخرج المؤذي في كل حين ، وعلامة أن يكون مؤذياً وجود الراحة عند خروجه ، فمتى وجد ضعفاً فقد آذى خروجه .

وليحفظ ذو الأنفة [١٢١ / أ] على نفسه حشمته ، بأن لا يقف في موقف يعاب به ، فإنه يتمتع بذخيرة العز والأنفة ، ويضاد النفس وجود ضد ذلك ، وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى ،

وقد كلت[1] الآلة ، ولأن يخلف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه ، ولا يلتف إلى من يذم المال ، فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة ، فاستطابوا الكسل والدعة ، و لم يأنفوا من تناول الصدقة ولا من التعرض للسؤال ، وقد كان لكل نبي معاش ولجميع الصحابة وخلفوا أموال كثيرة فافهم هذا الأصل ، ولا تلتفت إلى كلام الجهال .

٢٧٨ ـ فصل : رأيت في زهاد زمننا من الكبر وحفظ الناموس وتربية الجاه في قلوب العامة ما كدت أقطع به على أنهم أهل رياء ونفاق ؛ فترى أحدهم يلبس الثوب الذي ليرى بعين الزهد ، ويأكل أطايب الطعام ، ويتكبر على أبناء الجنس ويصادق الأغنياء ، ويباعد الفقراء ، ويحب الخطاب بمولانا ، ويمشي بحاجب ، ويضيع الزمان في الهذيان ، ويتقوت بخدمة الناس له والتسليم عليه . ولو أنه لبس ثوباً يخلطه بالفقهاء لذهب الجاه ، و لم يبق له متعلق ولو أن أفعاله ناسبت ثيابه لهان الأمر ، لكنهم هرجوا على من لا يخفى عليه من الخلق ، فكيف الخالق سبحانه وتعالى .

٢٧٩ ـ فصل : كثيراً ما أعيد هذا المعنى الذي أنا ذاكره في هذا الكتاب بعبارات ينبغي للمؤمن أن يتشاغل بمعاش ويرفق في نفقته ، فإنه قد كان للعلماء شيء من بيت الله ورفق من الإخوان ، ومعونة من العوام ، فانقطع الكل وبقى المتشاغل بالعلم أو التعبد مسكيناً ، خصوصاً ذو العائلة . وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح ، فما بقى من يومأ إليه بمعونة ولا باستقراض منه ، فيحتاج الإنسان أن يدخل في مداخل لا تليق به ، وأن يتعرض بما لا يصلح . فينبغي تقليل العائلة وتفويت القوت وترقيع الخلق ، وإن أمكن معاش فهو أولى من التشاغل بالتعبد والتعلم لفضول العلم ، وإلا ضاع الدين في مداخل لا تصلح ، أو التعرض لبذل نذل .

٢٨٠ ـ فصل : ينبغي للعاقل أن يحترز [١٢١ / ب] غاية ما يمكنه ؛ فإذا جرى القدر مع احترازه لم يلم ، والاحتراز من كل شيء يمكن وقوعه ، وأخذ العدة لذلك ، وهذا يكون في كل حال .

---

(١) كلت : تعبت .

قد قص رجل ظفره فخاف عليه فخبثت يده فمات ، ومر شيخنا أحمد الحربي وهو راكب بمكان ضيق فتطأطأ على السرج فانعصر فؤاده فمرض فمات ، وكان يحيى بن نزار شيخاً يحضر مجلسي قد طرق عليه ثقل الأذن فاستدعى طرقياً فمصّ أذنه فجرى شيء من مخه فمات ، وانظر إلى احتراز رسول الله ﷺ حين مر على حائط مائل فأسرع[١].

وينبغي أن يحترز بالكسب في زمن شبابه ادخاراً لزمن شيبه ، ولا ينبغي أن يثق بمعامل إلا بوثيقة ، ويبادر بالوصية مخافة أن يطرقه الموت ، ويحترز من صديقه فضلاً من عدوه ، ولا يثق بمودة من قد آذاه هو ، فإن الحقد في القلوب لا يزول وليحترز من زوجته ، فربما أطلعها على سره ثم طلقها فيتأذى بما تفعل به .

وقد كان ابن أفلح الشاعر يكاتب دبيساً[٢] في زمن المسترشد فعلم بذلك بوابه ، واتفق أنه صرف بوابه فنمّ عليه ونقضت داره .

فهذه المذكرات أمثلة تنبه على ما لم يذكر ، وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة ، قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه ، وليحذر من لص الكسل ، فإنه محتال على سرقة الزمان .

٢٨١ ـ فصل : تأملت خصومات الملوك وحرص التجار ، ونفاق المتزهدين ، فوجدت جمهور ذلك على لذات الحس ، وإذا تفكر العاقل في ذلك علم أن أمر الحسيات قريب يندفع بأقل شيء ، وأن الغاية لا يمكن نيلها وإن بالغ عاد بالأذى على نفسه أضعاف ما ناله من اللذة ، كمن يأكل كثيراً أو ينكح كثيراً ، فالسعيد من اهتم لحفظ دينه ، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة .

واعجباً ؛ هذا الملبوس إذا كان وسطاً خدم ، وإذا كان مرتفعاً خُدم ، فإن نظر اللابس إليه معجباً به فإن الله لا ينظر إليه حينئذ ؛ وفي الصحيح : « **بَيْنَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِه خُسِفَ به** »[٣].

---

(١) **إسناده ضعيف جداً** : رواه أحمد (٢/٣٥٦) ، وأبو يعلى (٦٦١٢) ، والعقيلي في الضعفاء (١/٦١) ، وابن عدي في الكامل (١/٢٣٢) ، والبيهقي في الشعب (١٣٥٩) من طريق إبراهيم بن إسحاق عن سعيد عن أبي هريرة مرفوعاً ، وإبراهيم بن إسحاق ، ويقال له إبراهيم بن الفضل المخزومي ، وهو ضعيف جداً .

(٢) الدبيس : الجمع الكثير من الناس .

(٣) **صحيح** : وتقدم .

المشروب إذا كان حراماً فعقابه أضعاف لذته ، وهتكه العرض بين الناس عقاب آخر ، وإن كان [١٢٢ / أ] مباحاً فالشره فيه يؤذى البدن .

وأما المنكوح فمداره المستحسن يؤذي فوق كل أذى ، ومقاسات المستقبح أشد أذى ؛ فعليك بالتوسط .

وتفكر في أحوال السلاطين كيف قتلوا ظلماً وكم ارتكبوا حراماً ، وما نالوا إلا يسيراً من لذات الحس ، فانقشع غيم العمر عن لذات الفضائل ، وحصول العقاب ، فليس في الدنيا أطيب عيشاً من منفرد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسه وجليسه ، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة ؛ لا عن تكلف ولا تضييع دين ، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها ، والتحف بالقناعة باليسير ، إذا لم يقدر على الكثير فوحدته تسلم دينه ودنياه .

واشتغاله بالعلم يدله على الفضـــائل ، ويفرجه في البساتين ؛ فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة ، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم ، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط .

٢٨٢ ـ فصل : تأملت حالة تدخل على طلاب العلم توجب الغفلة عن المقصود ، وهو حرصهم على كتابة العلم ؛ خصوصاً المحدثين فيستغرق ذلك زمانهم عن أن يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمر وقد عروا عن العلم إلا اليسير ؛ فمن وفق جعل معظم الزمان مصروفاً في الإعادة والحفظ ، وجعل وقت التعب من التكرار للنسخ فيحصل له المراد ؛ والموفق من طلب المهم ؛ فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل ، وجمهور العلوم الفقه ، وفي الناس من حصل له العلم وغفل عن العمل بمقتضاه ، وكأنه ما حصل شيئاً ، نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٣ ـ فصل : ما اعتمد أحد أمراً إذا هم بشيء مثل التثبت ، فإنه متى عمل يوافقه من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم ؛ ولهذا أمر بالمشاورة لأن الإنسان بالتثبت يتفكر فيعرض على نفسه بالتفكر الأحوال فكأنه شاور وقد قيل : خمير الرأي خير من فطيره .

وأشد الناس تفريطاً من عمل ببادرة واقعة من غير تثبت ولا استشارة ؛ خصوصاً فيما يوجبه الغضب فإنه طلب الهلاك أو [١٢٢ / ب] الندم العظيم ؛ وكم من غضب فقتل وضرب ، ثم لما سكن غضبه بقي طول دهره في الحـــزن

والبكا والندم ؛ والغالب في القاتل أنه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة .

فكذلك من عرضت له شهوة فاستعجل لنزلها ونسى عاقبتها ، فكم من ندم يتجرعه في باقي عمره ، وعتاب يستقبله بعد موته ، وعقاب لا يؤمن وقوعه ؛ كل ذلك للذة لحظة كانت كبرق .. فالله الله التثبت التثبت في كل الأمور والنظر في عواقبها .. خصوصاً الغضب المثير للخصومة وتعجيل الطلاق .

٢٨٤ ـ فصل : سألني سائل فقال : قد قال بعض الحكماء : من لم يحترز بعقله هلك بعقله ؛ فما معنى هذا ؟ فبقيت مدة لا ينكشف لي المعنى ، ثم اتضح ؛ وذلك أنه إذا طلبت معرفة ذات الخالق سبحانه من العقل فزع إلى الحس فوقع التشبيه فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجوز أن يكون جسماً ولا شبهاً لشيء .

وإذا نظر العاقل إلى أفعال الباري سبحانه رأى أشياء لا يقتضيها العقل . مثل الآلام ، والذبح للحيوان ، وتسليط الأعداء على الأولياء مع القدرة على المنع ،والابتلاء بالمجاعة للصالحين ، والمعاقبة على الذنب بعد البعد بزلة ، أشياء كثيرة ومن هذا الجنس يعرضها العقل على العادات في تدبيره فيرى أنه لا حكمة تظهر له فيها ، فالاحتراز من العقل به أن يقال له : أليس قد ثبت عندي أنه مالك وأنه حكيم وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً ، فيقول : بلى . فيقال : فنحن نحترز من تدبيرك الثاني بما ثبت عندك في الأول ، لم يبق إلا أنه خفي عليك وجه الحكمة في فعله ؛ فيجب التسليم له ، لعلمنا أنه حكيم ، فحينئذ يذعن ويقول : قد سلّمت .

وكثير من الخلق نظروا لمقتضى واقع العقل الأول فاعترضوا ؛ حتى أن العامي يقول : كيف قضى عليَّ سوء عاقبتي ، ولم ضيق رزقي ، وما وجه الحكمة في ابتلائي بفنون البلاء ، ولو أنه تلمح أنه مالك حكيم لم يبق إلا التسليم لما خفي .

ولقد أنس ببديهة العقل خلق من الأكابر أولهم إبليس ، فإنه رأى تفضيل النار على الطين ، فاعترض .

ورأينا خلقاً ممن ينسب إلى العلم قد زلوا في هذا واعترضوا ورأوا كثيراً من الأفعال لا حكمة تحتها والسبب ما ذكرنا وهو الأنس بنظر العقل

في البديهة والعادات والقياس لأفعال المخلوقين ، ولو استخرجوا علم العقل الباطن ، وهو أنه قد ثبت الكمال للخالق ونفى عنه النقائص وعلم أنه حكيم لا يعبث ، لبقي التسليم لما لا يعقل .

واعتبر هذا بحال الخضر وموسى - عليهما السلام - لما فعل الخضر [أشياء] تخرج عن العادات ، أنكر موسى ونسى إعلامه له بأني أنظر فيما لا تعلمه من العواقب . فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق ؛ فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم .

وهذا أصل إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر ، وإن ثبت استراح عند نزول كل آفة .

٢٨٥ ـ **فصل** : بلغني عن بعض الكرماء أن رجلاً سأله فقال : أنا الذي أحسنت إليه يوم كذا وكذا فقال : مرحباً بمن يتوسل إلينا بنا ؛ ثم قضى حاجته . فأخذت من ذلك إشارة فناجيت بها فقلت : أنا الذي هديته من زمن الطفولة وحفظته من الضلالة ، وعصمته من كثير من الذنوب ، وألهمته طلب العلم لا بفهم لشرف ، لموضع الصغر ، ولا بحب والده . ورزقته فهماً لتلقفه وتصنيفه ، وهيأت له أسباب جمعه ، وقمت برزقه من غير تعب منه ، ولا ذل للخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الأعداء ، فلم يقصده جبار فسلم ، وجمعت له ما لم [يجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التي لا تكاد] تجتمع في شخص ، وأضفت إليها تعلق القلب بمعرفتك ومحبتك وحسن العبارة ولطفها في الدلالة عليك ، ووضعت له في القلوب القبول حتى أن الخلق يُقبلون عليه ويقبلون ما يقوله ، ولا يشكّون فيه ، ويشتاقون إلى كلامه ، ولا يدركهم الملل منه ، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح ، وآنسه في خلوته بالعلم تارة وبمناجاتك أخرى ، وإن ذهبت أعدّ لم أقدر على إحصاء عشير العشير ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [النحل : ١٨] فيا محسناً إليَّ قبل أن أطلب لا تخيب أملي فيك وأنا أطلب ؛ فبإنعامك المتقدم أتوسل إليك .

البخل .. واختلاف أحوال الناس في الدنيا

٢٨٦ ـ فصل : سبحان من جعل الخلق بين طرفي نقيض والمتوسط منهم [١٢٣ / ب] يندر : منهم من يغضب فيقتل ويضرب ، ومنهم من هو أبله بقوة الحلم لا يؤثر عنده السب ، ومنهم شرهٌ يتناول كلما يشتهي ، ومنهم متزهد يتحفف فيمنع النفس حقها .

وكذلك سائر الأشياء المحمود منها التوسط ؛ فالمنفق كلما يجد مبذر ، والبخيل يجيء المال ويمنع نفسه حظها ، ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه بل للمصالح ، فإذا بذر الإنسان فيه احتاج إلى بذل وجهه ودينه ومنة البخلاء عليه ، وهذا لا يصلح . ولأن يخلّف الإنسان لعدوه أحسن ما يحتاج إلى صديقه .

وفي الناس من يبخل ثم يتفاوتُون في البخل حتى ينتهي بالبخلاء الأمر إلى عشق عين المال ، فربما مات أحدهم هزالاً ولا ينفقه ، فيأخذه الغير ويذم المخلف ؛ ولقد بلغني في هذا ما ليس فوقه مزيد ذكرته ليعتبر به .

فحدثني شيخنا أبو الفضل بن ناصر عن شيخه عبد المحسن الصوري ، قال : كان بصور تاجر في غرفة له يأخذ كل ليلة من البقال رغيفين وجوزة ، فيدخل إلى غرفته وقت المغرب فيضرم النار في الجوزة فتضيء بمقدار ما ينْزع ثوبه ، وفي زمان إحراق القشر تكون قد استوت فيمسح بها الرغيفين ويأكلهما ، فبقي على هذا مدة فمات ، فأخذ منه ملك صور ثلاثين ألفاً .

ورأيت أن رجلاً من كبار العلماء قد مرض فاستلقى عند بعض أصدقائه ليس له من يخدمه ولا يرفقه وهو مضر ، فلما مات وجدوا بين كتبه خمسمائة دينار .

وحدثني أبو الحسن الراندسي قال : مرض رجل عندنا فبعث إلى فحضرت فقال : قد ختم القاضي على مالي . فقال : إن شئت قمت وفتحت الختم وأعطيتك الثلث تفرقه وتعمل به ما تشاء . فقال : لا والله ما أريد أن أفرقه ، بل أريد مالي يكون عندي . فقلت : ما يعطونك ، بلى أنا آخذ لك الثلث . فقال : لا أريد فمات وأُخذَ مالُه .

قال : وجاء رجل فحدَثني بعجيبة قال : مرضت حماتي فقالت لي : أريد أن

تشتري لي خبيصاً فاشتريت لها ، وكانت ملقاة في صفة ونحن في صفة أخـرى [١٢٤ / أ] ؛ فجاءني ولدي الصغير وقال : يا سيدي ، إنها تبلع الذهب ، فقمت فإذا بها تجعل الدينار في شيء من الخبيص فتبلعه ، فأمسكت يدها وزجرتها عن هذا فقالت : أنا أخاف أن تتزوج على بنتي ، فقلت : ما أفعل . فقالت : احلف لي فحلفت ، فأعطتني باقي الذهب ثم ماتت فدفنتها ، فلما كان بعد أشهر مات لنا طفل فحملناه إليها ، وأخذت معي خرقة خام وقلت للحفار اجمع لي عظام تلك العجوز في الخرقة ، فجئت بها إلى البيت وتركتها في إجَّانة[1] وصببت عليها الماء وحركتها ، فأخرجت ثمانين ديناراً أو نحوها كانت قد ابتلعتها .

وحكى لي صديق لنا ، أن رجلاً مات ودفن في الدار ، ثم نبش بعد مدة ليخرج فوجد تحت رأسه لبنة مقيرة[2] فسئل أهله عنها . فقالوا : هو قيّر هذه اللبنة وأوصى أن تترك تحت رأسه في قبره . وقال : إن اللبن يبلى سريعاً وهذه لموضع القار لا تبلى ؛ فأخذوها فوجدوها رزينة ، فكسروها فوجدوا فيها تسعمائة دينار فتولاها أصحاب التركات .

وبلغني أن رجلاً كان يكنس المساجد ويجمع ترابها ثم ضربه لبناً . فقيل له : هذا لأي شيء ؟ فقال : هذا تراب مبارك ، وأريد أن يجعلوه على لحدي ، فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ، فرموها في البيت ، فجاء المطر فتفسخت اللبنات فإذا فيها دنانير ، فمضوا وكشفوا اللبن عن لحده وكله مملوء دنانير .

ولقد مات بعض أصدقائنا وكنت أعلم له مالاً كثيراً ، وطال مرضه فما أطلع أهله على شيء ، ولا أكاد أشك أنه من شحه وحرصه على الحياة ورجائه أن يبقى لم يعلمهم بمدفونه ؛ خوفاً أن يؤخذ فيحيا هو وقد أخذ المال ، وما يكون بعد هذا الخزي شيء .

وحدثني بعض أصحابنا عن حالة شاهدها في هذا الفن . قال : كان فلان له ولدان ذكران وبنت ، وله ألف دينار مدفونة ؛ فمرض مرضاً شديداً فاحتوشته[3]

---

(١) الإجانة : مركن يغسل فيه .

(٢) لبنة مقيرة : أي عليها القير ، وهو القار الأسود الذي يطلى به .

(٣) احتوشته : أحاطت به .

أهله ، فقال لأحد ابنيه : لا تبرح من عندي ، فلما خلا [به] قال له : إن أخاك مشغول باللعب بالطيور ، وإن أختك لها زوج [١٢٤ / ب] تركي ، ومتى وصل من مالي إليهما شيء أنفقوه في اللعب ، وأنت على سيرتي وأخلاقي ، ولي في الموضع الفلاني ألف دينار ، فإذا أنا مت فخذها وحدك . فاشتد بالرجل المرض فمضى الولد وأشفى فأخذ المال فعوفي الأب ، فجعل يسأل الولد أن يرد المال إليه فلا يفعل ، فمرض الولد فجعل الأب يتضرع إليه ، ويقول : ويحك خصصتك بالمال دونهم فتموت فيذهب المال ، ويحك لا تفعل ، فما زال به حتى أخبره بمكانه ، فأخذه ، ثم عوفي الولد ، ومضت مدة فمرض الأب ، فاجتهد الولد أن يخبره بمكان المال وبالغ فلم يخبره ومات وضاع المال فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]

٢٨٧ ـ فصل : كان لنا أصدقاء وإخوان أعتد بهم ؛ فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والأخوة عجائب ، فأخذت أعتب ، ثم انتبهت لنفسي فقلت : وما ينفع العتاب ، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفا ، فهممت بمقاطعتهم ، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء في الظاهر وإخوة مباطنين ، فقلت : لا تصلح مقاطعتهم ، وإنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الأخوة إلى ديوان الصداقة الظاهرة ، فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف ، وعاملتهم معاملة المعارف ، ومن الغلط أن تعاتبهم ، فقد قال يحيى بن معاذ : بئس الأخ أخ تحتاج أن تقول له اذكرني في دعائك .

وجمهور الناس اليوم معارف ويندر فيهم صديق في الظاهر ؛ فأما الأخوة والمصافات فذاك شيء نسخ فلا يطمع فيه ، وما أرى الإنسان يصفو له إخوة من النسب ولا ولده ولا زوجته ؛ فدع الطمع في الصفا ، وخذ عن الكل جانباً ، وعاملهم معاملة الغرباء ، وإياك أن تنخدع بمن يظهر لك الود ، فإنه مع الزمان يبين لك الحال فيما أظهره وربما أظهر لك ذلك لسبب يناله منك .

وقد قال الفضيل بن عياض : إذا أردت أن تصادق صديقاً فأغضبه [١٢٥/أ] فإن رأيته كما ينبغي فصادقه ، وهذا اليوم مخاطرة ؛ لأنك إذا أغضبت أحداً صار عدواً في الحال .

والسبب في حكم نسخ الصفا ، أن السلف كانت همتهم الآخرة وحـــدها

صفت نياتهم في الأخوة والمخالطة فكانت ديناً لا دنيا . والآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب ، فإن رأيت متملقاً في باب الدين فاختبر تقله[1].

٢٨٨ ـ فصل : رأيت المعافى لا يعرف قدر العافية إلا في المرض ولا يعرف شكر الإطلاق إلا في الحبس ، وتأملت على الآدمي حالة عجيبة ؛ وهو أن يكون معه امرأة لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلقاً يلتذّ به ، ولذلك سببان .

أحدهما : أن تكون غير غاية في الحسن .

والثاني : أن كل مملوك مملول ، والنفس تطلب ما لا تقدر عليه ، فتراه يضج ويشتهي شيئاً يحبه أو امرأة يعشقها ، ولا يدري أنه إنما يطلب قيداً وثيقاً يمنع القلب من التصرف في أمور الآخرة ، أو في علم أو عمل ، ويخبطه في تصرف الدنيا ، فيبقى ذلك العاشق أسير المعشوق ، همه كله معه فالعجب بمطلق يؤثر القيد ، ومستريح يؤثر التعب .

فإن كانت تلك المرأة تحتاج أن تحفظ فالويل له ؛ لا قرار له ولا سكون ، وإن كانت من المتبرجات اللواتي لا يؤمن فسادهن فذاك هلاكه بمرة ؛ فلا هو إن نام يلتذ بنومه ، ولا إن خرج من الدار يأمن محنة ، وإن كانت تريد نفقة واسعة وليس له ، فكم يدخل مدخل سوء لأجلها ، وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنه فذاك الهلاك العظيم ، وإن كانت تبغضه فما بقي من أسباب تلفه بقية ؛ فيكون هذا ساعياً في تلف نفسه كما قال القائل :

نحب القدود وتهوى الخدود ونعلـــم أنا نحـــب المنـــونا

وهذا على الحقيقة كعابد صنم : فليتق الله من عنده امرأة لا بأس بها وليعرض عن حديث النفس ومناها فماله منتهى ، ولو حصل له غرضه كما يريد وقع الملل وطلب ثالثة ، ثم يقع الملل ويطلب رابعة ، وما لهذا أخير . إنما يفيده بالعاجل تعلق قلبه وأسر لبه ، فيبقى كالمبهوت [١٢٥ / ب] ، فكره كله في تحصيل ما يريد محبوبه ، فإن جرت فرقة أو آفة فتلك الحسرات الدائمة إن بقي ، أو التلف عاجلاً ، وأين المستحسن المصون الدين القنوع المحب لمن يحبه ، هذا أقل من

(١) كذا بالأصل .

الكبريت الأحمر فلينظر في تحصيل ما يجمع معظم الهم ، ولا يلتفت إلى سواد الهوى وغاية المنى ، وقد سلم .

٢٨٩ ـ فصل : إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً وإنما يرى إنعام الموفق لذلك العمل الذي يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملاً أو يعجب به أشياء **منها** أنه وفق لذلك العمل ﴿ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات : ٧]

ومنها أنه إذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرها ، ومنها أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كل عمل وتعبد . هذا إذا سلم من شائبة وخلص من غفلة . فأما والغفلات تحيط به فينبغي أن يغلب الحذر من رده ، ويخاف العتاب على التقصير فيه ، فيشتغل عن النظر إليه ؛ وتأمل على الفطني أحوالهم في ذلك :

فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون قالوا : ما عبدناك حق عبادتك .

والخليل عليه السلام يقول : ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي** ...﴾ [الشعراء : ٨٢] وما أذل بصبره على النار ، وتسليمه الولد إلى الذبح .

ورسول الله ﷺ يقول : « **مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنَجِّيه عَمَلُهُ** » قالوا : ولا أنت ؟ قال : « **وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي مِنْهُ بِرَحْمَته** »[١].

وأبو بكر رضي الله عنه يقول : [وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟!][٢] وعمر رضي الله عنه يقول :] لو أن لي طلاع الأرض لافتديت بها من هول ما أمامي قبل [أن] أعلم ما الخبر »[٣]. وابن مسعود يقول : ليتني إذا مت لا أبعث[٤].

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٢) **إسناده صحيح** : رواه ابن ماجه (٩٤) والنسائي في الكبرى (٨١١٠) ، وأحمد (٢/٢٥٣) ، وابن حبان (٦٨٥٨) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة به . ووقع عند النسائي أبو عوانة والصواب أبو معاوية كما في تحفة الأشراف (٩/٣٨١) .

(٣) **صحيح** : رواه البخاري (٣٦٩٢) نحوه .

(٤) **مرسل** : رواه وكيع في الزهد (١٦٣) من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود فذكره . ورواية القاسم عن جده عبد الله بن مسعود مرسلة وروى ابن سعد في الطبقات (٣/١١٧) من طريق إسماعيل عن جرير رجل من بجيلة عن ابن مسعود فذكره وجرير هذا لا أعرفه وإن كان جرير بن يزيد بن عبد الله البجلي فهو ضعيف .

وعائشة – رضي الله عنها – تقول : تمنيت كنت نسياً منسياً[1] ؛ وهذا شأن جميع العقلاء فرضي الله عن الجميع .

وقد روى عن قوم من صلحاء بني إسرائيل ما يدل على قلة الأفهام لما شرحته لأنهم نظروا إلى أعمالهم فأدلوا بها ؛ فمنه حديث العابد الذي تعبد خمس مائة سنة في جزيرة وأخرج له كل ليلة رمانة ، وسأل الله تعالى أن يميته في سجوده فإذا حشر قيل له ادخل الجنة برحمتي . قال : بل بعملي ، فيوزن جميع عمله بنعمة واحدة فلا يفي ، فيقول : يا رب برحمتك ، وكذا أهل الغار الذين انطبقت [١٢٦ / أ] عليهم الصخرة[2] ؛ فإن بعضهم توسل بعمل كان ينبغي أن يستحي من ذكره ، وهو أنه عزم على الزنى ثم خاف العقوبة فتركه ، فليت شعري بماذا يدل من خاف أن يعاقب على شيء فتركه لخوّف العقوبة ؛ إنما لو كان مباحاً فتركه كان فيه ما فيه ، ولو فهم لشغله خجل الهمة عن الإدلال ، كما قال يوسف عليه السلام : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** ﴾ ، والآخر ترك صبيانه يتضاعفون إلى الفجر ليسقي أبويه اللبن ، وفي ضمن هذا البر أذى للأطفال ، ولكن الفهم عزيز .

وكأنهم لما أحسنوا قال لسان الحال : أعطوهم ما طلبوا ، فإنهم يطلبون أجرة ما عملوا ، ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبر على جنسه ، ولكان كل كامل خائفاً محتقراً لعمله حذراً من التقصير في شكر ما أنعم عليه ، وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر ويوجب مساكنة الذل ؛ فتأمله فإنه أصل عظيم .

٢٩٠ ـ فصل : ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكي عليها ، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة ، وكأنهم قد قطعوا على ذلك ، وهذا أمر غائب ، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها ، ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح : « أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون : اشفع لنا فيقول : ذنبي ، وإلى نوح عليه السلام فيقول : ذنبي وإلى إبراهيم ، وإلى موسى ، وإلى عيسى صلوات الله عليهم أجمعين »[3] فهؤلاء إذا اعتبرت

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٨٥٣).

(٢) **صحيح** : وقد تقدم .

(٣) **صحيح** : رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٣) .

ذنوبهم لم تكن أكثرها ذنوباً حقيقة ، ثم إن كانت فقد تابوا منها واعتذروا وهم بعد على خوف منها .

ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع ، وما أحسن ما قال الفضيل [بن عياض رحمه الله] : واسوأتاه منك وإن عفوت ؛ فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإنّ غفر له ؛ فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب وزاهد ، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة ، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل .

٢٩١ ـ فصل : نعوذ بالله من سوء الفهم وخصوصاً من المتّسمين بالعلم .

روى أحمد في مسنده أنه [١٢٦ / ب] تنازع أبو عبد الرحمن السلمي وحيان بن عبد الله ؛ فقال أبو عبد الرحمن لحيان : قد علمت ما الذي حدا صاحبك يعني عليًّا . قال : ما هو ؟ قال : قول النبي ﷺ : « **لَعَلَّ اللهُ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[١]

وهذا سوء فهم من أبي عبد الرحمن حين ظن أن علياً قاتل وقتل اعتماداً على أنه قد غفر له ، وينبغي أن يعلم أن معنى الحديث إنما معناه أن نكون أعمالكم المتقدمة ما كانت فقد غفرت [لكم] ، فأما غفران ما سيأتي فلا يتضمنه ذلك ؛ أتراه لو وقع من أهل بدر – وحاشاهم – الشرك – إذ ليسوا بمعصومين – أما كانوا يؤاخذون به فكذلك المعاصي .

ثم لو قلنا : أنه يتضمن غفران ما سيأتي ، فالمعنى أن مآلكم إلى الغفران ؛ ثم دعنا من معنى الحديث ، كيف يحل لمسلم أن يظن في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه فعل ما لا يجوز اعتماداً على أنه سيغفر له حوشي من هذا ، وإنما قاتل بالدليل المضطر له إلى القتال ، فكان على الحق ، ولا يختلف العلماء أن عليًّا رضي الله عنه لم يقاتل أحداً إلا والحق مع علي ، كيف وقد قال رسول الله ﷺ : « **اللهم أدرْ معه الحق كيفما دار** »[٢] فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطاً قبيحاً ، حمله عليه أنه كان عثمانيّاً .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤)

(٢) **ضعيف واه** : رواه الترمذي (٣٧/٤) ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٤١٠) من طريق المختار بن نافع . حدثنا أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي فذكره مرفوعاً . والمختار ضعيف منكر الحديث

٢٩٢ ـ فصل : تأملت على متزهدي زماننا أشياء تدل على النفاق والرياء وهم يدّعون الإخلاص ، منها [أنهم] يلزمون زاوية فلا يزورون صديقاً ، ولا يعودون مريضاً ، ويدعون أنهم يريدون الانقطاع عن الناس اشتغالاً بالعبادة ، وإنما هي إقامة نواميس ليشار إليهم بالانقطاع ، إذ لو مشوا بين الناس زالت هيبتهم ، وما كان الناس كذلك .

كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويشتري الحاجة من السوق ، وأبو بكر ﷺ يتجر في البز ، وأبو عبيدة بن الجراح يحفر القبور ، وأبو طلحة أيضاً ، وابن سيرين يغسل الموتى ، وما كان عند القوم إقامة ناموس .

وأصحابنا يلزمون الصمت بين الناس والتخشع والتماوت ، وهذا هو النفاق ؛ فقد كان ابن سرين يضحك [١٢٧ / أ] بالنهار وبين الناس ، ويبكي بالليل .

وقد رأيت من المتزهدين من يلزم المسجد ويصلي فيجتمع الناس فيصلون بصلاته ليلاً ونهاراً ، وقد شاع هذا له فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة ، والنبي ﷺ قال في صلاة التطوع : ((**اجْعَلُوا هَذِه فِي البُيُوت**))[1].

وفي أصحابنا من يظهر الصوم الدائم ، ويتقوت بقول الناس : فلان ما يفطر أصلاً . وهذا الأبله ما يدري أنه لأجل الناس يفعل ذلك ، ولولا هذا كان يفطر والناس يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسم ثم يعود إلى الصوم ، وقد كان إبراهيم بن أدهم إذا مرض يترك عنده من الطعام ما يأكله الأصحاء .

ورأيت في زهادنا من يصلى الفجر يوم الجمعة بالناس ويقرأ المعوذتين والمعنى قد ختمت ، فإن هذه الأعمال هي صريحة في النفاق والرياء ، وفيهم من يأخذ الصدقات وهو غني ، ولا يبالي أخذ من الظلمة أو من أهل الخير ، ويمشي إلى الأمراء يسألهم وهو يدري من أين حصلت أموالهم . فالله الله في إصلاح [النيات] فإن جمهور هذه الأعمال مردودة .

قال مالك بن دينار : وقولوا لمن لم يكن صادقاً لا يتعن[2] . وليعلم المرائي

---

(١) **صحيح** رواه البخاري (٤٣٢) ، ومسلم (٧٧٧) من حديث ابن عمر بلفظ ((اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً)) ، وعند مسلم (٧٧٨) من حديث جابر مرفوعاً بلفظ ((إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده ليجعل لبيته نصيباً من صلاته ، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً)).

(٢) **يتعنى** : يتعب .

أن الذي يقصده يفوته ، وهو إلفات القلوب إليه ، فإنه متى لم يخلص حرم محبة القلوب ، ولم تلتفت إليه ، والمخلص محبوب ؛ فلو علم المرائي أن قلوب الذين يرائيهم بيد من يعصيه لما فعل ، وكم قد رأينا من يلبس الصوف ويظهر التنسك لا يلتفت إليه ، وآخر يلبس جيد الثياب ويبتسم والقلوب تحبه . نسأل الله ﷻ إخلاصاً يخلصنا ، ونستعيذ به من رياء يبطل أعمالنا إنه قادر .

٢٩٣ ـ فصل : من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد [التكليف] فإنه موضوع على عكس الأغراض ؛ فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض ؛ فإن دعا وسأل بلوغ غرض تعبد بالدعاء ؛ فإن أعطى مراده شكر ، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلح في الطلب ، فإن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض ، وليقل لنفسه ﴿ **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢١٦].

ومن أعظم الجهل أن يتمغص في باطنه لانعكاس أغراضه [١٢٧ / ب] وربما اعترض في الباطن ، وربما قال : حصول غرضي لا يضر ، ودعائي لم يستجب .

وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة ، ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر .

هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأُخرج منها ، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده ، والخليل يبتلى بالنار ، وإسحاق[1] بالذبح ، ويعقوب يفقد الولد ، ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالبلاء ، وداود وسليمان بالفتنة ، وجميع الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – على هذا ، وما لقى نبينا محمد ﷺ من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم .

فالدنيا وضعت للبلاء فينبغي للعاقل أن يوطن [نفسه] على الصبر ، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا كما قيل :

طُبعَتْ على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقــذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضــد طباعها ... متطلب في المــاء جــذوة نار

وهاهنـــا يتبين قوة الإيمان وضعفه فليستعمل المؤمن من أدوية هـــذا المرض

(١) **الذبيح** : هو إسماعيل عليه السلام .

التسليم للمالك ، والتحكيم لحكمته ، وليقل قد قيل لسيد الكل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ثم ليسلِّ نفسه بأن المنع ليس عن بخل ، وإنما هو لمصلحة لا يعلمها ، وليؤجر الصابر عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلموا ورضوا ، وإن زمن الابتلاء مقدار يسير ، والأغراض مدخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انجلت ، وبفجر الأجر قد طلع ، ومتى ارتقى فهمه إلى أن ما جرى مراد الحق سبحانه ، اقتضاه إيمانه أن يريد ما يريد ، ويرضى بما يقدر ، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجاً عن رتبة العبودية في المعنى ، وهذا أصل ينبغي أن يتأمل ويعمل عليه في كل غرض انعكس .

٢٩٤ ـ فصل : رأيت خلقاً من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم ، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولا يخرجونها في حقها ؛ فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف إلى المصالح ، وهبه لشاعر . وربما كان معه جندي [١٢٨ / أ] يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة آلاف ، وربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه ، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات .

وأول ما يجرى على ذاك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه ؛ وقد رأى بعض الصالحين رجلاً عالماً يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي فقال : أعوذ بالله من علم لا ينفع ، لِمَ تر المنكرات ولا تنكر ؟ وتتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبك ، وتحرم لذة المعاملة للحق سبحانه .

ولا يقدر له أن يهتدي به أحد ، بل ربما كان فعل هذا سبباً لإضلال الناس في الاقتداء به ، فهو يؤذى نفسه ويؤذى أميره ، لأنه يقول لولا أنني على صواب ما صحبني هذا ولا ينكر على .

ويؤذى العوام تارة بأن يروى أن ما فيه الأمـــير صواب وأن الدخول والسكوت عن الإنكار جائز ، ويحبب إليهم الدنيا ، ولا خير والله في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة . وأنا أفدي أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضا ، وبقيت أذكارهم تروى فتروى صداء القلوب وتجلو صداها .

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط ولا يقبل مال السلطان ، هذا إبراهيم الحربي يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار ؛ هذا بشر الحافي يشكو الجوع فيقال له : يصنع لك حساء من دقيق ؛ فيقول : أخاف أن يقول لي في هذا [الدقيق] : من أين لك ؟

بَقِيَتْ والله أذكار القوم ، وما كان الصبر إلا عفوه نوم ، ومضت لذات المرخصين وبليت الأبدان ، ووهن الدين .

فالصبر الصبر يا من رزق ، ولا تغبطن من اتسع له أمر الدنيا ، فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقاً في باب الدين ، ولا ترخص لنفسك في تأويل فعمرك في الدنيا قليل :

وسواء إذا انقضى يوم كسرى   في سرور ويوم صاحب كسره

ومتى ضجت النفس لقلة صبر فاتل عليها أخبار الزهاد ، فإنها ترعوى وتستحي وتنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة ، ومثله بين ترخص [١٢٨ [illegible]] علي بن المديني وقبوله مال ابن أبي داود ، وصبر أحمد ، وكم بين الرجلين والذكرين ؛ وانظر قدر ما يروى عن كل واحد منهما وما يذكران به ، وسيندم ابن المديني إذا قال أحمد : سلم ديني .

٢٩٥ ـ فصل : تأملت أحـــوال الناس فرأيت جمهورهم منسلاً من ربقة العبودية ، فإن تعبدوا فعادة أو فيما لا ينافى أغراضهم منافاة تؤذي القلوب .

فأكثر السلاطين يحصلون الأموال من وجوه ردية وينفقونها في وجوه لا تصلح ، وكأنهم قد تملكوها ، وليست مال الله ؛ الذي إذا غزا أحدهم فغنم الأموال اصطفاها لنفسه ، وأعطاها أصحابه كيف اشتهى ، والعلماء لقوة فقرهم وشدة شرههم يوافقون الأمراء وينخرطون في سلكهم ، والتجار على العقود الفاسدة ، والعوام في المعاصي والإهمال لجانب الشريعة ؛ فإن فات بعض أغراضهم فربما قالوا ما نريد نصلي ، لا صلى الله عليهم ، وقد منعوا الزكاة وتركوا الأمر بالمعروف ، فمن الناس من يغره تأخير العقوبة ، ومنهم من [illegible] يقطع بالعفو وأكثرهم متزلزل الإيمان ، فنسأل الله أن يميتنا مسلمين

٢٩٦ ـ فصل : من العجب سلامة دين ذي العيال إذا ضاق به الكسب ، فما مثله إلا كمثل الماء إذا ضرب في وجهه سكر ، فإنه يعمل باطناً ويبالغ حتى

يفتح فتحة ، فكذلك صاحب العيال إذا ضاق به الأمر لا يزال يحتال ، فإذا لم يقدر على الحلال ترخَّص في تناول الشبهات ، فإن ضعف دينه مدَّ يده إلى الحرام . فالمؤمن الموفق إذا علم صعفه عن الكسب اجتهد في التعفف عن النكاح ، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد ، والقناعة باليسير .

فأما من ليس له كسب كالعلماء والمتزهدين ، فسلامتهم ظريفة ، إذ قد انقطعت مواد السلاطين ومراعاة العوام ، فإذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شر مما يجرى على الجهال . فمن قدر منهم على كسب بالنسخ وغيره فليجتهد فيه مع تقليل النفقة والقناعة باليسير ، فإن من ترخّص منهم اليوم أكل الحرام ، لأنه يأخذ من الظَّلمة خصوصاً بحجة التنمّس والتزهد ، ومن كان له منهم مال فليجتهد في تنميته وحفظه . فما بقى من [١٢٩ / أ] يؤثر ولا من يقرض ، وقد صار الجمهور بل الكل كأنهم يعبدون المال ؛ فمن حفظة حفظ دينه ، ولا يلتفت إلى قول الجهلة الذين يأمرون بإخراج المال ، فما هذا وقته .

واعلم أنه إذا لم يجتمع الهم ، يحصل العلم ولا العمل ولا التشاغل بالفكر في عظمة الله ، وقد كان هم القدماء يجتمع بأشياء ؛ جمهورها أنه كان لهم من بيت المال نصيب في كل عام ، وكان يصلهم فيفضل عنهم ، وفيهم من كان له مال يتَّجر به كسعيد بن المسيب وسفيان وابن المبارك وكان همه مجتمعاً ، فقال سفيان في الديانة : لولاك لبهدلوني . وفقدت بضاعة لابن المبارك فبكى ، وقال : هو قوام ديني .

وكان جماعة يسكنون إلى عطاء الإخوان الذين لا يمنّون ، وكان ابن المبارك يبعث إلى الفضيل وغيره ، وكان الليث بن سعد يتفقد الأكابر ، فبعث إلى مالك ألف دينار ، وإلى ابن لهيعة ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجارية بثلاثمائة دينار ، وما زال الزمان على هذا إلى أن آل الأمر على انمحاق ذلك ، فقلّت عطايا السلاطين ، وقلَّ من يؤثر من الإخوان ، إلا أنه كان في ذلك القليل ما يدفع الزمان .

فأما زماننا هذا ، فقد انقبضت الأيدي كلها ، حتى قلّ من يخرج الزكاة الواجبة ، فكيف يجتمع همّ من يريد من العلماء والزهاد أن يعمل همه ليلاً ونهاراً في وجوه الكسب وليس من شأنه ولا يهتدي له . فقد رأينا الأمر أحوج إلى

التعرض بالسلاطين والترخص في أخذ ما لا يصلح ، وأخرج المتزهدين إلى التصنع لتحصيل الدنيا .

فالله الله يا من يريد حفظ دينه ؛ قد كررت عليك الوصية بالتقليل جهدك ، وخفف العلائق مهما أمكنك ، واحتفظ بدرهم يكون معك فإنه دينك وافهم ما قد شرحته ، فإن ضجَّت النفس لمرادالها فقل لها : إن كان عندك إيمان فاصبري ، وإن أردت التحصيل لما يفنى ببذل الدين فما ينفعك ، فتفكري في العلماء الذين جمعوا من غير وجهه وفي المنمسين ذهب دينهم ، وزالت دنياهم ، وتفكري في العلماء الصادقين كأحمد وبشر ، اندفعت الأيام وبقى لهم حسن الذكر .

وفي الجملة ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا • وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : ٢- ٣]. ورزق الله بإيعاد الصبر على البلاء والأيام تندفع ، وعاقبة الصبر الجميل جميلة .

٢٩٧ ـ فصل : شكا رجل من بغضه لزوجته وقال : ما أقدر على فراقها لأمور منها : كثرة دَيْنها عليّ وصبري قليل ، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى ، وفي كلمات تعلم بغضي لها . فقلت له : هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك فتبالغ في الاعتذار والتوبة ، فأما التضجر والأذى لها فما ينفع كما قال الحسن أن الحجاج عقوبة من الله لكم فلا تقابلوا عقوبته بالسيف وقابلوها الاستغفار .

واعلم أنك في مقام مبتلى ولك أجر بالصبر : ﴿ **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى وسله الفرج .

فإذا جمعت بين الاستغفار وبين [التوبة من] الذنوب والصبر على القضاء وسؤال الفرج ، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها ، ولا تضيع الزمان بشيء لا ينفع ، ولا تحتل ظاناً منك أنك تدفع ما قدر : ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾ وقد روينا أن جنديا نزل يوماً في دار أبي يزيد ، فجاء أبو يزيد فرآه فوقف وقال لبعض أصحابه : ادخل إلى المكان الفلاني فاقلع الطين الطري فإنه فيه من وجه شبهة ؛ فقلعه ، فخرج الجندي .

وأما أذاك للمرأة فلا وجه له لأنها مسلطة ؛ فليكن شغلك بغير هذا ، وقد روى عن بعض السلف أن رجلاً شتمه فوضع خده على الأرض ، وقال اللهم

اغفر لي الذنب الذي سلطت هذا به عليّ . قال الرجل : وهذه المرأة تحبني زائداً في الحد ، وتبالغ في خدمتي ، غير أن البغض لها مركوز في طبعي . قلت له : فعامل الله سبحانه بالصبر عليها فإنك تثاب .

وقد قيل لأبي عثمان النيسابوري : ما أرجى عملك عندك ؟ قال : كنت في صبوتي يجتهد أهلي أن أتزوج فآبى فجائتني امرأة فقالت : يا أبا عثمان إني قد هويتك ، وأنا أسألك بالله أن تتزوجني ، فأحضرت أباها وكان فقيراً فزوجني وفرح بذلك . فلما دخلت إليّ رأيتها عوراء عرجاء مشوهة ، وكانت لمحبتها لي تمنعني من الخروج فأقعد حفظاً لقلبها ولا أظهر لها من البغض شيئاً ، وكأني على جمر الغضا[1] من بغضها ؛ فبقيت هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت فما من عملي شيء هو أرجى عندي من حفظي لقلبها . قلت له : فهذا عمل الرجال ، وأي شيء ينفع . ضجيج المبتلى بالتضجر بإظهار البغض ؛ وإنما طريقه ما ذكرته لك من التوبة والصبر وسؤال الفرج ، وتذكر ذنوباً كانت هذه عقوبتها ، وبالغ فإن وقع فرج في الحساب ، وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة ، وتكلف إظهار المودة لها وإن لم يكن في قلبك ثبت على هذا ، وليس للقيد ذنب فيلام ، إنما ينبغي التشاغل مع من قيّده والسلام .

٢٩٨ ـ فصل : لا ريب أن القلب المؤمن بالإله سبحانه وبأوامره يحتاج إلى الانعكاف[2] على ذكره وطاعته وامتثال أوامره ، وهذا يفتقر إلى جمع الهم ، وكفى بما وضع في الطبع من المنازعة إلى الشهوات مشتتاً للهم المجتمع ، فينبغي للإنسان أن يجتهد في جمع همه لينفرد همه بذكر الله سبحانه وتعالى وأوامره والتهيؤ للقائه . وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتناع عن الشواغل ، وما يمكن قطع القواطع جملة ، فينبغي أن يقطع ما يمكن .

وما رأيت مشتتاً للهم مبدداً للقلب مثل شيئين :

أحدهما : أن تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهي وذلك لا يقف على حد فيه ، فيذهب الدين والدنيا ولا ينال كل المراد ، مثل أن تكون الهمة في

---

(١) **الغضا** : شجر ، خشبه من أصلب الخشب ، ولهذا يكون فحمه جيداً .

(٢) **الانعكاف** : الاعتكاف ، وهو الحبس .

المستحسنات أو في جمع المال أو في طلب الرياسة وما يشبه هذه الأشياء ؛ فيا له من شتات لا جامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد .

والثاني : مخالطة الناس خصوصاً العوام والمشي في الأسواق ، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات وينسى الرحيل عن الدنيا ، ويحبب الكسل عن الطاعة والبطالة ، والغفلة والراحة ؛ فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو بالعبادة . ولا يزال مخالطهم حتى تهون عليه الغيبة وتضييع الساعات في غير شيء ؛ فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد ؛ فحينئذ يخلو القلب بمعارفه ولا تجد النفس رفيقاً مثل الهوى يذكرها ما تشتهي ، فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاز ؛ كما يتهوى الضفدع لحظة ثم يعود إلى الماء فهذه طريق السلامة ، فتأمل فوائدها يطيب لك .

٢٩٩ ـ فصل : ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبّهم للزمان وعيبهم للدهر ، وقد كان هذا في الجاهلية ؛ ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « **لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ** »[1].

ومعناه أنتم تسبون من فرق شملكم وأمات أهاليكم ، وتنسبونه إلى الدهر ، والله تعالى هو الفاعل لذلك ، فتعجبت كيف اعلم أهل الإسلام بهذه الحال وهم على ما كان عليه أهل الجاهلية ما يتغيرون ؛ حتى ربما اجتمع الفطناء الأدباء الظراف على زعمهم فلم يكن لهم شغل إلا ذم الدهر . وربما جعلوا الله الدنيا ، ويقولون فعلت وصنعت حتى رأيت لأبي القاسم الحريري يقول :

ولما تعامى الدهـــر وهو أبو الورى ... عن الرشد في أنحـــائه ومقاصــــده
تعاميت حتى قيل إني أخـــو عمي ... ولا غرو أن يحذر الفتى حذو والده

وقد رأيت خلقاً يعتقدون أنهم فقهاء وفهماء ولايتحاشون من هذا ، وهؤلاء إنما أرادوا بالدهر مرور الزمان ، فذاك لا اختيار له ولا مراد ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغي أن يلام ، فإنه زمان مدبَّر لا مدبر فيتصرف فيه ولا يتصرف ، وما يظن بعاقل أنه يشير إلى أن المذموم المعرض عن الرشد السيىء الحكم هو الزمان ، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام ، ونسبوا

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) .

هذه القبائح إلى الصانع ، فاعتقدوا فيه قصور الحكمة وفعل ما لا يصلح ، كما اعتقده إبليس في تفصيل آدم ، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة ؛ بل هم شر من الكفار ، لا أصلح لهم شأناً ولا هداهم إلى رشاد .

٣٠٠ ـ فصل : من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما في أيدينا مع العلم بقصر العمر ، وإن زيادة الثواب هناك بقدر العمل هاهنا . فيا قصير العمر اغتنم يومي مني ، وانتظر ساعة النفر ، وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خلق له ، واحمل نفسك على المرّ واقمعها إذا أبت ، ولا تبرح لها في الطول ، فما أنت إلا في مرعى ، قبيح بمن كان بين الصفين إذا تشاغل بغير ما هو فيه .

٣٠١ ـ فصل : قد كررت هذا المعنى في هذا الكتاب ، وهو الأمر بحفظ السر والحذر [illegible] من الانبساط فيما لا يصلح بين يدي الناس . فرب منبسط بين يدي من يظنه صديقاً بقول في صديق أو في سلطان أنه لا يتهم في ذلك ، فيكون سبب هلاك ذاك . فأنا أوصى السليم الصدر الذي يظن في الناس الخير أن يحترز من الناس ، وأن لا يقول في الخلق كلمة لا تصلح للخلق ، ولا يغتر بمن يظهر الصداقة أو التدين فقد عم الخبث .

٣٠٢ ـ فصل : تأملت على أكثر الناس عبادتهم فإذا هي عادات ؛ فأما أرباب اليقظة فمعادتهم عبادة حقيقة . فإن الغافل يقول سبحانه الله عادة ، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق ، فيحركه الفكر في ذلك فيقول : سبحان الله ، ولو أن إنساناً تفكر في رمانة ، فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضائل ، وإقامة الماء على عظم العجم ، وجعل الغشاء عليه يحفظه . وتصوير الفرخ في باطن البيضة ، والآدمي في حشاء الأم ، إلى غير ذلك من المخلوقات ، أزعجه هذا الفكر إلى تعظيم الخالق ؛ فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسبيح ثمرة الفكر ، فهذا تسبيح المتيقظين ، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة . وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت ؛ فيوجب ذلك الفكر حيا للباطن وقلق القلب وندم النفس ؛ فيثمر ذلك أن يقول قائلهم : استغفر الله ؛ فهذا هو التسبيح والاستغفار . فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة ، وشتان ما بين الفريقين .

٣٠٣ ـ فصل : لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلى عن الخلق ، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم إلا في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة ، ويحترز في تلك الساعات منهم .

وإن كان عالماً يريد نفعهم وعدهم وقتاً معروفاً واحترز في الكلام . وأما من يمشي في الأسواق اليوم ويبيع ويشتري مع هذا العالم المظلم ، ويرى المنكرات والمستهجنات فما يعود إلى البيت إلا وقد أظلم القلب .

فلا ينبغي للمريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء أو المقابر ، وقد كان جماعة من السلف يبيعون ويشترون ويحترزون ، ومع هذا فما صفا لصافيهم وقته حتى قاطع الخلق .

قال أبو الدرداء : زاولت [١٣١ / ب] العبادة والتجارة فلم يجتمعا ؛ فاخترت العبادة[١] .

وقد جاء في الحديث : « الأسواق تُلهى وتلغي »[٢] فمن قدر على الحمية النافعة واضطر إلى المخالطة والكسب للعائلة ، فليحترز احتراز الماشي في الشوك ، وبعيد سلامته .

همة المؤمن .. وأهواء المبطلين ..

٣٠٤ ـ فصل : من رزق قلباً طيباً ولذة مناجاة فليراع حاله [وليحترز من التغير وإنما تدوم له حاله] بدوام التقوى . وكنت قد رزقت قلباً طيباً ومناجاة حلوة ، فأحضرني بعض أرباب المناصب إلى طعامه ، فما أمكن خلافه ؛ فتناولت وأكلت منه فلقيت الشدائد ، ورأيت العقوبة في الحال ، واستمرت مدة ، وغضبت على قلبي ، وفقدت كل ما كنت أجده . فقلت : واعجباً كنت في هذا كالمكره ، فتفكرت فإذا به قد كان يمكن مداراة الأمر بلقمات يسيرة ، وإنما التأويل تناول بشهوة أكثر مما يدفع بالمداراة . وقال : ومن أين لي

---

(١) **لم أقف عليه** .

(٢) **لم أقف عليه** : بهذا اللفظ وقد أخرج **البخاري** (٢٠٦٢) عن عمر قوله : الهاني الصفق بالأسواق : يعني الخروج للتجارة .

أن عين هذا حرام ؟ فقالت اليقظة : وأين الورع عن الشبهات ! وإن تناول بالتأويل لقمة استحلبتها بالطبع فقد لقيت الأمرين بفقد القلب ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

٣٠٥ ـ فصل : همة المؤمن متعلقة بالآخرة فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة . وكل من شغله شيء فهمته شغله ، ألا ترى أنه لو دخل أرباب صنايع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته ، والنجار إلى السقف والبناء إلى الحيطان والحائك إلى النسج .

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر ، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب ، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور ، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور ، وإن وجد لذة ذكر الجنة ؛ فهمته متعلقة بما تم ، وذلك يشغله عن كل مأثم . وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنة ، وإن بقاءه لا ينقطع ولا يزول ولا يعتريه نغصة ، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلباً في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى يطيش فرحاً ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه ، فإن المشتاق إلى الكعبة يهون عليه رمل زرود والتائق[1] إلى العافية لا يبالي بمرارة الدواء ، ويعلم أن جودة الثمر ثم على مقدار جودة البذر هاهنا فهو يتخير الأجود ، ويغتنم الزرع في تشرين العمر من غير فتور .

١ ثم يتخايل المؤمن دخول النار والعقوبة فينغص عيشه ويقوى قلقه ، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها ، فقلبه [١٣٢ / أ] هائم بيد الشوق تارة ، وفي صحراء الخوف أخرى ، فما يرى البنيان ، فإذا نازله الموت قَوَّى ظنه بالسلامة ، ورجـى لنفسه النجاة فيهون عليه ؛ فإذا نزل [إلى] القـبر وجاءه الملائكة يسألونه ، قال بعضهم لبعض : دعوه فما استراح إلا الساعة . نسأل الله ﷻ يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل ، وتمنعنا من اختيار الرذائل ، فإنه إن وفق ، وإلا فلا نافع .

---

(١) **التائق** : المشتاق .

٣٠٦ ـ فصل : لقد اعتبرت على مولاي سبحانه [وتعالى] أمراً عجيباً وهو أنه تعالى لا يختار لمحبته القرب منه إلا الكامل صورة ومعنى . ولست أعني حسن التخاطيط وإنما كمال الصورة اعتدالها ، والمعتدلة ما تخلو من حسن ، فتتبعها حسن الصورة الباطنة ، وهو كمال الأخلاق وزوال الأكدار ، ولا يرى في باطنه خبثاً ولا كدراً ، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهرة .

وقد كان موسى عليه السلام كل من رآه يحبه ، وكان نبينا ﷺ كالقمر ليلة البدر ، وقد يكون الولي أسود اللون ، لكنه حسن الصورة لطيف المعاني . فعلى قدر ما عند الإنسان من التمام في كمال الخلقة والخلق ، يكون عمله ، ويكون تقريبه إلى الحضرة بحسب ذلك . فمنهم كالخادم على الباب ، ومنهم حاجب ، ومنهم مقرب ، ويندر من يتم له الكمال . ولعله لا يوجد في مائة سنة منهم غير واحد وهذه حكاية ما تحصل بالاجتهاد ؛ بل الاجتهاد يحصل منها ؛ لأنه إذا وقع تمام حث على الجد على قدر نقصانه ، وهذا لا حيلة في أصله ، إنما هو جبلة ، وإذا أرادك لأمر هيأك له .

٣٠٧ ـ فصل : تأملت على قوم يدعون العقول ، يعترضون على حكمة الخالق ،. فينبغي أن يقال لهم هذا الفهم الذي دلكم على رد حكمته أليس هو من منحه ؟! أفأعطاكم الكمال ورضى لنفسه بالنقص ؟! [هذا] الكفر المحض الذي يزيد في القبح على الجحد .

فأول القوم إبليس ، فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين فرد حكمة الخالق ، ومر على هذا خلق كثير من المعترضين ، مثل ابن الراوندي والبصري وهذا المعرى [اللعين] يقول : كيف يعاب ابن الحجاج بالسخف والدهر أقبح فعلاً منه : أترى يعني به الزمان ! كلا . فإن مر الأوقات لا يفعل شيئاً وإنما هو تسقيف ، فكان يستعجل الموت ظناً منه أنه يستريح ، وكان يوصي بترك النكاح والنسل ، ولا يرى في الإيجاد حكمة إلا العناء والتعب [١٣٢ / ب] ومصير الأبدان إلى البلا . وهذا لو كان كما ظن كان الإيجاد عبثاً ، والحق منزه عن العبث .

قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطلاً** ﴾ فإذا كان ما خلق لنا لم يخلق عبثاً . أفنكون نحن – ونحن مواطن معرفته ومحال تكليفه – قد

وجدنا عبثاً ؟!

ومثل هذا الجهل إنما يصدر ممن ينظر في قضايا العقول التي يحكم بها على الظواهر ، مثل أن يرى مبنياً ينقض ، والعقل بمجرده لا يرى ذلك حكمة ولو كشفت له حكمة ذلك لعلم أنه صواب ؛ كما كشف لموسى مراد الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام ، ومعلوم أن ذبح الحيوان وتقطيع الرغيف ومضغ الطعام لا يظهر له فائدة سوى الإطلاق ؛ فإذا علم أنه غذاء لبدن من هو أشرف بدناً من المذبوح حسن ذلك الفعل .

واعجباً أو ما تقتضي العقول بوجوب طاعة الحكيم الذي يعجز عن معرفة حكمه مخلوقاته ؛ فكيف يعارضه في أفعاله ، نعوذ بالله من الخذلان .

٣٠٨ ـ فصل : ينبغي لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ في التلطف ولا يواجهه بما يقتضي أنك ظالم ، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة ؛ فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إذلالاً وهم لا يحتملون [ذلك] .

وإنما ينبغي أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب في رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من أسلافهم ، ثم لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه ، فإن كانت سيرته جميلة كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي وقصده الخير زاد في وعظه ووصيته ، وإن رآه ظالماً لا يلتفت إلى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، واجتهد في أن لا يراه ولا يعظه ، لأنه إن وعظه خاطر بنفسه ، وإن مدحه كان مداهناً ، فإن اضطر إلى موعظته كانت الإشارة .

وقد كان أقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة ويحتملون الواعظين حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنك ظالم فيصبر وقد تغير الزمان ، وفسد أكثر الولاة وداهنهم العلماء ، ومن لا يداهن لا يجد قبولاً الصواب فيسكت .

وقد كان الولايات لا يسألها إلا من أحكمته العلوم ، وثقفته التجارب ، فكان أكثر الولاة يتساورون في الجهل فتأتي الولاية على من ليس من أهلها ، ومثل هؤلاء ينبغي الحذر منهم والبعد عنهم . فمن ابتلى بوعظهم [١٣٣ / أ] فليكن على غاية التحرز فيما يقول ولا ينبغي أن يغتر بقولهم : عظنا ، فإنه لو قال لهم كلمة لا توافق أغراضهم ثارت حراراتهم ، وليحذر مُذكّر السلطان أن يعرض له بأرباب الولايات فإنهم إذا سمعوا بذلك صار الواعظ مقصوداً لهم

بالإهلاك خوفاً من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم والبعد في هذا الزمان عنهم أصلح ، والسكوت عن المواعظ أسلم ، فمن اضطر تلطف غاية التلطف ، وجعل وعظه للعوام وهم يسمعون ، ولا يغنيهم منه بشيء والله الموفق .

٣٠٩ ـ فصل : الحق لا يشتبه بباطل ؛ إنما يموه الباطل عند من لا يفهم له ، وهذا في حق من يدعي النبوات ، وفي حق من يدعي الكرامات . أما النبوات فإنه قد ادعاها خلق كثير ظهرت قبائحهم ، وبانت فضائحهم ؛ ومنها ما يوجبه خسة الهمة والتهتك في الشهوات ، والتهافت في الأقوال والأفعال حتى افتضحوا .

فمنهم الأسود العنسي ، ادعى النبوة ولقب نفسه ذا الحمار لأنه كان يقول يأتيني ذو الحمار ، وكان في أول أمره كاهناً يشعبذ فيظهر الأعاجيب ؛ فخرج في أواخر حياة النبي ﷺ فكاتبته مدحج وواعد ونجران ، وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد صاحبي رسول الله ﷺ وصفا له اليمن ، وقاتل شهر بن بادام فقتله وتزوج بنته ؛ فأعانت على قتله فهلك في حياة رسول الله ﷺ وبان للعقلاء أنه كان يشعبذ .

ومنهم مسيلمة ، ادعى النبوة وتسمى رحمان اليمامة لأنه كان يقول : الذي يأتيني رحمان ؛ فآمن برسول الله ﷺ وادعى أنه قد أشرك معه ، فالعجب أنه يؤمن برسول ويقول إنه كذاب ؛ ثم جاء بقرآن يضحك الناس ، مثل قوله : يا ضفدع بنت ضفدعين بقى ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين . ومن العجائب شاة سوداء تحلب لبناً أبيض ؛ فانهتك ستره في هذه الفصاحة ، ثم مسح بيده على رأس صبي فذهب شعره ، وبصق في بئر فيبست ، وتزوج سجاح التي ادعت النبوة . فقالوا : لابد لها من مهر فقال : مهرها أني قد أسقطت عنكم صلاة الفجر والعتمة .

وكانت هذه سجاح قد ادعت النبوة بعد موت رسول الله ﷺ فاستجاب لها جماعة . فقالت : أعدوا الركاب ، واستعدوا النهاب ، ثم اعبروا على الرباب[1] ، فليس [١٣٣ / ب] دونهم حجاب ، فقاتلوهم . ثم قصدت اليمامة فهابها مسيلمة فراسلها وأهدى لها فحضرت عنده فقالت : اقرأ عليَّ ما يأتيك به

(١) **الرباب** : السحاب الأبيض .

جبريل . فقال : إنكن معاشر النساء خلقتن أفواجاً ، وجعلتن لنا أزواجاً ، نولجه فيكن إيلاجاً . فقالت : صدقت أنت نبي . فقال لها : قومي إلى المخدع ، فقد هيئ لك المضجع ، فإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع ، وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع . فقالت : بل به أجمع فهو للشمل أجمع ؛ فافتضحت عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عطارد بن حاجب :

أضحت نبيتنـــا أنثى يطـــيف بها ... وأصبحت أنبيـــاء الناس ذُكـــرانا
فلعنـــة الله رب النـــاس كلهـــم ... على سجاح ومن بالإفك أغوانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت ... أصداؤه من رغيث[1] حيثما كانا

ثم أنها رجعت عن غيِّها وأسلمت ، وما زالت تبين فضائح مسيلمة حتى قتل

ومنهم طليحة بن خويلد ، خرج بعد دعوى مسيلمة النبوة ، فادعى النبوة وتبعه [عوام] ونزل سميراً ، فتسمى بذي النون ، يقول : إن الذي يأتيه يقال له ذو النون ، وكان من كلامه : إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا قبح أدباركم شيئاً فاذكروا الله أعفة قياماً . ومن قرآنه : والحمام واليمام والصرد الصوام ليبلغن ملكنا العراق والشام ، وتبعه عيينة بن حصين ، فقاتله خالد بن عيينة فجاء عيينة إلى طليحة فقال : ويحك جاءك الملك ؟ قال : لا فارجع فقاتل ، فقاتل ثم عاد ، فقال : أجاءك ؟ . فقال : لا ، فعاد ، فقاتل ، فقال : جاءك ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك ؟ قال : إن لك جيشاً لا ساه ، فصاح عيينة بالرجل : والله كذاب فانصرف الناس منهزمين ، وهرب طليحة إلى الشام . ثم أسلم وصح إسلامه وقُتل بنهاوند .

وذكر الواقدي : أن رجلاً من بني يربوع يقال له جندب بن كلثوم ، كان يلقب كرداناً ادّعى النبوة على عهد رسول الله ﷺ ، وكان يزعم أن دليله على نبوته أنه يسرج مسامير الحديد والطين ؛ وهذا لأنه كان يطلي ذلك بدهن البلسان فتعمل فيه النار ، **وقد تنبأ رجل يقال له كهمس الكلابي** ، وكان يزعم أن الله تعالى أوحى إليه : يا أيها الجائع اشرب لبناً تشبع ، ولا تضرب الذي لا ينفع ، فإنه ليس بمقنع ، وزعم أن دليله على نبوته أنه يطرح بين السباع

---

(١) **الرغيث** : الرغوث ، وهي المرأة المرضع .

الضارية فلا تأكله ، وحيلته في ذلك أنه يأخذ دهن الفار وحجر البرسان وقنفداً محرقاً وزبد البحر وصدفاً محرقاً مسحوقاً وشيئاً من الصبر والحرط فيطلي به جسمه ، فإذا قربت منه السباع فشمت تلك الأرياح وزفورها نفرت .

وتنبأ **بالطائف رجل يقال له أبو جعوانة العامري** ، وزعم أن دليله أنه يطرح في النار القطن فلا يحترق ، وهذا لأنه يدهنه بدهن معروف .

ومنهم هذيل بن يعفور من بني سعد بن زهير ، حكى عنه الأصمعي أنه عارض سورة الإخلاص فقال : قل هو الله أحد إله كالأسد جالس على الرصد لا يفوته أحد ومنهم هذيل بن واسع ، كان يزعم أنه من ولد النابغة الذبياني ، عارض سورة الكوثر فقال له رجل : ما قلت ؟ فقال : إن أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، فما يردك إلا كل فاجر . فظهر عليه السنوى فقتله وصلبه على النجف ، فعبر عليه الرجل فقال : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك من فعود ، بلا ركوع ولا سجود ، فما أراك تعود .

وممن ظهر فادعى أنه يوحى إليه المختار بن أبي عبيد ، وكان متخبطاً في دعواه ، وقتل خلقاً كثيراً وكان يزعم أنه ينصر الحسين - رضوان الله عليه - ثم قتل .

ومنهم حنظلة بن يزيد الكوفي ، كان يزعم أن دليله أنه يدخل البيضة في القنينة ويخرجها منها صحيحة ، وذاك أنه كان ينقع البيضة في الخل الحامض أياماً فيلين قشرها ثم يصب ماء في قنينة ، ثم يدس البيضة فيها ، فإذا لقيت الماء صلبت . وقد تنبأ أقوام قبل نبينا ﷺ كزاردشت وماني ، وافتضحوا ، وما من المدعين إلا من خذل .

وقد جاءت القرامطة بحيل عجيبة ، وقد ذكرت جمهور هؤلاء وحيلهم في كتابي التاريخ المسمى (بالمنتظم) وما فيهم من يتم له الأمر إلا ويفتضح .

ودليل صحة نبوة نبينا ﷺ أجلى من الشمس ، فإنه ظهر فقيراً والخلق أعداؤه فوعد بالملك فملك ، وأخبر [١٣٤ / ب] بما سيكون فكان ، وصين من زمن النبوة عن الشره وخساسة الهمة والكذب والكبر ، وأيد بالثقة والأمانة والنزاهة والعفة ، وظهرت معجزاته للبعيد والقريب ، وأنزل عليه الكتاب العزيز الذي حارت فيه عقول الفصحاء ، ولم يقدروا على الإتيان بآية تشبهه فضلاً

عن سورة ، وقد قال قائلهم وافتضح . ثم أخـبر أنه لا يعارض فيه فكان كما قال ، وذلك قوله [تعالى] : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ وكذلك قوله : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ﴾ فما تمناه أحد إذ لو قال قائل قد تمنيته لبطلت دعواه ، وكان يقول ليلة غزاة بدر : غداً مصرع فلان هاهنا [فلا يتعداه[1]] وقال : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ [2] » ، فما ملك بعدهما من له كبير قدر ، ولا من استتب له حال .

ومن أعظم دليل على صدقه أنه لم يرد الدنيا فكان يبيت جائعاً ، ويؤثر إذا وجد ، ويلبس الصوف ويقوم الليل ؛ وإنما تطلب النواميس لاجتلاب الشهوات ، فلما لم يردها دل على أنه يدل على الآخرة التي هي حق ؛ ثم لم يزل دينه يعلو حتى عم الدنيا ، وإن كان الكفر في زوايا الأرض إلا أنه مخذول ، وصار في تابعيه من أمته الفقهاء الذين لو سمع كلامهم الأنبياء القدماء تحيروا في حسن استخراجهم ، والزهاد الذين لو رآهم الرهبان تحيروا في صدق زهدهم ، والفطناء الذين لا نظير لهم في القدماء . أو ليس قوم موسى يعبدون بقرة ، ويتوقفون في ذبح بقرة ، ويعبرون البحر ، ثم يقولون : اجعل لنا إلهاً ، وقوم عيسى يدخرون من المائدة وقد نهوا ، والمعتدون في السبت يعصون الله لأجل الحيتان ، وأمتنا بحمد الله [تعالى] سليمة من هذه الأشياء ، وإنما في بعضها ميل إلى الشهوات المنهي عنها ، وذلك في الفروع لا في الأصول ، فإذا ذكّروا بكوا وندموا على تفريطهم . فنحمد الله على هذا الدين وعلى أننا من أمة هذا الرسول ﷺ .

وقد كان جماعة من المتصفين بالزهد مالوا إلى طلب الدنيا والرياسة ، فاستغواهم الهوى ؛ فخرقوا بإظهار [١٣٥ / أ] ما يشبه الكرامات كالحلاج وابن الشاش وغيرهما ممن ذكرت حال تلبيسه في كتاب تلبيس إبليس ، وإنما فعلوا ذلك لاختلاف أغراضهم . ولم يزل الله بنشئ في هذا الدين من الفقهاء من

---

(١) **صحيح** : رواه مسلم (١٧٧٩) .

(٢) **صحيح** : رواه البخاري (٣١٢٠) ، ومسلم (٢٩١٨) .

يظهر ما ستره المتعلمون ، كما ينشئ من علماء الحديث من يهتك ما أخفاه الواضعون ، حفظاً لهذا الدين ، ودفعاً للشبهات عنه ، فلا يزال الفقيه والمحدث يظهران عوار كل ملبس بوضع حديث أو بإظهار دعوى تزهد وتنمس[١] ، فلا يؤثر ما ادعياه إلا عند جاهل بعيد عن العلم والعمل ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٨].

٣١٠ ـ فصل : واعجباً من موجود لا يفهم معنى الوجـــود ، فإن فهم لم يعمل بمقتضى فهمه ، يعلم أن العمر قصير وهو يضيعه بالنوم والبطالة والحديث الفارغ ، وطلب الدنيا واللذات ، وإنما أيامه أيام عمل لا زمان فراغ . وقد كلف بذل المال بمخالفة الطبع من الشرع فبخل به إلى أن تضايق الخناق فيقول حينئذ : فرقوا عني بعد موتي وافعلوا كذا ، فأين يقع هذا لو فعل ؟ وبعيد أن يفعل ، وإنما يراد بإنفاقك في صحتك مخالفة للطبع في تكلف مشاق الإخراج في زمن السلامة ، فافرق بين الحالتين إن كان لك فهم . فالسعيد من انتبه لنفسه وعمل بمقتضى عقله ، واغتنم زمناً نهايته الزمن وانتهب عمراً يا قرب انقطاعه .

ويحك ما تصنع بادخار مال لا يؤثر حسنة في صحيفة ولا مكرمة في تاريخ .. أما سمعت بإنفاق أبي بكر وبخل ثعلبة[٢] ، أما رأيت تأثير مدح حاتم وبخل الحباحب ! ويحك لو ابتلاك في مالك لاستغثت ، أو في بدنك ليلة بمرض شكوت .. فأنت تستوفي مطلوباتك منه ، ولا تستوفي حقه عليك ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ولتعلم أنه بهذا القدر المفرّط فيه يحل الخلود الدائم في ثواب العمل فيه ، فسبحان من منّ على أقوام فهموا المراد فأتعبوا الأجساد ، وغطى على قلوب آخرين فوجودهم كالعدم ، وكيف لا يتعب العاقل بدنه إتعاب البُدْن والمقصود مني . أترى ما بال الحق متحلياً في إيجادك أيها العبد ! بلى .. والله إن وجودك دليل وجوده ، وإن نعمه عليك دليل جوده . فكما قدمك على سائر الحيوانات ، فقدمه في قلبك على [١٣٥ / ب] كل المطلوبات . والخيبة من جهله ،

---

(١) التنميس : التلبيس .

(٢) إن كان يقصد به ثعلبه بن حاطب قصة منعه للزكاة فإنها ضعيفة وانظر رسالة الشهاب الثاقب في الذب عن الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب لأبي أسامة سليم الهلالي وانظر أيضاً ما هو أوسع وأشمل رسالة ثعلبة ابن حاطب الصحابي المفترى عليه لعدّاب الحمشي .

وأفقر من أعرض عنه ، وأذلّ من اعتز بغيره ، واحسرة من اشتغل بغير خدمته .

٣١١ ـ فصل : إني لأعجب من عاقل يرى استيلاء الموت على أقرانه وجيرانه كيف يطيب عيشه ، خصوصاً إذا علت سنه . واعجباً لمن يرى الأفاعي تدب إليه وهو لا ينْزعج ! أما يرى الشيخ دبيب الموت في أعضائه ، قد أخرج سكين القوى وأنزل متغشرم الضعف ، وقلب السواد بياضاً ، ثم في كلّ يوم يزيد الناقص . ففي نظر العاقل إلى نفسه ما يشغله عن النظر إلى خراب الدنيا وفراق الأقران وإن كان ذلك مزعجاً ، ولكن شغل من احرق بيته بنقل متاعه يلهيه عن ذكر بيوت الجيران ، وإنه لمما يسلي عن الدنيا ويهون فراقها استبدال المعارف ثم تنكره ، فقد رأينا أغنياء كانوا يؤثرون وفقراء كانوا يصبرون ، ومحاسبين لأنفسهم يتورعون ، فاستبدل السفهاء عن العقلاء ، والبخلاء عن الكرماء ؛ فيا سهولة الرحيل ، لعل النفس تلقى من فقدت ، فتلحق بمن أحبت .

٣١٢ ـ فصل : نظرت في قول الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ [الحج : ١٨] . ثم قال : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ** ﴾ فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود ، واستثنى من العقلاء ، فذكرت قول بعضهم :

ما جحد الصامت من أنشأه   ومن ذوي النطق أتي الجحود

فقلت : إن هذه لقدرة عظيمة ، يوهب عقل الشخص ثم يسلب فائدته وإن هذا لأقوى دليل على قادر قاهر ، وإلا فكيف يحسن من عاقل أن لا يعرف بوجوده وجود من أوجده ، وكيف ينحت صنماً بيده ثم يعبده غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحجة ، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجَّة .

٣١٣ ـ فصل : ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فإن الطب يسرق ، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله ؛ فإن رؤية الدنيا تحث على طلبها . وقد رأى رسول الله ﷺ ستراً على بابه فهتكه وقال : « **مَالي وَللدُّنْيا** »[1] وليس ثوباً له طراز فرماه ، وقال : « **شَغَلَتْني أعلاَمُه** »[2] ، وليس

(١) **صحيح** : سبق تخريجه .

(٢) **صحيح** : سبق تخريجه .

خاتماً ثم رماه وقال : ((**نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ وَنَظَرْتُ إِلَيه**))[١].

وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم ، خصوصاً لمن له نفس تطلب الرفعة ، وكذا سماع الأغاني ومخالطة صوفية اليوم الذين لا نظر لهم في الرزق الحاصل ، بل لو كان من أين كان قبلوه ، ولا يتورعون أن يأخذوا من ظالم ، وليس عندهم خوف كما كان أوائلهم .

فقد كان سرى السقطي يبكى طول الليل ، وكان يبالغ في الورع ولا لهم تعبد الجنيد ، وإنما ثُمَّ أكل ورقص وبطالة وسماع أغاني من المردان ، حتى قال بعض من يعتبر قوله : حضرت مع رجل كبير يوماً إليه مع مشائخ الربط ومغنيهم أمرد ، فقام الشيخ ونقطه بدينار على خده ، وادعاؤهم أن سماع هذه الأشياء تدعو إلى الآخرة فوق الكذب ، وليس العجب منهم ، وإنما العجب من جهال ينفقُون عليهم فينفقون عليهم . ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم ، وهم معذورون في إعجابهم بهم ، وإن كان أكثر القوم تعبدهم على غـــير الجادة ، كما ذكرت في كتابي المسمى (تلبيس إبليس).

فأما اليوم فقد برح الخفاء ، أحدهم يتردد إلى الظلمة ويأكل أموالهم ، ويصانعهم بقميص ليس فيه طراز ، هذا هو التصوف فحسب .

أو لا يستحي من الله من يزهد في رفيع الأثواب لأجل الخلائق لا لأجل الحق ، ولا يزهد مطعم ولا في شبهة ، فالبعد عن هؤلاء لازم .

وينبغي للمنفرد لطاعة الله تعالى عن الخلق أن لا يخرج إلى السوق جهده ، فإن خرج ضرورة غض بصره ، وأن لا يزور صاحب منصب ولا يلقاه ، فإن اضطر داري الأمر ، ولا يخالط عامياً إلا لضرورة مع التحرز ، ولا يفتح على نفسه باب التزويج بل يقنع بامرأة فيها دين فقد قال الشاعر :

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضـــر مهجتــه لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

(١) **إسناده صحيح** : سبق تخريجه .

فإن كان يغلب عليه العلم انفرد بدراسته ، واحترز من الاتباع المتعلمين وإن غلبت عليه العبادة ، زاد في احترازه ، وليجعل خلوته أنيسه ، والنظر في سير السلف جليسه ، وليكن له وظيفة من زيارة قبور الصالحين والخلوة بها ، ولا ينبغي أن يفوته ورد قيام الليل ، وليكن بعد النصف الأول [illegible] ؛ فليطل مهما قدر ، فإنه زمان بعيد المثل ، وليمثل رحيله عن قرب ليقصر أمله ، وليتزود في الطريق على قدر طول السفر . نسأل الله ﷻ يقظة من فضله ، وإقبالاً على خدمته ، وأن لا يخذلنا بالالتفات عنه ؛ إنه قريب مجيب .

٣١٤ ـ فصل : كلما نظرت في تواصل النعم على تحيرت في شكرها ، وأعلمُ أن الشكر من النعم فكيف أشكر ؟ لكني معترف بالتقصير ، وأرجو أن يكون اعترافي قائماً ببعض الحقوق . وعندي خلة أرجو بها كل خير ، وهو أن من يصوم أو يصلي يرى أنه يعبد ويخدم كأنه يقضي حق المخدوم ، وأنا أرى أني إذا صليت ركعتين فإنما قمت أكدي فلنفسي أعمل ، إذ المخدوم غني عن طاعتي . وكان بعض المشايخ يقول : جاء في الحديث : ((**الدُّعَاءُ عِبَادَة**))[1].

[illegible] : العبادة دعاء . فالعجب ممن يقف للخدمة يسأل حظ نفسه ، كيف يرى أنه قد فعل شيئاً ؟! إنما أنت في حاجتك . ومِنَّة من أيقظني لا تقاومها خدمتك ؛ فأنا أقول كما قال الأول .

يا منتهى الآمـــال أنت كفيتني وحفظتني
وعدا الزمـــان على كي يجتاحني فمنعتني
فانقـــاد لي متخشعاً لما رآك نصـــرتني
وكسوتني ثوب الغنا ومن المطالب صنتني
فإذا سكت بدأتـــني وإذا سألت أجبتني
فإذا شكرتك زدتني فقدحتني وبهرتـــني
أو إن أجد بالمال فالأموال أنت أفدتـــني

(١) اسناده صحيح : رواه النسائي في الكبرى (١١٤٦٤) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، وأحمد (٢٧١/٤) وابن أبي شيبة (٢٠٠/١٠) وغيرهم من طريق ذرعن يسيع الكندي عن النعمان بن بشير مرفوعاً بلفظ (إن الدعاء هو العبادة) .

٣١٥ـ فصل : رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم ؛ فهمُّ الفقيه التدريس ، وهم الواعظ الوعظ ؛ فهذا يراعي درسه فيفرح بكثرة من يسمعه ، ويقدح في كلام من يخالفه ، ويمضي زمانه في التفكر في المناقضات ، ليقهر من يجادله !. وعينه إلى التصدر والارتفاع في المجالس ، وربما كانت همته جمع الحطام ، ومخالطة السلاطين .

والواعظ همته ما يزوق به كلامه ويكثر جمعه ويجلب به قلــوب الناس إلى تعظيمه ، فإن كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه ، وهذه قلوب غافلة عن الله ﷻ ، إذ لو كانت [١٣٧ / أ] لها به معرفة لاشتغلت به ، وكان أنسها بمناجاته ، وإيثارها لطاعاته ، وإقبالها على الخلوة به ، لكنها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنيا وذاك دنيا مثلها ؛ فإذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجد لها طعماً ، وكان جمع الناس أحب إليها ، وزيارة الخلق لها آثر عندها ، وهذه علامة الخزلان .

وعلى ضد هذا متى كان العالم مقبلاً على الله سبحانه مشغولاً بطاعته ، كان أصعب الأشياء عنده لقاء الخلق ومحادثتهم ، وأحب الأشياء إليه الخلوة ، وكان عنده شغل عن القدح في النظراء وعن طلب الرياسة ، فإن ما علق به همته من الآخرة أعلى من ذلك ، والنفس لابد لها مما تتشاغل به . فمن اشتغل بخدمة الحق أعرض عن الخلق ؛ فإن ما تربي رياسته ، وذلك يوجب الإعراض عن الحق ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

التأمل في فهم حقائق الأشياء

٣١٦ـ فصل : قد جاء في الأثر : اللهم أرنا الأشياء كما هي ، وهذا كلام حسن غاية ، وأكثر الناس ما يرون الأشياء بعينها ، فإنهم يرون الفاني كأنه باق ، ولا يكادون يتخايلون زوال ما هم فيه وإن علموا ذلك .. إلا أن عين الحسن مشغولة بالنظر إلى الحاضر .. ألا ترى زوال اللذة وبقاء إثمها ، ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق . فمن جمع الأموال و لم ينفقها فما رآها بعينها ، إذ هي آلة لتحصيل الأغراض ، لا تراد لذاتها .

ومن رأى المعصية بعين الشهوة فما رآها ، إذ فيها من العيوب ما شئت ثم

ثمرتها عقوبة آجلة ، وفضيحة عاجلة .

فانظر إلى أكبر شهوات الحس وهو الوطء ؛ فإن الماء لا يحصل إلا بعد مطعم ومشرب ؛ ومن تفكر في المطعم نظر إلى حرث الأرض وأنها تفتقر إلى بقر للحراثة عليهن المحراث ، وهو حديد ومعه خشب ويتعلق به حبال ، فمن تفكر في عمل الحبال نظر في زرع القنب وتسريحه وفتله والحديد وجلبه وضربه ، والخشب ونباته ونجارته ، ودوران الدولاب وعمله ، ثم استحصاد الزرع وحصده وتذريته وطحنه وعجنه وخبزه ، ومن عمل التنور وجلب الشوك .

ومن هذا الجنس إذا نظر فيه كثر جداً حتى قالوا : لا تتنال لقمة إلا وقد عمل فيها ثلاثمائة نفس أو نحوهم . فإذا أكلت تلك اللقمة فلتتفكر في خلق الأسنان بقطعها والأضراس بلطحنها ، وعذوبة ماء الفم يخلطها ، واللسان يقبلها ، [١٣٧ / ب] وعضلات الفم يصعد منها شيء ويترك شيء حتى يصلح البلع ، ثم يتناولها المعا فيوصلها إلى الكبد فيقوم طابخة لها ، فإذا صارت دماً نفت رسوبها إلى الطحال ، ومائيتها إلى المثانة ، واستخلصت من أخلص الدم وأصفاه للكبد والدماغ والقلب ، وأخذت أجود ذلك فحدرته إلى الأنثيين معداً لخلق آدمي ، فإذا تحركت نيران الشهوة تورث تلك النطفة ، وقد حكم الشرع بطهارتها ؛ وحكم لها بطهارة الرحم والمحل الذي يباشره الذكر فيخلق منها الآدمي الموحد .

فما جاء هذا الشخص إلا بأغلى الغلاء وبعد عجائب أشرنا إليها ، لا إنا عددناها . أفمن فهم هذا يحسن منه أن يبدد تلك النطفة في حرام ؟! وأن يطأ في محل نجس فتضيع ؟!. فكم يتعلق بالزنى من محن لا يفى معشار عشرها بلذة لحظة ؛ منها هتك العرض بين الناس ، وكشف العورات المحرمة ، وخيانة الأخ المسلم في زوجته إن كانت متزوجة ، وفضيحة المزني بها وهي كأخت أو بنت . فإن علقت منه ولها زوج ألحقته بذلك الزوج ، وكان هذا الزني سبباً في ميراث من لا يستحق ، ومنع من يستحق ، ثم يتسلسل ذلك من ولد إلى ولد ، وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم . قد قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وقال ﷺ : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ**

أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحَمٍ لاَ يَحِلُّ لَهُ »[1] ، ومن له فهم فهو يعلم أن المراد من النطفة إيجاد الموحدين ، ولولا تركيب الشهوة لم يقع الوطء ؛ لأنه التقاء عضوين غير مستحسنين ولا صورتهما حسنة ولا ريحهما طيب ، وإنما الشهوة تغطي عين الناظر ليحصل الولد أصلاً فهي عارض فمن طلب الشهوة ونسي جنايته بالزنى فما رأى الأشياء على ما هي ، وقس على هذا المطعم والمشرب وجمع المال وغير ذلك .

٣١٧ ـ فصل : إن قال قائل أي فائدة في خلق ما يؤذي ؟ فالجواب : إنه قد ثبتت حكمة الخالق سبحانه فإذا خفيت وجب التسليم . ثم إن المستحسنات في الجملة أنموذج ما أعد من الثواب ، والمؤذيات أنموذج ما أعد من العقاب ، وما خلق شيء يضر إلا وفيه منفعة .

قيل لبعض الأطباء : إن فلاناً يقول أنا كالعقرب [١٣٨ / أ] أضرّ ولا أنفع . فقال : ما أقل علمه ، إنها لتنفع إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة ، وقد تجعل في جوف فخار مشدود الرأس مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار في تنور فإذا صارت رماداً سقى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر من به الحصاة فيفتها من غير أن يضر بشيء من سائر الأعضاء ، وقد تلسع العقرب من به حمى عتيقة فتزول ، ولسعت رجلاً مفلوجاً فزال عنه الفالج ، وقد تلقى في الدهن حتى يجتذب قواها فيزيل ذلك الدهن الأورام الغليظة ، ومثل هذا كثير ؛ فالجاهل عدو ما جهله . وأكبر الحماقة رد الجاهل على العالم .

٣١٨ ـ فصل : كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق سبحانه وشاهدت عظمته ولطفه ورفعته ، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت .

وقد كان خلق من الناس غلبت عليهم محبته فلم يقدروا على مخالطة الخلق . ومنهم من لم يقدر على السكوت عن الذكر ، وفيهم من لم ينم إلا غلبة ،

---

(١) **ضعيف مرسل** : رواه ابن الجوزي في ذم الهوى (ص ١٩٠) من طريق ابن أبي الدنيا قال : حدثنا عمار ابن نصر قال : حدثنا بقيه عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ فذكره كما في الضعيفة للشيخ الألباني (١٥٨٠) وفي الإسناد أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وبقية مدلس وقد عنعن والهيثم بن مالك تابعي .

وفيهم من هام في البراري ، وفيهم من احترق في بدنه . فيا حسن مخمورهم ما ألذّ سكره ، ويا عيش قلقهم ما أحسن وجده .

كان أبو عبيدة الخواص قد غلبه الوجد فكان يمشي في الأسواق ويقول : واشوقاه إلى من يراني ولا أراه ، **وكان فتح بن سخرف يقول** : قد طال شوقي إليك ، فعجل قدومي عليك ، **وكان قيس بن الربيع** كأنه مخمور من غير شراب ، **وكان ابن عقيل يقول** : إن التبذل فيه سبحانه أحسن من التجمل في غيره .. هل رأيت قط عراة أحسن من المحرمين ! هل رأيت للمتزينين برياش الدنيا كأثواب الصالحين ؟! هل رأيت خماراً أحسن من نعاس المتهجدين ؟!.

هل رأيت سكراً أحسن من صعق الواجدين ؟! هل شاهدت ماء صافياً أصفى من دموع المتأسفين ؟ هل رأيت رءوساً مائلة كرءوس المنكسرين ؟! هل لصق بالأرض أحسن من جباه المصلين ؟! هل حرك نسيم الأسحار أوراق الأشجار فبلغ مبلغ تحريكه أذيال المتهجدين ؟! هل ارتفعت أكف وانبسطت أيدي فضاهت أكف الراغبين ؟! هل حرك القلوب ترجيع صوت لحن أو رنة وتر كما حرك حنين المشتاقين ؟! وإنما يحسن التبذل في تحصيل أوفى الأغراض ، فلذلك حسن التبذل في خدمة المنعم [١٣٨ / ب].

٣١٩ ـ فصل : في سبب تبذير الولاة . أكثرهم لا يعرف ولا يتأدب بآدابه بمرة . ينفق قلة العقل في أصل الوضع ، ثم ذلك القليل لا يعاون بل يعان عليه ، وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها عن عملها الذي هيئت له تعطلت وخمدت ، ولهذا تنقص أبصار النساخ والرفائين وتحتد أبصار أهل البوادي ؛ لأنه لا صادم لأبصارهم ، وشغل العقل التفكر والنظر في عواقب الأحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب ، وهم يمتلئون من الطعام دائماً وذلك يؤذي العقل ، ثم يطيلون النوم ، فإذا انتبهوا شربوا المسكر فاتفق للعقل تعطيل وتغطية فساء التدبير .

٣٢٠ ـ فصل : من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم ، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده : مثاله أن قوماً قد رسخ في قلوبهم التشبيه ، وإن ذات الخالق سبحانه ملاصقة للعرش ، وهي بقدر العرش ، ويفضل من العرش أربعة أصابع ، وسمعوا مثل هذا من أشياخهم ، وثبت عندهم أنه إذا نزل انتقل إلى السماء الدنيا ، فخلت منه ست سماوات ، فإذا دعى أحدهم إلى التنزيه

وقيل له ليس كما خطر لك ، إنما ينبغي أن تمر الأحاديث كما جاءت من غير مساكنة ما يتوهمه ، صَعُب هذا عليه لوجهين :

أحدهما : لغلبة الحس عليه والحس على العوام أغلب .

والثاني : لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه ؛ فالمخاطب لهذا مخاطر بنفسه ، ولقد بلغني عن بعض من كان يتدين أنه ممن قد رسخ في قلبه التشبيه أنه سمع من بعض العلماء شيئاً من التنْزيه فقال : والله لو قدرت عليه لقتلته . فالله الله أن تحدث مخلوقاً من العـــوام بما لا يحتمله ، فإنه لا يزول ما في نفسه ، ويخاطر المحدث له بنفسه وكذلك كل ما يتعلق بالأصول .

٣٢١ـ فصل : لا يغرنك من الرجل طنطنه وما تراه يفعل من صلاة وصوم وصدقة وعزلة عن الخلق ، إنما الرجل هو الذي يراعى شيئين : حفظ الحدود ، وإخلاص العمل ، فكم قد رأينا متعبداً يخرق الحدود بالغيبة ، وفعل ما لا يجوز مما يوافق هواه ، كما قد اعتبرنا على صاحب دين أنه يقصد بفعله غير الله تعالى ، وهذه الآفة تزيد وتنقص في الخلق .

فالرجل كل الرجل [١٣٩ / أ] هو الذي يراعى حدود الله ، وهي ما فرض عليه وألزم به ولا يتعداها إلى هواه ، ويحسن القصد ، فيكون عمله وقوله خالصاً لله تعالى ، لا يريد به الخلق ولا تعظيمهم له . فربما جاشع ليقال ناسك ، وصامت ليقال خائف ، وتارك للدنيا ليقال زاهد .

وعلامة المخلص أن يكون في جلوته كخلوته ، وربما تكلف بين الناس التبسم والانبساط لينمحى عنه اسم زاهد ؛ فقد كان ابن سيرين يضحك بالنهار فإذا جن الليل فكأنه قتل أهل القرية .

واعلم أن المعمول معه لا يريد الشركاء ؛ فالمخلص مفرد له بالقصد ، والمرائي قد أشرك معه ليحصل له مدح الناس ، وذلك ينقلب ؛ لأن قلوبهم بيد من أشرك معه ، فهو يقلبها عليه لا إليه . فالموفق من كانت معاملته باطنة وأعماله خالصة ، وذلك الذي تحبه الناس وإن كرهوا ، كما يمقتون المرائي وإن زاد تعبده ، ثم إن الرجل الموصوف بهذه الخصال لا يتناهى عن كمال العلوم ولا يقصر عن طلب الفضائل ، فملأ الزمان أكثر مما يسعه من الخير ، وقلبه لا يفتر عن العمل القلبي ، إلا أن يصير شغله بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢٢ ـ فصل : رأيت خلقاً يفرطون في أديانهم ثم يقولون : احملونا إذا متنا إلى مقبرة أحمد . أتراهم ما سمعوا أن رسول الله امتنع من الصلاة على من عليه دين[١] ، وعلى الغال وقال : ما ينفعه صلاتي عليه[٢] ولقد رأيت أقواماً من العلماء حملهم حب الصيت على أن استخرجوا إذناً من السلطان فدفنوا في دكة أحمد بن حنبل وهم يعلمون أن هناك خلقاً بعضهم على بعض ، وما فيهم إلا من يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذاك .

فأين احتقار النفوس ، أما سمعوا أن عمر بن عبد العزيز قيل له : تدفن في الحجرة فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب ما خلا الشرك أحب إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك ؛ لكن العادات ، وحب الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقي العلم يجرى على الألسن عادة لا للعمل به ، ثم آل الأمر إلى جماعة خالطوا السلاطين وباشروا الظلم ، يزاحمون على الدفن بمقبرة أحمد ويوصون بذلك ، فليتهم أوصوا بالدفن في موضع فارغ ، إنما يدفنون على موتى ، وتخرج عظام أولئك فيحشرون على ما ألفوا من الظلم حتى في موتهم ، وينسون أنهم كانوا من أعوان [١٣٩ / ب] الظلمة .

أترى ما علموا أن مساعد الظالم ظالم ! وفي الحديث : « **كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة** » قال السجَّان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ فقال : لا أنت من الظلمة . إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمر .

٣٢٣ ـ فصل : رأيت الناس يذمون الحاسد ويبالغون ويقولون : لا يحسد إلا شرير يعادي نعمة الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويبخل على أخيه المسلم . فنظرت في هذا فما رأيته كما يقولون ؛ وذاك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد ، فإذا رأى صديقه قد علا عليه تأثر هو ولم يحب أن يرتفع عليه ، وود أن

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٢٨٩) .

(٢) **إسناده ضعيف** : رواه أبو داود (٢٧١٠) ، والنسائي (٤/٦٤) وأحمد (٤/١١٤ ، ٥/١٩٢) ، والحميدي (٨١٥) وابن حبان (٤٨٥٣) ، والحاكم (٢/١٢٧) وغيرهم من طريق يحيى بن سعيد عن محمد ابن يحيى بن حبان عن أبي عمرة عن زيد بن خالد الجهني فذكره مرفوعاً . وفي الإسناد أبو عمرة وهو مجهول . وقد روى بحذف أبي عمرة والصواب إثباته كما في العلل لابن أبي حاتم (١/٣٦٦) وضعفه الشيخ الألباني في الإرواء (٧٢٦) والحديث ليست فيه هذه اللفظة (ما ينفعه صلاتي عليه).

لو لم ينل صديقه ما ينال ، أو أن ينال هو ما نال ذاك لئلا يرتفع عليه وهذا معجون في الطين ، ولا لوم على ذلك .

إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل ، وكنت أظن أن هذا قد وقع لي عن سرّي وفحصي ، فرأيت الحديث عن الحسن البصري قد سبقني إليه أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال : أخبرنا ابن النقور قال : أخبرنا المخلص قال : حدثنا البغوي قال : حدثنا أبو روح قال : حدثنا مخلد ابن الحسن عن هشام عن الحسين قال : ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خلق معه الحسد ، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء .

٣٢٤ ـ **فصل** : من أعظم الضرر الداخل على الإنسان كثرة النساء ، وأنه أولاً يتشتت همه في محبتهن ، ومداراتهن وغيرتهن ، والإنفاق عليهن ولا يأمن إحداهن أن تكرهه وتريد غيره فلا تتخلص إلا بقتله ، ولو سلم من جميع ذلك لم يسلم في الكسب لهن ، فإن سلم لم ينج من السآمة لهن أو لبعضهن ، ويطلب ما لا يقدر عليه من غيرهن ، حتى أنه لو قدر على نساء بغداد كلهن فقدمت امرأة مستترة من غير البلد ظن أنه يجد عندها ما ليس عندهن .

ولعمري إن في الجدة لذة ، ولكن رب مستور إذا انكشف افتضح ، وإذا سلم من كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه في الجماع ، فيكون طلبه للالتذاذ مانعاً من دوام الالتذاذ ، ورب لقمة منعت لقمات ، ورب لذة كانت سبباً في انقطاع لذات ، والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه ، ولابد أن يكون فيها شيء لا يوافق إنما العمل على الغالب فيوهب الخلة الردية [١٤٠/أ] للجيدة وينبغي أن يكون النظر إلى باب الدين قبل النظر إلى الحسن ، فإنه إذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بتلك المرأة ومما يهلك الشيخ سريعاً الجماع ، فلا يغتر بما يرى من انبساط الآلة وحصول الشهوة وذلك مستخرج من قوته ما لا يعود مثله ، فلا ينبغي أن يغتر بحركة وشهوة ولا يقرب النساء إن كان له رأي في البقاء .

٣٢٥ ـ **فصل** : إذا رأيت قليل العقل في أصل الوضع فلا ترج خيرة ؛ فأما إذا كان وافر العقل لكنه يغلب عليه الهوى فارجه ، وعلامة ذلك أنه يدبر أمره في جهله ؛ فيستتر من الناس إذا أتى فاحشة ، ويراقب في بعض الأحوال ، ويبكي عند الموعظة ، ويحترم أهل الدين ، فهذا عاقل مغلوب بالهوى فإذا انتبه

بالندم انبسط شيطان الهوى وجاء ملك العقل .

فأما إذا كان قليل العقل في الوضع ، وعلامته أن لا ينظر في عاقبة عاجلة ولا آجلة ولا يستحي من الناس أن يروه على فاحشة ، ولا يدبر أمر دنياه ، فذاك بعيد الرجاء ، وقد يندر من هؤلاء من يفلح ، ويكون السبب فيه خميرة من العقل غطى عليها كثرة الهوى ؛ فمثلهم كمثل مصروع أفاق .

٣٢٦ ـ فصل : ينبغي الاحتراز من كل ما يجوز أن يكون ، ولا ينبغي أن يقال الغالب السلامة ؛ وقد رأينا من نزل مع الخيل في سفينة فاضطربت فغرق من في السفينة وإن كان الغالب السلامة . وكذا ينبغي أن يقدر الإنسان في نفقته وإن رأى الدنيا مقبلة ، لجواز أن تنقطع تلك الأسباب وحاجة النفس لابد من قضائها ، فإذا بذر وقت السعة فجاء وقت الضيق لم يأمن أن يدخل في مداخل سوء ، وأن يتعرض بالطلب من الناس ، وكذلك ينبغي للمعافى أن يعد للمرض ، وللقوى أن يتهيأ للهرم ، وفي الجملة فالنظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء ؛ فأما النظر في الحالة الراهنة فحسب ، فحالة الجهلة الحمقى . مثل أن يرى نفسه معافى وينسى المرض ، أو غنياً وينسى الفقر أو يرى لذة عاجلة وينسى ما يجني عواقبها ، وليس للعقل شغل إلا النظر في العواقب ، وهو يشير بالصواب ؛ أين من يقبل ؟.

٢٢٧ ـ فصل : يبين إيمان المؤمن عند الابتلاء ، فهو يبالغ في الدعـــاء ولا يرى أثراً للإجابة ، ولا يتغـــير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس ، لعلمـــه [١٤٠ / ب] أن الحق أعلم بالمصالح ، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان فإنه لم يتحكم له بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجا والدعاء فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الإيمان ، ويرى أن له حقاً في الإجابة ، وكان يتقاضى بأجرة عمله .

أما سمعت قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام ؛ بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير ، فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله وقال : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** ﴾ [يوسف : ٨٣]. وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ**

اللَّه أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤]. ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج . ومن هذا قول رسول الله ﷺ : « **لا يزَالُ العَبْدُ بخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ** » ، قيل له : وما يستعجل ؟ قال : « **يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي** »[1] وإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء ، وتضجر من كثرة الدعاء ، فإنك مبتلى بالبلاء ، متعبد بالصبر والدعاء ، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء .

٣٢٨ـ فصل : تذكرت في سبب دخول جهنم فإذا هو المعاصي ، فنظرت في المعاصي فإذا هي حاصلة من طلب اللذات ، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعاً ليست بشيء ، وفي ضمنها من الأكدار ما يصيّرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات ، فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار .

فمن اللذات الزنى ، فإن كان المراد إراقة الماء فقد يراق في حلال ، وإن كان في معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق ، فإذا هو ملكه فالمملوك مملوك ، وإن هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربو على لذة القرب ، وإن كان ولد من الزنى فالفضيحة الدائمة ، والعقوبة التامة ، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق .

وأما الجاهل يرى لذته في بلوغ ذلك الغرض ، وينسى ما يجني مما يكدر عيش الدنيا والآخرة ، ومن ذلك شرب الخمر ، فإنه تنجيس للفم والثوب ، وإبعاد للعقل ، وتأثيراته [١٤١ / أ] معلومة عند الخالق والمخلوق ، فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجني عقاباً وذهاب جاه ، وربما خرج بالعربدة إلى القتل .

وعلى هذا فقس جميع المذوقات . فإنّ لذاتها إذا وزنت بميزان العقل لا تفي بمعشار عشيرها عواقبها القباح في الدنيا والآخرة ، ثم هي في نفسها ليست

---

(١) **ضعيف بهذا اللفظ** . رواه أحمد (٣/١٩٣) ، وأبو يعلى (٢٨٦٥) ، والطبراني في الأوسط (٢٥١٨ ، ٥٩١٨) ، والبزار (٣١٣٧ كشف) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٠٩) من طريقين . أحدهما : من طريق أبي هلال الراسبي حدثنا قتادة عن أنس ، والآخر : من طريق يزيد الرقاشي عن أنس ، والراسبي والرقاشي ضعيفان وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) ، وأبو داود (١٤٨٤) ، وابن ماجه (٣٨٥٣) ، والترمذي (٣٣٨٧) ، وأحمد (٢/٤٨٧) بلفظ . يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فما يستجاب لي .

بكبير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا ؟! سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجني ، وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الأصلح ، وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جناياته .

ثم العجب أنا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدوا في الطريق فيقال ساعي ، فيغلّب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح ؛ كيف لا يترك محرماً ليمدح في الدنيا والأخرى ! ثم قدّر حصول ما طلبت من اللذات وذهابها ، وأحسب أنها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها ، وأين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة ؟! ذهب التعب وحصل العلم ، وأين لذة البطال ؟! ذهبت الراحة وأعقب الندم .

٣٢٩ ـ فصل : من وقف على موجب الحس هلك ، ومن تبع العقل سلم ؛ إن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا ، وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات ، فيعلم وجود الدنيا وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات فيعلم وجود الخالق قد منح وأباح وأطلق وحظر ؛ وأخبر أني سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي ، وإني قد بنيت لكم داراً غـــير هذه [لإثابة من يطيع][(١)] وعقوبة من يخالف . ثم لو ترك الحس وما يشتهي مع أعراضه قرب الأمر ؛ إنما يزني فيجلد ، ويشرب الخمر فيعاقب ، ويسرق فيقطع ويفعل زلة فيفضح بين الخلق ، ويعرض عن العلم إلى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل ثم إنا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته ، ومُيز بين الخلق بالتعظيم ، وكان عيشه في لذاته غالباً خيراً من عيش موافق للهوى ؛ فليعتبر ذو الفهم بما قلت وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم .

٣٣٠ ـ فصل : العجب لمؤثر شهوات الدنيا [١٤١ / ب] ؛ ألا يتدبر أمرها بالعقل قبل أن يصير إلى منقولات الشرع . إن أعظم لذات الحس الوطء فالمرأة المستحسنة إنما تكون حال كمالها من وقت بلوغها إلى الثلاثين فإذا بلغت أثر فيها ، وربما ابيضت شعرات من رأسها فينفر الإنسان منها ، وقد يقع الملل قبل ذلك ، وطول الصحبة يكشف العيوب ، وما عيب نساء الدنيا بأبلغ من قوله

---

(١) في المخطوط : الثواب من يثاب .

تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥] فلو تفكر الإنسان في جسد مملوء بالنجاسة ما طاب له ضمه ، غير أن الشهوة تغطي عين الفكر . فالعاقل من حفظ دينه ومروءته بترك الحرام ، وحفظ قوته في الحلال فأنفقها في طلب الفضائل من علم أو عمل ، ولم يسع في إفناء عمره وتشتيت قلبه في شيء لا تحسن عاقبته .

ما في هوادجكم من مهجتي عوضٌ   إنْ متُّ شوقاً ولا فيها لهـا ثمنُ

وعموم من رأينا من الكبار غلبت عليهم شهوة الوطء فانهدمت أعمارهم ، ورحلوا سريعاً . وقد رأينا من العقلاء من زجر نفسه عن هذه المحنة ولم يستعملها إلا وقت الحاجة ، فبقى لهم سواد شعورهم وقوتهم حتى تمتعوا بها في الحياة وحصلوا المناقب ، وعرفت منهم النفوس قوة العزيمة فلم تطالبهم بما يؤذي .

٣٣١ ـ فصل : قد أشكل على بعض الناس رؤية النبي ﷺ وقوله : « **مَنْ رآني في المَنَام فَقَدْ رَآني** »[1] فقال : ظاهر الحديث أنه يراه حقيقة ، وفي الناس من يراه شيخاً وشاباً ومريضاً ومعافى . فالجواب أنه من ظن أن جسد رسول الله ﷺ المودع في المدينة خرج من القبر وحضر في المكان الذي رآه فيه فهذا جهل لا جهل يشبهه . فقد يراه في وقت واحد ألف شخص في ألف مكان على صور مختلفة ، فكيف يتصور هذا في شخص واحد ! وإنما الذي يرى مثاله لا شخصه . فيبقى من رآني فقد رآني فمعناه قد رأى مثالي الذي يعرفه الصواب وتحصل به الفائدة المطلوبة .

فإن قيل : فما تقولون في رؤية الحق سبحانه ! فنقول : يُرى مثالاً لا مثيل ، والمثال لا يفتقر إلى المساواة والمشابهة كما قال تعالى [١:٢ / أ] : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد ١٧] فضربه مثلاً للقرآن وانتفاع الخلق به ، ويوضح هذا أنه إنما يرى من رأى الحق سبحانه وتعالى على هيئة مخصوصة – والخالق سبحانه وتعالى منزه – قد توّحد فوضح ما قلناه .

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (١٦٠) ، ومسلم (٣٢٦٦).

المؤمن بين رفيقين : العلم والعقل

٣٣٢ـ فصل غزير الفائدة: اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه ؛ غير أن العمر قصير ، والعلم كثير ؛ فينبغي للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشرة ، ومن الحديث على الصحاح ، والسنن والمسانيد المصنفة ؛ فإن علوم الحديث قد انبسطت زائدة في الحد ، وما في هذا الجزء ، وإنما الطرق تختلف .

وعلم الحديث يتعلق بعضه ببعض وهو مشتهى ، والفقهاء يسمونه علم الكسالى ، لأنهم يتشاغلون بكتابته وسماعه ، ولا يكادون يعانون حفظه ، ويفوتهم المهم وهو الفقه ، وقد كان المحدثون قديماً هم الفقهاء ، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديث ، والمحدثون لا يعرفون الفقه ؛ فمن كان ذا همة ونصح نفسه تشاغل بالمهم من كل علم ، وجعل جل شغله الفقه ، فهو أعظم العلوم وأهمها .

وقد قال أبو زرعة : كتب إليّ أبو ثور : فإن هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلاً عن رسول الله ﷺ ، الذي صح منه طرق يسيرة ؛ فالتشاغل بغير ما صح يمنع التشاغل بما هو أهم ، ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الأحاديث غاية في الجودة ؛ لكن العمر قصير ، ولما تشاغل بالطرق الكثيرة أقوام مثل يحيى بن معين فاته من الفقه كثير ، حتى أنه سئل عن الحائض أيجوز أن تغسل الموتى ؟! فلم يعلم ، حتى جاء أبو ثور فقال : يجوز ، لأن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كنت أرجّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض[1] ، فيحيى أعلم بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفقهه ؛ فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلهم كثرة الطرق .

ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله ﷻ فيها ، وكذلك أنهى من يتشاغل بالزهد والانقطاع عن الناس أو يعرض عن العلم ، بل ينبغي [١٤٢ / ب] أن يجعل لنفسه منه حظاً ليعلم إن زل كيف يتخلص .

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٩٥) ، ومسلم (طرف حديث ٢٩٧) .

٣٣٣ ـ فصل : معرفة الله سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل .. صحيح المزاج والترقي إلى محبته بذلك يكون .

وإن أقوام قلت عقولهم وفسدت أمزجتهم وساءت مطاعمهم وقلّت ، فتخايلت لهم الخيالات الفاسدة فادعوا معرفة الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدهم عما ادعوا فهلكوا .

وليعلم أن في المأكولات إفساد العقل ، وفيها ما يزيد في السوداء فيوجب الماليخوليا ، فترى صاحبها يحب الخلـوة ، ويهرب من الناس ، ويقلل المطعم ، فيقوى مرضه فيتخايل له خيالات يظنها حقاً .

فمنهم من يقول : رأيت الملائكة ، وفيهم من يخرجه الأمر إلى دعوى محبة الحق والوله فيه ولا يكون ذلك عن أصل يعتمد عليه .

وإنما العاقل العالم يسير في الطريق بين الرفيقين العلم والعقل ؛ فإن تقلل من الطعام فيفعل ؛ وحدّ التقلل ترك فضول المطعم وما يخاف شره من شبهة أو شهوة فيحذر تعودها ، وأما زيادة التقلل مع القدرة فليس لعقل ولا شرع ... إلا أن يكون الفقر قد عم فيتقلل ضرورة ، ومن تأمل حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجدهم يأخذون بمقدار ، ولا يتركون حظوظ النفس التي تصلحها .

ما أحسن الأمر وأعدله قول رسول الله ﷺ : ((**ثُلُثٌ طَعَامٌ ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ ، وَثُلُثٌ نَفَسٌ**))[1].

وقد قال لعليّ بن أبي طالب ﷺ وهو مريض : ((أصب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا))[2] وكان ﷺ يشاور الأطباء ويحتجم ويحث على التداوي ويقول : ((**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلاَّ وَأَنْزَلَ لَهُ شفَاءً ، فَتَدَاوَوْا**))[3].

فجاء أقوام جهلوا العلم والحكمة في بنيان الأبدان ، فمنهم من أقام في الجبال يأكل البلوط فأصابه الفولنج ، ومنهم من قلل المطعم إلى أن ضعفت قواه ، ومنهم من اقتصر على نبات الصحراء ، ومنهم من كان لا يقوت إلا الباقلاء

---

(١) **رجاله ثقات** : سبق تخريجه .

(٢) **إسناده ضعيف** : سبق تخريجه .

(٣) **صحيح** : سبق تخريجه .

الشعير ، فأوجت هذه الأفعال أمراضاً في البدن ، وترقت إلى إفساد العقل ؛ واتفق لهم قلة العلم ، إذا لو علموا لفهموا أن الحكمة تنهي عن مثل هذا ، فإن البدن مبني على أخلاط إذا اعتدلت وقعت السلامة [١٤٣/أ] ، وإذا زاد بعضها وقع المرض ، وأكـثر هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت ، وفيهم من خـرج إلى التسودن وفيهم من لاحت له لوائح فادعى رؤية الملائكة إلى غير ذلك .

فأما أهل العلم والعقل فهربهم من الخلق لخوف المعاصي ورؤية المنكر ، وفيهم من قويت معرفته فشغلته معرفة الحق ومحبته عن ملاقاة الخلق ؛ فهذه هي الخلوات الصافية ، لأنها تصدر عن علم وعقل فلتحفظ البدن خصوصاً من لم يعتده ، ولا يلبس الصوف على البدن من لم يعتد ، ولينظر في طريق رسول الله ﷺ وصحابته ، فإنهم القدوة ، ولا يلتفت إلى بنيات الطريق ، فيقال : فلان الزاهد قد أكل الطين ، وفلان كان يمشي حافياً ، وفلان بقى شهراً ما أكل ، فإن المحققين من هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجادة ؛ لأن الجادة اتباع الرسول الله ﷺ وأصحابه وما كانوا يفعلون .

هذا ولعمري إنه قد كان فيهم من يقنع بالمذقة من اللبن ، ويصبر الأيام عن الطعام ؛ ولكن إما لضرورة ، أو لأنه معتاد لذلك كما يعتاد البدوي شرب اللبن وحده ولا يؤذيه ذلك . وفي الحديث : « عوّدوا كل بدن ما اعتاد »[1] وفي المتزهدين من أخرج ماله كله عن يده زهداً .

ومعلوم أن الحاجات لا تنقضي ، فلما احتاج تعرَّض للطلب ، وافتقر إلى أخذ مال من يعلم أنه ظالم وبذل وجهه ، وقد كانت الصحابة ﷺ تتجر وتحفظ المال .

وجهال المتزهدين يرون أن جمع المال ينافي الزهد . فممخضة[2] هذا الفصل أن أقول : ينبغي لمن رزق فهماً أن يسعى في صلاح بدنه ، ولا يحمل عليه ما يؤذيه ، ولا يناوله من القوت ما لا يوافقه ، ولا يضيع ماله ، وليجتهد في

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢-٩٦) وقال : وقال السيوطي في الدرر . رواه أبو محمد الخلال عن عائشة مرفوعاً بلفظ عوَّدوا بدَناً ما اعتاد .

(٢) **المخضة** : الزبدة .

استثماره لئلا يحتاج ، فإنه ما نافق زاهد إلا لأجل الدنيا ، ولينظر في سير الكاملين من السلف ، وليتشاغل بالعلم ، فإنه الدليل . فحينئذ يحمله الأمر على الخلوة بربه ، والاشتغال بحبه ، فيكون ما ظهر منه ثمرة نضجه لا فجه . والله الموفق .

٣٣٤ ـ فصل : ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول ، وقد سمعنا ورأينا جماعة من الفطناء الكاملي العقل لعبت بهم الدنيا حتى صاروا كالمجانين ، فولوا الولايات فخرجوا إلى القتل والضرب والحبس والشتم وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم كله لأجل دنيـــا [١٤٣ / ب] تذهب سريعاً ، وفي مدة إقامتها [هي] معجونة بالنغص .

فيا أيها المرزوق عقلاً لا تبخسه حقه ، ولا تطفئ نوره ، واسمع ما نشير به ، ولا تلتفت إلى بكاء طفل الطبع لفوات غرضه ، فإنك إن رحمت بكاءه لم تقدر على فطامه ، ولم يمكنك تأديبه ، فيبلغ جاهلاً فقيراً .

لا تسه عن أدب الصغير ... ولـــو شكا ألم التعب
ودع الكبيـــر لشأنـــه ... كبر الكبير عن الأدب

واعلم أن زمان الابتلاء ضيف قراه الصبر ، كما قال أحمد بن حنبل : إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنها أيام قلائل ، فلا تنظر إلى لذة المترفين ، وتلمح عواقبهم ، ولا تضق صدراً بضيق المعاش ، وعلل الناقة بالحدّو تسير .

طاول بها الليل مال النجم أم جنحا ... وما طل النوم ضن الجفن أم سمحا
فإن تشكت فعللها المجرة من ضوء ... الصباح وعدهـــا بالرواح ضحى

وقد كان أهدي إلى أحمد بن حنبل هدية فردها ، ثم قال بعد سنة لأولاده : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت .

ومر بشر على بئر ، فقال له صاحبه : أنا عطشان ، فقال : البئر الأخرى ، فمر عليها ، فقال له : الأخرى ، ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

ودخلوا إلى بشر الحافي وليس في داره حصير ، فقيل له : ألا بذا نؤذي ؟! ، فقال : هذا أمر ينقضي .

وكان لداود الطائي دار يأوى إليها ، فوقع سقف فانتقل إلى سقف إلى أن مات في الدهليز ؛ فهؤلاء الذين نظروا في عواقب الدنيا .

وبعد هذا فلا أطالبك بهذه الرتبة ، بل أقول لك : إن حصل لك شيء من المباح لا منّ فيه ولا أذى ولا نلته بسؤال ولا من يد ظالم تعلم أن ماله حرام أو شبهة ، فافتح لنفسك في مباحاتها بمقدار ما تحتاج إليه ، وكن مقدراً للنفقة غير مبذر ، فإن الحلال لا يحتمل السرف ، ومتى أسرفت احتجت إلى التعرض للخلق والتناول من الأكدار ، وإن ضاق بك أمر فاصبر ، فإن ضعف الصبر فسل فاتح الأبواب ، فهو الكريم وعنده مفاتح الغيب .

وإياك أن تبذل دينك بتصنع للخلق ، أو بتقرب إلى الأمراء وتستعطى أموالهم ، واذكر طريق السلف .

كان ابن سمعون[1] له ثياب يجلس فيها للناس ، ثم يطويها إلى المجلس الآخر ورثها عن أبيه بقيت [١٤٤ / أ] أربعين سنة .

وكانت ميمونة بنت شاقولة تعظ الناس ولها ثياب قد بقيت أربعين سنة .. ومن صفا نظره وتهذب لفظه ، نفع وعظه ، ومن كدر كُدِّر عليه ، والحالة العالية في هذا إقبال القلب على الله ﷻ ، والتوكل عليه والنظر إليه ، والتفات القلب عن الخلق ، فإن احتجت فاسأله ، وإن ضعفت فارغب إليه ، ومتى ساكنت الأسباب انقطعت منه ، ومتى استقام باطنك استقامت لك الأمور .

٣٣٥ ـ فصل : رأيت نفسي تأنس بخلطاء تسميهم أصدقاء فجنت التجارب عنهم فإذا أكثرهم حساد على النعم ، وأعداء لا يسترون زلة ولا يعرفون لجليس حقاً ، ولا يواسون من مالهم صديقاً فتأملت الأمر ، فإذا الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن يجعل له شيئاً يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به .

فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق ، بل تحسبهم أعداء ، ولا تظهر سرك لمخلوق منهم ، ولا تُعدَنَّ من يصلح لشدة لا ولداً ولا أخاً ولا صديقاً ، بل عاملهم بالظاهر ، ولا تخالطهم إلا حالة الضرورة بالتوقي لحظة ، ثم انفرد عنهم وأقبل على شأنك متوكلاً على خالقك ، فإنه لا يجلب الخير سواه ، ولا يصرف السوء إلا إياه ، فليكن جليسك وأنيسك وموضع توكلك وشكواك ،

---

(١) في المخطوط : ابن مسعود .

فإن ضعف بصرك فاستغث به ، وإن قل يقينك فسله القوة ، وإياك أن تميل إلى غيره فإنه غيور ، أو أن تشكو من أقداره ، فربما لم يحتمل .

أوحى الله عز وجل إلى يوسف عليه الصلاة والسلام من خلصك من الجب ، من فعل من فعل ، قال : أنت . قال : فلم ذكرت غيري .. فلأطيلن حبسك ، أو كما قال . هذا وإنما تعرض يوسف عليه السلام بسبب مباح ﴿ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** ﴾ [التوبة : ٢٥] وما أعرف العيش إلا لمن يعرفه ويعيش معه ويتأدب بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراه ، ويقف على باب طرفه حارساً من نظرة لا تصلح ، وعلى باب لسانه حافظاً له من كلمة لا تحسن ، وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الأغيار ويستوحش من الخلق شغلاً به ، وهذا يكون على سيرة [١٤٤ / ب] الروحانيين .. فأما المخلط فالكدر غالب عليه . والمحق لا يطلب إلا الأرفع . قال القائل :

ألا لا أحب السير إلا مصاعداً ولا البرق إلا أن يكون يمانيا

٣٣٦ ـ فصل : رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده . فالقارىء مشغول بالروايات ، عاكف على الشواذ ، يرى أن المقصود نفس التلاوة ، ولا يتلمح عظمة المتكلم ، ولا زجر القرآن ووعده ، وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه ، فتراه يترخص الذنوب . ولو فهم لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ . والمحدث يجمع الطرق ، ويحفظ الأسانيد ، ولا يتأمل مقصود المنقول ، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث ؛ فهو يرجو بذلك السلامة ، وربما ترخص في الخطايا ظناً منه أن ما فعل في الشريعة يدفع عنه . والفقيه قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدال الذي يقوي به خصامه ، والمسائل التي قد عرف فيها المذهب ؛ قد حصل بما يفتي به الناس ما يرفع قدره ويمحو ذنبه ، فربما هجم على الخطايا ظناً منه أن ذلك يدفع عنه ، ربما لم يحفظ القرآن ولم يعرف الحديث وأنهما ينهيان عن الفواحش بزجر وترقيق ، وينضاف إليه مع الجهل بهما حب الرياسة ، وإيثار الغلبة في الجدل ؛ فتزيد قسوة قلبه .

وعلى هذا أكثر الناس ، صور العلم عندهم صناعة : فهي تكسبهم الكبر والحماقة . قد حكى بعض المعتبرين عن شيخ أفنى عمره في علوم كثيرة ، أنه فتن في آخر عمره بفسق أصر عليه ، وبارز الله به ، وكانت حاله تعطي

بمضمونها أن علمي يدفع عني شر ما أنا فيه ولا يبقي له أثر . وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة ، فلا يرى عنده أثر لخوف ولا ندم على ذنب . قال : فتغير في آخر عمره ولازمه الفقر ، فكان يلقي الشدائد ولا ينتهي عن قبح حاله ، إلى أن جمعت له يوماً قراريط على وجه الكدية[1] فاستحيا من ذلك وقال يا رب إلى هذا الحد ، قال الحاكي : فتعجبت من غفلته كيف نسي الله ﷻ ، وأراد منه حسن التدبير له والصيانة وسعة الرزق وكأنه ما سمع قوله تعالى ﴿ **وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن : ١٦][١٤٥/ب] . ولا علم أن المعاصي تسد أبواب الرزق ، وأن من ضيع أمر الله ضيعه الله ، فما رأيت علماً ما أفاد كعلم هذا ، لأن العالم إذا زل انكسر ، وهذا مصر لا تؤلمه معصيته ، وكأنه يجوز له ما يفعل ، أو كأن له التصرف في الدين تحليلاً وتحريماً ، فمرض عاجلاً ومات على أقبح حال . قال الحاكي : ورأيت شيخاً آخر حصل صور علم فما أفادته ؛ كان أي فسق أمكنه لم يتحاش منه ، وأي أمر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدر واللوم له فعاش أكدر عيش ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج[2]. وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم ، وليس العلم صور الألفاظ ، إنما المقصود فهم المراد منه ، وذاك يورث الخشية والخوف ، ويرى المنة للمنعم بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم .

نسأل الله ﷻ يقظة تفهمنا المقصود ، وتعرفنا المعبود ، ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمون بالعلماء لا ينهاهم ما يحملون ، ويعلمون ولا يعملون ، ويتكبرون على الناس بما يعلمون ، ويأخذون عرض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون ، غلبتهم طباعهم وما راضتهم علومهم التي يدرسون ، فهم أخس حالاً من العوالم الذين يجهلون ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ٧]

٣٣٧ ـ فصل : ينبغي للفقيه أن يطالع من كل فن طرفا من تاريخ وحديث

---

(١) **الكدية** : شدة الدهر ، والأرض الغليظة ، والصفاة (الحجرة) العظيمة الشديدة ، والشيء الصلب بين الحجارة والطين ، وما جمع من طعام أو شراب فجعل كثبة .

(٢) **درج** : مات .

ولغة وغير ذلك فإن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم ؛ فليأخذ من كل شيء منها مهماً . ولقد رأيت بعض الفقهــاء يقول : اجتمع الشبلي وشريك القاضي فاستحييت له كيف لا يدري بعد ما بينهما ؟!.. وقال آخر في مناظرة : كانت الزوجية بين فاطمة وعلي رضي الله عنهما غير منقطعة الحكم فلهذا غسلها . فقلت له : ويحك فقد تزوج أمامة بنت زينب وهي بنت أختها [فانقطع].

ورأيت في كتاب إحياء العلوم للغزالي من هذا ما يدهش من التخليط في الأحاديث والتواريخ ، فجمعت من أغاليطه في كتاب ، وقد ذكر في كتاب له سماه المستظهري وعرضه على المستظهر بالله ؛ أن سليمان بن عبد الملك بعث إلى أبي حازم فقال له : ابعث لي من فطورك ، فبعث إليه [١٤٥ / ب] نخالة مقلوة فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فجاءت بعبد العزيز ، ثم ولد له عمر . وهذا تخليط قبيح ، فإنه جعل عمر بن العزيز بن سليمان بن عبد الملك ، فجعل سليمان جده ، وإنما هو ابن عمه .

وقد ذكر أبو المعالي الجويني في أواخر كتاب الشامل في الأصول . قال : قد ذكر طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن أن الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقنع تواصوا على قلب الدول ، وإفساد المملكة واستعطاف القلوب ؛ وارتاد كل منهم قطراً ؛ فقطن الجبائي في الأحساء[1] وتوغل ابن المقنع في أطراف بلاد الترك ، وقطن الحلاج بغداد ، فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن بلوغ الأمنية ؛ لبعد أهل بغداد عن الانخداع ، وتوفر فطنهم وصدق فراستهم . قلت : ولو أن هذا الرجل أو من حكى عنه عرف التواريخ لعلم أن الحلاج لم يدرك ابن المقنع ، فإن ابن القنع أمر بقتله المنصور فقتل في سنة أربع وأربعين ومائة . وأبو سعيد الجبائي القرمطي ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين . والحلاج قتل سنة تسع وثلاثمائة ؛ فزمان القرمطي والحلاج متقارب ؛ فأما ابن المقنع فكلا .

فينبغي لكل ذي علم أن يسام بباقي العلوم فيطالع منها طرفاً ، إذ لكل علم بعلم تعلق ، وما أقبح بمحدث يسأل عن حادثة فلا يدري ، وقد شغله منها جمع طرق الأحاديث ، وقبيح بالفقيه أن يقال له : ما معنى قول رسول الله ﷺ

---

(١) الأحساء : اسم موضع .

كذا ؟ فلا يدري صحة الحديث ولا معناه . نسأل الله ﷻ همة عالية لا ترضى بالنقائص بمنه ولطفه .

٣٢٨ ـ فصل : كانت همم القدماء من العلماء علية ، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم ؛ إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت ؛ لأن همم الطلاب ضعفت ، فصاروا يطلبون المختصرات ، ولا ينشطون للمطولات ، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها ، فدثرت الكتب ولم تنسخ .

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد ؛ وما يخلو كتاب من فائدة .

وأعوذ [١٤٦ / أ] بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ؛ لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدئ ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد . فالله الله عليكم بملاحظة سير السلف ، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم ؛ فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال :

فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديـــار بسمعي

وإني أخبر عن حالي ، ما أشبع من مطالعة الكتب ، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنْز ، ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية ، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد ، وفي ثبت كتب أبي حنيفة ، وكتب الحميدي ، وكتب شيخنا عبد الوهاب وابن ناصر ، وكتب أبي محمد ابن الخشاب وكانت أحمالاً ، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه . ولو قلت : إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب .

ما ستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفها من لم يطالع فصرت أستزري ما الناس فيه ، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد .

٣٢٩ ـ فصل : ليس للآدمي أعز من نفسه ، وقد عجبت ممن يخاطر بها ويعرضها للهلاك ، والسبب في ذلك قلة العقل وسوء النظر ؛ فمنهم من يعرضها للتلف ليمدح بزعمه .. مثل قوم يخرجون إلى قتال السبع ، ومنهم من يصعد إلى إيوان كسرى ليقال شاطر ، وساع يمشي ثلاثين فرسخاً ، وهؤلاء إذا تلفوا

حملوا إلى النار فلا ينفع قول المادح لهم بعدهم وممن قل عقله راكب البحر للتجارة يغتر بمن يسلم فإن هلك دهبت النفس التي يراد المال لأجلها .

وأعجب من الكل من يخاطر بنفسه في الهلاك ولا يدري ، مثل أن يغضب فيقتل المسلم فيشفى غيظه لحظة بالتعذيب في جهنم . وأطرف من هذا اليهود والنصارى ، فإن أحدهم يبلغ فيجب عليه أن ينظر في نبوة نبينا ﷺ فإذا فرَّط فمات فله الخلود في جهنم ، ولقد قلت لبعضهم : ويحك تخاطر بنفسك في عذاب الأبد ، نحن نؤمن [١٤٦ / ب] بنبيكم فنقول : لو أن مسلماً آمن بنبينا وكذب بنبيكم أو بالتوراه خُلِّد في النار ، فما بيننا وبينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنون بصدقه وكتابه ، فلو لقيناه لم نخجل ولو عاتبنا مثلاً قال : هل قمتم بالسبت ، والسبت من الفروع والفروع ، لا يعاقب عليها بالخلود ، فقال لي رئيس القوم : ما نطالبكم بهذا لأن السبت إنما يلزم بني إسرائيل فقلت : فقد سلمنا بإجماعكم وأنتم هالكون ؛ لأنكم تخاطرون بأرواحكم في العذاب الدائم .

والعجب بمن يهمل النظر فيما إذا توانى فيه أوجب الخلود في العقاب الدائم ؛ وأعجب من الكل جاحد الخالق وهو يرى إحكام الصنعة ويقول لا صانع . والسبب في هذه الأشياء كلها قلة العقل وترك إعماله في النظر والاستدلال .

٢٤٠ ـ فصل : لا ينبغي لعاقل أن يظهر سراً حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذى بظهوره ، ومعلوم أن السبب في بث السر طلب الاستراحة ببثه ، وذاك ألم قريب فليصبر عليه ، فرب مظهر سراً لزوجته فإذا طلقت بثته وهلك ؛ أو لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان مماثلاً ، وإن كان عامياً فالعامي أحمق . ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤١ ـ فصل : ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق للعلم . والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاره ، ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب ، وقد فُقدَ التفقد لهم من الأمراء ومن الإخوان فلازمهم الفقر ضرورة . والفضائل تنادى : ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب : ١١]. فكلما خافت من ابتلى قالت ...

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلُغَ المجد حتى تلعق الصبرا

ولما آثر أحمـــد بن حنبل ﷺ طلب العلم وكان فقيراً ، بقي أربعـــين سنة

يتشاغل به ولا يتزوج . فينبغي للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد ، ومن يطيق ما أطاق ؟! فقد رد من المال خمسين ألفاً وكان يأكل الكامخ ، ويتأدم بالملح ، فما شاع له الذكر الجسيل جزافاً ، ولا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب . فيا له ثناء ملأ الآفاق ، وجمالاً زين الوجود ، وعزّ نسخ كل ذل . هذا في العاجل ، وثواب الآجل لا يوصف .

وتلمح [١٤٧ / أ] قبور أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار .. ترخّصوا وتأوّلوا وخالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم ومحي الجاه ، ووردوا عند الموت حياض الندم ، فيالها حسرات لا تتلافى . وخسراناً لا ينجبر ، كانت صحبة اللذات طرفة عين ، ولازم الأسف دائماً . فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل ؛ فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى ، وقال الشافعي ﷺ .

يا نفس ما هـــي إلا صـــبر أيام   كأن مدتهـــا أضغـــاث أحـــلام
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة   وخل عنها فإن العيش قُـــدامي

ثم أيها العالم الفقير . أيسرك ملك سلطان من السلاطين . وأن ما تعلمه من العلم لا تعلمه .. كلا . ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا .

ثم أنت إذا وقع لك خاطر مستحسن أو معنى عجيب تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية ، فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت ، وقد شاركتهم في قوام العيش ، ولم يبق إلا الفضول الذي إذا حذف لم يكد يضر .

ثم هم على المخاطرة في باب الآخرة غالباً ، وأنت على السلامة في الأغلب ؛ فتلمح يا أخي عواقب الأحوال ، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل ، فإن كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفرّطين ينملبون في حسرات وأسف .

رأى رجل شيخنا ابن الزغواني في المنام ، فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة ، وأكثر ما عندنا الندامة . فاهرب وفقك الله قبل الحبس ، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش ، واعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينى ، وإن يسير التفريط يشين وجه المحاسن .. فالبدار البدار ونفس النفس يتردد ، وملك الموت غائب ما قدم بعد ، وامض بعزيمة عازم :

إذا همَّ ألقـــى بين عينيه عزمـــه   ونكّت عن ذكر الحوادث جانبا
ولم يستشر في أمره غـــير نفسه   ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وارفض في هذه العزيمة الدنيا وأربابها .. فبارك الله لأهل الدنيا في دنياهم ، فنحن الأغنيـــاء ، وهم الفقراء . كما قال إبراهيم بن أدهم : ولـــو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

فأبناء الدنيا أحدهم [١٤٧ / ب] لا يكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة ، وهو وإن لم يؤثر ذلك فوكيله يفعله ، ولا يبالي هو بقلة دين وكيله . وإن عمروا داراً سخَّروا الفعلة ، وإن جمعوا مالاً فمن وجوه لا تصلح . ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يسم ، فعيشهم نغص ، ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة ، ولا نخاف من عدو ولا ولايتنا تقبل العزل ، والعز في الدنيا لنا لا لهم ، وإقبال الخلق علينا ، وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير .

وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى فإن ألفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مراتبنا وإن انفعلت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب ، ومرارة المنن لا تفي بالمأخوذ : وإنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس .

وإنها أيام قلائل والعجب لمن شرفت نفسه حتى طلبت العلم . إذ لا يطلبه إلا نفس شريفة كيف يذل لبذل ما عزه إلا بالدنانير ، ولا فخره إلا بالمكنة ولقد أنشدني أبو يعلى العلوي :

رب قوم في خلائقهم عرر قد صـــيروا غررا
ستر المال القبيح لهـــم سترى إن زال ما سترا

أيقظنا الله من رقدة الغافلين ، ورزقنا فكر المتيقظين ، ووفقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل . إنه قريب مجيب .

٣٤٢ ـ فصل : لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه ما لا يطيق فإنّ البدن كالراحة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب .. فترى في التائبين من يتزهد وقد ربى جسده على الترف ؛ فيعرض عما ألفه فتتجدد له الأمراض فتقطعه عن كثير من العبادات .

وقـــد قيل : ((عوِّدوا كل بدن ما اعتاد))[1] وقد قرّب إلى رسول الله ﷺ

---

(١) سبق الكلام عليه قريباً .

ضب فقال : ((أجدُنِي أَعَافُهُ لأَنَّهُ لَيْسَ بأَرْضِ قَوْمِي))[١] . وفي حديث الهجرة : أن أبا بكر ﷺ طلب لرسول الله ﷺ الظل وفرش له فروة وصب على القدح الذي فيه اللبن ماء حتى برد وجاء رسول الله ﷺ على قوم فقال : ((إنْ كَانَ عنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ في شَنٍّ وَإلاَّ كَرَعْنا))[٢] . وكان ﷺ يأكل لحم الدجاج[٣] وفي الصحيح : ((إنه كان [١٤٨ / أ] يحب الحلوى والعسل))[٤] . وكان إذا لم يقدر أكل ما حضر .

ولعمري إن في العرب وأهل السواد من لا يؤثر عنده التحسن في المطعم والملبس ، وذاك إذا جرى بعد نوبته على عادته لم يستضر . وأما من قد ألف اللطف ؛ فإنه إذا غير حالته تغير بدنه وقلت عبادته ، وقد كان الحسن يديم أكل اللحم ويقول : لا رغيفي مالك ولا صحني فرقد ، وقد كان ابن سيرين لا يخلى منْزله من حلوى . وكان سفيان الثوري يسافر وفي سفرته الحمل المشوي والفالوذج وقالت رابعة : ما أرى لبدن يراد به العمل لله إذا أكل الفالوذج عيباً .

فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه ، وقد عرفت هذا من نفسي ، فإني ربيت في ترف فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى ، أثر معي مرضاً قطعني عن كثير من التعبد حتى أني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوماً ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها ، فقلت : إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات ؛ إن تناولها لطاعة عظيمة . وإن مطعماً يؤذي البدن فيفوته فعل خير ينبغي أن يهجر .

وقد رأى رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف فقال له : ((من أمرك بهذا ؟))[٥] فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه كما

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٥٣٩١) ، ومسلم (١٩٤٥) .

(٢) **صحيح** : سبق تخريجه .

(٣) **صحيح** : رواه البخاري (٥٥١٧) .

(٤) **صحيح** : سبق تخريجه .

(٥) **ضعيف** : رواه ابن ماجه نحوه (١٧٤١) من طريق الجُريري عن أبي السليل عن أبي مجيبة الباهلي عن أبيه أو عمه فذكره عن النبي ﷺ بلفظ (من أمرك أن تعذب نفسك) ، وأبو مجيبة الباهلي مجهول وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف أبي داود (٣٧٩) .

ينقى الغازي شعير الدابة ، ولا تظنن أني آمر بأكل الشهوات ، ولا بالإكثار من الملذوذ ، إنما آمر بتناول ما يحفظ النفس ، وأنهي عما يؤذي البدن ، فأما التوسع في المطاعم ، فإنه سبب النوم ، والشبعَ يعمي القلب ، ويهزل البدن ويضعفه ، فافهم ما أشرت إليه .. فالطريق هي الوسطى .

٣٤٣ـ فصل : إذا تكامل العقل قوي الذكاء والفطنة ، والذكي يتخلص إذا وقع في آفة كما قال الحسن : إذا كان اللص ظريفاً لم يُقطع .. فأما المغفل فيجني على نفسه المحن .

هؤلاء إخوة يوسف – عليهم السلام – أبعدوه عن أبيه ليتقدموا عليه عنده ، وما علموا أن حزنه عليه يشغله عنهم ، وتهمته إياهم تُبغضهم إليه . ثم رموه في الجب فقالوا : ﴿ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ** ﴾ [يوسف : ١٠] وليس بطفل إنما هو صبي كبير ، وما علموا أنه إذا التقط [١٤٨ / ب] يتحدّث بحاله ، فيبلغ الخبر إلى أبيه ، وهذا تغفيل . ثم أنهم قالوا : أكله الذئب ، وجاءوا بقميصه صحيحاً ، ولو خرقوه احتمل الأمر ، ثم لما مضوا إليه يمتارون قال : ﴿ **ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ** ﴾ فلو فطنوا علموا أن ملك مصر لا غرض له في أخيهم ، ثم حبسه بحجة . ثم قال : هذا الصواع يخبرني أنه كان كذا وكذا .. هذا كله وما يفطنون .

فلما أحس بهذه الأشياء يعقوب عليه السلام قال : ﴿ **اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾ وكان يوسف عليه السلام قد نُهيَ بالوحي أن يعلم أباه بوجوده . ولهذا لما التقيا قال له : هلاّ كتبت إليّ فقال : إن جبريل عليه السلام منعني . فلما نُهي أن يعرّفه خبره لينفذ البلاء ؛ كان ما فعل بأخيه تنبيهاً ، فصار كأنه يعرّض بخطبة المعتدة[1] ، وعلى فهم يوسف والله بكى يعقوب ، لا على مجرد صورته .

٣٤٤ـ فصل : الآدمي موضوع على مطلوبات تشتت الهم . فالعين تطلب المنظور ، واللسان يطلب الكلام ، والبطن يطلب المأكول ، والفرج المنكوح ، والطبع ، والطبع يحب جمع المال ، وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة والهوى يشتته . فكيف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمة من طلب قوت البدن وقوت العيال ، وهذا يبكر إلى دكانه ويتفكر في التحصيل ، ويستعمل آلة الفهم في نيل

(١) في المخطوط : المفيدة ، والمثبت أصح .

ما لابد منه ، فأيّ همٍّ يجتمع منه خصوصاً إن أخذه الشرَهُ في سورة فيمضي العمر ، فينهض من الدكان إلى القبر .

وفكيف يحصل العلم أو العمل أو إخلاص القصد أو طلب الفضائل ؛ فمن رزق يقظة ، فينبغي أن يصابر لنيل الفضائل ؛ فإن كان متزهداً بغير عائلة فقد كان السبتي يعمل يوم السبت فيكتفي به طول الأسبوع ؛ فإن كان له مال باضع به من يكفيه بدينه ، وثقته أن يهتم هو ، وإن كان له عائلة جمع همه في نية الكسب عليهم فيكون متعبداً . أو أن يكون قنية مال كعقار ؛ تلصب في نفقته ليكفيه دخله ، وليقلل الهم على مقدار ما يمكنه من حذف العلائق جهده ليجمع الهم في ذكر الآخرة فإن لم يفعل أخذ في غفلته وندم في حفرته .

وأقبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شتته طلب القوت للعائلة ، وربما احتاج إلى التعرض بالظلمة وأخذ الشبهات وبذل الوجه ؛ فيلزم هذا التقدير في النفقة ، وإذا حصل له شيء من وجه [١٤٩ / أ] دبر فيه ، ولا ينبغي أن يحمله قصر الأمل على إخراج ما في يده ، فقد قال ﷺ : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس »[(١)].

وأذل من كل ذل التعرض للبخلاء والأمراء . فليدبر أمره . ويقلل العلائق ، ويحفظ جاهه ، فالأيام قلائل ، وقد بُعث إلى أحمد بن حنبل مال فسأله ابنه قبوله فقال : يا صالح صنّي . ثم قال : أستخير الله ، فأصبح فقال : يا بنيّ قد عزم لي أن لا أقبله ، هذا وكان العطاء هنيئاً ، وجاءته من وجوه . فانعكس الأمر اليوم .

[نصائح يصلح لها طريق السالك]

٣٤٥ ـ فصل : العزلة عن الخلق سبب طيب العيش ، ولابد من مخالطة بمقدار ، فدار العدو واستحله ، فربما كادك فأهلكك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، واستعن على أمورك بالكتمان ، وليكن الناس عندك معارف ، فأما أصدقاء فلا ؛ لأن أعز الأشياء وجود صديق ، لأن الصديق ينبغي أن يكون في

---

(١) **صحيح** : سبق تخريجه .

مرتبة مماثل فإن صادقت عامياً لم تنتفع به لسوء أخلاقه وقلة علمه وأدبه ، وإن صادقت مماثلاً أو مقارباً حسدك ، وإذا كان لك يقظة تلمحت من أفعاله وأقواله ما يدل على حسدك ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ [محمد : ٣٠]. وإذا أردت تأكيد ذلك فضع عليه من يضعك عنده ، فلا يخرج إليه بما في قلبه .

فإن أردت العيش فابعد عن الحسود لأنه يرى نعمتك فربما أصابها بالعين ، فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تفش إليه سرك ولا تشاوره ، ولا يغرنك تملقه لك ، ولا ما يظهره من الدين والتعبد ، فإن الحسد يغلب الدين ، وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل ، وإن إخوة يوسف باعوه بثمن بخس ، وكان أبو عامر الراهب من المتعبدين العقلاء ، وعبد الله بن أبي من الرؤساء ؛ أخرجهما حسد رسول الله ﷺ إلى النفاق وترك الصواب ، ولا ينبغي أن تطلب لحاسدك عقوبة أكثر مما هو فيه ، فإنه في أمر عظيم متصل لا يرضيه إلا زوال نعمتك ؛ وكلما امتدت امتد عذابه ، فلا عيش له ، وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نزع الحسد والغل من صدورهم ، ولولا أنه نزع تحاسدوا وتنغص عيشهم .

٣٤٦ ـ فصل : من سار مع العقل وخالف طريق الهوى ونظر إلى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع [١٤٩ / ب] من استعمل الشهوات ، فأما المستعجل فيفوِّت نفسه حظ الدنيا والذكر الجميل ، ويكون ذلك سببا لفوات مراده من اللذات .

وبيان هذا من وجهين : **أحدهما** : إن مال إلى شهوات النكاح وأكثر منها قل التذاذه وفنيت حرارته وكان ذلك سبباً في عدم مطلوبه منها . ومن استعمل ذلك بمقدار ما يجيزه العقل ويحتمله كان التذاذه أكثر ، لبعد ما بين الجماعين ، وأمكنه التردد لبقاء الحرارة . وكذلك من غش في معاملته أو خان ، فإنه لا يعامل فيفوته ربح المعاملة الدائمة لخيانته مرة ، ولو عرف بالثقة دامت معاملة الناس له فزاد ربحه . والثاني : أنه من اتقى الله وتشاغل بالعلم أو تحقيق الزهد ، فتح له من المباحات ما يلتذ به كثيراً . ومن تقاعد به الكسل عن العلم ، أو الهوى عن تحقيق الزهد لم يحصل له إلا اليسير من مراده . قال ﷻ : ﴿ **وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً** ﴾ [الجن : ١٦].

٣٤٧ ـ فصل : ينبغي أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله ، وقد كفاك كل مخلوق وجلب لك كل خير وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى وإرضاء مخلوق فإنه يعكس عليك الحال ، ويفوتك المقصود وفي الحديث : « من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً »[1] . وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه ؛ فإن قيل : كيف يعيش معه ؟ قلت : بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ومراعاة حدوده ، والرضا بقضائه ، وحسن الأدب في الخلوة به وكثرة ذكره ، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره ، فإن احتجت سألته ؛ فإن أعطى وإلا رضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلاً ، إنما نظراً لك ، ولا تنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته وصدق التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وأثمرت لك محبته إياك ، فحينئذ تعيش عيش الصديقين . ولا خير في عيش لم يكن كذا ؛ فإن أكثر الناس مخبّط في عيشه ، يداري الأسباب ويميل إليها بقلبه ، ويتعب في تحصيل الرزق بحرص زائد على الحد ، ويرغب إلى الخلق ويعترض عند انكسار الأغراض ، والقدر يجرى ولا يبالي بسخطه ، ولا يحصل له إلا ما قدر ، وقد فاته القرب من الحق والمحبة له ، والتأدب معه ، فذلك العيش عيش البهائم .

٣٤٨ ـ فصل : نظرت في حكمة المطعم [١٥٠ / أ] والمشرب والملبس والمنكح ، فرأيت أن الآدمي لما خلق من أصول تتحلل وهي الماء والتراب والنار والهواء ، وبقاؤه إنما يكون بالحرارة والرطوبة والحرارة تحلل الرطوبة دائماً ، فلم يكن له بد من شيء يخلف ما بطل ، ولما كان اللحم لا ينوب عنه إلا اللحم ، أباح ذبح الحيوان ليتقوى به من هو أشرف منه ، ولما كان بدنه يحتاج إلى كسوة وله قدرة تميز ، وقدرة يصنع بها ما يقيه الأذى من القطن والصوف ، لم يجعل على جلده ما يفيه خلقه بخلاف الحيوان البهيم ، فإنه لما لم يكن له قدره على ما يغطى جلده عوضه بالريش والشعر والوبر بد من فناء الآدمي والحيوان هيج شهوة الجماع لتُخلف النسل . فمقتضى العقل الذي حرك على طلب هذه

---

(١) **الصواب في هذا الحديث الوقف على عائشة** وقد فصلت القول فيه في تحقيقي لشرح كتاب التوحيد للشيخ ابن باز ص (١٧١- ١٧٦).

المصالح أن يكون التناول للمطعم والمشرب بمقدار الحاجة والمصلحة ، ليقع الالتذاذ بالعافية .

ومن البلية طلب الالتذاذ بالمطعم وإن كان غـــير صالح أو التكثر والشره في تناوله وكذلك الكسوة والنكاح . ومن الحزم جمع المال وادخاره لعارض حاجة من ذلك . ومن التغفل إنفاق الحاصل ، فربما عرضت حاجة فلم يقدر عليها فأثر عدمها في البدن أو في العرض بطلبها من الأنذال .

ومن أقبح الأمور الانهماك في النكاح طلباً لصورة اللذة ناسياً ما يجني ذلك من انحلال القوة ، ويزيد في الحرام بالعقوبة ؛ فمن مال إلى تدبير العقل سلم في دنياه وآخرته ، ومن أعرض عن مشاورته أو عن القبول منه تعجل عطبه . فليفهم مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها ، فمن لم يفهم ولم يعمل بمقتضى ما فهم كان كأجهل العوام ، وإن كان عالماً .

٣٤٩ـ فصل : في مخالطة الأمراء . العجب ممن له مسكة من عقل أو عنده قليل من دين كيف يؤثر مخالطتهم ، فإن المخالطة لهم أو العمل معهم يكون صاحبه خائفاً من عزل أو قتل أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم . فإن أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع فقد باع دينـــه قطعاً بدنياه فمنعه بالخوف ، ولم يبق بيده إلا عاجل التعظيم وأن يقال بين يديه بسم الله ، وأن ينفذ أوامره وذلك بعيد من السلامة في باب الدين وما يلتذ به منه في الدنيا ممزوج بخوف [العزل] والقتل .

٣٥٠ـ فصل : ومن الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح فإنه لا يؤمن [١٥٠ / ب] أن يلي فينتقم ، وفي الجملة لا ينبغي أن يظهر العداوة لأحد أصلاً ، فقد يرتفع المحتقر ، وقد يتمكن من لا يعد ، بل ينبغي أن يكتم ما في النفوس على الأعداء ، فإن أمكن الانتقام منهم كان العفو انتقاماً لأنه يذلهم . وينبغي أن يحسن إلى كل أحد ، خصوصاً من يجوز أن يكون له ولاية ، وأن يخدم المعزول ، فربما نفع في ولايته .

وقد روينا أن رجلاً استأذن على قاضي القضاه ابن أبي دؤاد ، وقال : قولوا له أبو جعفر بالباب فلما سمع دهش لذلك وقال : ائذنوا له فدخل فقام وتلقاه وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف وودعه . فقيل له : رجل من العوام فعلت به هذا !

قال : إني كنت فقيراً ، وكان هذا صديقاً لي فجئته يوماً فقلت له : أنا جائع . فقال : اجلس وخرج فجاء بشواء وحلوى وخبز فقال : كل فقلت كل معي . قال : لا . قلت : والله لا آكل حتى تأكل معي ؛ فأكل فجعل الدم يجرى من فمه . فقلت : ما هذا ؟ فقال : مرض ، فقلت : والله لا بد أن تخبرني ، فقال : إنك لما جئتني لم أكن أملك شيئاً ، وكانت أسناني مضببة بشريط من ذهب ، فنَزعته واشتريت به . فهل أكافىء مثل هذا .

وعلى عكس هذا كان ابن الزيات وزير الواثق وكان يضع من المتوكل فلما ولى عذبه بأنواع العذاب . وكذلك ابن الجزري كان لا يوقر المسترشد قبل الولاية فجرت عليه الآفات لما ولى .

فالعاقل من تأمل العواقب وراعاها ، وصور كلما يجوز أن يقع فعمل بمقتضى الحزم ، وأبلغ من هذا تصوير وجود الموت عاجلاً ، لأنه يجوز أن يأتي بغتة من غير مرض ؛ فالحازم من استعدَّ له ، وعمل عمل من لا يندم إذا جاءه ، وحذر من الذنوب فإنها كعدو مراصد بالجزاء ، وادخر لنفسه صالح الأعمال فإنها كصديق صدّيق ينفع وقت الشدة . وأبلغ من كل شيء أن يعلم المؤمن أنه كلما زاد عمله في الفضائل علت مرتبته في الجنة ، وإن نقص نقصت ، فهو وإن دخل الجنة ما يحب في نقص بالإضافة إلى كمال غيره ، غير أنه قد رضي به ولا يشعر بذلك . فرحم الله من تلمح العواقب ، وعمل بمقتضى التلمح . والله تعالى الموفق .

٣٥١ ـ فصل : لما جمعت كتابي المسمى بالمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، اطلعت على سير الخلق من الملوك والخلفاء والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم ، رأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعباً أذهب أديانهم ، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب . [٤٨]

فمن الأمراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق ، ثم ينخرط في سلك المعاصي كأن الأمر إليه ، أو قد جاءه الأمن من العقاب . فربما تخايل أن حفظي الرعايا يرد عني ، وينسى أنه قد قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأنعام : ١٥ ، الزمر : ١٣] وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم ، ورأينا خلقاً من المتزهدين لنيل أغراضهم .

وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير ، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق ؛ قد نسي أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى عاجل لذاتهم ، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل ، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً ، واستبدلوا بشهوات مرذولة عذاباً عظيماً ، فإذا نزل بأحدهم الموت قال : ليتني لم أكن ، ليتني كنت تراباً ، فيقال له الآن : فواأسفى لفائت لا يمكن استدراكه ، ولمرتهن لا يصح فكاكه ، ولندم لا ينقطع زمانه ، ولمعذب عز عليه أمانه .. تالله ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها ويعول عليها ! ولا يمكن قبول مشاورها إلا بعزيمة الصبر عما يشتهي .

فتأمل في الأمراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز رضي الله عنهما ، وفي العلماء أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه - وفي الزهاد أويس القرني ؛ لقد أعطوا الجد حقه وفهموا مقصود الوجود ، وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهى ، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب ، وليس العجب [من ذاك] إنما العجب من مؤمن يوقن ولا ينفعه يقينه ، ويعقل العواقب ولا ينفعه عقله .

٣٥٢ـ فصل : من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقال الآخر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها ، ولم يقتصر على بعضها وطلب من كل علم نهايته ، وهذا لا يحتمله البدن .

ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار ، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب . ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لابد منه ، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل ، ويتقاضاه الكرم البذل ، ويمنعه عز النفس عن الكسب ، فإن هو جرى على طبعه من الكرم ، احتاج وافتقر ، وتأثر بدنه وعائلته ، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك . [١٥١ / ب]

وفي الجملة يحتاج إلى معاناة ، وجمع بين أضداد ، فهو أبداً في نصب لا ينقضي ، وتعب لا يفرغ . ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال زاد تعبه وقوى وصبه . فأين هو ومن دنت همته ؟ إن كان فقيهاً فسئل عن حديث قال : ما

أعرفه ، وإن كان محدثاً فسئل عن مسألة فقهية قال ما أدري ، ولا يبالي إن قيل عنه مقصر . والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه ، وقد رأت الناس عورته ، والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد ، والعالي الهمة لا يحتمل ذلك ، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى . وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثم فهم ، والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي . فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه ؛ فإن سبق فهو المقصود ، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم .

٣٥٣ ـ فصل : المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق ؛ فترى اليهودي والنصراني يرى أنه على الصواب ، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا ﷺ ، وإذا سمع ما يلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع ، وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه ، إما لأنه مذهب أبيه وأهله ، أو لأنه نظر نظراً أولاً فرآه صواباً ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه .

ومن هذه حال الخوارج على أمير المؤمنين عليّ ﷺ فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم ، ولما لقيهم عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان ، وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق فاستحل قتل أمير المؤمنين ﷺ ، ورآه ديناً حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف أبقى ساعة في الدنيا لا أذكر الله ، ومثل هذا ما له دواء .

وكذلك كان الحجاج يقول : والله ما أرجو الخير إلا بعد المـــوت ، هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله ، منهم سعيد بن جبير .

وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا : أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال : أخبرنا الحسين بن محمد النصيبي قال : أخبرنا إسماعيل بن سعيد قال : حدثنا أبو بكر بن الأنباري قال : حدثنا أبو عيسى الختلي قال : حدثنا أبو يعلي قال : حدثنا الأصمعي قال [١٥٠/أ]: حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : وجد في سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً ، ما يجب على وأحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب . قلت : وعموم السلاطين يقتلون ويقطعون ظناً

منهم جوار ذلك ، ولو سألوا العلماء بينوا لهم ، وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتماداً على العفو وينسون العقاب .

ومنهم من يعتمد أني من أهل السنة ، أو أن لي حسنات قد تدفع ، وكل هذا لقوة الجهل ، فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفة الدليل ولا يساكن شبهته ، ولا يثق بعلم نفسه نسأل الله تعالى السلامة من جميع الآفات .

٣٥٤ ـ فصل ينبغي تأمله : اعلم أن الجزاء بالمرصاد إن كان حسنة أو كانت سيئة ، ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة ، وقلَّ من فعل ذنباً إلا وقوبل عليه . قال ﷻ : ﴿ **مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ هذا آدم عليه السلام أكل لقمة فقد عرفتم ما جرى عليه .

قال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إليه ألم اصطنعك لنفسي وأحللتك داري ، وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي ، وعزتي لو ملأت الأرض كلهم مثلك يعبدون ويسبحون الليل والنهار ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين ؛ فنَزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وجذب بناصيته فأهبط ، فبكى آدم ثلاثمائة عام على جبل الهند تجري دموعه في أودية جبالها ، فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا .

وكذلك داود عليه السلام نظر نظرة فأوجبت عتابه وبكاءه الدائم حتى نبت العشب من دموعه . **وأما سليمان** عليه السلام فإن قوماً اختصموا إليه ، فكان هواه مع أحد الخصمين فعوقب وتغير في أعين الناس ، وكان يقول : أطعموني فلا يطعم . **وأما يعقوب** عليه السلام فإنه يقال أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه ؛ فعوقب بفراق يوسف **وأما يوسف** عليه السلام فأوخذ بالهم ، وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولداً ، ونقص هو ولداً لتلك الهمة . **وأما أيوب** عليه السلام فإنه قصر في الإنكار على ملك ظالم لأجل خيل كانت له في ناحيته فابتلى . **وأما يونس** عليه السلام فخرج عن قومه بغير إذن فالتقمه الحوت . وأوحى الله ﷻ إلى أرميا : إن قومك تركوا الأمر الذي أكرمت به آباءهم ، وعزتي [١٥٢ / ب] لأهيجن عليهم جنوداً لا يرحمون بكاءهم ، فقال : يا رب هم ولد خليلك [إبراهيم] ، وأمة صفيك موسى ، وقوم نبيك داود . فأوحى الله تعالى إليه : إنما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتي ، ولو عصوني لأنزلتهم منازل العاصين .

ونظر بعض العباد إلى شخص مستحسن فقال له شيخه : ما هذا النظر ؟ ستجد غبه ، فنسي القرآن بعد أربعين سنة .

وقال آخر : قد عبت شخصاً قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت أسناني ، ونظرت إلى امرأة لا تحل ؛ فنظر إلى زوجتي من لا أريد .

وكان بعض العاقّين ضرب أباه وسحبه إلى مكان ، فقال له الأب : حسبك إلى هاهنا سحبت أبي .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلاً بالإفلاس فأفلست ، ومثل هذا كثير .

ومن عجيب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتفي غضب عليه وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه أهله محزونين وقالوا له : من أين لك عشرة آلاف دينار ! فقال : ما يؤخذ مني عشرة ولا خمسة ولا أربعة . قالوا : من أين لك ؟ قال : إني ظلمت رجلاً فألزمته ثلاثة آلاف فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته بالباقي .

وأنا أقول عن نفسي : ما نزلت بي آفة أو غم أو ضيق صدر إلا بزلل أعرفه حتى يمكنني أن أقول : هذا بالشيء الفلاني ، وربما تأولت فيه بعد ، فأرى العقوبة . فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب فقل أن يسلم منه ، وليجتهد في التوبة .

فقد روى في الحديث : « ما من شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنة حديثة لذنب قديم »[1] ، ومع التوبة يكون خائفاً من المؤاخذة متوقعاً لها ، فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وفي حديث الشفاعة يقول آدم ذنبي ويقول إبراهيم وموسى ذنبي .

فإن قال قائل : قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ خبر فهو يقتضي أن لا يتجاوز عن مذنب ، وقد عرفنا قبول التوبة والصفح عن الخاطئين . فالجواب من وجهين أحدهما : أن يحمل على من مات مصراً ولم يتب ، فإن التوبة تجب ما قبلها ، والثاني : أنه على إطلاقه ؛ فهو الذي أختاره أنا واستدل

---

(1) لم أقف عليه .

بالنقل والمعنى .. أما النقل ؛ فإنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : يا رسول الله أو نجازى بكل ما نعمل ؟ فقال : ((**أَلَسْتَ تَمْرَضُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَيْسَ يُصِيبُكَ** [١٥٣ / أ] **اللأْوَاءُ ، فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ به**))(١) . وأما المعنى فإن المؤمن إذا تاب وندم كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة ، فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة .

٣٥٥ ـ فصل : تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق ، فحاسبتها قبل أن تحاسب ، وزنتها قبل أن توزن ، فرأيت اللطف الرباني قد رباني ، فمن بدء الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطف ، وستراً على قبيح ، وعفواً عما يوجب عقوبة وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان ، ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها هلكت سريعاً ، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت .

ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتى يظن فيَّ ما يظن

---

(١) **صحيح بطرقه وشواهده** : رواه أحمد (١١/١) وابن حبان (٢٩١٠ ، ٢٩٢٦ إحسان) وأبو يعلى (٩٨ ، ١٠١) ، والطبراني (١٠٥٢٨ - ١٠٥٣٣) من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي بكر ابن أبي زهير عن أبي بكر الصديق به ، والإسناد فيه انقطاع بين أبي بكر بن أبي زهير وأبي بكر الصديق ثم إن أبا بكر بن أبي زهير مجهول . ورواه أبو يعلى (٢٩) في بعض الطرق من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي بكر الصديق والأول أشبه . وله طرق أخرى من هذا الطريق وهم وخطـأ كما في علل الدارقطني (٢٨٤/١) . ورواه الطبري (١٠٥٣٨ ، ١٠٥٣٩) من طريق الربيع بن صبيح وابن جريج عن عطاء عن أبي بكر مرسلاً . ورواه الطبري (١٠٥٢٦) من طريق لا بأس به عن محمد بن يزيد بن قنفذ عن عائشة عن أبي بكر به . ولكن ينظر هل لمحمد بن يزيد سماع من عائشة أم لا وما أخاله سمع . ورواه الترمذي (٣٠٣٩) ، والبغوي (٢٤٩/٥ ، ٢٥٠) وغيرهما من طريق موسى بن عبيدة عن مولى ابن سباع عن ابن عمر عن أبي بكر به ، وموسى ضعيف ومولى ابن سباع مجهول . ورواه أحمد (٦٥/٦ ، ٦٦) ، والبخاري في التاريخ (٣٧١/٨) ، وابن حبان (٢٩٢٣) ، وأبو يعلى (٤٦٧٥ ، ٤٨٣٩) ، وفي الموضع الثاني تحريف في بعض الأسماء والبيهقي في الشعب (٩٨٠٦ ، ٩٨٠٧) وسقط اسم يزيد في الموضع الأول من المطبوع ومن طريق يزيد بن أبي يزيد عن عبيد بن عمير عن عائشة به نحوه . ويزيد مجهول وانظر تحقيق مسند أحمد للشيخ شعيب الأرنؤوط رقم (٢٤٣٦٨) وله طريق أخر عن عائشة عند الطبري (١٠٥٣٥ - ١٠٥٣٧) من طريق أبي عامر الخزاز : حدثنا ابن مليكة عن عائشة به وأبو عامر الخزاز صدوق كثير الخطأ ، وللحديث شاهد عند مسلم (٢٥٧٤) عن أبي هريرة قال : لما نزلت **﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾** بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ : ((**قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها**)) .

في الفساق ، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي ، وقعت بتأويلات فاسدة ؛ فصرت إذا دعوت أقول : اللهم بحلمك عني وسترك علي أغفر لي ؛ ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي . ثم أنا أتقاضى القدر مراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه ولا بشكر على نعمة ، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم ، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به ، وقد كنت أرجو مقامات الكبار ، فذهب العمر وما حصل المقصود .

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا . قال لنفسه : يا رعنا . تقوِّمين الألفاظ ليقال مُناظر ، وثمرة هذا يا مناظر ، كما يقال للمصارع الفاره ، ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء ، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم مناظر ، ويُنسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب .. هذا إن تأخر الأمر إلى موتك ، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموّهوا له وصار الاسم له ، والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انطووا نشرهم وهو العمل بالعلم والنظر الخالص لنفوسهم .

أفٍّ لنفسي وقد سطرت ما بين مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة .. إن نوظرت شمخت ، وإن نوصحت تعجرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم وسقوط الغراب على الجيف ، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة ؛ توفر في المخالطة عيوباً تبلى ولا تحتشم نظر الحق إليها ، وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم . أفٍّ والله مني اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها ، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب ، والله إنني قد أبهرني حلم هذا الكريم عني كيف يسترني وأنا أهتك [١٥٣ / ب] ، ويجمعني وأنا أتبدد ، وغداً يقال : مات الحبر العالم الصالح ، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني .

والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء ، ولأنوحن نواح الثاكلين للأعداء إذ لا نائح عليّ لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها ، وغطاها من علمها ، والله لا أجد لنفسي خلة استحسن أن أقول متوسلاً بها .. اللهم اغفر لي كذا بكذا ، والله ما التفت قط إلا وجدت منه سبحانه برّاً يكفيني ، ووقاية تحميني ، مع تسلط الأعداء ، ولا عرضت

حاجة فمددت يدي إلا قضاها .. هذا فعله معي وهو رب غني عني ، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه ، ولا عذر لي فأقول ما دريت أو سهوت .

والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً ، ونوّر قلبي بالفطنة ، حتى أن الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي ، فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا ، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء .. يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله واشماتة العدو بي .. واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح عليّ ، واخذلاني عند إقامة الحجة على سخر والله مني الشيطان وأنا الفطن .

اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار .. ونهضة صادقة لتصفية ما بقى من الأكدار ، وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خلق المتاع ، وأبى العلم إلا أن تأخذ بيدي إلى معدن الكـــرم ، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم ، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك ، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي .

٢٥٦ـ فصل: عداوة الأقارب صعبة ، وربما دامت كحرب بكر وتغلب بني وائل ، وعبس وذبيان ابني بغيض ، والأوس والخزرج ابني قيلة . قال الجاحظ : ركدت هذه الحرب أربعين عاماً .

قلت: والسبب في هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يفوقه قريبه فيقع التحاسد ؛ فينبغي لمن فضل على أقاربه أن يتواضع لهم ، ويرفعهم جهده ، ويرفق بهم لعله يسلم .

قال رجل لرسول الله ﷺ: لي أقارب أصلهم فيقطعوني . فقال : « **فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ** »[1].

٣٥٧ـ فصل: رأيت كلاب الصيد إذا مرت بكلاب المحلة نبحتها وبالغت وأسرعت خلفها ، وكأنها تراها مكرمة بمحلة فتحسدها على ذلك .

ورأيت كلاب الصيد حينئذ لا تلتفت إليها ولا تعيرها الطرف ولا تعد نباحها شيئاً ، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها [١٥٤ / أ] ليست من جنس تلك الكلاب ، لأن تلك غليظة البدن كثيفة الأعضاء لا أمانة لها ، وهذه لطيفة دقيقة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٨) .

الخلقة ومعها آداب قد ناسبت خلقتها اللطيفة ، وإنما تحبس الصيد على مالكها خوفاً من عقابه ، أو مراعاة شكر نعمته عليها ؛ فرأيت أن الأدب وحسن العشرة تتبع لطافة البدن وصفاء الروح ، وهكذا المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يعده شيئاً ، إذ هو في واد وذاك في واد .. ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همته الآخرة ؛ فيا بُعد ما بين الواديين .

٣٥٨ ـ فصل : **ملاحظته من أهم الأشياء:** ينبغي لمن آمن بالله تعالى أن يسلم له في أفعاله ، ويعلم أنه حكيم ومالك ، وأنه لا يغيب فإن خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل إلى نفسه وسلم للحكيم الملك ؛ فإذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما أنت لي ؟ فيجب عليّ تسليم الأمر لمالكه . وإن أقواماً نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الخالق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق لنسب فيها إلى ضد الحكمة ، فنسبوا الخالق إلى ذلك ، وهذا الكفر المحض ، والجنون البارد ، والواجب نسبة الجهل إلى النفوس ؛ فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته .

وأول من فعل ذلك إبليس فإنه قد رآه قد فضل طيناً على نار ، والعقل يرى النار أفضل فعاب حكمته ، وعمت هذه المحنة خلقاً ممن ينسب إلى العلم ، وكثير من العوام فكم قد رأينا عالماً يعترض وعامياً يرد فيكفر .

وهذه محنة قد شملت أكثر الخلق، يرون عالماً يضيَّق عليه وفاسقاً قد وسع عليه ؛ فيقولون : هذا لا يليق بالحكمة ، وقد علم العلماء أن الله تعالى قد فرض الزكاة والخراج والجزية والغنائم والكفارات ليستغنى بها الفقراء ، فاختص بذلك الظلمة ، وصانع من تجب عليه الزكاة بإخراج بعضها ، فجاع الفقراء .

فينبغي أن نذم هؤلاء الظلمة ولا نعترض على من قدَّر الكفاية للفقراء ، وقد حصل في ضمن هذا عقوبة الظالمين في حبسهم الحقوق ، وابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم ، وأكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج الروح من اعتراض يخرج إلى الكفر فتخرج النفس كافرة ؛ فكم عامي يقول : فلان قد ابتلى وما يستحق ، ومعناه أنه قد فعل معه ما لا يليق بالصواب وقد قال بعض الخلعاء .

أيا ربِّ تخلــقُ أقمــار ليــل وأغصــان بان وكثبان رمل
وتنهــي عبــادك أن يعشقوا أيا حاكم العدل ذا حُكمُ عدل

ومثل هذا ينشده جماعة من العلماء ويستحسنونه ، وهو كفر محض وما فهم هؤلاء الثلاثة القائلين لهذا ، لأنه ما نهى عن العشق إنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر واللمس والفعل القبيح ، وفي الامتناع عن المشتهى دليل على وجود الناهي كصبر العطشان في رمضان عن الماء ، فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم ، وتسليم النفوس إلى القتل في الجهاد دليل على اليقين بالجزاء .

ثم المستحسن أنموذج ما قد أعد فأين العقل المتأمل ؟ كلا . لو تأمل لصبر قليلاً ليربح كثيراً ، ولو ذهبت أذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء والعوام لطال .

ومن أحسن الناس حالاً في ذلك ، ما يحكى عن ابن الراوندي أنه جاع يوماً واشتد جوعه فجلس على الجسر وقد أمضَّه الجوع ، فمرت خيل مزينة بالحرير والديباج فقال : لمن هذه ؟ ، فقالوا : لعلي بن يلتق غلام الخليفة ، فمرت جوار مستحسنات فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعلي بن يلتق : فمر به رجل فرآه وعليه أثر الضرّ فرمى إليه رغيفين ؛ فأخذهما ورمى بهما ، وقال : هــذه لعلي بن يلتق [وهذا لي] ، ونسى الجاهل الأحمق ما يقول ويعترض ويفعل قبل هذه المجاعة .

فيا معترضين وهم في غاية النقص على من لا عيب في فعله أنتم في البداية من ماء وطين ، وفي الثاني من ماءٍ مهين ، ثم تحملون الأنجاس على الدوام ، ولو حبس عنكم الهواء صرتم جيفاً . ولو [أليق] منكم أهلككم . وكم من رأى يراه حازمكم فإذا عرضه على غيره تبين له قبح رأيه . ثم المعاصي منكم زائدة في الحد ، فما فيكم إلا الاعتراض على المالك الحكيم ، ولو لم يكن في هذه البلاوي إلا أن يراد التسليم ، ولو أنه أنشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم ولم يُعدهم كان ذلك له ، لأنه مالك ؛ لكنه بفضله وعدنا الإعادة والجزاء والبقاء الدائم في النعيم . فمتى ما جرى أثر لا يعرف علته فانسب ذلك إلى قصور علمك ، وقد ترى مقتولاً ظلماً وكم قد قتل وظلم حتى قوبل ببعضه ، وقل أن يجرى لأحد آفة إلا ويستحقها غير أن تلك الآفات المجازى بها غابت عنا

ورأينا الجزاء ، فسلم تسلم ، واحذر كلمة اعتراض أو إضمار ، فربما أخرجتك من دائرة الإسلام .

٣٥٩ ـ فصل : رأيت الناس يوم العيد فشبهت الحال بالقيامة ؛ فإنهم لما انتبهوا من قبورهم خرجوا إلى عيدهم كخروج الموتى من قبورهم إلى حشرهم ، فمنهم من زينته الغاية ومركبه النهاية ، ومنهم المتوسط ومنهم المرذول ، وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا** ﴾ أي ركباناً ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا** ﴾ أي عطاشاً .

وقال ﷺ : ((**يُحْشَرُونَ رُكْبَاناً وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِم**))[1].

ومن الناس من يداس في زحمة العيد ، وكذلك الظلمة يطأهم الناس بأقدامهم في القيامة ، ومن الناس يوم العيد الغني المتصدق ، كذلك يوم القيامة أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، ومنهم الفقير السائل فقد يعطي : أعددت شفاعتي لأهل الكبائر ، ومنهم من لا يعطف [عليه] : ﴿ **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ﴾ والأعلام منشورة في العيد .

كذلك أعلام المتقين في القيامة ، والبوق يضرب .. كذلك يخبر بحال العبد فيقال : يا أهل الموقف إن فلاناً قد سعد سعادة لا شقاوة بعدها ، وإن فلاناً قد شقى شقاوة لا سعادة بعدها ، ثم يرجعون من العيد بالخواص إلى باب الحجرة يخبرون بامتثال الأوامر ﴿ **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ فيخرج التوقيع إليهم ﴿ **وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً** ﴾ ومن هو دونهم يختلف حاله . فمنهم من يرجع إلى بيت عامر ﴿ **بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ ومنهم متوسط ، ومنهم من يعود إلى بيت قفر فاعتبروا يا أولي الألباب .

٣٦٠ ـ فصل : يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد :

يا قوم قد علمتم أن الأعمال بالنيات . وقد فهمتم قوله تعالى : ﴿ **أَلاَ لِلَّهِ**

---

(١) **إسناده حسن** : رواه النسائي في الكبرى (١١٤٣١) وأحمد (٤/٤٤٧) والطبراني في الكبير (١٩ رقم ١٠٣٨) وغيرهم من طريق شبل بن عباد قال سمعت أبا قزعة عن عمرو بن دينار عن حكيم بن معاوية عن أبيه فذكره مرفوعاً ، وروى البخاري (٦٥٢٢) ، ومسلم (٢٨٦١) عن أبي هريرة مرفوعاً .. يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين اثنان على بعير وثلاث على بعير .. الحديث .

الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ وقد سمعتم عن السلف أنهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح . أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح ! وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة ! أو ما سمعتم « **مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُبَاهِي بِه العُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِي بِه السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِه وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْه ، لَمْ يَرِحْ رَائحَةَ الجَنة** »[1] ثم يقدم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها ، وقد كان السلف يتدافعونها .

ويا معشر المتزهدين إنه يعلم السر وما خفى ، أتظهرون الفقر في لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس ! وتظهرون التخاشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات .

كان ابن سيرين يضحك ويقهقه فإذا خلا بكى أكثر الليل . وقال سفيان لصاحبه : ما أوقحك تصلي والناس يرونك .

أفدي ظباء فــلاة ما عرفن بهــا مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

---

(١) **حسن بشواهده** : رواه ابن ماجة (٢٥٣) من طريق حماد بن عبد الرحمن قال : حدثنا أبو كرب الأزدي عن نافع عن ابن عمر وحماد بن عبد الرحمن ضعيف وأبو كرب مجهول . وفي طريق آخر عن ابن عمر نحوه ، ورواه الترمذي (٢٦٥٥) والنسائي في الكبرى في العلم كما في التحفة (٣٤٢/٥) وابن ماجه (٢٥٨) من طريق محمد بن عباد الهنائي ، قال : حدثنا على بن المبارك الهنائي عن أيوب السختياني عن خالد بن دريك عن ابن عمر مرفوعاً وهذا إسناد منقطع بين خالد بن دريك وابن عمر . وله شاهد من حديث كعب بن مالك عند الترمذي (٢٦٥٤) ، والحاكم (٨٦/١) ، وفي إسناده إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف . وشاهد ثان عن جابر رواه ابن ماجه (٢٥٤) وابن حبان (٧٧) والحاكم (١/ ٨٦) في الإسناد ابن جريج وأبو الزبير وهما مدلسان وقد عنعنا وشاهد ثالث عن حذيفة عند ابن ماجــه (٢٥٩) وفي الإسناد أشعث بن سوار وهو ضعيف . وشاهد رابع عن أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٦٠) وفي الإسناد عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف جداً . وشاهد خامس عن أنس عند البزار (١٧٨ كشف وفيه سليمان عن زياد ولا يتابع عليه وهو مجهول . وله شاهد سادس من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) وأحمد (٣٣٨/٢) ، وابن حبان (٧٨) ، وغيرهم وفي الإسناد أبي يحيى فليح بن سليمان الخزاعي . وهو صدوق كثير الخطأ . وبهذه الشواهد يحسن الحديث والله أعلم . وقد حسنه الشيخ الألباني في الجامع الصحيح (٦٣٨٣) ، وفي صحيح الترغيب (١٠٤ ، ١٠٥) والشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند (٨٤٥٧) .

[١٠٠ / أ] آه للمرائي من يوم ﴿ **وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ وهي النيات . فأفيقوا من سكركم ، وتوبوا من زللكم ، واستقيموا على الجادة ﴿ **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ** ﴾ [الزمر : ٥٦].

٣٦١ ـ فصل : رأيت جمهورَ الناس حائدين عن الشريعة جائزين على ما ألفوا من العادة ، وقد يخلص منهم فريقان : علماء وعباد فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم في تخليط .

منهم من يقتصر على علم معاملات الدنيا ويعرض عن معاملات الآخرة ، وأما لجهله بها ، أو لثقل أمرها عليه ، فهو يجرى على ما لا يثقل عليه مما يوجبه العلم ، ويتبع في الباقي العادات . وربما تخايل أنه يسامح في الخطأ لكونه عالمًا ، وقد نسي أن العلم حجة عليه .

ومنهم من هو واقف مع صورة العلم ، غافل عن المقصود بالعلم ، وفيهم من يخالط السلطان ، فيتأذى المخالط بما يرى من الذنوب والظلم ولا يمكنه الإنكار ، وربما مدح ، ويتأذى السلطان فيقول : لولا أني على صواب ما جالسني هذا ، ويتأذى العوام فيقولون : لولا أن أمر السلطان قريب ما خالط هذا العالم ، ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون أن اليهود [من] بني إسرائيل .

وأما الفريق الثاني وهم العباد فرأيت أكثرهم في تخليط ؛ أما الصحيحوا القصد منهم فعلى غير الجادة في أكثر عملهم ، قد وضع لهم جماعة من المتقدمين كتباً فيها دفائن قبيحة ، وأحاديث غير صحيحة ، ويأمرون فيها بأشياء تخالف الشريعة ، مثل كتب الحارث المحاسبي ، وأبي عبد الله الترمذي ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وكتاب الإحياء لأبي حامد الطوسي ، فإذا فتح المبتدئ عينه وهمَّ بسلوك الطريق بهذه الكتب فحملته إلى الخطايا ، لأنهم قد بنوا على أحاديث محالة ، ويذمون الدنيا ولا يدرون ما المذموم منها ، فيتصور المبتدئ ذم ذات الدنيا ، فيهرب المنقطع إلى الجبل ، وربما فاتته الجماعة والجمعة ، ويقتصر على البلوط والكمثرى فيورثه القولنج ، ويقنع بعضهم بشرب اللبن فينحل الطبع ، أو يأكل الباقلاء والعدس فيحدث له قراقر . وإنما ينبغي لقاصد الحج أن يرفق أولاً بالناقة ليصل ، ألا ترى الفطن من الأتراك يهتم بفرسه قبل تحصيل قوت نفسه .

وربما تصدى القاص لشرح أحوال قوم من السلف والمتزهدين فيتبعهم المريد فيتأذى بذلك ، ومتى رددنا ذلك المنقول وبينا خطأ فاعله قال الجهال : أنرد على الزهاد ، وإنما ينبغي اتباع الصواب [١٥٦/أ] ، ولا ينظر إلى أسماء المعظمين في النفوس .

فإنا نقول : قال أبو حنيفة ثم يخالفه الشافعي ، وإنما ينبغي أن يتبع الدليل .
قال المروزي : مدح أحمد بن حنبل النكاح فقلت له : قد قال إبراهيم بن أدهم ؛ فصاح وقال : وقعنا في بنيات الطريق ، عليك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه . وتكلم أحمد في الحارث المحاسبي ورد على سرى السقطي حين قال : لما خلق الله الحروف وقف الألف وسجدت الباء . فقال : نفّروا الناس عنه ، فالحق لا ينبغي أن يحابى فإنه جد ؛ وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم ، فيقال : قال أبو طالب المكي : كان من السلف من يزن قوته بكرة فينقص كل يوم ، وهذا شيء ما عرفه رسول الله ﷺ ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع . فأما الحمل على النفس بالجوع فمنهي عنه .

ويقول : قال داود الطائي لسفيان : إذا كنت تشرب الماء البارد متى تحب الموت ، وكان ماؤه في دن ؛ وما علم أن للنفس حظاً ، وأن شرب الماء الحار يذهل المعدة ويؤذي ، وأن رسول الله ﷺ كان يبرد له الماء .

ويقول آخر منهم : منذ خمسين سنة أشتهي الشواء ما صفا لي درهمه ، ويقول آخر : أشتهي أن أغْمس جزرة في دبس فما صح لي . أتراهم أرادوا حبة منذ خرجت من المعدن ما دَخلت في شبهة ؛ هذا شيء ما نظر فيه رسول الله ﷺ ولا أصحابه ﷺ وإن كان الورع حسناً ، ولكن لا على حمل المشاق الشديدة .

وهذا بشر الحافي يقول : لا أحدث لأني أشتهي أن أحدث ، وهذا تعليل لا يصلح ، لأن الإنسان مأمور بالنكاح ، وهو من أكبر المشتهى . وكان بشر حافياً حتى قيل له الحافي ، ولو ستر أمره بنعلين كان أصلح ، والحفا يؤذي العين ، وليس من أمر الدنيا في شيء ؛ فقد كان لرسول الله ﷺ نعلان وما كانت سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم .

فقد كان رسول الله ﷺ يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ، ويسابق عائشة - رضي الله عنها - وكان يأكل اللحم ، ويحب الحلوى ، ويُستعذب له الماء ؛ وعلى هذا كان طريقة أصحابه . فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة ، وكلها على غير الجادة ، ويحتجون بقول المحاسبي والمكي ، ولا يحتج أحد منهم بصحابي ولا تابعي ولا بإمام من أئمة الإسلام فإن رأوا عالماً لبس ثوباً جميلاً أو تزوج مستحسنة ، أو أفطر بالنهار أو ضحك [١٥٦ / ب] عابوه . فينبغي أن يعلم أن أكثر من صح قصده منهم على غير الجادة لقلة علمهم ؛ حتى أن بعضهم يقول : منذ ثمانين سنة ما اضطجعت ، ويقول آخر : حلفت لا أشرب الماء سنة ، وهؤلاء على غير الصواب ، فإن للنفس حقاً ، فأما من ساء قصده ممن نافق وراءى لاجتلاب الدنيا وتقبيل الأيدي فلا كلام معه ، وهم جمهور المتصوفة ، فإنهم رقعوا الثياب الملونة ليراهم الناس بعين الترك للزينة ، وما معهم أحسن من السفلاطون ؛ وإنما رقع القدماء للفقر . فهم في اللذات وجمع المال وأخذ الشبهات واستعمال الراحة واللعب ومخالطة السلاطين وهؤلاء قد كشفوا القناع وباينوا زهد أوائلهم ، بلى أعجب منهم من ينفقون عليه .

٣٦٢ ـ فصل : إن الله ﷻ جعل لأحوال الآدمي أمثلة ليعتبر بها ، فمن أمثلة أحواله القمر الذي يبتدأ صغيراً ثم يتكامل بدراً ، ثم يتناقص بالمحاق ، وقد يطرأ عليه ما يفسده كالكسوف ، فكذلك الآدمي أوله نطفة ، ثم يترقى من الفساد إلى الصلاح . فإذا تم كان بمنْزلة البدر الكامل ثم تتناقص أحواله بالضعف فربما هجم الموت قبل ذلك هجوم الكسوف على القمر . قال الشاعر .

والمرء مثل هــلال عند طلعته ... يبدو ضئيلاً لطيفــاً ثم يتَّسق
يزداد حــتى إذا مــا تم أعقبه ... كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

ومن أمثلة حاله دود القز فإنه يكون حياً إلى أن يبتدئ نبات قوته وهو ورق الفرصاد ، فإذا أخضر الورق دبت الروح فيه ثم ينتقل من حال إلى حال كانتقال الطفل ، ثم يرقد كغفلة الآدمي عن النظر في العواقب ثم ينتبه فيحرص على الأكل كحرص الشره على تحصيل الدنيا ثم يسد على نفسه كما يحطب الآدمي الأوزار على دينه ، فيرتهن في ذلك الحبس كما يرتهن الميت في قبره ، ثم يقرض فيخرج خلقاً آخر كما تنشر الموتى غُرلاً بهما ؛ وقد دله على البعث

تكوّن النطفة كالميت ، ثم تصير آدمياً ، وإلقاء الحب تحت الأرض فيفسد ثم يهتز خضراً .

إذا المرء كانت له فكـــرة ففي كل شيء له عـــبرة

٣٦٢ـ فصل : إنما فضل العقل بتأمل العواقب . فأما القليل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة ، ولا ينظر إلى عاقبتها ، فإن اللص يرى أخذ المال وينسى قطع اليد . والبطال يرى لذة الراحة وينسى ما يجني من فوات العلم وكسب المال ، فإذا كبر فسئل عن علم لم يدر ، وإذا احتاج سأل فذل ، فقد أربا ما حصل له من التأسف على لذة البطالة ، ثم يفوته [١٥٧ / أ] ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا ، وكذلك شارب الخمر يلتذ تلك الساعة وينسى ما يجني من الآفات في الدنيا والآخرة ، وكذلك الزنى ، فإن الإنسان يرى قضاء الشهوة ، وينسى ما يجني من فضيحة الدنيا والحد ، وربما كان للمرأة زوج فألحقت الحمل من هذا به وتسلسل الأمر . فقس على هذه النبذة وانتبه للعواقب ، ولا تؤثر لذة تفوّت خيراً كثيراً ، وصابر مشقة تحصل ربحاً وافراً .

٣٦٤ـ فصل : ليس في الدنيا عيش إلا لعالم أو زاهد . بلى ، قد يقع في صفاء حالهما كدر . وهو أن العالم يشتغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكسب ، وقد يكون له عائلة ، فربما تعرض بالسلطان ففسد حاله . وكذلك الزاهد فينبغي للعالم والعابد أن يحركا في معاش كنسخ بأجرة أو عمل الخوص أو إن فتح له بشيء واقتنع باليسير ، فلا يستعبده أحد .

كما كان أحمد بن حنبل له أجره لعلها لا تبلغ ديناراً يتقوت بها ؛ ومتى لم يقنع أفسدت مخالطة السلاطين والعوام دينه .

وفي الناس من يريد التوسع في المطاعم ، ومنهم من لا يوافقه خشن العيش ، وهيهات أن يصح الدين مع تحصيل اللذات . وإذا قنع العالم والزاهد بما يكفي ، لم يتبذل للسلطان ولم يستخدم بالتردد إلى بابه ، ولم يحتج الزاهد إلى تصنع ، والعيش اللذيذ للمنقطع الذي لا يتبذل به ولا يحمل منه .

٣٦٥ـ فصل : ما أكثر تفاوت الناس في الفهوم ، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول أو الفروع . فترى أقواماً يسمعون أخبار الصفات فيحملونها على ما يقتضيه الحس كقول قائلهم : ينْزل بذاته إلى السماء وينتقل ؛

وهذا فهم رديء لأن المنتقل يكون من مكان إلى مكان ويوجب ذلك كون المكان أكبر منه ويلزم منه الحركة وكل ذلك محال على الحق ﷻ .

وأما في الفروع فكما يروى عن داود أنه قال في قوله : « **لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِم ثُمَّ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ** »[1] ، فقال : إن بال غيره جاز ؛ فما يفهم المراد من التنجيس بل يأخذ بمجرد اللفظ ، وكذلك يقول : لحم الخنزير حرام لا جلده نعوذ بالله من سوء الفهم ، وكذلك يتفاوت الشعراء الذين شغلهم التفطن لدقائق الأحوال كقول قائلهم .

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا في الحرب يقطرن من دما

والجفنات عدد يسير فلو قال الجفان لكان أبلغ ، ولو قال بالدجى لكان أحسن . ويقطرن دليل على القلة . وكذلك قول القائل :

هَمُّهَا العطر والفراش ويعلو ها لجين ولؤلؤ منظوم

وهذا قاصر ، فإنه لو فعلت هذا سوداء لَحَسَّنَهَا . إنما المادح هو القائل :

ألم تر أني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تُطَيَّب

وكذا قول القائل :

أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني حتى إذا قلت : هذا صادق نزعا

ولو كان صادقاً في المحبة لما كان له قلب يخاطبه . وإذا خاطبه في الهجر لم يوافقه . إنما الحب الصادق هو القائل :

يقولون لو عاتبت قلبك لارعوى فقلت : وهل للعاشقين قلوب ؟

ومثل هذا إذا نوقش كثير . فأقل موجود في الناس الفهم ، والغوص على دقائق المعاني .

٣٦٦ ـ فصل : من تأمل الدنيا علم أنه ليس فيها لذة أصلاً ، فإن وُجدت لذة سببت بالنغص التي تزيد على اللذة أضعافاً . فمن اللذات النساء . فربما لم

---

(١) **صحيح** : رواه الترمذي (٦٨) والنسائي (١/١٢٥) من طريق معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة ، وهو عند مسلم (٢٨٢) بنفس الإسناد وفيه : « ثم يغتسل منه » وعند البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ : « ثم يغتسل فيه » .

تثبت المستحسنة ، وربما لم تحب الزوج ، فمتى علم ذلك انفرق منها ، وربما خانت ، وذلك الهلاك .

فإن تمت المرادات فذكر الفراق زائد في التألم على الالتذاذ . ومن اللذات الولد ، ومقاساة البنت إلى أن تتزوج ، وما تلقى من زوجها وخوف عارها محن قبيحة .

والابن إن مرض ذاب الفؤاد ، وإن خرج عن حد الصلاح زاد الأسف ، وإن كان عدواً فمراده هلاك الأب ، ثم إن تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب .

ولو أن فاسقاً أحب بعض المردان انهتك عرضه في الدنيا وذهب دينه ، ثم لا يلبث أن تتغير حليته فيصير مبغوضاً مع ما سبق من الهتكة والإثم . وكم قد غلبت شهوة رجل وطئ الجواري السود فجاء الولد أسود فبقي عاراً عليه ! ومن هذا الجنس الالتذاذ بالمال ، وفي تحصيله آثام ، وفراقه حسرة ، وذهاب العمر فيه غبينة ، وهذا أنموذج لما [لم] يذكر .

فينبغي لم وفقه الله سبحانه أن يأخذ الضروري الذي يميل إلى السلامة في الدين والبدن والعافية ، ويهجر الهوى الذي نُغَصُه تتضاعف على لذته ، ومن صبر على ما يكره قصداً للنفع في العاقبة التذّ أضعافاً ، كطالب العلم فإنه يتعب يسيراً وينال خير الدارين مع سلامة العاقبة . ولذة البطالة تعقب عدم العلم والعمل ، فيزيد الأسى على اللذة أضعافاً .

فالله الله أن يغلبك هواك العاجل . ومتى همَّ الهوى [بالتوثُّب] فامنعه وزن عاجله بآجله . وما يتذكر إلا أولو الألباب .

٣٦٧ ـ فصل : رأيت إبليس قد احتال بفنون الحيل ، على الخلق ، وأمال أكثرهم عن العلم الذي هو مصباح السالك ، فتركهم يتخبطون في ظلمات الجهل ، وشغلهم بأمور الحس ، ولا يلتفتون إلى مشورة العقل . فإذا ضاق بأحدهم عيشه أو نُكبَ أعرض فكفر .

فمنهم من [١٥٨ / أ] ينسب ذلك إلى الدهر ، ومنهم من يسب الدنيا ، وهذا تسقيف لأن الدهر والدنيا لا يفعلان ، وإنما هو عيب للمقدِّر ، ومنهم من يخرجه الأمر إلى جحد الحكمة ، فيقول : أي فائدة في نقض المبني ؟! وزعم بعضهم أنه لا يتصور عود المنقوض ، وأنكروا البعث . ويقولون : ما جاء من

ثمَّ أحد ! ونسوا أن الوجود ما انتهى بعدُ ثم لو حلفت لصار الإيمان بالغيب عياناً ، ولا يصلح أن يدل على الأحياء بالأحياء .

ثم نظر إبليس فرأى في المسلمين قوماً فيهم فطنة فأراهم أن الوقوف مع ظواهر الشريعة حالة يشاركونكم فيها العوام ، فحسن لهم علوم الكلام وصاروا يحتجون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس ، وهـؤلاء ليسوا بمتشرعين ، ولا تبعوا نبينا ﷺ إنما قالوا بمقتضى ما سوّلت لهم أنفسهم .

وقد كان السلف إذا نشأ لأحدهم ولد شغله بحفظ القرآن وسماع الحديث ، فيثبت الإيمان في قلبه . فقد توانى الناس عن هذا ، فصار الولد الفطن يتشاغل بعلوم الأوائل وينبذ أحاديث الرسول ﷺ ويقول : أخبار آحاد ! وأصحاب الحديث عندهم يسمعون حَشَوِيَّة ويعتقد هؤلاء أن العلم الدقيق علم الطَفْرَة والهَيُولَى والجزء الذي لا يتجزأ ، ثم يتصاعدون إلى الكلام في صفات الخالق ، فيدفعون ما صح عن رسول الله ﷺ بواقعاتهم . فتقول المعتزلة : إن الله لا يُرى لأن المرئى يكون في جهة ، ويخالفون قول رسول الله ﷺ : « **إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِه** »[1]. فأوجب هذا الحديث إيثار رؤيه وإن عجزنا عن فهم كيفيتها .

وقد عُزل هؤلاء الأغبياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا مخلوق ، فردت حرمته في القلوب ، وعن السنة وقالوا : أخبار آحاد .

وإنما مذاهبهم مسترقة من بقراط وجالينوس . وقد استفاد من تبع الفلاسفة أنه يرفّه نفسه عن تعب الصلاة والصوم . وقد كان كبار العلماء يذمون علم الكلام ، حتى قال الشافعي – رحمه الله تعالى –: حكمي فيهم أن يركبوا على البغال ويُشَهَّروا ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بالكلام . وقد آل بهم الأمر إلى أن اعتقدوا أنَّ مَن لم يعرف تحرير دليل التوحيد فليس بمسلم . فالله الله من مخالطة المبتدعة . وعليكم بالكتاب والسنة ترشدوا .

٣٦٨ـ فصل : رأيت العادات قد غلبت على الناس في تضييع الزمان وقد كان القدماء يحذرون من ذلك . قال الفُضَيل : أعرف من يعدُّ كلامه من

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

الجمعة إلى الجمعة [١٥٨ / ب] . ودخلوا على رجل من السلف فقالوا : لعلنا شغلناك ؟ فقال : أصدقكم ، كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم . وجاء رجل من المتعبدين إلى سَرِيّ السَّقَطِي فرأى عنده جماعة فقال : صرتَ مُنَاخ البَطَّالين ! ثم مضى و لم يجلس .

ومتى ألان المزور طمع فيه الزائر ، فأطال الجلوس فلم يسلم من أذى . وقد كان جماعة قعود عند معروف فأطالوا فقال : إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام ؟ وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس ، قال له رجل : قف أكلمك ، قال : فأمسك الشمس . وقيل لكُرْز بن وبرة : لو خرجت إلى الصحراء ، فقال : يبطل الزوجار . وكان داود الطائي يستف الفتيت ويقول : بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية .

وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى ، فقال : إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر ! وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : إذا خرجتم من عندي فتفرقوا ، لعل أحد أن يقرأ القرآن في طريقه ، ومتى اجتمعتم تحدثتم .

واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة ، فإن في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِه غُرِسَتْ لَهُ [بها] نَخْلَة فِي الجَنَّةِ** »[1] فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيهَا الثواب الجزيل .

---

(١) **حسن لغيره** : رواه الترمذي (٣٤٦٤) والبغوي (١٢٦٥) وابن أبي شيبة (١٠/٢٩٠) ، وأبو يعلى (٢٢٣٣) وابن حبان إحسان (٨٢٦) والطبراني في الصغير (١/١٠٣) بلفظ (من قال : سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) من طرق عن روح بن عباده عن حجاج الصواف عن أبي الزبير عن جابر ، ورواه الحارث بن محمد عن روح عن زكريا بن إسحاق عن أبي الزبير به كما عند الأصبهاني في الترغيب (٧٣٣) . ورواه النسائي في الكبرى (٦/١٠٦٦٣) ، والحاكم (١/٥٠١ - ٥٠٢ - ٥١٢) ، و الطبراني في الدعاء (١٦٧٥) رووه من طرق عن حماد بن سلمة عن حجاج الصواف عن أبي الزبير عن جابر ورواه مؤمل - وهو ضعيف - عن حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن جابر بإسقاط الحجاج ، وهذا إسناد ضعيف لا يعول عليه لأن مؤمل خالف الجماعة وهم قد أثبتوا حجاجاً الصواف .
قلت : وهذا الإسناد لا علة فيه سوى عنعنة أبي الزبير عن جابر وأبو الزبر مدلس ولكن للحديث شواهد أخرى منها . ما رواه البزار (٤/١٣ كشف الأستار) من طريق سلمة بن شبيب عن محمد بن بشير عن يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً وخالف محمد بن بشير أبو داود =

وهذه الأيام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للإنسان : كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر[1] ، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر أو يتوانى ؟

والذي يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن ، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى ، وقلة الأكل ، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل . ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته .

٣٦٩ ـ فصل في معاشرة النساء : ينبغي للعاقل أن يتخير امرأة صالحة من بيت صالح ، يغلب عليه الفقر لترى ما يأتيها به كثيراً ، وليزوج أمته من تقاربه في السن . فأما الشيخ فإنه إذا تزوج صبية آذاها ، وربما فجرت ، أو قتلته ، أو طلبت الطلاق وهو يحبها فيتأذى .

= الحضري (عمر بن سعد) رواه عن يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمرو موقوفاً كما عند ابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٦/١٠ ، ٣٠٠) وقد يكون الاضطراب من يونس بن الحارث فإنه ضعيف . ما رواه أحمد (٤٤٠/٣) ، والطبراني في الكبير (١٩٨/٢٠) من طريق زبان عن سهل بن معاذ عن أبيه ، ورواه عن زبان ابن لهيعة عند أحمد ورشدين عند الطبراني (وكلاهما فيه ضعف) ، وزبان هو ابن فائد وهو ضعيف ، وسهل متكلم فيه ويتجنب روايته إذا كان الرواي عنه زبان . ، وما رواه ابن ماجة (٣٨٠٧) ، والحاكم (٥١٢/١) ، والأصبهاني في الترغيب (٧٦٨) من طريق عفان ومحمد ابن عبد الله الخزاعي عن حماد بن سلمة عن أبي سنان عن عثمان بن أبي سورة عن أبي هريرة بلفظ أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرساً فقال : يا أبا هريرة : ما الذي تغرس ؟ قلت : غراساً لي قال : ألا أدلك على غراس خير لك من هذا ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : « قل سبحان الله والحمد ولا إله الله ، والله أكبر يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة » . قلت : أبو سنان هو عيسى بن سنان القسملي وهو ضعيف ، وقد تابع أبا سنان ثابت فرواه عن الحسن عن أبي هريرة به ، من رواية بسام الكيال عن حماد ابن سلمة عن ثابت به كما عند الخطيب في التاريخ (٤٠٠/٤) وهذا إسناد ضعيف فيه بسام بن الكيال وهو بسام بن يزيد البقال ، وفيه كلام : والحسن لم يسمع من أبي هريرة ، وما رواه الطبراني في الأوسط (٤٥٤٤ مجمع البحرين) ، وفي الدعاء (١٦٧٦) من طريق عمران بن عبيد الله عن عكرمة عن ابن عباس . وهذا إسناد ضعيف ففيه عمران بن عبيد الله وهو ضعيف وقال بن عدي في الكامل (٩٦/٥) وأنكر عليه البخاري هذا الحديث الواحد في التسبيح وذكر البخاري الحديث في تاريخه في ترجمة عمران (٤٢٧/٦) ثم قال فيه نظر ، ورواه الطبراني في الأوسط (٤٥٤١) من طريق سليمان ابن أبي كريمة عن ابن جريج عن أبي صالح عن أبي هريرة موقوفاً . وهذا إسناد ضعيف ففيه سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف ، وابن جريج وهو مدلس وقد عنعن ، وقد صحح الحديث الشيخ الألباني - رحمه الله - في الصحيحة (٦٤) .

(١) **الكر** : من المكاييل القديمة ، وهي حوالي ستين قفيزاً وأربعون أردباً .

وليتتم نقصه بحسن الأخلاق وكثرة النفقة ولا ينبغي للمرأة أن تقرب من زوجها كثيراً فتمل ، ولا تبعد عنه فينساها .

ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر أن يرى فرجها أو جسمها كله ، فإن جسم الإنسان ليس بمستحسن . وكذلك ينبغي له ألا يريها جسمه ، وإنما الجماع في الفراش .

ورأى كسرى يوماً كيف يسلخ الحيوان [١٥٩ / أ] ويطبخ فتقلبت نفسه ونفي اللحم . فذكر ذلك لوزيره . فقال : أيها الملك ، الطبيخ على المائدة ، والمرأة في الفراش . ومعناه لا تفتش على ذلك .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت من رسول الله ﷺ ولا رآه مني[١] ، وقام ليلة عُرياناً فما رأيت جسمه قبلها[٢] ، وهذا الحزم . وكذلك تعجب الرجل المرأة لأنه لم ير عيوبها . وليكن للمرأة فراش وله فراش . فلا يجتمعان إلا في حال [الكمال] .

ومن الناس من يستهين بهذه الأشياء فيرى المرأة متبذلة تقول : هذا أبو أولادي : ويتبذل هو فيرى كل واحد من الآخر ما لا يشتهى فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير المحبة . وهذا فصل ينبغي تأمله والعمل به فإنه أصل عظيم .

٣٧٠ـ فصل : لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير ، فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زاد الهم وتشتت القلب ، واستعبد العبد . وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه ولا يبالي بمن هو مثله ، إذا عنده ما عنده .

وإن أقواماً لم يقنعوا وطلبوا لذيذ العيش فأزروا[٣] بدينهم وذلوا لغيرهم ، وخصوصاً أرباب العلم فإنهم ترددوا إلى الأمراء فاستعبدوهم ، ورأوا المنكر فلم يقدروا على إنكاره ، وربما مدحوا الظالم اتقاء لشره . فالذي نالهم من الذل وقلة الدين أضعاف ما نالوا من الدنيا .

---

(١) **سبق تخريجه**

(٢) **إسناده ضعيف** : رواه الترمذي (٢٧٣٢) من طريق إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد العدني قال : حدثني أبي يحيى بن محمد عن محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة ، وفي الإسناد إبراهيم بن يحيى وهو لين ، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن .

(٣) أزرى به : أي قعد فيه .

ومن أقبح الناس حالاً من تعرَّض للقضاء والشهادة ، ولقد كانتا مرتبتين حسنتين وكان عبد الحميد القاضي يحابي ، فبعث إلى المُعتضد ، وقال له : قد استأجرت وقوفاً فأدِّ أجرتها ففعل . وقال له المعتضد : قد مات فلان ولنا عليه مال ، فقال : أنت تذكر لما وليتني قلت لي : قد أخرجت هذا الأمر من عنقي ووضعته في عنقك ، ولا أقبل هذا إلا بشاهدين ، وكذلك كان الشهود .

دخل جماعة على بعض الخلفاء فقال الخـادم : اشهدوا على مولانا بكـذا [فشهدوا] ، فتقدم المجذوعي إلى الستر فقال : يا أمير المؤمنين ، أشهد عليك بما في هذا الكتاب ؟ فقال : اشهد ، [قال : إنه لا يكفي في ذلك ، لا أشهد] حتى تقول نعم ، قال : نعم .

فأما في زماننا فتغيرت تلك القواعد من الكل ، خصوصاً من يتقرب بالمال ليستشهد ، فتراه يُسحب ليشهد على ما لا يريد . قال لي أبو المعالي بن شافع : كنت أحمل إلى بعض أهل السواد ، وهو محبوس وأشهد عليه ، فأعلم أنه لولا أنه مكره لجاء إليَّ بقدميه ، وأنا أستغفر الله من ذلك . وليس للشهود جراية فيحملون ذلك لأجلها ، وإنما الذي يحصل لهم جَرُّ الطيلسان ، وطرق الباب ، وقول المعرِّف : حرس الله نعمتك ، شهادة .

ولما قيل لإبراهيم النَّخَعي : تكون قاضياً ، لبس قميصاً أحمر وجلس في السوق ! فقالوا : هذا لا يصلح .

ودخل بعض الكبار [١٥٩ / ب] على الرشيد وقد أحضره ليوليه القضاء فسلم وقال له : كيف أنت وكيف الصبيان ؟ فقيل : هذا مجنون . فيا لله جنون هو العقل . وما أظن الإيمان بالآخرة إلا متزلزلاً في أكثر القلوب . نسأل الله سبحانه سلامة للدين فإنه قادر .

٣٧١ ـ فصل : قد تكرر معناه في هذا الكتاب ، إلا أن إعادته على النفوس مهمة لئلا يُغفل عن مثله .

ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله سبحانه مالك حكيم لا يعبث . وهذا العلم يوجب نفي الاعتراض على القدر . وقد لهج خلق بالاعتراض قدحاً في الحكمة ، وذلك كفر . وأولهم إبليس في قوله : ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾ ومعنى قوله : أن تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة !

وقد رأيت من كان فقيها دأبه الاعتراض ، وهذا لأن المعترض ينظر إلى صورة الفعل ، ولو أن صورة الفعل صدرت من مخلوق مثلنا حسن أن يعترض عليه ، فأما من نقص الأفهام عن مطالعة حكمته ، باعتراض الناقص الجاهل عليه جنون . فأما اعتراض الخلعاء فدائم ، لأنهم يريدون جريان الأمور على أغراضهم ، فمتى انكسر لأحدهم غرض اعترض .

وفيهم من يتعدى إلى ذكر الموت فيقول : بني ونقض !! وكان لنا رقيق قرأ القرآن والقراءات ، وسمع الحديث الكثير ، ثم وقع في الذنوب وعاش أكثر من سبعين سنة ، فلما نزل به الموت ذُكر لي أنه [قال] : قد ضاقت الدنيا إلا من روحي .

ومن هذا الجنس سمعت شخصاً يقول عند الموت : ربي يظلمني ، وهذا كثير .

ويكره أن يحكى كلام الخلعاء في جنونهم واعتراضاتهم الباردة . ولو فهموا أن الدنيا ميدان مسابقة ومارستان صبر ليبين بذلك أثر الخالق لما اعترضوا . والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الأغراض أمامهم لو فهموا فهم « كالزورجارى » يتلوث بالطين ، فإذا فرغ لبس ثياب النظافة . ولما أريد نقض هذا البدن الذي لا يصلح للبقاء نحيت عنه النفس الشريفة ، ثم بُني بناء يقبل الدوام .

وبعد هذا فقل للمعترض : ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ [الحج : ١٥] . قلْ له : إن اعترض لم يمنع ذلك جريان القدر ، [وإن سلم جرى القدر] فلأن يجري وهو مأجور خير من أن يجري وهو مأزور . **وما أحسن سكوت وضَّاح اليمن لما اختبأ في صندوق فقال السلطان** : أيها الصندوق إن كان فيك ما نظن فقد محونا أثرك ، وإن لم يكن فليس بدفن خشب من جناح ، فلو أنه صاح ما انتفع بشيء ، ولربما أخرج فقتل أقبح قتلة .

٣٧٢ ـ فصل : من تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه اجتنابها . فمن مال إلى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحة [١٦٠ / أ] ، وإلى جانب كل راحة تعباً ، وآخر كل لذة نغصاً يزيد عليها . وما رفع شيء من الدنيا إلا

وضع[1].أحب الرسولﷺ عائشة – رضي الله عنها – فجاء حديث الإفك[2].

ومال إلى زينب ، فجاء : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا** ﴾ ثم يكفى أنه إذا حصل محبوبه فعين العقل ترى فراقه فيتنغص عند وجوده كما قال الشاعر :

أتم الحزن عندي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فيعلم العاقل أن مراد الحق بهذا التكدير التنفير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البُلغة [منها] ضرورة ، وترك الشواغل ، فيجتمع الهم في خدمة الحق . ومن عدل عن ذلك ندم على الفوات .

٣٧٣ ـ فصل : العاقل يدبر بعقلة عيشته في الدنيا ، فإن كان فقيراً اجتهد في كسب وصناعة تُكفه عن الذل للخلق ، وقلل العلائق واستعمل القناعة فعاش سليماً من منن الناس عزيزاً بينهم .

وإن كان غنياً فينبغي له أن يدبر في نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج إلى الذل للخلق .

ومن البلية أن يبذر في النفقة أو يباهي بها ليُكمد الأعداء ، كأنه يتعرض بذلك – إن كثر – لإصابته بالعين .

وينبغي التوسط في الأحوال ، وكتمان ما يصلح كتمانه ، ولقد وجد بعض الغسَّالين مالاً فأكثر النفقة ، فعلم به فأخذ منه المال ، وعاد إلى الفقر .

وإنما التدبير حفظ المال ، والتوسط في الإنفاق ، وكتمان ما لا يصلح إظهاره . ومن الغلط إطلاع الزوجة على قدر المال ، فإنه إن كان قليلاً هان عندها الزوج . وإن كان كثيراً طلبت زيادة الكسوة والحلى . قال الله [تعالى]: ﴿ **وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** ﴾ وكذلك الولد . وكذلك الأسرار ينبغي أن تحفظ منها ومن الصديق . فربما انقلب . فقد قيل :

احـــذر عـــدوك مـــرة   واحذر صديقك ألف مرة

فلربمـــا انقلب الصـــديق   فكـــان أعلـــم بالمضرة

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري (٢٨٧٢) من حديث أنس مرفوعاً بلفظ (وفيه حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه)

(٢) حديث الإفك خرجه البخاري (٤٧٥٠) .

بحمد الله تعالى قد نجز ما توخاه الفكر الفاتر من تقييد ما جمعه القلم من صيد الخاطر مقتصراً فيه على ما به التخلي من الأمراض النفسية ، والتحلي بالآداب الشرعية ، والأخلاق المرضية .

جعله الله تعالى خير هاد على منبر الوعظ والإرشاد ، وأنفع كتاب تجلى في مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفهرس